

اتیین دینیہ سلیمان بن ابراہیم

الحمد لله
والصلاة والسلام
على رسول الله
محمد وآله

صلی اللہ
علیہ وسلم

ترجمہ

دکتر عبد الحییم محمود

دکتر محمد عبد الحلیم محمود



دارالمعارف

اتيين دينيه

سليمان بن ابراهيم

محمد رسول الله

ترجمة

دكتور محمد عبد الحليم

دكتور عبد الحليم محمود

الطبعة الثالثة



دار المعارف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ

تمهيد

حياة ناصر الدين دينيه وآراؤه

١

ناصر الدين والإسلام

نظرته الفنية والدينية :

ولد « ألفونس إتيين دينيه »^(١) في باريس سنة ١٨٦١ ، وعاش - رحمه الله -
فنانياً بطبعه : كان مهفب الحس ، رقيق الشعور ، جياش العاطفة .

(١) ألفت المودة بين الأستاذ الأديب راشد رسم والمغفور له ناصر الدين ، وقد كان الأستاذ راشد أول من عرف المصريين به ، فقد ترجم رسالته « أشعة خاصة بنور الإسلام » إلى اللغة العربية ، ونشرها في صورة حسنة . وحينما توفي ناصر الدين سنة ١٩٢٩ كتب الأستاذ راشد عنه مقالاً في جريدة الأهرام . وقد استلذه في الانتفاع بالترجمة العربية لرسالة « أشعة خاصة بنور الإسلام » عند المناسبات التي تعرض خلال عملنا هذا ، وكذلك في نشر مقالته الذي كتبه بجريدة الأهرام ، فأذن بذلك راضياً مفتيحاً ، ولا يسعنا إلا أن نسجل له الشكر الجزيل ، وأجبن من الله أن يحزبه أحسن الجزاء . وفيما يلي المقال المذكور :
« مات هذا المستشرق النابه وقد احتشد حوله لتوديعه لوداع الأخير العدد العديد من كبار قومه الرسميين ، ومن أسدقائه وعارفي فضله من أهله ومن غير أهله من يمثل الشعوب الشرقية إلى أجبها وعلمها . وقد وسب علينا - وإن كنا لم نقف هنالك في باريس مع المواقفين خاشعين - أن نبحث إلى روجه تحيات السلام والاحتراف بالجميل .

« أحب المسيو "دينيه" حياة العرب ، وهو ذلك الفنان الكبير ، فامتد له بينهم مقاماً محموداً في بلاد الجزائر ، في تلك الواحة الهادئة الجميلة "بوسعادة" ينتقل إليه ويسكنه نصف العام كاملاً ، يرتاح العرب وسيرتهم ، ويروح عن نفسه بينهم ، وينعم بما في حياتهم من جلال تلك المناقب الماثورة عنهم ، وتلك المكارم المعروفة بهم ، والتي لا يميل إليها إلا عشاق الخيال السامي ، ولا ينشئها إلا أهل القضاة العاليين . وقد وضع في حياة العرب كتاباً جميلاً جليلاً علاه بالوحات البديعة من ريشته القادرة ، ذات البلاغة في تصويرها ، والبيان في مجتها .

« والمسيو "دينيه" يبلغ من العمر سبعين عاماً ، وهو من كبار أهل الفن ورجال التصوير ، وصاحب اللوحات الكبيرة النفيسة القيمة ، تزدان بها جدران المعارض الفنية وتحفظ بها المتاحف الفرنسية الكبيرة وغيرها من متاحف العالم ، وله في متحف (لوكسمبرج) - وهو متحف كبار المصورين المصريين بباريس - عدة صور ، منها الصورة الشهيرة المعروفة باسم : (غداة رمضان) وكذلك له صورة في متحف (بو) وكذلك في متحف (سدني) بأستراليا ، وغير ذلك كثير .

ويجسج صوره تدل على القدرة الفنية الكبيرة في رسم الصحراء ، كما تدل على دقة التعبير عن الحالات النفسية المختلفة . وهو ذو مركز خاص مشهود به بين إخوانه المصورين ، وأماز عنهم بشخصه في تصوير الحياة الإسلامية ، وبالأخص ما كان منها في بلاد الجزائر .

« وقد درس الروح العربية وفهمها الفهم الصحيح ، حتى قيل عنه : إنه للصورة الفريدة بين إخوانه ، الذي يستطيع تمثيلها بالريشة والألوان والأصباغ أحسن تمثيل ، وهم يقولون عنه إنه المصور " العربي " . وقد جاءت ترجمة المسيو "دينيه" وأعماله في معجم " لاروس " الكبير ، وفي معلة " هاشيت " للفنون الجميلة . وله عدة مؤلفات منها : كتاب (حياة العرب) الذي ذكرناه ، ومنها كتاب (السراب) =

وكان صاحب طبيعة متديبة أيضاً : كان كثير التفكير ، جم التأمل ، يشرح
بخياله في ملكوت السموات والأرض ، يريد أن يخترق حجبه ، ويكشف عن
مساتيره ويصل . . . إلى الله .

« وكتاب (حياة الصحراء) ، وكتاب (ربيع انقلوب) ، وكتاب (انشرق كما يراه الغرب) ، وكلها تشير إلى
ما في طبيعته من الخلق الطيب ، وما يحمله في قلبه من الحب والتقدير للشرق والشرقيين .

« ومن أم كتبه ما جعله تاريخاً لحياة الرسول سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - وهو السيرة النبوية
في مجلد كبير جليل ، وضعه باللغة الفرنسية ، وزينه بالصور الملونة البديعة الكثيرة المتعددة ، من ريشته
الخاصة ، يمثل فيها المناظر الإسلامية ، ومشاهد الدين ومعاله . وطبعه طبعا غاية في الإتقان والعناية ، حتى
إنه لم يد تمسقة من تحت الطباعة .

« كل ذلك كان تقديراً منه لموضوعه . ثم إنه قدمه لأرواح الجنود الإسلامية التي استشهدت في الحرب
الكبرى وهي تعارب في صفوف الفرنسيين ، ونشره كذلك باللغة الإنجليزمية بنفس الحجم الكبير والإتقان
التمام . والكتاب في طبيعته قد تحمل بمختلف أنواع اللوحات الزخرفية الملونة ، ذات الأشكال العربية ، غاية
في الدقة والإبداع ، وهي اللوحات التي قام بعملها خاصة لهذا الكتاب السيد محمد واسم الجزائري ، أشهر
رجال الزخرفة العربية ، والذي أشار إليه الميسور " الأزار " ، الأستاذ بجامعة الجزائر ومدير متحفها ، وذلك
في المحاضرة التي ألقاها في النادي الفرنسي بالقاهرة في شهر مارس سنة ١٩٢٩ . ويبلغ ثمن النسخة الواحدة
من هذا الكتاب خمسة جنيهات مصرية .

« وما نظن أن العالم العربي قد قرأ للميسور " دينيه " شيئاً بالعربية قبل تلك الرسالة التي عربناها له :
(أشعة نغاسة بنور الإسلام) والتي نشرت بمصر في هذا العام ، وهي التي جعلها بحثاً حصرى في مبادئ
الدين الإسلامي ، وأراد إظهار هذه المبادئ واضحة جلية ، وأنها تفضل مبادئ المذاهب الحاضرة . ولعل
هذه الرسالة هي آخر ما كتب ، اللهم إلا إذا كان قد فرغ من (رسالة الحج) التي كان قد ذكر لنا أنه
يشغل بتدوينها بهمة ونشاط ، وذلك عقب عودته من بلاد الحجاز هذا العام ، بعد أن أدى فريضة الحج .
وإذا سمعت لنا الحقيقة أن نقرر شيئاً فإنه ذكر لنا في كتابه إلينا أنه لاقى من التعب والمشاق الشيء
الكثير ، ورغم ما لاقاه من التكريم والعناية الخاصة ، ورغم نسيانه المشقة في سبيل الله ، وهو يدعو إلى
إصلاح وسائل النقل والصحة وتنظيم الحياة لأولئك الألوف من الحجاج الذين يأتيون رجالاً وعل كل عامر
يأتين من كل فج عميق .

« والميسور " دينيه " كاتب رقيق العبارة ، واسع الاطلاع ، لذلك فهو صحيح الحجة ناضج البرهان ،
ثم هو شديد الطغوم شديد الدفاع ، ذلك لأنه غيور على مبدئه الذي لم يتخذه إلا بعد بحث وتفكير .
وقد أعلن إسلامه رسمياً بالجامع الجديد بمدينة الجزائر في اجتماع حافل عام ١٩٢٧ وطلب أن يدفن في قبره
مسلماً حنيفاً . وهو القبر الذي شيده لنفسه في بلدة (بو سعادة) بالجزائر . وقد ذكرت الأهرام في
تلفظاتها الخصوصية أسس : أنه سينقل إليها من فرنسا وفق وصيته ، ويقول إنه لم يلم لمطعم أو مطعم
(والزجل غني مومر الحال) وإنما أسلم لإرضاء ليقينه وضميره ، وإن ناقش الناصرين والطاعنين ، فخرج
من " دينيه " إلى " ناصر الدين " .

« وله في بيان فضائل الشرقيين عامة والدفاع عنهم جولات قلبية ، ولوحات تصويرية تشهد له بإخلاصه
في حب الشرق ، وتقديره دليل على حبه للعدل والإنصاف . وقد استفاد بعضهم عن أمر الشرق والغرب فكاتب
يقول : « إن الغرب غطى النظر إلى الشرق ، مع أن الشرق على الغرب أفضلًا متأصلة في مدينته ، مختلفة
في حياته ، ذلك من أثر الدينيات ، التي هو مدين فيها الشرق ، ومن أثر المعاملات والاقتصاديات التي
منشؤها لليهودية الشرقية ، ومن أثر الحياة الشريفة والحمة القمصاء التي منشؤها أنظمة الفروسية العربية ، ومن
ثم علم البحار وعلم السماء وعلم الأبدان وعلم الكيمياء التي ابتدعت أصولها العقول الشرقية » .

كان فناناً يمتلكه شعور ديني ، وكان دينياً يغمره ويسيطر عليه شعور فني .
وامتزج فيه الفن بالدين فكان مثالا واضحا للإنسان الملهم .
نشأ من أبوين مسيحيين ، وتلقن - بطبيعة الحال - العقائد المسيحية نظرياً ،
ومارسها عملياً ، وذهب به أبواه - ككل مسيحي - إلى التعميد وإلى الكنيسة ،
فشب وترعرع على عقيدة التثليث والصلب والفداء والغفران . . .
وعلى مر الزمن ، أخذت تستبين فيه طبيعته الفنية ، وأخذ يستولى عليه شعور
بالقلق والحيرة من الناحية الدينية . إن الفنان يتصور الخلود في دقة لا تتأق لغير
ذوي الشعور الفني ، ويتمنى الخلود ، ويريد به ، ويعمل جاهداً لتكتب لوحاته
في سجل الخلود ، فتسمو على الزمن ، وترتفع عن حدود ما يتناهى .
وأصحاب الطبائع الدينية يفكرون في الخلود ، ويتمنونه ويريدونه ، ويعملون
جاهدين لكشف المعنى فيما يتعلق بمصيرهم الأبدى .
وكان « دينيه » يفكر في لوحاته ، ويفكر في مصيره ، ويعمل جاهداً ليبلغ
الذروة في الفن ، ويعمل جاهداً لإزالة الظلمة المتكاثفة في دائرة اللاهية .
وكانت هناك وسائل لصقل - للصقل لا للإيجاد - الطبيعة الفنية ، والاتجاه
بها نحو الكمال . وفي ذلك ما يطمئن ، نوعاً ما ، وفي ذلك علاج - بعض العلاج -
للقلق فيما يتعلق بالفن ، وقد جد « دينيه » في استكمال وسائل الصقل ، النظرية
منها والعملية ، واتخذ لذلك الأسباب ، وأحس من هذه الجهة ببعض الطمأنينة .
ولكن ما العلاج لطبيعته الدينية القلقة ؟ ليس لذلك من علاج سوى البحث
والتأمل وإطالة التفكير في الكون ، وفي النصوص المقدسة ، وفي العقائد التي يدين بها
الوسط المباشر والبيئة المحيطة . . . وفكر « دينيه » في المسيحية ، وفي الكنيسة ، وفي
البابا المعصوم ، وفي عقيدة التثليث والصلب والفداء والغفران . . .

= « ويقول : « إن الشرق لم يغمر للغرب الإساءة ، وإن الغرب يخطئ ، إذ يظن أن الشرق لا يستحق
العناية ، مع أن الشرق قد عرض كل دغائل الغرب ، وأنه مع ذلك لا يحمل له إلا السلامة » .
« وهكذا يقرم السيد ناصر الدين دينه رسولاً للسلام بين الشرق والغرب ، وهو المثل الطيب لكل فرنسي
يجب بلاده الأصيلة ويجب الشرق الجميل النبيل . ومع أنه قد اعتنق الإسلام وعاش مسلماً ومات مسلماً ،
فإن ذلك لم يمنعه من أن يكون مقيماً على العهد والإخلاص لبلاده المحبوبة ، وأن يجتمع حول نفسه رجال
فرنسا الرسميون من الوزراء ، وذكرين حسناته ، ويؤمنونه أحسن التأمين - ذلك لنباله قصده ، وثقافته
إنسانيته » . (رائد رستم : الأهرام في ١٩/١٢/١٩٢٩) .

المسيح بن الله ! ! ! . . . وقد صلب ليظهر بني البشر من اللعنة التي حلت بهم بسبب خطيئة آدم . . . ! ! ! إنه صلب ليفتدي البشر ، ثم هو ابن الله . وهو الله . . . وهو بشر ، وهو إله . . . ! ! ! ويدور رأس دينه فلا يكاد يرى بارقة من أمل في أن يهتدى إلى الحق في كل ذلك . . . وهل في ذلك من حق ؟ ! . . . وهل في الظلمة من نور . . . ؟ !

الأنجيل الحالية غير صحيحة :

ومع ذلك فلم ييأس ، بل أعاد قراءة الأنجيل من جديد محاولاً جهده أن يراها تتسم بسمة الحق ، فيؤمن بابن الله . وبالكاثوليكية . ولكنه رأى فيها ما يتناق مع الصورة المثلى للإنسان الكامل فضلاً عن الصورة التي تريد المسيحية أن توحى بها : فن أقوال المسيح التي فيها حطة واحتقار لأمه العذراء ما صدر منه في عرس « قانا » : « وفي اليوم الثالث كان عرس في قانا الجليل ، وكانت أم يسوع هناك ، ودعاً أيضاً يسوع تلاميذه إلى العرس . ولما فرغت الخمر قالت أم يسوع له : ليس لهم خمر . قال يسوع : مالي ومالك يا امرأة » (١) .

ومن أقواله التي تحمل في طياتها اللعنة على شجرة تين لم تحمل ثمرها . لأنه لم يكن موسم تين : « فنظر شجرة تين من بعيد . عليها ورق . وجاء لعلد يجذ فيها شيئاً . فلما جاء إليها لم يجذ شيئاً إلا ورقاً . لأنه لم يكن وقت التين . فتعجب يسوع وقال لها : لا يأكل أحد مناك ثمراً بعد إلى الأبد . وكان تلاميذه يسمعون » (٢) .

كذلك من أقواله الدالة على كرهه الغريب : « . . . وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت إليه قائلة : ارحمني يا سيد يابن داوود ، ابنتي مجذونة جداً . فلم يجبها بكلمة . فتنقدم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين : اصرفها لأنها تصيح وراءنا . فأجاب وقال : لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة » (٣) .

(١) إنجيل يوحنا ، الإصحاح الثاني عشر . هذا ما يقوله الإنجيل فيما يتعلق بعلة المسيح بأمه . أما القرآن فإنه يقول : « فلما رأت إليه ، قالتا كيف نكلم من كان في المهد صبياً ؟ قال : إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً ، وبرأ بوالدي . ولم يجعلني جباراً شقياً ، والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً » .

(٢) إنجيل مرقس : الإصحاح الحادي عشر .

(٣) إنجيل متى : الإصحاح الخامس عشر .

ومن أقواله التي توجب كراهية الأقرباء : « إن كان أحد يأتى إلى ولا يفيض
أبيه وأمه ، وامراته وأولاده ، وإخوته وأخواته ، حتى نفسه أيضاً . فلا يقدر أن يكون
لي تلميذاً »^(١) .

ومن أقواله التي فيها اعتراف بالجهل : « . . . وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا
يعلم بها أحد ولا الملائكة الذين في السماء . ولا الابن إلا الآب »^(٢) .
« هذه النصوص تبعث في النفس الشك في صحة الأناجيل التي بين أيدينا »^(٣) .

صحة الأناجيل :

وأداه ذلك إلى البحث في صحة الأناجيل . وفي قيمتها من الناحية التاريخية .
وكانت نتيجة بحثه : أنه لا شك أن الله قد أوحى الإنجيل إلى عيسى بلغته ولغة
قومه . ولا شك أيضاً أن هذا الإنجيل قد ضاع واندثر ، ولم يبق له أثر ، أو أنه ياد .
أو أنه قد أبيد^(٤) .

ولهذا قد جعلوا مكانه « تليفات » أربعاً ، مشكوكاً في صحتها وفي نسبتها التاريخية .
كما أنها مكتوبة باللغة اليونانية ، وهي لغة لا تتفق طبيعتها مع لغة عيسى الأصلية
التي هي لغة سامية . لذلك كانت صلة السماء بهذه الأناجيل اليونانية أضعف بكثير
من صلتها بتوراة اليهود^(٥) . . . ورأى — في النهاية — في وضوح : « أن الديانة
الكاثوليكية لا تتحمل البحث والمناقشة . فقد أظهرت الأدلة العديدة — سواء أكانت
أخلاقية أم تاريخية أم علمية أم لغوية ، أم ببيكولوجية أم دينية — أن الكاثوليكية
ملاى بالأغلاط الواضحة » . ولم يمكنه أن يقول ما قال القديس « أوغسطين » مما
يعتبر شعار كل مسيحي : « إني أؤمن بذلك : لأن ذلك غير معقول »^(٦) . . .

(١) إنجيل لوقا : الإصحاح الرابع عشر .

(٢) إنجيل مرقس : الإصحاح الثالث عشر .

(٣) عن « أشعة خاصة بنور الإسلام » .

(٤) عن « أشعة خاصة بنور الإسلام » .

(٥) من « أشعة خاصة بنور الإسلام » .

(٦) لا شك أن « دينيه » اطلع على مؤلفات « رينان » الذي كتب عن المسيح ، عليه السلام .
كتاباً ثبت فيه : « أن السيد المسيح لم يكن إلهاً ولا ابن إله ، وإنما هو إنسان ممتاز بالخلق السما والروح
الكرامة . . . و « رينان » لم يكن متطرفاً في حكمه ، فقد أثبت على كل حال وجود المسيح وجوداً تاريخياً
حقيقياً . ولكن آخرين أغفلوا يتقيدون في بطون الكتب ، ويتبعون الروايات ، فأنتهوا إلى عدم الاطئنان
اوجود المسيح تاريخياً . من هؤلاء « بايه » ، أستاذ علم الاجتماع بجامعة « السوربون » ، الذي اشترك مع

وثار شعوره الديني على أوضاع مبهمة ، وألفاظ غامضة ، ومشاكل لا تحل ، وانتهى به المطاف . بعد بحث وجدل ومناظرات وتأملات ، إلى رفض المسيحية ، وبلغت حيرته حينئذ أشدها ، ولكن اليأس لم يتطرق إلى نفسه قط . وإذا لم يجد الهداية في المسيحية فليس معنى ذلك أنه لن يجدها مطلقاً . إن الحقيقة عزيزة المثال ، ولكنها موجودة ، والسبيل إليها : البحث .

الالتجاء إلى العقل :

ورأى « دينيه » أن يتجه إلى العقل ، يستمد منه الهداية إلى الطريق المستقيم ، ولكنه انتهى إلى أن العقل عاجز في ميدان ما وراء الطبيعة ، وفي الواقع : « يسعى كثير من ذوى العقول المستتيرة — بعد أن أفاقوا من غفلتهم ، وبعد أن رأوا إخفاق مذهب استقلال العقل بالمعرفة — لتعرف طريق الهداية وأن مذهب الحلدس الذي يتهافون عليه خلف حامل لوائه المسيو « برجسون » الشهير ، هو عبارة عن رد فعل واضح لمذهب استقلال العقل بالمعرفة ، أو هو — وهو الأصح — رد فعل لعجز هذا المذهب

« فقد جدد هذا الفكر — في قلوب الناس النهمين إلى الإيمان — آملًا كان يظهر أنها ضاعت ضياعاً نهائياً ، فهو يأذن لهم بأن يأملوا في خلود الروح ، ويقول لهم : إن الدنيا ليست مشتبكاً عظيماً لقوى عمياء ، وإن العقل ليس هو الطريقة الوحيدة للمعرفة » (١)

أخفقت المسيحية في إرضاء ضميره الديني ، وأخفق العقل في قيادته إلى النور ، إلّا ما يتجه إذن ؟

المسيحيون الذين أسلموا :

وتلفت حوله ونظر : ماذا فعل أمثاله ممن شكوا في المسيحية وشكوا في العقل ؟...

= زيملين له في تأليف كتاب يهدف إلى إثبات أن المسيح أسطورة وأن انتشار المسيحية لم يكن إلا لأسباب سياسية بحتة ، أما الأستاذ « جينيير » ، أستاذ تاريخ الأديان بالسوربون إلى عهد قريب ، فقد أثبت في عدة مؤلفات ذات شهرة عالمية — أثبت بما لا يدع مجالاً للشك ، أن المسيحية الحالية ليست هي مسيحية المسيح ، بل لا تمت إلى مسيحية المسيح بصلة ، اللهم إلا لصلة الاسم .
(١) ناصر الدين : محمد .

ه رأى : « أن نقرأ من المصارى فى مختلف الأقطار الأوربية دائراً بالإسلام فى الأعوام الأخيرة . . ويكثر عددهم على مر الأيام وفى لندن ولغزبون جماعات إسلامية دت شأن حقيقى ، منهم فريق من أعيان الإنجليز » (١)

ورأى « أن الذين يعترفون لإسلام فى وقتنا هذا من مسيحيين وغيرهم ، إنهم من الخاصة . سواء كانوا فى هيئات الاجتماعية الأوربية . أو الأمريكية . كد أن إحصائهم فى ذلك لا شك فيه . لأهم أبعاد ما يكودون عن الأعرص المادية » (٢) .

وتبين له « أنه يوحى فى جميع أنحاء أورب وأمريكا من اعتنقوا الإسلام . وإذا كان هذا الأمر لا يزال قبل الأهمية إذا نظرنا إلى قلة عدد المعتنقين - وإن كان عددهم لا بأس به - فإنه ذو أهمية كبرى . نظراً لما ذكر هؤلاء المعتنقين الذين يسمون إلى الطبقات الراقية المتعلمة . وتذكر منهم على سبيل المثال " النوردهيدلى " الإنجليزى . وصديق المأسوف عليه المرحوم « كرسيد شرفيس » أحد تلاميذ " أعست كومت " ، وأديباً من أدياء فرنسا بعدودين ، وعبسوفاً من فلاسفتها المشهورين » (٣)

وما لا ريب فيه أن هناك مفكرين منصفين لا غربيين فحسب بل عابيين أيضاً . درسو لإسلام دراسة عميقة ، فأحبه بعض وناصره ، وآمن به البعض الآخر وأعلن إسلامه وصدق فيه . ويقول أحدهم (٤) :

« لى أعنفد أن هناك آلافاً من الرجال والنساء أيضاً . مسلمون قساً . ولكن حوف الانتقاد وارعة فى الاستعداد عن التعب الناشئ عن التعبير . بأمرا على معهم من إظهار معتقداتهم » .

ونحب أن نعرض فيما يلى لأمشة من هؤلاء المفكرين المنصفين الذين لاشك أنهم قد قرأ لهم ديبه وتنوع آراءهم

« الكونت هنرى دى كاسترى » .

وقصة تفكيره فى دراسته للإسلام قصة طريفة :

(١) ناصر الدين الشرقى فى نظر العرب

(٢) أشعة جامعة يور الإسلام

(٣) الحجج على بيت الله الحرام ، لناصر الدين ، ترجمة م . توفيق أحمد .

(٤) النوردهيدلى .

كان من كبار الموصفين بالحرير . رعم سه المسكرة . وكان يسير محتجباً بصورة
جواده . ويسير حلقه ثلاثون من حرس العرب الأقوياء ، فحوراً مركزه . وكان يحثوه
العرور . للمدح الذي يزجيه إليه هؤلاء الدين تحت امرته .
وفجأة وجدهم يقولون له ، في شيء من خشونه . وفي كثير من الاعتقاد
بالنفس

« لقد حان موعد صلاة العصر » .

ودون أن يستأذنيه في الوقوف . ترحلوا واصططعوا للصلاة متجهين إلى القسلة ،
ودون في أرحاء لصحراء كلمة الإسلام الخالدة « الله أكبر . . . »
شعر الكبريت في هذه اللحظة شيء من المهانة في نفسه . وبكثير من الإكدار
ولإعجاب هؤلاء الدين لا يبالون به ، ذلك لأنهم اتجهوا إلى الله وحده . بكل
كناهم ، وبدأ يتساءل

ما الإسلام ؟ أهو ذلك الدين الذي تصوره الكنيسة في صورة شعبة . تنهر
منها النفس ، ولا يضمن إليها الوجدان . . ؟

وبلأ يدرس الإسلام ، وتغيرت فكرته عنه . ورأى من وجهه أن يعس ما اعتدى
عليه ، فكان كتاب « الإسلام . حواطر وسوانح »^(١) .

وفي هذا الكتاب الطريف تحدث عن كثير من جوانب الإسلام . سواء
أكان ذلك فيما يتعلق بالرسول . أم فيما يتعلق بالتعاليم الإسلامية . وقد تحدث
مضلاً عن ذلك — عن آراء مؤلفيه ، وخصوصاً القدماء منهم في صورة من
السحرية . والنهكم .

« ودهسوا إلى أن محمداً وضع دينه بادعائه الألوهية

» ومن مستخرجات فؤادهم « إن محمداً الذي هو عدو لأصنام ومبهد الأوثان ،

كان يدعو الناس لعبادته في صورة وثن من ذهب

» بل لقد أغرق حياته في الصلال ، فدهسوا إلى أبعد من ذلك .

« ودهسوا إلى أن صورته " ما هوم " كتاب يصنع من أنفس الأحجار

والمعادن بأحكم صمم وأدق إنصاف »

(١) ونحن نعتمد على هذا الكتاب على الخصوص في هذا المقال

(٢) انقصيد محمداً صلى الله عليه وسلم .

وبعد أن ذكر الكثير من آرائهم قال :

« ولقد أطلت القلوب في تلك الأصايل ، لأن قاريح إسكندر » المذكور لم يرها ، ولأنها تركت أثراً في الأذهان وصل إلى أهل هذه الأيام ، وتشعبت به أفكارهم في السبى وكأنه » .

ولكن ما سر هذه الحملة الشعواء الصانعة التي تهزأ بالحق والصمير ، والتي لا يقرها دين أيأ كان ؟

« ولو سأل سائل هل كان أولئك المفسرون يعتقدون صحة ما يقولون ؟ لأجابه . لا . ونعم ، إذ من المحقق أن الاختلاط بين المسيحيين والمسلمين سهل للمنشدين معرفة الدين المحدث على حقيقته ، ونكسهم ما كانوا يقصدون الحقائق التاريخية في أناسدهم بل حفظ روح لعصاء في نفوس قومهم » .
 هن هذه الروح التي كانت سائدة عند المسحوس تجاه الإسلام ، فقتصرت على العصور الوسطى ؟ كلا .

« قسم يرون هذا لروح سائداً عند مسيحيين حتى أن المستشرق " ريدو " الإنجليزى ألف سنة ١٧٣٣ كتاباً في سيرة لبي عوانه " حياة دى البدع محمد " ، وترجمه بعضهم إلى لغتنا ، وجعل له مقدمة بن فيها مقصد المؤلف فقال .
 « إن عرص واضع هذا الكتاب هو خدمة المقصد المسيحى الحكيم » .
 ثم يعقب الكونت على ذلك بهذه الكلمة الحكيمة .

« أولئك كتب ما قصصوا التاريخ ، ولكنهم أرادوا خدمة المقصد المسيحى الحكيم كما يقولون . وكان سلاحهم الوحيد في تأييد سواقط حججهم أن يشعروا خصمهم سبياً وشتماً ، وأن يجرهوا في النقل ما استطعوا » .

ثم يأخذ الكونت في الرد على الافتراءات . من أولى هذه الافتراءات أن الرسول . صلوات الله عليه . كان مراً ونكت . فقرأ سورة وقرأ للإنجيل وأحد تعاليمه مبها

() أنه القيسى « إسكندر دويو » كتاباً عام ١٢٥٨ . عن محمد ، وكان الناس يسمونه تاريخاً صحيحاً لرسول مع أنه ليس كذلك .

وقد رد انقرآن على هذه الفرية فقال : (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك . إذا لأرتاب المطالون . .)
ويقول الكونت في هذا المعنى :

« ما كان يقرأ ولا يكتب ، بل كان كما وصف نفسه مراراً - سيباً أمياً - وهو وصف لم يعارضه فيه أحد من معاصريه ، ولا شئت أنه يستحيل على رجل في الشرق أن يتلقى العلم بحيث لا يعنمه لناس ، لأن حياة شرقيين كلها ظاهرة للعيان ، على أن القراءة والكتابة كانت معدومة في ذلك الحين من تلك الأقطار ، ولم يكن بمكة قارئ أو كاتب سوى رجل واحد ذكره « حارسين دى تاسي » في كتابه ندى طبعه سنة ١٨٧٤ ، كذلك من الخطأ مع معرفة أخلاق الشرقيين أن يستدل على معرفه النبي للقراءة والكتابة باحتير السيدة خديجة ، رضى الله عنها . إياه لتاجرها في الشام ، ولم تكن لتعهد إليه أعملاً إن كان جاهلاً غير متعلم ، وإنا نشاهد بين تجار كل قوم غير العرب وكلاء لا يقرؤون ولا يكتبون . وهم في الغالب أكثرهم أمانة وصدقاً

« أما فكرة التوحيد فيستحيل أن يكون هذا الاعتقاد وصل إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - من مصالحته لتجارة الإنجيل ، إذ لو قرأ تلك الكتب لدها ، لاحتوائها على مذهب لتثنيث ، وهو مناقض لمطهرته ، مخلف لوجدانه من حلقه ، فظهور هذا الاعتقاد بواسطة دفعة واحدة هو أعظم مظهر في حياته ، وهو بداته أكبر دليل على صدقه في رسالته وأمانته في نبوته . »

أما صدق الرسول وسمو رسالته ، فقد أخذ كثير من رجال الكميسة ومن رجال الاستعمار يشككون فيهما - ورغم الوصوح ، واضح في صدق الرسول وفي سمو الرسالة الإسلامية ، من رجال الدين من المسيحيين ورجال الاستعمار لا يزلون يبدئون ويعيدون في ترددات شككيت إلى هؤلاء وأولئك يقول الكونت .

« والعمل بحار كيف يتأني أن يصدر تلك الآيات عن رجل أمي ، وقد اعترف الشرق قاطبة بأنها آيات يعجز فكر بني الإنسان عن الإتيان بمثليها لفظاً ومعنى ، آيات ما سمعها عقلة من ربيعة حار في حماها ، وكفى رفيع عبارتها لإقناع عمر بن الخطاب ، فآمن رب قائلها ، وفاقت عين نجاشي الخشنة بالدموع ما تلا عليه

جعفر بن أبي طالب سورة مريم وما جاء في ولادة يحيى

« فلما كان اليوم الثاني طلب المعاشي جعفرأ ، وأشار إليه بثلاثة ما في القرآن عن المسيح ، ففعل ، واستعرب الملك لما سمع أن المسيح عبد الله ورسوله ، وروح منه ، وبرل في أمه مريم ، وأعجب أشد الإعجاب بهذه المعاني ، وحسب المسلمين ، ولم يسلمهم إلى وسل قريش ، ولم ينعمهم من بلاده » .

أما هؤلاء الذين بلغ بهم النصف مداه . فظنوا أن هذه انفتحات التي يعجب فيها الرسول عن هذا العالم ليكون بكينته مستغرقاً في الملأ الأعلى إنما هي فترات مرضية ، أو هي الصرع ، ورغم تكذيب الطب لمراعهم مستنداً إلى الاختلاف الكلي بين أعراض الصرع وأعراض الوحي ، فقد أعدهم لتعصب عن رؤية الحقيقة وإبهم يقول الكويت :

« ومن ذلك الحين - أي البعثة - أخذت شفتاه تطلق بالفاظ بعضها أشد قوة وأبعد مرمى من بعض ، والأفكار تندفق من فمه على الدوام إلى أن يقف لسانه ولا يطيعه الصوت ، ولا يجد من الألفاظ ما يعبر به عن فكر قد ارتفع عن مدارك الإنسان ، وسما عن أن يترجمه قسم أو لسان . وكانت تلك الانفعالات تظهر على وجهه بادية ، فظن بعضهم أن به جنة ، وهو رأى باطل ، لأنه بدأ رسالته بعد الأربعين ، ولم يشاهد فيه قبل ذلك أي اعتلال في الحس أو اضطراب في نقوة المادية ، وليس من الناس من عرف الناس جميعاً أحواله في حياته كلها مثل النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فلقد وصل المحدثون عنه إلى أنهم كانوا يعدون الشعر الأبيض في لحيته ولو أنه كان مريضاً لما أحق مرضه لأن المرض في مثل تلك الأحوال يعتبر أمراً سموياً عند الشرقيين .

« وليست حالة محمد صلى الله عليه وسلم في انفعالاته وتأثراته بحالة دى جنة بل كانت مثل التي قال بي بي إسرائيل في وصفها : لقد شعرت بأن قلبي انكسر بين أصلعي وارتعشت مني العظام . فصرت كالشوان ، لما قام بي من الشعوب عند سماع صوت الله وأقواه المقدسة » .

ويختم الحديث عن آراء الكونت همد ، اوصف اربع لثلاث الساعة الأخيرة ،
التي فارق فيها الرسول عبد الدنيا ، يلحق بالرقيق الأعلى ، ويسمع رضوان الله ،
لذا يقول :

« ولما أحس بقرب الأجل ذكر الفقراء ، فإنه لم يرغب طول حياته في المال ،
بل كان كلما جمع إليه شيء منه أنفقه في الصدقات ، وكان قد أعطى عائشة
يسيراً لتحفظه ، فلما حصره المرض أمر بوضاؤه على المعررين لساعته ، وعاب في
سنة . ولما أفاق سأها إن كانت أتت أمره ، فأجابته : كلا ، فأمر بالدفن وأشار
إلى العائلات المعوزات ، «وزع عليهم ، وقال :

« الآن اسرح قلبي ، فإني كنت أخشى أن ألقى ربي وأنا أملك هذا
المال . »

« وكان في مرضه يخرج كل يوم ليصلي الظهر بالناس ، وآخر يوم خرج فيه
هو الثامن من شهر يوزة سنة ٦٣٢ . وكانت مشته مضطربة ، فتوكل على الفصل بن
العباس وعلى بن أبي طالب . وقصد من أخطأه أندي كان يعظ الناس عليه قبل
الصلاة وحمد الله وأثنى عليه ، ثم خطب في المسلمين بصوت ربيع سمعه من كان
خارج للمسجد فقال ما معناه :

« أيها الدين تسمعون قري ، إن كنت ضربت أحدكم على ظهره فلدونه ظهرى
فيعصره . وإن كنت أسأت سمعة أحد فبنتقم من سمعتي . وإن كنت سلبت
أحداً ماله فإني مالى يفتص منه وهو في حل من عصى ، فإن العى بعيد عن
قلبي !

« ثم نزل من على المنبر وصلى بالجماعة ، ولما أراد الانصراف أمسك به رجل من
إزاره وطلب منه ثلاثة دراهم ديناً له . فأداه على الفور قائلاً .

« تخزى الدنيا أهون من تخزى الآخرة .

« ثم دعا من حارب معه في أحد وسأل الله لهم الرحمة والعمران .

« وكان مشهد النبي بين المؤمنين في ذلك اليوم مشهد جلال ووقار ، والناس
يلمحون على وجهه تأثير السم الذي شربه من يد يهودية خبيث ، وقالوا هم منقطعة من
الوجد عليه . ذلك أنه لما كان في راقعة خبير ، قدمت إليه يهودية اسمها ريب ،

شاة مشوية أصافت إليها سماً فأخذ منه النبي قطعة واحدة بين شفتيه وأحس بأنها مسمومة ، فألقاها . ثم لما حصرته الرفاة بعد حين ، كان يقول : ما «رالت تعاودني أكلة خبير» .

« وكان أبو بكر نفسه يبكي ويقول للرسول . " هلا اقتديا بروحك بأرواحنا ؟ " ثم أوصله الصحابة إلى بيت عائشة وضطجع نعباً مهرولاً وصار امرض يشد عليه ، فتخلف عن الصلاة بالمسلمين . وقيل له قد جاء وقت الطهر ، فأشار إلى أبي بكر ليصلي بالناس . فكان من وراء هذه الإشارة خلافة أبي بكر بعد النبي .

« وأجبرت عائشة رضى الله عنها عن حالة الاحتضار فقالت : " كان رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مسدداً إلى صدرى ، وتقربه قدر ماء ، وكان يقوم ليضع يده على عنقه ويغسله ، ويقول : " رب أعنى على تحمل سكرات الموت ، اذن مئى ما جبريل ، رب اغفرلى واجمع بين أصدقائى فى السماء " ثم نقلت رأسه ومال ثابته إلى صدرى " .

« كارلايل » :

وكارلايل أحد كبار كتاب الإنجيز ، شاعرى الزعة والمطرة ، متحرر من الرياء والنحس ، يتبع انبطولة ، فيكتب عنها ويمتدحها . ويحبب الناس فى السمو بأنفسهم إلى منار الأبطال ، أو على الأقل إلى التشبه بهم ، وقد أثار كتابه ، « الأبطال » إعجاباً فى ميدان الفكر العالمى ، وترجم إلى كل اللغات الحية ، وحينما ترجمه المرحوم محمد لساعى إلى اللغة العربية ، أثار الكثير من الإعجاب . وقد كان لأسلوب الأستاذ الساعى السارع أثر فى انتشار الكتاب ، ومن لم يقرأه لعانيه قرأه لأسلوبه . وفى هذا الكتاب فصل مستفيض عن حياة الرسول صدرات الله عليه ، تقتطف منه ما يلى :

« من العار أن يصفى أى إنسان متمدين من أساء هذا الجيل إلى وهم نقائلين : إن دين الإسلام كذب ، وإن محمداً لم يكن على حق .

« لقد آن لنا أن نحارب هذه الادعاءات السخيفة المخجلة ، والرسالة التى دعا إليها هذا النبي . حدث سراحاً سيراً أربعة عشر قرناً من الزمان . للملايين كثيرة من الناس . فهل من المعقول أن تكون هذه الرسالة التى عاشت عليها هذه الملايين ،

ومائف . أكذب به كاذب ، أو حديعه محادع ؟ ولو أن الكذب والتصيل يروجان عند الخلق هذا الرواج لكبر لأصحت الحياة سعياً وعشاً ، وكان الأحرار بها ألا توجد .

« هل رأيتم رجلاً كاذباً ، يستطيع أن يخلق دماً ، ويتعهد بالشر بهذه الصورة ؟ إن الرجل لكاذب لا يستطيع أن يبنى بيتاً من الصوب ، لحياه يخصص مراد البناء وإدا بناء فما ذلك الذي يسيه ، لا كومة من أخلاط هذه الموارد . فما بالك نادى يبنى بيتاً دعائه هذه لقروب ، العديدة وتسكنه هذه الملايين الكثيرة من الناس ؟ »
« وعى ذلك فمن الخطأ أن يعد محمداً رجلاً كاذباً متصنعاً متذرعاً بالحيل والوسائل لعاية أو مطمع وما الرسالة التي أدها إلا الصديق والحق

« وما كلمته إلا صوت حق صادق صادر من لعالم المجهول . . وما هو إلا شهاب أصاء العالم أجمع ، ذلك أمر الله . . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وأحب محمداً ، نراء طبعه من برياء والتصنع . ولعمد كان ابن لصحراء مستقل الرأي ، لا يعتمد إلا على نفسه ، ولا يدعى ما ليس فيه . وم يكن متكبراً ولا دليلاً ، فهو قائم في ثوبه المرقع ، كما أوحده الله ، يحاط بقوله الحر المبين أكاسرة المعجم وقباصرة الروم ، يرشدكم إلى ما يحب عليهم هذه الحياة ، والحياة الآخرة .

« وما كان محمد يعاشق قط ، ولا شاب قوله شائبة لعب ولهو . فكانت المسائل عنده مسألة هاء وبقاء ، أما التلاعب بالأقوال والعتث بالحقائق ، فما كان من عادته قط .

« ويزعم المتعصبون أن محمداً لم يكن يريد بدمعته غير الشهرة الشخصية والحياة والسلطان . كلا واسم الله لقد انطلقت من فؤاد ذلك الرجل الكبير النفس ، الممنوء رحمة وبراً وحسناً . وحيراً وديراً وحكمة ، أفكار غير الطمع الدنيوى ، وأهداف سامية غير طلب الحناء والسلطان .

« ويزعم الكاذبون أن الطمع وحيد الدنيا هو الذي أقام محمداً وأثاره حتى وسخافة وهو من رأب رأبهم أية فائدة لرجل على هذه الصورة في جميع بلاد العرب ، وفي تاج قبصر وصولحن كسرى جميع ما بالأرض من تيجان . . ا

« لم يكن كغيره ، يرضى بالأوصاف الكاذبة ، ويسير تبعاً للاعتبارات الباطلة ،
وم يقبل أن يتشبع بالكاذب ولأباطل .

« لقد كان منفرداً بنفسه العظيمة ، ومحقق الكون والكائنات ، لقد كان سر
الوجود يسطع أمام عينه بأحواله ومحاسنه ومخاوفه .

« لهذا جاء صوت هذا الرجل مشعناً من قلب الطبيعة ذاتها لهذا وجدنا
الآذان إليه مصهبة ، والقلوب لما يقول واعية .

« لقد كان راهباً متقدماً في مسكه ومأكله وشره ومبسه ، وسائر أموره
وأحواله ، فكان طعامه ، عادة ، الخبز والماء وكثيراً ما تناهت الشهور ولم توقد
بداره نار .

« فهل بعد ذلك مكرومة ومهخرة ؟ فهذا محمد من رجل منقشف خشن الملبس
والأكل ، مجتهد في الله ، ذائب في شر دين الله ، غير طامع إلى ما يطمح إليه
غيره من رتبة أو دولة أو سلطان .

« ولو كان غير ذلك لما استطاع أن يلاقى من العرب العلاظ احتراماً وإجلالاً
والكبراً ، ولما استطاع أن يقودهم ويعاشرهم معظم وقته ، ثلاثاً وعشرين حجة وهم
ملتقون حوله ، يقاتلون بين يديه ويجهدون معه . لقد كان في قلوب العرب
جماء وعصنة ، وكان من الصعب قيادتهم وتوجيههم . لهذا كان من يقدر على ترويضهم
وتدليلهم بطلا . وإيم الله .

« ولولا ما وجدوا فيه من آيات البيل والفصل لما خضعوا لإرادته ، ولما انقادوا
لمشيئته .

« وفي حى أنه لو وضع قيصر بناجه وصوبلجته وسط هؤلاء القوم بدل هذا النبي ،
لما استطاع قيصر أن يجبرهم على طاعته ، كما استطاع هذا النبي في ثوبه
المرقع . . . !

« هكذا تكون العظمة . . . !

« وهكذا تكون الطولة . . . !

« وهكذا تكون العبقرية . . . !

« تولستوى » :

ولمعت لبس صحافة إلى الحديث عن « تولستوى » أدب وكاتب روسيا الأعظم .
لقد كان من هؤلاء الذين سميت نفوسهم إلى درجة لا تكاد نجد لها مثيلاً في التاريخ
إلا نادراً كانت سعادة الإنسانية همه الملازم في كل آونة كان باستمرار يصكر
في تحفيف ويلات نبي الإنسانية . في معالجة مرضاهم ، في تسلية بالسهم ، في إطعم
جانحهم . في التحفيف من مكوسهم . ونكل بمقاورة الدين تسموهم عبقريتهم
عن المسوى العادى ، صدف في حياته العقبات وآلام ، وبغض الحافدين ،
وكراهية الدين لا يحبر الحق .

ومن مآثره الكريمه أنه حينما رأى الحملة الطائلة على الإسلام ، وعلى رسول
الإسلام ، كتب رأيه في هذا لدين الذى أعجب به وتحدث عن رسوله الذى دل
أكبره ، وكان جزاؤه على ذلك ، أى على كلمة الحق التى يدين بها . أن حرمه
الابا من رحمه الله ، فكان ذلك كما يقرن الشيخ محمد عبده محاطاً بالأدب الكبير :
« قلبى ما حصل لك من رؤساء الدين سوى اعتراف منهم أعذوه للناس :
أنك لست من القوم الصالين » .

ونحن ننشر هنا كلمة صغيرة جداً من رأيه ، ثم نشر خطاب الشيخ محمد عبده
الذى وجهه إليه :

يقول « تولستوى » :

« لا ريب أن هذا النبي من كبار الرجال المصلحين الذين تخدموا الهيئة لاجتماعية
خدمة حليمة . ويكفيه فخراً . أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق ، وجعلها تبجح
للسلام ، ونكف عن سفك الدماء وتقديم الصحايا . . .

« ويكفيه فخراً : أنه فتح طريق الرق والتقدم ، وهذا عمل عظيم لا يهور به
إلا شخص أوق قوة وحكمة وعلماً . ورجل مثله حدير بالاحترام وإجلال . . . »

أما خطاب الشيخ محمد عبده فهو التالى (١) :

« أيها الحكيم الخليل مسير تولستوى .

« لم نخط بمعرفة شخصك ، ولكننا لم نحرّم التعارف مع روحك سطر علينا

(١) وقد شره الشيخ رشيد رضا في كتابه عن الشيخ محمد عبده .

دور من أفكارك ، وأشرق في آفاقنا شمس من آرائك ألعت بين نهوس العقلاء ونفساك . هداك الله إلى معرفة سر الفطرة التي فطر الناس عليها ، ووفقك إلى العاية التي هدى الشر إليها ، فأدركت أن الإنسان جاء هذا الوجود لئلا يعلم ، وشعر بالعمل ، ولأن تكون ثمرته عباً ترتاح به نفسه ، وسعياً يتيق ويرى حسنه ، وشعرت بالشقاء الذي نزل بالناس ، لما انصرفوا عن سنة الفطرة . وبما استعملوا قواهم التي لم يمنحوها إلا يسعدوا بها ، فيما كدر راحتهم ، وزرع طمأنينتهم . . .

« وبطرت نظرة في الدين مزقت حجب لتقاليد ، ووصلت بها إلى حقيقة التوحيد ، ورفعت صروتك تدعو الناس إلى ما هدث الله إليه ، وتقدمت أمامهم بالعمل لتحمل نفوسهم عليه ، فكما كنت بقولك هدياً للعقول ، كنت بعملك حديثاً للعرائم والهمم . وكما كانت آرائك ضياء يهتدى بها الضالون كان مثالك في العمل إماماً يقتدى به المسترشدون .

« وكما كان وجودك توبيخاً من الله للأعنياء ، كان مدداً من عيابه للصعفاء والفقراء . وإن أرفع مجد بلغت ، وأكبر جلاء نلت على متاعك في النصيح والإرشاد ، هو هذا الذي سماه العاقلون بالحرمان والإبعاد ، فليس ما حصل لك من رؤساء الدين سوى اعتراف مهم أعنوه للناس أنك لست من انقوم بصلاتهم . فاحمد الله على أن فارقوك في أقواهم . كما كنت فارقهم في عقائدهم .

« هذا وإن نفوسنا لشبكة إلى ما يتجدد من آثار قلبك . فيما تستقبل من أيام عمرك .

« وإنا نسأل الله أن يمد في حياتك ، ويحفظ عيبك قواك . ويفتح أبواب القلوب لهم قواك ، ويسوق النعوس إلى التأسى بك في عملك والسلام . . . »

« اللورد هيدلي » :

كان لإسلام اللورد هيدلي ضجة كبيرة ، لمركزه ولما يعلمه فيه عارفوه من بضح في التفكير ، وترو في الأمور

كيف أسلم اللورد هيدلي ؟

ما هي العوامل التي دعت إلى اعتناق الإسلام ؟

إننا في الصفحات التالية سندكر حملة من النصوص ترشد القارئ إلى سبب رفضه لمسيحية وإلى سبب إسلامه . وإلى تصويره لكثير من وجهات النظر الإسلامية .

وهو يقول .

« عندما كنت ألقى أبا نسي الرمن الطويل من حيائي الأولى في جو المسيحية ، كتب أشعر دائماً أن الدين الإسلامي به الخس ، ولسهولة ، وأنه حلو من عقائد الرومان والبروتستانت . . . »

« وثبتني في هذا الاعتماد ريارتي للشرق التي أعصب دأك ، ودراسي القرآن المجيد . »

له الله . . لكم تألم وقاسي في سبيل وصوله إلى الحق . استمع إليه يقول .

« فكرت وصليت أربعين سنة ، كي أصل إلى حل صحيح .

« ويجب على أن أعرف أيضاً أن ريارتي للشرق ملأني احتراماً عظيماً للدين المحمدي السلس الذي جعل الإنسان بعد الله حقيقة طول مدة الحياة ، لا في أيام الآحاد فقط . »

ويرى أن الإسلام هو الدين العالمي حقاً :

« أيمكن إدراك ، أن يوجد دين ، يمس العام الإنساني من أن يجمع أمره على عبادة الله الواحد الحقيقي ، لدى مرفوق الجميع . وأمام الجميع ، بطريقة سهلة خالية من الخشوع ؟

« فكر لحظة وذلك تكبير لآرم لكمال الشر في الحقيقة - أنه لو أصبح كل فرد في الإمبراطورية الإنجليزيرة عملياً حقيقياً بقلبه وروحه لأصبحت إدارة الأحكام أسهل من ذلك ، لأن الناس سيعملون بدين حقيقي . »

وها هو ذا يعبر عن الشكر حينما هداه الله :

« روح الشكر هي خلاصة الدين الإسلامي ، والانهال أصل في طلب القيادة والإرشاد من الله .

« إنه وإن كان شكري لله على كرمه وعنايته كان متأصلاً في من صغري وأيام حداثتي ، إلا أنني لا أستطيع أن أشاهد ذلك من خلال أسس لقلبية الماضية

التي نرى فيها انبياء الإسلام بي حقاً وملك رشدي صدقاً ، وأقمتي نقاؤه ، وأصبح حقيقة راسخة في عقلي وفؤادي ، إلا التفت بسعادة وطمأنينة ما رأيتهما قط من قبل ، كما أستشقت هواء الحر الخالص اتقى ويتحقق من سلاسة وصياء وعظمة الإسلام ومجده . أصبحت كرجل مر من سرداب مظلم إلى عسج من الأرض نصيبه شمس النهار .

وما يذكر من تعاليم الإسلام مشيداً به :

« ليس هناك في الإسلام إلا إله واحد عبده ونبيه ، إنه أمام الجميع ووق لجميع ، ويسر هناك قلوب آخر أشركه معه ، إنه من المدهش حقاً أن تكون المحبقات انشورية دوات العقول والألأاب على هذا القصر من الغاوة يسمحون للمعتقدات والحيل الكهوتية أن تعجب عن نظرم رؤى السماء ، رؤية أبيهم القهار المتصل دوماً بكل مخدوقاته ، سواء كانوا عديين أم أولاء مقلسين .
« مفتاح السماء موجود دائماً في مكانه ، ويمكن إدارته لأدل وأقل لمخلوقات دون أية مساعدة من نبي أو كاهن أو ملك . إنه كاهن الله ستنشقه محاماً لكل خلق الله .

« أما هؤلاء الذين يحسدون الله يعمدون غير ذلك ، فما دعاهم إلى هذا العمل إلا حب العائنة .

« ليس عرصي الرئيسي أن أهاجم أي فرع معين من فروع الديانة ، لأنني خلال سلاسة الديانة الإسلامية ، التي هي حانية في نظر الكاتب المنصف من العوائق الظاهرة حلياً في كثير من الديانات الأخرى . . .

ولقد افترى كثير على الإسلام وهما هو ذا يرد على أهراءهم

« ليس في وسع الإنسان ، في الحقيقة ، إلا أن يعتقد أن مدعى وناسجي هذه الالهراءات ، لم يتعلموا ، حتى ولا أول مبدئ دينهم ، ولا لما استطاعوا أن يشروا في جميع أنحاء العلم ، تقارير معروفاً لديهم أنها محض كذب واحتلاق

« إن تعاليم القرآن الكريم قد نهدت ومورست في خلال حياة محمد الذي - سواء في أيام تحمله الألم والاضطهاد ، أو في زمن انتصاره ونجاحه - أظهر أشرف الصفات الخلقية التي لا ينسى مخلوق آخر ، صهره .

« فكل صفات العصر والثياب في عصره كانت يرى أثناء الثلاث عشرة سنة التي تأملها في مجاهداته الأولى بحكمة ولم يشعر في كل زمن هذا الجهاد بأي ترزعزع في الثقة بالله ، وأتم كل واجباته بشمم وحمية .

« كتاب ، صلى الله عليه وسلم ، مثابراً ، ولا يخشى أعداءه لأنه كان يعلم بأنه مكلف بهذه المأمورية من قبل الله ، ومن كلفه هذا العمل لم ينحني عنه . .

« وقد أثارت تلك لشجاعة التي لا تعرف الجفول . تلك الشجاعة التي كانت حقاً إحدى مميزات وأوصافه العظيمة . إعجاب واحترام الكافرين وأولئك الذين كانوا يشتهرون قننه . . ومع ذلك فقد انتهت مشاعرنا ، وازداد إعجابنا به بعد ذلك في حياته الأخيرة ، أيام انصاره بالمدينة ، عندما كانت له القوة والقدرة على الانتقام ، واستطاعته الأخذ بالثأر ولم يفعل ، بل عفا عن كل أعدائه .

« العفو وإحسان والشجاعة ، ومثل هاتيك الصفات ، كانت ترى منه في كل تلك المدة ، حتى إن عدداً عظيماً من الكافرين اهتموا إلى الإسلام عند رؤية ذلك

« عفا بلا قيد ولا شرط عن كل هؤلاء الذين اضطهدوه وعذبوه ، آوى إليه كل الدين كانوا قد نكروا من مكة ، وأغنى فقرهم وعفا عن ألد أعدائه ، عندما كانت حياتهم في قبضة يده تحت رحمته . . . !

« تلك الأخلاق الربانية التي أظهرها النبي الكريم ، أقنعت العرب بأن حاترها يجب أن لا يكون إلا من عند الله ، وأن يكون رجلاً على الصراط المستقيم حقاً . وكراهينهم المتأصلة في نفوسهم ، حولتها تلك الأخلاق الشريفة إلى محبة وصدقة متينة

« محمد المثل الكامل . . .

« نحن نعتبر أن نبي بلاد العرب الكريم ، ذو أخلاق متينة ، وشخصية حقيقية ، رزنت واختبرت في كل خطوة من خطا حياته ، ولم ير فيها أقل نقص فقط

« وبما أننا في إحياء إلى نموذج كامل يقي بحاجتنا في خطوات الحياة ، فحياة النبي المخلص تسد تلك الحاجة

حياته محمد كمرآة أمامنا نعكس عليه التعامل الراقى ، والسجاء والكرم ،
والشجاعة والإقدام ، والبصير والحلم ، والوداعة والعزم ، وباقي الأخلاق الجوهرية
التي تكون الإنسانية .

« ونرى ذلك فيها بألوان وصاعدة خذ أي وجه من وجوه الآداب وأنت تتأكد
أنك تجلده موضحاً في إحدى حوادث حياته .

« ومحمد وصل إلى أعظم قوة ، وأتى إليه مقاوموه ووجدوا منه شفقة لا تجرى ،
وكان ذلك سبباً في هلايتهم . » ١

رحم الله اللورد هيلز وجزاه عن الإسلام خير الجزاء . .

« الشيخ عبد الواحد يحيى » .

ولعل « دينيه » قد اتصل في أواخر حياته بفكر آخر من أعلام المفكرين ،
هو عالم الفيلسوف الحكيم ، المصري « ربيه جيو » الذي يدعى اسمه في أوروبا
فاطمة وفي أمريكا ، والذي يعرفه كل هؤلاء الذين يتصلون بالدراسات الفلسفية
والدينية . وقد كان إسلامه ثورة كبرى هزت ضمائر الكثيرين من ذوي البصائر
الطاهرة ، فافتقدوا به ، واعتقوا الإسلام ، وكثروا جماعات مؤمنة مخلصه ، تعبد
الله على يقين في معازل الكاثوليكية في الغرب .

وكان سبب إسلامه بسيطاً منطقياً في آن واحد :

لقد أراد أن يعتصم بنص مقدس ، لا يأتيه الناطل من بين يديه ولا من خلفه ،
فلم يجد بعد دراسة عميقة سوى القرآن ، فهو الكتاب الوحيد الذي لم يناله
التحريف ولا التبديل ، لأن الله تكمل محفظه ، وحفظه حقيقة : « إن نحن نزلنا
الذكر وإنا له لحافظون » .

لم يجد سوى القرآن نصاً مقدساً صحيحاً ، فاعتصم به ، وسار تحت بوائمه ،
هضمه الأمن النفسي في رحاب الفرقان

ومؤلفاته كثيرة مشهورة ، من بينها كتاب « أزمة العالم الحديث » ، يشرح فيه
الانحراف الذي تسير فيه أوروبا الآن ، والاضلال المكين الذي أعشى الغرب عن
سواء السبيل .

أما كتابه : « الشرق والعرب » فهو من الكتب الخالدة ، التي تجعل كل

شرقي يفخر بشرقيته وقد رد فيه إلى الشرق اعتباره . مبيهاً أصالته في الحضارة ،
وسموه في التفكير ، وإنسانيته التي لا تقاس بها مادية الغرب ومصاده وامتصاصه للدماء ،
وعدوانه الذي لا يقف عند حد ، وطمعه المؤسس على المادية والاستغلال ، ومظهراً
في كل صفحة من صفحاته نبل الشرقيين وعمقهم ، وفهمهم للأمور فهماً يتفق
مع الفصيلة ومع أسس المبادئ الإنسانية . . .

وقد كتبنا عنه تقريراً لإحدى جامعاتنا المصرية ، للتعريف به ، نشره فيما يلي .
« ريبه جيو » من الشخصيات التي أخذت مكانها في التاريخ ، يضعه
المسجون بحوار الإمام الغزالي وأمثاله . ويضعه غير المسلمين بحوار أفطوليس ،
صاحب الأملاطونية الحديثة ، وأمثاله .

« وإذا كان الشخص ، في بيتنا الحالية ، لا يقدر التقدير الذي يستحقه إلا
بعد وفاته ، فقد كان من حسن حظ " ريبه جيو " أنه قسر أثناء حياته ، وقدر
بعد وفاته . أما في أثناء حياته ، فكان أول تقدير له أن حرمت الكنيسة قراءه
كتبه ، والكنيسة لا تفعل هذا إلا مع كبار المفكرين الذين تحشى خطيرهم ، وقد
وصفته بذلك بحوار عاقرة الفكر ، الذين اتحدت اتجاههم نفس المسالك ، ولكنها
رأت في " ريبه جيو " خطراً يكبر كل خطر سابق ، فحرمت حتى الحديث عنه .

« وإذا كان هذا تقديراً سلبياً له فيمنه ، فهذا التقدير الإيجابي ، الذي
لا يقل في أهميته عن التقدير السلبى ، فهناك هؤلاء الذين استجابوا لدعوة
" ريبه جيو " فألغوا جمعيات في جميع العواصم الكبرى في العالم ، وعلى الخصوص
في سويسرا وفي فرنسا . والمكونون لهذه الجمعيات احتدوا حدو " ريبه جيو " ، فاحتلوا
الإسلام دساً ، وانظاهرة والإخلاص وطاعة الله ، شعراً وديناً . وكوبن ، وسط
هذه المادية السبعة . وهذه الشهوات المتعلقة ، واحات جمية يلجأ إليها كل من
أراد الظهور والطمأنينة

« ومن التقدير الإيجابي أيضاً ، أن كتبه ، رغم محريم الكنيسة لقراءتها ،
قد انتشرت في جميع أرجاء العالم ، وطبعت مرة بعد الأخرى ، وترجم الكثير منها
إلى جميع اللغات الحية المعاصرة ، ما عدا اللغة ، للأسف الشديد
« ومن الطريف أن بعض الكتب ترجم إلى لغة الهند الصينية ، ووصفت

كشرح لوصية الأخيرة من وصايا "الدالاي لاما" ولم يكن يوحد في العرب شخص متخصص في تاريخ الأديان ، إلا وهو علي علم بآراء "رييه جيرو" .

« كل هذا التقدير كان في حياته .

« أن يعد مجاته ، فقد راد هذا التقدير : لقد كتب عنه جميع صحف العالم ، ومنها بعض المصحف المصرية العربية .

« وقد خصصت له مجله : " فرنسا - آسيا " ، وهي مجله محترمة ، عدداً صحفاً ، كتب فيه كبار الكتاب الشرقيين والغربيين ، وافتتحته بتقدير كاتب فرنسا الأكبر " أندريه جيرو " وقوله في صراحة لا ليس فيها : إن آراء "رييه جيرو" لا تنقص .

« وخصصت مجلة " إيتودترا ديسبويل " ، وهي المجلة التي تعتر في العرب كله لسان التصوف الصحيح ، عدداً صحفاً من أعدادها ، كتب فيه أيضاً كبار الكتاب الشرقيين والغربيين .

« ثم خصص له الكاتب الصحفي لشهر ، " بول سيران " ، كتاباً صحفاً تحدث فيه عن حياته وعن آرائه ، ووضعها ، كما وضعه الآخرون الذين كتبوا عنه ، في المكان انلائق به ، بجوار الإمام الغزالي أو الحكيم أفلوطين .

« نشأ "رييه جيرو" في فرنسا من أسرة كاثوليكية ، ثرية محافظة ، نشأ مرهف الحس ، مرهف الشعور ، مرهف الوجدان ، متجهاً بطبيعته ، إلى التفكير العميق والأبحاث الدقيقة ، وهاله ، حينما نضج تفكيره ، ما عليه قومه من ضلال ، فأخذ يبحث ، في حد عن حقيقة ، ولكن أين هي ؟ أفي الشرق أم في الغرب ؟ وهل هي في السماء أو في الأرض .

« أين الحقيقة ؟ سؤال وجهه "رييه جيرو" إلى نفسه ، كما وجهه من قبل إلى نفسه الإمام المحاسبي ، والإمام الغزالي ، والإمام محيي الدين بن عربي ، وكما وجهه من قبلهم عشرت من المفكرين الذين أدوا أن يستنموا للتقليد الأعمى . وثائق فترة الشك والحيرة والألم الممض ، ثم يأتي حود الله وكان حود الله ، بالنسبة إلى "رييه جيرو" أن سهرته أشعة الإسلام الخالدة وعمره صياؤه الدهر ، فاعتنقه

وتسمى باسم الشيخ عبد الواحد يحيى ، وأصبح جندياً من جسوده يدافع عنه ويدعو إليه .

« ومن أمثلة ذلك ما كتبه في كتابه "رمزية الصليب" تقييداً للعقيدة التي تقول : إن الإسلام انتشر بالسيف . ومن أمثلة ذلك أيضاً ما كتبه في مجلة "كاييه دى سود" في عددها الخاص بالإسلام والعرب دفاعاً عن الروحانية الإسلامية : لقد أذكر الغربيون روحانية الإسلام أو قللوا من شأنها ، وأشدوا بروحانية المسيحية وأكبروا من شأنها ، ووصعوا التصوف المسيحي في أسنى مكانة وقللوا من شأن التصوف الإسلامي . فكتب الشيخ عبد الواحد يحيى ، مبيناً سمو التصوف الإسلامي وروعته ، وقارن بينه وبين ما يسمونه بالتصوف المسيحي ، أو "مستيزم" ، وانتهى بأن هذا المستيزم لا يمكنه أن يسبح ، ولا عن بعد ، ما بلغه التصوف الإسلامي من سمو ومن حلال .

« عني أن الشيخ عبد الواحد يحيى لم يشد بالإسلام محسب ، وإنما أشاد في جميع كتبه ، وفي مواضع لا تأتي عندها الحصر ، بالشرق .

« لقد ذُبح الاستعمار على أن يغرس في نفوس الشرقيين : أنهم أقل حضارة ، بل أقل إنسانية من الغربيين . . . وأتى الشيخ عبد الواحد ، فقلب الأوضاع رأساً على عقب ، وبين للشرقيين قيمتهم وأنهم منبع النور والهداية ، وشرق الوحي والإلهام . »

« الدكتور جريشيه » :

قال الرحالة السيد محمود سام ، في مقال له ، نشر في مجلة المنار ، مجلد ١٤ ص ٥١٨ : قصدت ، في سياحاتي ، مدينة "بونتارليه" لمقابلة الدكتور "جريشيه" المسلم الله صاوي الشهير ، الذي كان في السابق عضواً في مجلس النواب . قابلته لأجل أن أسأله عن سبب إسلامه . فقال : « إني تثبعت كل الآيات القرآنية التي لها ارتباط بالعلوم الطبية والصحية والطبيعية ، واتى درستها من صغرى ، وأعظمها جيداً . فوجدت هذه الآيات مطبقة كل الانطلاق على معارفنا الحديثة . فأسمت لأنى ثبقت أن محمداً ، صلى الله عليه وسلم ، أتى بالحق لصراح من قبل ألف سنة ، من قبل أن يكون معلم أو مدرس من البشر ولو أن كل صاحب فن من الفنون ،

أو علم من العلوم ، فإن كل الآيات القرآنية المرتبطة بما تعلم جيداً ، كما قرئت أن . . . للإسلم بلا شك ، إن كان عاقلاً حالياً من الأعراض .

لماذا أسلم « دينيه » ؟

ولمعد إلى « دينيه » ، فتساءل : كيف ولماذا أسلم ؟ وما الميزات والخصائص التي جعلته يمنح الإسلام من الثقة ما لم يمنحه للمسيحية ؟

لقد كانت الشكوك الكثيرة تدور في نفسه ، عندما وقعت في يده نسخة من مجلة إنجليزية ، فإذا به يجد فيها جواباً عن أسئلته ، إذ قرأ فيها :

« لماذا صار بعض الإنجليز وغيرهم من الأوروبيين مسلمين ؟

« ذلك لأنهم كانوا يتلمسون عقيدة سهلة معقولة ، عملية في جوهرها — لأننا معاشر الإنجليز نشجع بأننا أكثر أهل الأرض تشبهاً بالعمل — عقيدة تكون ملائمة لأحوال جميع الشعوب وعاداتهم وأعمالهم ، عقيدة دينية صحيحة يقف بها المنهوق أمام الخلق بدون أن يكون بينهما وسيط » .

أحق هذا ؟

إن « دينيه » لا يأخذ الأشياء قضية مسلمة . وإذا كان العقل يعجز عن اختراق الحجب ليصل إلى ما وراء الطبيعة ، فإنه مع ذلك الأداة التي ترشدنا إلى وجه الحق فيما يعرض لنا من أمور . وأخذ يبرن الأمور . وأخذ يبحث .

أحق أن للإسلام « هو العقيدة الدينية الصحيحة »

صلاحية العقيدة الإسلامية لكل زمان ومكان :

وكان من التوفيق أن سافر « دينيه » إذ ذاك إلى الجزائر ، وتقل في بلاد المغرب ، فحافظ المسلمين وعاشروهم ، وتمع بهم ، وسأهم ونقشهم ، وفكر وتأمل ، فرأى ، كما يذكر في رسالته « أشعة خاصة برر الإسلام » .

« أن العقيدة المحمدية لا تقف عقبة في سبيل التفكير ، فقد يكون المرء صحيح

الإسلام ، وفي الوقت نفسه حر التفكير .

« وكما أن الإسلام قد صلح . منذ نشأته . لجميع الشعوب والأجناس ، فهو

صالح كذلك لكل أنواع العقائد وجميع درجات المدييات ، وأن تعاليم المعتزلة ، ذات القرابة المستترة والصلة الخفية بتعاليم الصوفية ، تجد مكاناً رحيماً وقبولاً

حسباً ورضاء سهلاً ، سواء عند العالم الأوربي ، أو عند الزمجي الإهريق
وهو الذى يصعب على امرء تحصيله من معتقداته الخرافة ومن معبوداته وأصنامه .

« وبينما تجد للإسلام يهيج من نفس الرجل العملي فى أسواق لندن ، حيث مبدأ
القوم " الوقت من ذهب " إذ هو بأحد باب ذلك الفيلسوف الرومانى .
« وكما يتقبله - عى رصاً - ذلك الشرقى ذو التأملات ورب الخيال ، إذ يهوده
ذلك انفرجى الذى أفناه المن وتمككه لشعر » (١) .

لقد وقرت هذه لفكرة فى نفس « ديبه » حتى إنه ليردها فى الكثير من كتبه
فما بعد يقوب فى آخر كتبه « الحجج إلى بيت الله الحرام » ، « لو كان الإسلام
الحقيقى معروفاً فى أوربا لكان من المحتمل أن يدل - أكثر من أى دين آخر
من العطف والتأييد من جراء روح التدين التى نجمت عن الحرب الكبرى ،
هأنه - والحق يقال - بلائم جميع ميول معتقيه عن اختلاف مشاربهم ، فهو
بساطته المتناهية - كما يذهب إليه المثرة - وباشتهاله على روح التصوف
- كما يذهب إليه الصوفية - يهدى علماء أوربا وآسيا إلى الطريق المستقيم ، ويجنون
فيه تعزية وسلوى من غير أن يحول بينهم وبين حريتهم التامة فى آرائهم وأفكارهم .
« كما أن تعزية وهدى لزواج السودان الذين ينتزعهم من أحضان أوطانهم
الوثنية . . .

« ويرقى بروح ذلك لتاجر الإنصيرى ، رجل العمل الذى يعتبر الوقت من
ذهب ، كما يرقى بروح الفيلسوف المتدين ، ويسمو بنفس العربى انشغوف
بالفن والشعر ، بل هو يسحر لب الطيب العصرى بما مرره من «أوضوه المتكرر
كل يوم ، وما فى الصلاة من حركات منتظمة تفيد حسم والروح معاً . وفى وسع
حر لمكر - وهو ليس ملجداً حتماً - أن يعتبر لوجى الإسلامى عملاً من أعمال تلك
القرة الخفية التى نسميها " لإلهام " ، وأن يعتقد به من غير أية صعوبة بما أنه
لا يحتوى على أسرار خفية لا يسيعها لعقل » (٢) .

ويردد الفكرة نفسها فى كتابه عن حياة سيدنا محمد . لقد رسحت هذه الفكرة

(١) عن « أشعة خاصة بسور الإسلام »

(٢) من كتاب « الحجج إلى بيت الله حرم »

في نفسه من أول وهلة واستمرت معه إلى نهاية حياته . فقد وفر في دهنه أن الإسلام دين عام خالد .

الموازنة بين الإسلام والمسيحية :

ولكنه لأجل أن يتبين في وصوصح المروق الجوهرية بين الإسلام والمسيحية . ولأجل أن يصل إلى الحد لأسمى فيما يتعلق بالإخلاص بصميره الديني ، أخذ يوازن موازنة قيمة بين الإسلام والمسيحية فرأى .

(١) فيما يتعلق بالإله .

« الدين الإسلامي هو الدين الوحيد الذي لم يتحد فيه الإله شكلاً بشرياً ، أو ما إلى ذلك من الأشكال أما في المسيحية فإب لعص " الله " تحيطها تلك لصورة الآدمية لرجل شيخ طاعر في أسس قد ناست عليه جميع دلائل الكبر والشيخوخة والانحلال ، فمن تجاعيد بالوجه عائرة ، إلى حية ببصاء مرسنة مهملة تثير في النفس ذكرى الموت والقضاء ونسمع القوم يصيحون " ليحي الله " فلا يرى للعبادة محلا ، ولا نعجب لصبيحتهم وهم يبطرون إلى رمز الأندسة اندسمة وقد تمثل أمامهم شعباً هروماً قد بلغ أزدل العمر فكيف لا يحشون عليه من الهلاك والقضاء ؟ وكيف لا يطلبون له الحياة ؟ ! !

« كذلك " ياهو " الذي يمثلون به طهارة التوحيد اليهودي ، فهم يجعلونه في مثل تلك المظاهر المتبلكة ، وكذلك تراه في متحف " انفانتيكان " ، وفي نسخ الأناجيل المصورة القديمة

« أما " الله " في دين الإسلام اندى حدث عنه القرآن ، فلم يجرؤ مصور أو نحات أن تحرى به ريشته ، أو ينحته إرميله ، ذلك لأن " الله " لم يخلق الخلق على صورته وتعالى سبحانه هم تكن له صورة ، ولا حدود محصورة ، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد ، لم يكن له كفواً أحد » (١)

(ب) فيما يتعلق بالصلاة والنسك .

« إن الحركات والإشارات في الصلاة الإسلامية هي ذات بساطة ولطافة وببالة لم يسبق لها مثيل من نوعها في صلاة غيرها .

(١) آفة خاصة بورد الإسلام

« كما أنها لا تدعو الوجوه بالتظاهر والتكيف ، ولا العيون بالشخص إلى السماء واستئزال الدموع ، الذي نذكره بالدموع الخبسية التي يصبطنها مثلو " السبها " في عصره الحاضر . حقاً إن الصورة الإسلامية الحالية من تلك الأمور الشائنة التي حصها المسيحيون بالصلاة المسيحية ، مما جعلها في غير جمال ولا جلال ولا وقار . والأفئال والحركات التي في الصلاة الإسلامية هي ذات دلالة على الرزاة والحنوء والاطمئنان ، وهي خالية من مبالعات لورع وتكافآت المصروع ، والتظاهر بذلك مما هو عريب في العادات ، لأن الله سبحانه وتعالى عليم بما في الصدور وهو العي الحميد .

« ثم إن من الأمور العربية تخصيص وجود الإله في اسماء عدد دعوته ؛ وهذه الحال تحمل في طياتها إلحاداً ؛ إذ تجعل لسماء ملى الإله ، وتنقى هناك عنه صفة الوجود في كل مكان .

« وحركات لصلاة الإسلامية ، فوق تعبيرها التام عما تحمل نفوس المؤمنين من العاطفة النبيلة نحو المولى الكريم ، تقوم للجسم بأعظم مراتب الحركات الرياضية ؛ فهي مفروضة الأداء خمس مرات في اليوم الواحد ، وكلم من شيخ كبير وبدين سمين ، يستطيع كلاهما اسجود والركوع والوقوف دون كبير عناء ولا مشقة . مما لا يستطيعه المسيحي في مثل هذه السن ، أو في مثل هذا الحال ما لم يكن قد رُوّص على ذلك من قبل . أصف إلى ذلك حكمة الوصوء الذي يسوق كل صلاة ، فيها للبدن انتعاش وصحة ونضارة ، والنضارة من الإيمان» (١)

(ج) في التسامح :

يقول القس « ميشول » في كتابه « سياحه ديبية في الشرق » : « إنه من العجوز أن يتلقى المسيحيون عن المسلمين روح التسامح وفصائل حسن المعاملة ، وهما أقدس فواعل الرحمة والإحسان عند الشعوب ولأهم » .

(د) في العلم :

رفع النبي محمد قدر لعلم إلى أعظم الدرجات وأعلى المراتب (٢) ، وجعله من أول

(١) أشعة خاصة بنور الإسلام

(٢) يقول فضيلة الشيخ محمد خضر حسين : « هو الإسلام باعتقوله من وحدة الحبول ، وأذن لما =

واجبات المسلم في ذلك يقول : « اطلبوا العلم ولو بالهدين » ، و « يورث يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء » ، و « شرار العلماء الذين يأثرون لأمراء ، وحيار الأمراء الذين يأثرون لعلماء » ، و « فصل العلم خير من فضل العبادة » .

وقد نظر المسيو « كارا، وفا » أحد كبار أساتذة الكوليج دى « اس بياريس » في هذه الكلمات العائيت ، وكيف يدونها أحد أصحاب الديانات ، فعلق على ذلك بقوله :

« يعتقد الكثيرون ما أن المسلمين لا يستطيعون مثل آرائنا وهضم أفكارنا . يعتقدون ذلك ويسرون أن نبي الإسلام هو القاتل بأن فصل العلم خير من فصل العبادة !! فأى رئيس ديني كبير ، أو أى قس من القساوسة المعظام كات به المرأة أن يقول مثل هذه القول القوي العاقل المتين ؟! هذا القول الذي هو نفسه عنوان حياتنا لفكرية الحاضرة . نعم إن هذا هو مستدنا اليوم ، ولكن أليس لمهد بقريب

كان تبحث في كل علم ، وتذهب في البحث كل مذهب ، فوجدت أنهم من العرب وغير العرب في هذه الصلة ما أثار إعجابهم للبحث في كل ناحية من دوحى الاسم ، فلم يشعروا أن جسدوا القرآن الكريم في مصحف ، ودرسوا الحديث النبوي بعد أن كان محفوظاً في الصدور ، وكتبوا في تفسير القرآن ، وشرح السنة النبوية ، وحققوا النظر في تقرير أصول الدين وأصول لغته ، وحرروا وجوه استنبط لأحكام العملية ، وروضوا رسماً العلوم العربية ، من النحو ، والصرف ، والبيان ، وفقه اللغة ، ودرسوا العلوم النظرية العملية من الكتب اليونانية وغيرها ، فأصبحت بلاد الإسلام ولا سيما عواصم أمالك ك بغداد ، وقرطبة ، ومصر ، ودمشق ، وتونس موارد العلوم الإسلامية والأدبية والكوفية . ومن هذه الموارد امتدحت الأمم الأوروبية معانيها وفنونها ، وقد عرف بهذا كثير من علماء أوروبا المنصفين . قد الأستاذ يريفوت الإنجليزي في كتابه « تكوير إنسانية » في « القرن التاسع تعلم كثير من المسيحيين عند علماء الإسلام » ، وقال « إن رئيس دير كلوني يأمره على أنه رأى أثناء إقامته بالأندلس الطلبة من قروب وأندب ورجسنتوا يردون أهواجاً أوأجاً إلى مركز نعامية العربية » ، وقال « ولعلم هبة عظيمة الشأن جاءت بها الحصة العربية من العلم الحاضر »

« ولم يكن فصل لإسلام عن أوروبا من ناحية نعلم فقط ، بل كان به الفصل في مهنتي المدنية ، قال الأستاذ يريفوت في الكتاب المذكور « لم تكن إيطاليا مهداً لحياة أوروبا الحديثة ، بل إسبانيا (الأندلس) لأن أوروبا كانت تمتع أشد أعناق الجهل والفساد ظلمة ، فيها الدم العربي ، بغداد ، والفاخرة ، وقرطبة ، ونيطة كاد مركز الحضارة والنشاط العقل ، ومن ثم ظهرت الحياة الحديثة التي تمت في شكل ارتقاء يساق جديد »

« وخلاصة الفصل : أن دعوة خادم النبي صلى الله عليه وسلم - قد أثبت العام بصروب خفيفة من إصلاح م نأته بها دعوة سبقها أو تأخرت عنها . فما يوجد في العام من عداية صادقة ، أو عدم دعة ، أو مدنية دعة ، فربما يرجع الفضل فيه لدعوة هذا الدين القويم

« فبرفع النبي المسلم رأسه معتزاً يدين رجع الإنسانية من حسيص الجهن إلى أوج العلم ، وهدات سبل السادة الباقية ، والمعدة المهلدة (ومن أسس قولاً من دعا إلى الله وحمل صلياً وقال إلى من المسيحيين) (من رساله من سيدنا محمد)

(١) الجزء الأول من كتاب الإحياء للقرال

يوم كانت لكافة حندا من أهل العقول تنظر إلى مثل هذا إشعار كأنه رمز العار ويجسد إشعار ١٩ !

« كما أنه سوف يقال . إن أوضح مبادئ الحرية العسكرية قد كسبت أمثال " لوثير " و " كالفين " وعاد الفصل فيها إلى رجل عربي من رجال القرن السابع ، ذلك هو صاحب شريعة الإسلام » (١) .
(هـ) في القروسية .

وينظر المسيحيون إلى « سان لويس » وكأنه المدوح الأعلى ناشرة المسيحية الناصجة . غير أن الوثائق التاريخية تثبت في وضوح وسهولة - أن حصنه صلاح الدين الأيوبي كان أرفع منه قدرًا في الحصاره وفي الشجاعه وفي معاملة الخصوم . والقروسية وببالة قصدها . لم يكن يعرفها الأقدمون من اليونان والرومان ، ولكنها كانت معروفة عند العرب أمام جاهليتهم ، ثم هذبها الإسلام وطهرها تطهيراً . وعلى إثره دحمت أوربا ووصت إينا نحن العربيين ولم يبق أحد اليوم ينكر نسبتها إلى العرب .

وقد ذكر العام المسيحي المتدين « نارتهمي سان هيلار » في سياق حديثه عن القرآن

« إن العرب هم الذين رجع إليهم الفصل على سادات أوربا . وقرساتها . في لقرون الوسطى ، في تعديل عاداتهم الخشنة وتعطيلها ، ثم تعليمهم رقة العظمة ، وتخليب نومهم ، ورفعهم إلى حيث لإنسانيه وسانية وكل ذلك دون أن نصيبهم ضعف يفقد من « روسيتهم وشجاعتهم شيئاً » .

ويحطى من بعض أن هذا راجع إلى المسيحية وحدها رغم ما فيها من المزايا والفصائل . وقد حفظ لنا التاريخ في سجلاته عن «روسية العرب وروحها العالية جميع أدلة العظمة الموشاة بالرفقة والتهذيب وقد ذكر منها الكثير واصف بطرس غالي في كتابه « فروسية العرب » :

« كان محمد يحب النساء ويمهجن ، وقد عمل جهده طاقته لتحريرهن ورعا كان ذلك مانقوة الحسة التي استنها وبالقواعد والتعاليم التي وضعها . وهو يعد بحق من أكثر أنصار المرأة العندين إن لم يكن أولهم . فلقد كان بهن رحيماً

وعليهن حليماً . وكان لين الجانب كثير العطف عليهن ، عظيم الاحترام والتكريم
من ، لم يكن ذلك خاصاً منه بزوجاته ، بل ذلك كان شأنه مع جميع النساء على
السواء .

(و) في العبريات العلمية :

ثم إنهم يفخرون بالعالم (باسنور) العربي ويعملونه حرة في تاج الحصادات
الحديثة ، ولكن فاتهم أن « جابراً » و « الرازي » لا يقلان عنه في مرتبة العلماء
والمفكرين ، فهما المؤسسان الحقيقيان لعلم « الكيمياء » بفضل ما كشفاه من طرق
التقطير ومن الكحول ومن « حمض الستريك » و « حمض الكبريتيك »^(١) .

إسلامه :

واستمر صاحبنا في الموازنة والمقارنة والتأمل والتفكير ، وأطال النقاش ثم أراد
الله له أن يسلم
وأسم إثنين دينيه واختار اسم « ناصر الدين » . وإن هذا الاختيار هو الذي
يحمد اتجاهه بعد ذلك خير تحديد . . ناصر الدين : إنه حقاً خصص حياته
لنصرة الدين الإسلامي ، ورأى أن نصرته ، عما تكون عن طريقين .
(أ) نصرته سياسياً .
(ب) نصرته دينياً .

أعداء الإسلام :

إن عنصرين من عناصر الشر يتألبان على الإسلام ويهاجمانه في عرينه . وهما :
رجال السياسة الاستعماريون ، ورجال الدين المتعصبون . ولا بد — لتكون نصرته
الإسلام كاملة — من أن يتحده الساع نحو الهدى وتطوع ناصر الدين نحو
العبادة التي يريد أن يسعى إليها ، فهاله الأمر ، وكتب معراً عن الواقع يقول .
« أهل السوء من أهل الكتاب لا ينتهكون بهاجمونا نحن المسلمين بالأباطيل
ويجادوننا بالمفتريات . . . وإذا نحن شئنا أن نحصى أكاذيبهم عيننا كانت

(١) لمعبر السابق .

فيها صفحة هي أسود لصحفات في سجل التعصب ، يشترك في تسويرها أعداء الإسلام قديمهم وحديثهم ، سواء منهم العلماء ، والرواد ، والقساوسة ، ورجال الحكومات ، والكتّاب ، أمثال يرون وبنجرف وجلاستون ، ومرجليوس ، وقسيس كانتردري ، ولأب لامنس ، والكتّاب لوي بوزان سرفيه ... وغيرهم^(١) .

الانتصار للإسلام سياسياً :

أما ، والأمر كذلك ، فلا بد من التمييز عن مساعد الجدد ، والنهوض جميعه في وجه عوامل هدم الإسلام هذه . ولكن كيف السبيل ؟
أما من جهة السياسة فإن ناصر الدين ليس من الساسة المحترفين ، ولذلك كانت مهمته في هذه الناحية التحدث إلى كل من يجد فيه روح الإنصاف من الغربيين ذوي النفوذ ، والعمل على إذاعة كل ما يمكنه إذاعته من آراء المصنفين منهم ، وتبني قضية الشرق المظلم .

ومن أمثلة ما كان يذيعه مثلاً ، ما يلي :

« ونشر أخيراً المسو " أوجس يوج " ، وكيل حكومة التوركيين الفرنسية سابقاً كتاباً عنوانه " استعادة الإسلام الحرب الصليبية الحديثة " وهذا الكاتب معروف بأنه من الكاثوليك المتحمسين لدينهم ، ولكنه معروف كذلك بأنه فرنسي من نخبة الفرنسيين ، وقد أنكر في كتابه هذا ، في كبير شجاعة وصراحة ، تلك الحروب الصليبية الحديثة التي يقوم بها اليوم " الفاتيكان " ، ذلك المركز الرئيسي المقدس ، حيث البابا الحبر الأعظم للمسيحية . وقد أظهر أنهم يقومون بذلك دون أن يفت في عضدهم ملل أو كلل ، أو أب يبال منهم أي تهاون أو كسل ، وإنما يقومون به من وراء ستار المداهنة ، وفي ثوب من الرياء يشف عما تحته .

« وبما جاء في كتاب المسو " يونج " قوله : " إننا نهيم من اليوم مقدمات حرب دينية شديدة الفزع والخلل " . ثم أظهر أن مصالح فرنسا الحيوية إنما هي في الصلح والائتاق الذي مع الإسلام ، ولذا ليرجو أن يكون لكلام هذا الفرنسي الكبير صدى بعيد وأثر محمود في مصلحة فرنسا والإسلام على السواء »^(٢) .

(١) عن : « أئمة خاصة بدور الإسلام » (٢) أئمة خاصة بدور الإسلام .

ومن جهة أخرى ، أحد يشر ما بصحيح فكرة الأوروبيين عن الشعوب الإسلامية ، ويبين أنها شعوب بعيدة كل البعد عن الحمجية والنوحش ، وأنها تمتاز بالوفاء وعرفان الجميل والكرم والشجاعة والفضائل المحموده ، ويبين أن ماضيها المحيد خير نبراس يرسل أشعت على المكرة الخاطئة الموجودة عند الغربيين ، فبريل ما غشي عليها من طمة .

وبلقت نظر الفرنسيين ، في قوة ، إلى ما أداه هم المسلمون من أباد جليلة في ميدان لحروب ضد أعداء فرنسا .

ومن ألدع : وجهاته للفرنسيين في هذ الميدان : أنه ، حبها ألف كتابه في السيرة النبوية ، أهداه للأرواح الجود الإسلامية التي استشهدت في الحرب الكبرى وهي محارب في صفوف الفرنسيين .

الانتصار للإسلام علمياً :

ومع ذلك فإن ميدانه الفسيح إما كان الدفع عن الإسلام ، باعتباره ديناً سماوياً ، لقد استنات في الدواع عن عقيدته التي يؤمن بها في بقين حار مطمئن وما راد من قيمة دفاعه هذه المورنات الكثيرة الدقيقة بين الإسلام والمسيحية في كثير من الأصول وفي كثير من الفروع . لقد درس الإسلام في عمق ، ودرس المسيحية في عمق ، ورأى أن هجوم رجال الكنيسة لا يقتر ، وتزريهم بالباطل لكل ميزة للإسلام لا ينقطع ، فدافع واشتد في دفاعه ، وهاجم — وكان لا بد من الهجوم — واشتد في هجومه ، وتوالت ضرباته للمسيحية ممثلة في رجال الكنيسة . ولكنه كان يعلم دائماً — كما هو الشأن في كل مسلم — احترامه للمسيح : لأنه رسول الله ، واحترامه للمسيحية الصحيحة التي يتحدث عنها القرآن ، لا تلك التي ابتدعها رجال من بني البشر . كان يعلم دائماً أن دين الله واحد ، وأن الإسلام أتى مصداقاً لما سبقه مصححاً لما ناه من تحريف ، مهيماً عليه وقد وعد الله بحفظ كتابه المقدس : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له عاقبون » . ولقرآن في العصر الحاضر هو الكتاب السماوي الوحيد الذي لم يبله . ولن ناله — تحريف أو تبديل

يقول الأستاذ راشد رستم — بحث — عن ناصر الدين :

« ولست لتجد الكاتب واسع الاصلاخ ، لسانك هو صحيح الحجة ، ناهض البرهان هو شديد الهجوم ، شديد الدفاع : ذلك لأنه عيور على دينه الذي لم

يتبعه إلا بعد أن بحث وفكر وهكذا كان في عقيدته مكيماً ، وفي إسلامه كاملاً^(١)

كان يصحح الأخطاء ، ويرد الهجوم ، ويهاجم ، ويوازن بين الإسلام والمسيحية وكان ، قل كل ذلك وبعد كل ذلك ، يبين الإسلام ويوضحه ويشيد به .

وكانت وسيلته إلى ذلك المقالات والمقاصد والرسائل والكتب ، فضلاً عن الأحاديث الشفهية .

التعريف ببعض كتبه :

ومن كتبه في ذلك :

١ الرسالة القيمة « أشعة خاصة بدور الإسلام » وقد ترجمها ترجمة أدبية مختارة الأستاذ راشد رستم ، وهي رد على الفكرة التي يدعيها القساوسة القائلة: إن الإسلام لم يأت بجديد . فقد انتعنا بها انتعاعاً عظيماً وكانت لما حير عود في عهد الحال .

٢ - وآخر ما ألفه هو كتاب « الأخخ إلى بيت الله الحرام » وقد نُرجمت خاتمة ونُشرت في مجلة جمعية الشباب المسلمين ، بقلم الأستاذ : م . توفيق أحمد ، وقد نقلنا بعضاً من نصوصها في ثنايا لكتاب الحاضر .

٣ - « الشرق كما يراه العرب » وقد ترجمه الأستاذ عمر فاحوري ، ونشر بدمشق مع رسائل أخرى تحت عنوان « آراء عربية في مسائل شرقية » وقد استفدنا منه كثيراً في البحث الراس .

٤ ومن أهم كتبه ما جعله تاريخاً حياً الرسوب عيه لسلام وهو السيرة النبوية في مجلد كبير جميل ، وضعه باللغة الفرنسية مع صديقه الخرائطي لحميم السيد الفاضل سليمان بن إبراهيم ورينه بالصورة المصورة النديعة الكثيرة المتعددة من ريشته الخاصة ، يمثل فيها المناظر الإسلامية في بلاد حُرثر وعالم الدين فيها وطعمه صعباً عذبة في الإتيان والعذبة ، وقدمه لأرواح الحمود الإسلامية التي استشهدت

(١) أشعة خاصة بدور الإسلام .

في الحرب الكبرى ، وهي تحارب في صفوف الفرنسيين^(١) ، ونشره كذلك باللغة الإنجليزية بنص الحجم الكبير والانتقاد الثام والكتاب في طبعته : قد تحلى بمختلف أنواع اللوحات الزخرفية الملونة ذات الأشكال العربية ، عربة في الدقة والإبداع ، وهي اللوحات التي قام بعملها خاصة السيد محمد راسم ، الجزائري أشهر رجال الزخرفة العربية ببلاد الجزائر^(٢) ، وينتج ثمن المسحة الواحدة من هذا لكتاب خمسة جنيهات مصرية . وبها تخدم جليلة للإسلام والمسلمين وبني الإسلام مشكورة مذكورة^(٣) .

وفاته :

استمر ناصر الدين طيلة حياته ياضل عن الإسلام كلين ، ويتناضل عن المسلمين كشعوب ، ويضع روحه ، وشعوره ، ووجدانه في هذا الدفع المحيد حتى ليكاد الإخلاص يتجسد خلال ما يسطره من عبارات .

وفي سنة ١٩٢٨ م قام السيد ناصر الدين بأداء فريضة الحج ، ووضع كتابه « الحج إلى بيت الله الحرام » .

« وفي ديسمبر سنة ١٩٢٩ ، توفي بباريس ، وصلى عليه بمسجدها الكبير . محصور كبار الشخصيات الإسلامية وغيرها ، وورير المعارف بالبابة عن الحكومة الفرنسية ثم نقل جثمانه إلى بلاد الجزائر حيث دفن في المقبرة التي بهاها لنفس ببلدة " بوسعادة " تنقيداً لأوصيته^(٤) .

رحمه الله رحمة واسعة وجزاه من الإسلام والمسلمين خيراً .

(١) ولكن بما يؤسف له أن غرب جازت المسلمين هل ذلك جزاء سيئ
(٢) وقد أشار إلى ذلك السيد الأزر بحامدة خريتر ومدير متحف الجزائر ، وذلك في محاضره التي ألقاها في الدارالفرنسي بدمشق يوم ١١ مارس سنة ١٩٢٩ وهي بحاضرة خاصة بأربعة المية الجزائر
(٣) « أشعة خاصة بنور الإسلام »
(٤) « راسم راسم » في مقامته لكتاب « أشعة خاصة بنور الإسلام » .

ناصر الدين والمستشرقون

حينما ألف السيد ناصر الدين كتابه عن حياة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ثارت ثورة النقاد متجهة ، على الخصوص ، إلى الشكل ، لا إلى الجوهر : لقد زعموا أن الأبحاث العلمية الحديثة قد وضحت جوانب من سيرة الرسول ، وأن المستشرقين في مختلف الأقطار قد كتبوا عن سيرة سيدنا محمد كتابة تعتمد على الأبحاث العلمية الدقيقة ، ورأوا أن الأستاذ ناصر الدين لم يعأ بشيء من ذلك ، وأخذوا عليه أنه لم يتم ورناً لإنتاح المستشرقين في السيرة النبوية وأن اعتمادهم إنما كان على السيرة القديمة ، كسيرة ابن هشام وابن سعد

المستشرقون لا يفهمون السيرة النبوية :

وأواقع أنه فعل ذلك ، وفعله متعمداً ، فقد كتب السيرة معتمداً على المنقول من الأخبار الإسلامية الصحيحة ، ولكنه فعل ذلك بعد أن قرأ ما كتبه المستشرقون عن سيرة الرسول فوجد أنه لا يسوى شروى فقير . لقد رأى أنه من المتعذر ، إن لم يكن من المستحيل ، أن يتجرد المستشرقون من عواطفهم وبيئتهم ، وزعاتهم المختلفة ، وأنه لذلك قد بيع تحريفهم لسيرة النبي والصحابة ميلأ يعنى على صورتهم الحقيقية ، من شدة التعريف بها ، ورغم ما يزعمون من اتباعهم لأساليب النقد الحديثة ، ولقوانين البحث العلمى الحاد . فلأنا نلمس من خلال كتابتهم :

محمداً يتحدث بلهجة ألمانية ، إذا كان المؤلف ألمانياً

ومحمداً يتحدث بلهجة إيطالية ، إذا كان الكاتب إيطالياً .

وهكذا تتغير صورة محمد بتغير جنسية الكاتب . وإذا بحث في هذه السير عن

الصورة الصحيحة فلأنا لا نكاد نجد لها من أثر !

إن المستشرقين يقدمون إلينا صوراً خيالية ، هي أبعد ما تكون عن الحقيقة !

إنها أبعد عن الحقيقة من أشخاص القصص التاريخية التي يؤلفها أمثال « ولتر سكوت » و « إسكندر دumas » . وذلك أن هؤلاء يصورون أشخاصاً من أبناء قومهم ، فليس عليهم إلا أن يحسبوا حساب اختلاف الأرملة . أما المستشرقون هم ، فكأنهم أن يلبسوا الصورة الحقيقية لأشخاص السيرة ، فصوروهم حسب منطقهم الغربي ، وحياتهم العصرية

وإن الدكتور « سنوك هير عريجة » ليقول بحق ، في نهاية نقده لكتاب المستشرق « جريم » :

« إننا نرى أن الأستاذ " جريم " لو اقتصر على درس السير النبوية القلبية وبمجها في عمق لكان أفضل ، وإن الثمار التي كان يمكن أن يجنيها من مثل هذا الدرس لمي أجدر ببلوغ الغاية التي توجهاها ، ولكنه ظن أن هذا عمل ليست له أهمية كبيرة ، وأراد أن يطرف الناس بنياً جديداً ، ففشل في وضع السيرة النبوية التي حاول فيها أن يطبع محمداً بطابع الروح الاشتراكي ، وفي جعل محمد اشتراكياً ، وفي أن تفرد الاشتراكية نفسها محمداً لأن يضع « دين الذي أتى به »

إن الاشتراكية الإسلامية — لا الاشتراكية الحديثة ، كما يتصورها « جريم » — ثمرة من ثمار الرسالة الإسلامية ، وليست الرمانة الإسلامية ثمرة الاشتراكية .

تحفظ المستشرقين :

ولنعرب الآن بعض الأمثلة ، للنتائج التي توصل إليها المستشرقون في أبحاثهم التي يزعمونها علمية صحيحة ، ونعرب بعضها ببعض لنهار ، ولو كانت علمية حقة لما اختلفت ، ولا تعارضت ، ولما كان مصيرها الثلاثي :

١ - كيف كان خلق محمد ؟ وما هو السر في تأثيره العظيم على أئمة وطله ؟

عن هذا السؤال يجيب « دوري » : « لعل رسول الله كما كان يلقب نفسه

لم يكن أسمي من مواطنيه ، ولكن من المؤكد لم يكن يشبههم .

« كان صاحب خيال في حين أن العرب مجردون عن الخيال ، وكان ذا طبيعة

دينية ولم يكن العرب كذلك » (١) .

ولا يرضى القسيس لامانس بهذا فيصرخ متأثراً بحقده الحارف ضد الإسلام ويقول :

« كان محمد رعم معاييه - (مناد الله) يمتن البدوي الذي كان يرى ذاته في شخص النبي العربي ، كما يدعوه القرآن ، وفي هذا التفاعل ، أو في هذه المطابقة العامة بين محمد وبيته ، نجد أولاً وقبل كل شيء السر في هذا السلطان الضخم الذي كان لمحمد على مواطنيه » (١) .

٢ - سؤال آخر : ماذا كانت قبول محمد قبل البعثة ؟

يرى « دوزي » أن محمداً كان سودوي مزاج يلتزم الصمت ، ويميل إلى التترهات الطويلة فريداً ، وإلى التأملات المستغرية في شعاب مكة الموحشة . ويرد القسيس لامانس - ضارباً بكل حقيقة عرض الحائط - « كلا ، ليس هناك ما يثبت اعتكاف محمد وعزله ، فذلك لا يتفق مع ثورة محمد من الوحدة وكراهيته المشهورة للنسك » (٢) .

٣ - سؤال ثالث : ما هي العوامل في بعثة محمد ورسالته ؟

لها نوبات الصرع كما يفترى « فذلكه » .

وكيف تكون نوبات الصرع عاملاً في البعثة ؟

سلوا عن ذلك « فذلكه » .

ولكن المستشرق « دوغريه » يعتقد . ان هذا بعيد الاحتمال ، ويعمل ذلك بأن الحافظة في المصروعين تكون معطلة ، على حين أن حافظة محمد كانت عاية في الحودة كلما هبط عليه الوحي (٣) .

(١) لامانس . عهد الإسلام ، ص ٤٤ .

(٢) لامانس : هل كان محمد صادقاً ، ص ١ .

(٣) دوجوي « مباحث شرقيه من ١ يقول الدكتور هيكل في كتابه « حياة محمد » ، ص ٤٠ .

« وسود إلى تمديد النقطة الأخيرة من رساله ذلك المصري المسلم ، فهو يذكر أن مباحث مستشرقين دلهم هل أن النبي كان يصاب بالصرع ، وأن أمره كانت تبدو عليه ، إذ كان يذهب عن صوره ، ويسيل منه العرق ، وتترى له التشنجات ، وتخرج من فم الرموه ، حتى إذا أفاق من دويته فلا عن المؤمنين به ما يقول إنه وحى الله إليه ، في حين أنه لم يكن هذا الوحي إلا أنراً من نوبات الصرع =

ولا يكاد ينتهي من هدم « نوبات الصرع » ، حتى يؤكد « إسبرغر » أنها نوبات هيستريا مشتهرة باسم شوتلاين^(١).

ولكن « مسوك هررجه » يرى أن هذه الأسس التي يراد أن تقوم عليها البعثة أسس واهية ، ويقول :

« يجب أن نقر بأن قيمة محمد إنما هي ما يميزه عن سائر المستيريين » .
ويبدل المستشرق « جريم » بدلوه هو الآخر ، فيرى أن الآراء الاشتراكية لا الآراء الدينية هي التي قادت محمداً إلى الرسالة .

أما مستلذه في ذلك . فهو تشديد محمد في « ركاة التي يسميها » حريم » ضريبة ، ولما كان القول بذلك في مكة أسهل من التنفيذ فقد حاول النبي — فيما يرى

« وتصوير ما كان يبدو من محمد في ساعات الوحي عن هذه الأمور — خاطره من الناس العلمية أفضح الخطأ ، فبوة الصرع لا تذكر عند من تصيبه أي ذكر لما مر به أثناءه ، بل هو يسي هذه الفترة من حياته بعد إفاقة من توبته شيئاً قاصداً ، ولا يذكر شيئاً مما صنع أو حل به خلالها ؛ ذلك لأن حركة الشعور والتفكير تتعطل فيه تمام التمثيل . هذه أعراض الصرع كيشب العلم ؛ ولم يكن ذلك ما يصيب النبي العربي أثناء الوحي ، بل كانت تنبه حواسه «مركاة في تلك الأثناء» تنبهاً لا عهد للناس به ، وكان يذكر بدقة غاية الدقة ما يلقاه وما يذوقه بعد ذلك على أصحابه . هذا ثم إن نزول الوحي لم يكن يقتصر حتماً بالقياس به لحسية مع تنبه الإدراك الروحي غاية التنبيه ، بل كان كثيراً ما يحدث والذي في تمام يقفظة العادية ، وحينما أن يشير إلى ما أورد في هذا الكتاب عن نزول سورة الفتح عند نقول المسلمين من مكة إلى يثرب بعد عهد المدينة .

« ينفي العلم إفت أن الصرع كان يمتري محمداً ، ولذلك لم يقل به إلا الأقلون من مستشرقين الدين خروا على القرآن أنه حرف . ولم يبقوا يقولوا به حرصاً على حقيقة يلتصقها ، وإما نادوا به علماً مهم أهم يحطون من قدر النبي في نظر طائفة من المستشرقين . أم حسبوا أنهم يلقون بأنواعهم هذه خلا من الزبني على الوحي الذي نزل عليه ، لأنه نزل عليه . ويأيرحون — أثناء هذه النوبات ؛ إن يكن ذلك هو الخطأ اليه كما نسب وهو ما يسكره العلم عليهم أشد الإنكار .

« وبو أن نراة العهد كانت رائد هؤلاء المستشرقين لما سمعوا العلم ما يسكره . وهم إنما فعلوا ذلك بغيرهم به أولئك الذين لا يهتمهم حسبهم إلى معرفة أعراض الصرع ، والذين تسكهم طمأنينهم الساذجة إلى أحوال هؤلاء المستشرقين من سؤال أهل العلم من وجدوا الطلب ، وعن الرجوع إلى كتبه . ولو أنهم فعلوا ذلك بعدد هديهم أن يكشفوا عن خطأ هؤلاء المستشرقين خطأ مقصوداً أو غير مقصود ، ولتبيو أن النشاط الروحي والمثل للإنسان يحثي تمام لاخصه أثناء نوبات الصرع ، ويذكر صاحب في حاله آية عصية ، يشترك مثل حركته قبل توبته ، أو يذوق إذا اشتدت به التوبة ، فيصيب غيره بالأذى ، وهو أثناء ذلك عاتق عن صوابه ، لا يدرك ما يصدر عنه ولا ما يحل به ، شأنه شأن السائم الذي لا يشعر بحركاته أثناء دومه ، وإذا نقصر ما به لم يذكر منه شيئاً . وثبات ما بين هذا وبين نشاط روسي قوى قاهر يصل صاحبه بالملك الأعلى من شعور تام وإدراك يقيني ، ليسلخ من بعده ما أوصى إليه .

« فالصرع : يعطل الإدراك الإنسان وينزل بالإنسان إلى مرتبة آليه يفقد أثناءها الشعور والحس . أما الوحي فهو روسي اختص الله به أنبياءه ليلق إليهم محقائق الكون البنية للدين ، كي يلقوها قانس »

« جريم » - أن يؤثر على المكيب بشخوبهم من يوم الحساب متخذاً الإكراه الروحاني وسيلة للبذل والسخاء^(١).

ولكن « سلوك هرعرنجة » يرد على « جريم » ، ويرى أن رأى « جريم » واستشهاده ، كل ذلك غريب ، سواء نظراً إلى المغفوف في أسيرة ، أو نظراً إلى ظروف البيئة العربية إذ ذاك . ويهار تحت قسم « سلوك » الرأي القائل بأن الإسلام ، في الأصل ، أدب إلى أن يكون اشتراكه بثأت عن رؤس ذلك الزمن ومقر بيه من أن يكون ديناً .

بد أن « سلوك » يرغم ولا بد له من الرعم ، لأنه لا بد له من التعليل - أن الباعث على رسالة محمد إنما هو . « فرعه العظيم من يوم القيامة والحساب » وتصكيره المتواصل في مصيره ، وفي البحنة وفي البار .

ولإزادة الإغراب في المستشرقين قوية جامعة ، وقد بلغ القمة في الإغراب المستشرق « مرجليوث » . لقد حطأ كل الآراء التي ذكرناها ، وأراد أن يأتي ببديع من القول يتناسب مع لقرب العشرين ، فرأى أن الباعث على بعثة الرسول إنما هي أعمال الشعوذة^(٢) . فقد عرف محمد خدع الحراء ، وحيل الروحانيين ، ومارسها في دقة وفي لباقه . وقد كان يعقد في دار الأرقم جلسات روحانية وكان المحيطون به يؤلفون جمعية سرية ، تشبه المسووية ، ولهم إشارات تعارف مثل : « السلام عليكم » ، وعلامات يتميرون بها كإرسال طرف انعمامة بين الكتفين .

أرأيت المدي الذي يصل إليه المستشرقون في تخطيهم ، واصطرابهم ، وتعصبهم ، وإزادتهم الإغراب . . ؟

إن مما مر ما يكفي لتصوير حالة المستشرقين ، ومع ذلك فسنحدث عن آرائهم في مسألة رابعة محددة أبعد ما تكون عن العروص والتخمينات -

٤ . ما هي الأسباب في مرض الرسول وموته ؟

(١) جريم - محمد ، ص ١٥

(٢) كتب المستشرق « مرجليوث » كتاباً عن سيدنا محمد أتى فيه بكل غريب وبكل باطل ، وظهرت كراهية للإسلام من خلال هذا الكتاب ظهوراً شاعراً ، ومن مراعاة المصحة مثلاً أن محمداً صل الله عليه وسلم سافر إلى مصر لأن كلامه عن مصر يدل على معرفة تامة بها . ويرد عليه المستشرق « تولدك » ، ويقول إن محمداً لم يكن بهم أن المظهر قليل في مصر قلّة مطلقه ولو كان سافر إليها لسم تلك الحقيقة التي لا تحس على أحد .

يعتصر الفيس «لامانس» حياه حتى يخرج رأى يشق شيئاً من غلبه ضد الإسلام . ضارباً بالمعقول وبك ربح وبالحقيقة عرض الحائط ، فيقول :
« كان لمحمد شهرة قوية جيدة ، وقد كشفت جسمه المذات وخلدت أعضائه فأصبح مهدداً بداء السكنة » .

وعلى الضد من ذلك تماماً يرى المستشرق «بييه سفاة» : « أن رؤى محمد كانت في بعض الأحيان أثراً لضيقه الشديد من الجوع ، ولأنه كان يسمع أثنائه صومه ما يشبه مواء القطط أو أصوات الأرات . ولقد مات محمى هاذية استمرت يومين » .

ويعارض هذا وذاك المستشرق «كليمان هيار» فيرى أن قد ظهرت على محمد أعراض التهاب رئوي محارب قواه بسرعة عظيمة ، وروى في الثالث عشر من شهر ربيع الأول سنة ١١ هجرية^(١).

أما الفيس «باردو» فإنه يرى أن محمداً مات مسموماً بيد امرأة يهودية^(٢). هل نستطيع — بعد أن رأينا ما سبق — أن نعتمد على آراء المستشرقين مع أن ما ذكرناه من اختلافهم إنما هو قليل من كثير ، ويهدم بعضه بعضاً ، ومن البسير أن نحقق فيه المثل العربي : « لا تكسر الحورة إلا على حورة » فيحتل تراث المستشرقين كله في السيرة النبوية ، ضارين بعضه بعضاً وهذا هو راقى .

المنهج الذى يجب أن يتبع في دراسة السيرة :

إن الصرح الذى شيده المستشرقون في سيرة الرسول إنما هو صرح من الورق قد أقيم على شواخات هار ، والسبب في ذلك واضح . ذلك أن المستشرقين لم يتبعوا الخطه المثلى فيما ينبغي ان يعتمدوا عليه في السيرة النبوية . إن كاتب السيرة النبوية يجب عليه أولاً : أن يتجرد عن الشهوة والهوى والعصية ، وبدأ في دراسة الموضوع فافصاً عن رأسه كل ما أوحته إليه الكتيبة من أباطيل عن الإسلام ، وكل ما غرسته في نفسه من ترهات خاصة بمؤسس الدين الإسلامى . وإذا لم يعمل ذلك فإن ما يكتبه سيكون لا عملة وهماً وباطلاً .

(١) كليمان هيار ، تاريخ العرب ، ١٢٠ ، ص ١٨١

(٢) الأب باردو ، علامات محمد ما هي وما قيمتها ؟ ص ١٧١

ويجب عليه ثانياً ، أن يعتمد على الأخبار الصحيحة التي رواها المسلمون
أول عهدهم بالتدوين ، يجب عليه أن يعتمد على سيرة ابن هشام ، وطبقات
ابن سعد ، وعين لحارثي ونسب ، وعلى تاريخ الطبري ، وقل ذلك وبعده على
القرآن .

ويجب عليه ثانياً : أن يدرس البيئة العربية في عهده الأصلي ، مكة ،
والمدينة ، رعاث ، وغيرها حتى يتجلى له العاصم وينصج له المبهم وتستقيم له
الفكرة .

إن البيئة العربية الخالية تكاد نرى رأي العين أشخاص الأخبار نرى رويت في
سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد ، بل إننا نكاد نعرف فيها على هذه الشخصيات
في أصغر إشارات وأسط أفكارها .

أما إن قرأنا عن هذه الشخصيات في كتب المستشرقين ، فإننا لا نكاد نعرفها
لشده التحريف في تصويرها ، وكثيراً ما تلقى لولا الأسماء العربية - صهيونية في
هم أن هؤلاء المسمين الذين يتحدث عنهم المستشرقون رجال من العرب ، وذلك
لبعد العقيدة التي نسبت إليهم عن العقيدة التي كانوا عليها .

وبعد ، فإن « رينان » في كتابه « حياة المسيح » يقول :
« حقاً إن لسير محمد العربية ، مثل سيرة ابن هشام ، ميزة تاريخية أكبر من
الأنبياء » (١)

وهذا يكفينا رداً على المستشرقين ، الذين يسعدون عن الصورة الواقعية التي
رسمتها كتب السيرة القديمة .

القسيس لامانس

والآن نريد أن نتخذ من أحد المستشرقين مثالا واضحاً لموقفهم من الإسلام .
 وذلك هو القسيس « لامانس » : ذلك أن تصنيفه من أضخم التصانيف ، وقد كتب
 عن بدء الإسلام أكثر من عشرة مؤلفات ، وتعمق في دراسة صدر الإسلام ،
 لعرص في نفسه لا يحني على أحد مهما كان ساذجاً ، ذلك الغرض هو هلم الإسلام
 ولكن الله غالب على أمره ، وهو يقول : « إنا نحن نزل الذكر وإنا له لحافظون » .
 إن « لامانس » قسيس يقطن لبنان ، ومن هالك وهو هادي مطمئن غير
 عابئ بشعور المسلمين ، ولا بمحقق الجوار ، ولا بالأحوة الوطنية - يرسل نقده ،
 ويقوم بهجومه في غير هوادة ولا ترفق .

لقد ضاق ذرعاً برؤية الإسلام ينتشر شيئاً فشيئاً ، ويسطط ظله يوماً بيوماً ، على
 هريقيا وآسيا . ويضيق صدر القسيس « لامانس » ، فإذا به يسخط على القدر
 معه ، ويقول : « لماذا جاء القرآن فجأة ، ليقتضي على التأثير اللطيف ، الذي
 كان الإنجيل قد أحدثه في ابن البادية ؟ »

والحق أن مثل « لامانس » في الاستشراق كمثل بطرس الباسك في الحروب
 الصليبية ، وإنه يقوم في الناحية العلمية بما كان يقوم به ذلك الباسك في ناحية
 الدعاية الحربية ، وكالباسك يتخذ من الوسائل ما يؤديه إلى المهدف غير عابئ
 بعدالة الوسيلة . وإن نزعة كهذه لا يمكن أن تؤد ، بمؤرخ إلى الإنصاف
 العلمي .

والحق أننا قد اخترنا هذا المستشرق بالدات ، لأن شهرته العلمية قد خلعت
 الكثيرين ، فأحسنوا الثقة به ، مع أن إسهاماته الكثيرة التي يشتهر في آخر كل جمعية
 إنما هي من قبيل التمولية على القارئ ، والحقيقة أنها لا قيمة لها .
 واختاره أيضاً لأن هواه المتحكم واضح كل الرضوح . بيد أن غيره من العلماء

من كان هوهم إما هو التدليل على أن محمداً إما كان مصروعاً أو هستيرياً ،
أو اشتراكياً قادته الاشتراكية إلى الدين . هؤلاء العلماء — هم أيضاً — لا تدع
لهم أهوازهم سيلاً إلى الإنصاف ، ولا إلى حرية لا تحصى إلا للوثائق التاريخية .
إن القسيس «لامانس» ذو هوى حامج عيب نادر . وغيره من المستشرقين ذو
هوى أيضاً يحاول إختصاء مكرراً ودهاء ، فلا يكاد يستقيم لهم أمر

ومسح «لامانس» سادج كل السداجه . إنه مسح العكس . أتدري ما مسح

العكس ؟

إنه ذلك المسح الذي يأتي إلى أوثق الأخبار وأصدق الأنباء بقلبها . متعمداً —
إلى عكسها ، وكلما كان الخبر أوثق كلما بدت — قوية حاجته — الرغبة في البراعة
من ذلك الذي يتبع هذا المسح . ولما كان يسعى أن يستند إلى دعامة ما ، فقد نبى
الفكرة التي تقول : « إن البشر يعملون غالباً على كتمان عيوبهم والظهور بنفيسها » .
وهذه فكرة لا يمكن أن تتحد كبدأ عام . وإلا كنا مضطرين إلى كتابة التاريخ
بأجمعه من جديد ، وعكس صورة الطبيعة كلها عكساً تاماً . إن جميع القديسين
إذن أشرار ، وجميع الأنبياء طالحون ، وجميع الشجعان جنائ ، وجميع الأديان
تهريج . وقد شاع هذا المسح عند بعض المتحمدين حتى أصبح « مرضاً » . وقد
أراد أحد الظرفاء أن يسخر من أتباعه ، فألف رسالة دلت فيها ، في براعة بارعة ،
على أن نابليون لم يوجد قط ، وأن تاريخه أسطورة ملفقة ابتدعتها فرنسا ، تربد بها
التغطية على ما يشاع من ضعفها الحربي .

وقد ذكرت مختلف السير الإسلامية أنباء موثقاً بصحتها ، إذا وزنا هذه الأنباء
بميزان العقل الصحيح والمنطق المستقيم ، وإذا ما نظرنا إليها على ضوء دراستنا لبيئة
العربية الإسلامية لم نجد فيها شك في صحتها ولكن «لامانس» لا يزال متنعماً
بمسح العكس . فلا يقيم لهذه الأنباء ورناً ولا يقدر لها قيمة .

نتائج هذا المسح صارخة بالخطأ :

١ — وإذا لو نظرنا في الأناجيل من هذه الناحية واتبعنا هذه السلة لوجب أن
نتناول كل حسنة فيها ونعكسها . . . وإذن لما بقي حذيراً بمودة «القسيس» واحترامه
إلا «هيرودس» ، و «يهودا» اللذان يجب أن يرفعا إلى مصاف القديسين لأخيار .

٢ - إن مما لاشك فيه أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان شجاعاً. لقد كان يقود الجيوش في الغزوات ، ولم تخطر نفسه شعاعاً في أية واحدة منها ، ولا يوم أحد - وقد ابتلى المؤمنين ورلرلوا رزلزلا شديداً . ولم تهله كثرة الجيوش المعادية في غزوة الخندق ، يوم أن زاعب الأبصار وبلعت القلوب الحماجر^(١) ؛ ولم ترعه الببال كالمنظر ، يوم حنين . . . ومع ذلك ، فإن « لامانس » يصفه بعدم شجاعته ، ثم يحاول أن يعمم الحكم على العرب قاطبة ، يقول :

« زعموا أن العربي يتسم بالشجاعة ، بل لقد عللوا النجاح في الفتوح الإسلامية الأول بما يختار به العربي من صفات ورايا . ولكنني أتردد كل التردد في قبول هذا الرأي المبالغ فيه كل المبالغة . . . إن شجاعة العرب إنما هي من نوع غير سام » .

والرد على القسيس اللسان بسيط ، ويكفي أن سدى إليه هذه الصبيحة ، وهي أن يقرأ آلاف الشهادات التي نالها من قيادة جيوش الحلفاء ابنود المسلمون الشجعان ، الذين حاربوا دفاعاً عما اعتقدوه حقاً ، فكانوا من عوامس النصر في الحرب الكبرى . لقد أثارت فرق الهجوم منهم إعجاب العالم أجمع ، وإن هذه الشهادات في أسلوها العسكري الموحر صرح شامخ مجيد ، يسجل روح التضحية ، والبطولة لدى العرب المعاورير .

وإن سهام النقد ، مهما بلغت من العنف ، لا يمكن أن تنال من هذا الكتاب الذهبي الميسر ؛ ذلك أنه مكتوب بخط قواد منصيين ، لا يمتون إلى الأمة العربية بصلة الجحس أو الدين .

٣ ومن المعروف أن الرسول كان يتحدث في غار حراء ، ينفرد بنفسه

(١) قال عن كرم الله وجهه « إنا كنا إذا حمى اليأس ، واحمرت الخدق ، اتقينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما يكون أحد أقرب إل الله مني » . ويعتق فضيلة الشيخ محمد الحضر حسين ، شيخ الأهرم السابق ، على هذا ويقول « وكذلك الداعي إلى الحق ، ولا صرنا لمعهود إليه ببلاغه وتعبه : لا بد من أن يكون شجاعاً ، رابط الحاش ، على قدر شدة المدعوى وصعوبة مراسيمه ؛ وعلى قدر عظم الحق ومخالفته لمثلهم ، وعاداتهم وأدواتهم ، وإذا أودع الله تعالى قلب مهدي محمد ، صلى الله عليه وسلم ، شجاعة وسكينة في موضع الخطوب ، فلا حرم أن يكون نصيبه من هذا المزية أعظم نصيب ؛ إذ لا أشد من مراسم الأبد التي تبدأ بإنذارها ، وهي الأمة العربية ، روى دعوى الإسلام قضاء حل ملثهم ، وهم لمصوباتهم ، وإبطال كثير من عاداتهم ، وصرافهم عن أهوائهم .

يستجمع دمه وشعره : منصراً كل لانصراف عن هذا العالم المادي ، مستغنياً في التمكن في الله . ولكن ، « لمانس » يؤكد أنه كان يكره للوحدة !

٤ - ومن المعروف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من الدنيا ولم يشع من خبز الشعير ، وكان يأتي عن آل محمد الشهر والشهران لا يوقد في بيت من بيوتهم نار . وكثيراً ما كان قوته التمر والماء . وكان رسول الله ، عليه السلام ، يعصب على بصره الحاجر من الجوع ، ومع ذلك فإن « لمانس » يصفه بأنه أكل ، قد كثفت جسمه اللذات ، ولا يذكر شيئاً عن صوم رسول لشهر رمضان ، وأنه كان أكثر ما يصوم الاثنين والخميس . وكان يصوم حتى يص أن لا يفطر . . .
إن صوم المسيحيين بعد نهاية بانسة صوم المسلمين ، ولد كان الرسول من أكثر المسلمين صوماً . ولكن القيس « لمانس » يثبت على عناده !

٥ - ويقول الله تعالى : « إِنْ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِّ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ » ، وقد نقلت الأحبار : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقوم الليل حتى تنورم قدماه ، لطول وقوفه في الصلاة^(١) ، ومع ذلك فيقول « لمانس » كان محمد نوماً وهو لا شك يجهل أو يتحامل أن روح النصف عند العرب تنح حد الإفراط ، وأن هؤلاء أو رأوا

(١) تحدثنا لروايات الصحيحة أن كان صلى الله عليه وسلم مسجاً وجهه إلى الله تعالى ، ملأ القلب بحشيتة ، وموصل اليها بعدته ، فكان ، عليه الصلاة والسلام ، يقوم بالعبادة ، ويشيف إلى حد العن العظيم التقرب إلى الله ، تعالى ، بالذكر والصلاة والصيام وتلاوة القرآن وكان يتجهد بأقل من رفق قوله تعالى « ومن الجليل فجهد به ففقد لك حتى أن يدملك ربك مقاماً محموداً »

روى الإمام البخاري في جامعه الصحيح عن « شعبة بن شعبة أنه قال : « إن كان النبي صلى الله عليه وسلم يقوم ليصلي حتى ترم ، أي تنتفخ قدماه ، فيقال له ، فيقول : أتلا أكون صيداً مكوراً » .
وكان يحس رمضان من العبادة ما لا يحس غيره من الشهور . فيكثر فيه من تلاوة القرآن ، والصلاة والذكر ، والاحتكاف ، وما كان يخرج منه شهر حتى يصوم منه ، وربما صام أياماً متتبعة ، حتى يقال لا يفطر . وكان يواصل الصوم في رمضان ، أي يصل الليل بالنهار في الصوم يوماً أو أياماً ، ليوفر ساعات ليله وسأره على العبادة وكان يحيى أصحابه عن الوصال ، فيقال له : إنك تواصل ، فيقول : كنت كهيئتكم ، في أبيت منه في غيبتي ويسبقني . « والمرد عن إلهام الله وسبقه ما ينقله به من المعارف ، وما يعينه من قديم من لذة الحجاب . وورد في السيرة أنه كان لا يجلس ولا يقوم إلا من ذكر الله .
وكان روح صادقته الإخلاص ، يصح في صحرته فافه كما يصل في المسجد ، ويذكر الله غالباً كما يذكره في جماعة ، ويعمل له في السر كما يعمل له في العلانية

(من رسالة عن سيدنا محمد ، لفصل الشيخ محمد الحضر حسين)

ما يكتب حر القرآن من أن الرسول كان يقضى حرراً كبيراً من الليل في العبادة ،
ما استمروا على متابعتة وتصديقه ، ولما احتفظ هو بنفستهم .

٦ ولله من المعروف أن العالم لم يسجد من أمثال سيد عمر إلا أفراداً
يعدون على الأصابع إن عمر من أعظم الماتحين المصلحين الذين عرفهم التاريخ .
وإن عدائته الرحيمة الصارمة ، وسياسته الحكيمة المأددة ، وإدارته الدقيقة الساهرة ..
كل ذلك ، يجمعه من هؤلاء الذين لا يضر التاريخ بأمنائهم إلا في دهور دهيئة ،
وإن حقاً لا نكاد نجد من يشابهه في التاريخ . اللهم إلا إذا كان الإسكندر
الأكبر .

ومع ذلك فقد كان عمر في نظر القسيس حديقاً ، مسكياً ، أدنى مرتبة من
الوسط ولكنه في كراهيته لسانفة للإسلام . يسي أو تماشى هذا الرصف
حيثما يريد أن ينقص - معاد الله - من شأن الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيذكر
أن عمر سيطر عليه هو وأبو بكر .

وليس عمر وحده هو الذي نال من قلم القسيس ، فقد أخذ القسيس يحطم
كماصة هوجاء - كل أحيار المسلمين ، الرسول ، أبو بكر ، عمر ، عثمان ، علياً ،
فاطمة ، عائشة ، حمصة ، وغيرهم ، وغيرهم ...

٦ - أما إذا تحدث عن أعداء الإسلام ، كأبي جهل وأبي لهب أعداء
النبي ، أما إذا ، تحدث عن المنافقين حوية الإسلام ، أما إذا ما تحدث عن يزيد
قاتل الحسين ، أو عن بني أمية عن وجه العموم فإنه يشيد ، شاء له هواه
ومندح ما أمكنه المندح ، ويعطى كلما أتبع له الإطراء ، ويلسهم من المصصة ثوباً
لامعاً غلاباً .

ولقد بلغت به الحماسة في كتابه عن بني أمية ، حدّاً أثار نفور المسير
« كازنوبا » الأستاذ في « كليج دي فرانس » فقال :

« كانت نفسية الأمويين في مجموعها مركبة من الطمع في لعي إلى حد الجشع ،
ومن حب الفتح من أجل الهب ، ومن الحرص على السلطان من أجل التمتع بمميزات
الدنيا ، لذلك يحق لنا أن نعجب أشد لعجب من كامس كاثوليكي مثل الأب

«لامانس» . يتطوع للدفاع عن أولئك الشاكين الطمعة ، ساحراً من سذاجة «عبي» الذي مكروا به وحده .

«ولها لعريته حصاً هذه المسحت التي يبدى فيها هذا المذهب . المطمع على تاريخ ذلك العصر علاجاً حريئاً للإعجاب تشعه للأمويين صديقي هاشم ، والتي تتوارى فيها المرافعات الدفاعية . والالتزامات ، الادعاءية ، آخذاً بعصا برقاب بعض»^١ .

٧ . أما المناهقون فهم أبطال الوطنية ، عبد القيس وإذا تساءلت : من هو هذا الدحجين الذي لم تسته التجربة العربية ، والذي يقف أمامه «أبطال الوطنية القومية» . فإني لا تجد من القيس إلا صمتاً !! أكان محمد «فارسيًا» غريباً للجربة لعربية ؟ أم كان «روميًا» يباحمها ؟ أم هو عربي يحب وطنه ويعمل على جمع شتاته في وحدة تكون قدوة ومثلاً أعلى لكل من يشرب بصره نحو الكمال ؟ وإذا أردنا أن نعد أخطاء «لامانس» فإننا لا نقف عند حد : إنه مثلاً يعتمد أن يعطى الألفاظ معنى آخر غير المعنى الذي تعطيه لغويًا أو اصطلاحيًا ، وكأنه في ذلك موكل بقطب الحقائق .

إن «الردة» في طوره معانها «الانفصال» ، و «المرتدون» هم «الانفصاليون» ، و «المناهقون» هم «المشككون» ، وهم أبطال الوطنية القومية . وإذا قرأت في القرآن الآية القرآنية للكرمة : «إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ» فسرى أن «لامانس» يشرحها شرحاً أبعد ما يكون عن السمو وعن المكنة العليا التي هي لله في الإسلام إنه يصورها : «إن الله مع الساكنين على سياحه محمد المتناقضة

ويتحدث عن أبي بكر وعمر فقط ، فيقول : الثالث إنه يقول «حكومة الثالث أو بكر وعمر» بل يطلق كلمة الثالث على سيدتين ، فيقول : «حزب الثالث المؤلف من عائشة وجمعة الدساسين المخوفتين» ، ولا عجب بعد ذلك أن يرى هذا القيس يأخذ على التوحيد الإسلامي أنه «صيق» ، لأنه لا يقول . . . بأن الله ثالث ثلاثة وبأن الثلاثة واحد . ولا يقول بأن الآب غير الابن ، ومع ذلك . الابن هو الآب !

« إن توحيد الإسلام صديق - في نظره - لأنه لا ينطوى على ما تنطوى عليه المسيحية من تلك المتناقضات » ويقول كتابه الكريم:

« قُلْ: هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » .

وهذا القسيس يمسد - متعمداً - الصور التاريخية إنه يحدث عن مكة والمدينة في عهد الرسول فيعطسها صورة أوربية حديثة ، وكأنه يحدثنا عن باريس ، ولندن ، حينما يتحدث . في جزيرة العرب ، عن الحملة الصحافية . عن المايين ، سد مكة ، مليلار النقابة القروشية ، الضريبة على الدخل ، طبقة العمال ، لإبلاغ الرسالة لدى محل الإقامة ، ديوان ذى الخلال ، وراية الله ، إلى آخر هذه التعبيرات الحديثة التي نمسد الصورة ولا تصور الحقيقة

ومع ذلك فلا مأس حريء ، إنه جرى جرأة نادرة ، وتتمثل هذه الجرأة في أنه إذا لم يعثر خلال أبحاثه الطويلة ، على حبر واحد يؤيد به زعمه ، وهواه ، استغنى عن الخبر وثبت على مراعيه الباطلة التي يسوقها إلى القراء برثاة بالغة ، وأحياناً يقول « إن هذا أمر صحت رجال الحديث والأخبار بكتابه (١) » .

وبينما يحترم المسلمون السيد المسيح ويحبونه ، نجد « لامانس » يصف مؤسس الإسلام بأشنع ما يمكن أن يظهره الحقد والكراهية . حتى لكأننا نسمع أسلوب رعبان القرون الوسطى الذين لم يكن في حجتهم إلا السباب والشتم .

الافتتان بالمستشرقين لا أساس له :

إنه لمن الغريب حقاً - والأمر كذلك - أن يفتن بعض الشبان المسلمين بالمستشرقين مع ما يرون من كراهتهم للإسلام وتعصم صده . وجهلهم أو تجاهلهم من أجل حاجات في أنفسهم إنهم يشككون ، ويخطئون جاهلين أو متجاهلين . لقد وصل بهم الأمر إلى تجريد الرسول صلى الله عليه وسلم من اسمه ، راعمين أنه لم يدع محمداً قط وأن حقيقة اسمه ستظل من الألفاظ التي لا حل لها . وحجتهم أن كلمة محمد تعني ذو معنى خاص . لذلك يؤكدون أنه لقب ليس إلا (٢)

(١) لامانس : « هل كان محمد صادقاً ؟ »

(٢) هوار : تاريخ العرب ، ج ١ ، ص ٩٠

كذلك يزعم بعض المستشرقين أن « الرحمن » اسم علم لله !! ويترحمون
نفسه ترجمة تدل على هذا الرأي السقيم باسم الإله « الرحمن » الرحيم .

ولا كاتب ثلاثة أرباع أسماء الأعلام العربية دعوتاً . فأنت ترى ما في دراسة
الأعلام من مسامع عزيزة تهنئ عنها نخبة المستشرقين ^(١)

أما أبو بكر - رضى الله عنه - فقد سمي « أبا بكر » لأنه أبو البكر ! !
والصعيد معها « الصعيد » في دائرة المعارف البريطانية .

ولعن في ذكره ما يحتمل من علواء الإعجاب الذي يبدنه بعض مترجمي
نشيطية الإسلامية نحو المستشرقين

٤

نصائح للمستشرقين

ويحتمل ناصر الدين كتابه القيم : « الشرق كما يراه الغرب » هذه الآراء القيمة
التي نورد بعضها فيما يلي :

« لقد أصاب الدكتور " سوك هر عريضة " في قوله " إن سير محمد الحديثة
تدل على أن البحوث التاريخية مقصية عليها بالعلم ، قد سحرت لأية نظرية أو رأى
سابق " »

« هذه حقيقة يحسن مستشرق العصر جميعاً أن يصححها بصواب أعينهم . فإنها
تشبههم من داء الأحكام الساذجة التي ، كنههم من الجهود ما يحور حد الطاقة
يصلون إلى نتائج لا شك حاصلة . »

« فقد يحتاجون في تأييد رأى من الآراء إلى هدم بعض الأحبار ، وليس هذا

(١) « الشرق في نظر الغرب » ، تعريب عمر محمود

بالأمر الهين ، ثم إلى بناء أحجار تقوم مقدم م هدموا ، وهذا أمر لا ريب مسحيل .

« يحتاج العالم ، في القرن العشرين ، إلى معرفة كثير من العوائل الجوهرية ، كالزمن ، والبيئة ، والإقليم ، ولعادات ، والمخاضات ، والمطامح ، والميول ، والأحقاد إلخ . . لا سيما إدراك تلك القوى الماطنة التي لا تقع تحت مقاييس المعقول ، والتي يعمل بتأثيرها الأفراد والجماعات .

« لنضرب مثلاً عكسياً ما رأى الأوروبيون في عالم من أقصى الصين يتناون المشاقصات التي تكثر عند مؤرحة الفرنسيين . ويحصيها بمطعمه الشرق البعيد ، ثم يهدم قصة الكردينال ريشاو كما نعرفها . يبعد إليها ريشيو آخر له عقدة كاهن من كهنة بكين وسباته وطباعه ؟

« إن مستشرق العصر الحاضر قد نهوا إلى من هذه النتيجة فيما يتعاق برسهم الحديث لصورة الرسول . ويحيل إليها أما نسمع محمداً يتحدث في دولتهم . إما باللهجة الألمانية ، وإما باللهجة البريطانية ، وإما باللهجة الفرنسية ، ولا نتمشقه قط بهذه العملية والطباع التي ألصقت به " يتحدث عرباً باللغة العربية .

« إن صورة نبينا الحبيبة التي حصيها المنقول الإسلامي تبدو أحل وأسمى إذا قيست بهذه الصور المضطعة الضئيلة التي صيغت في طلائ المكاتب بمجهود جهيد ويرجو أن يعرف العلماء صلاحهم ، فيعدلوا عن النيل من هذه الصروح المعجزة التي دفعها التاريخ إقراراً بمص أسياء العرب ونبي إسرائيل والمبود على الإنسانية ، من أساس هذه الصروح أصلب من أن نخدشه بذلك المعاول .

« وإذا شاء المستشرقون أن تكون جهودهم مشمرة فليصرفوا عن بصاعتها في محاربة المنقول الذي هو أسمى من أن يورده شيء ، إلى شرح هذا المنقول وبخبرته بدرس نمسية العرب درساً عملياً غير سطحي .

« كان أخرى بالاستشراق الذي يبنى بحوثه على الخش كـ هو شأن طلاب الطب — في تلك القاعات التي تدعى مكاتب ، أن يفتصر على الباحث التحقق ويعمم التي الصافي وهو في هذه لدائره ، دائرة لإخراج العامي . قد أبحر عملاً

هجيذا ، نحن على رأس المقرر بحسه ونفعه ؛ ولكن م يبق له مما يتعلق بشأن
الإسلام إلا أن يحل الحبان ، ولعله أدرك هذه الحقيقة فأخذ يوسل بمخالف الوسائل
إلى تجديد شبابه آخذاً بأساليب التاريخ الحديثة عقماً ، جاداً في طلب أغرب
الآراء وأبعدها عن المعقول ، وعاية ما في الأمر أنه راد وجهه نجعدات م تكس من
قبل فيه ، ما أشبه بصرياته ، رغم جدسها الطاهرة ، مكتبات للطلاب في مباراة
الشهادات ، التي لا تكاد توبد حتى يمسه الكبر ، لأشها غير قائمة عن درس الحياة ،
وإدن غير حذيرة بها !

عبد الحليم محمود

مارس سنة ١٩٦٥

محمد رسول الله
صلى الله عليه وسلم

مقدمة

إن حدود هذا السفر لن تسمح لن بأن نقدم جميع التفاصيل ، وجميع النواحي ، لحياة حافلة بالعظائم إلى هذا الحد ، كما هو الشأن في حياة النبي محمد ، صلى الله عليه وسلم ، ولذا نجد لزاماً علينا : أن نتخير للعرض أهم الحوادث لكي نعطيها العناية التي بدوها ضرورية وإذن فعلنا هذا إنما هو سلسلة من اللوحات التصويرية ، وليس تاريخاً كاملاً نقدمه للقراء .

وقد اعتمدنا في اسماء عدد صرنا على أقدم المؤلفين . كابن هشام ، وابن سعد ، وسواهما ، ثم على مؤرخ من المحدثين هو . « علي بن محمد الدين الحلبي » الذي حشد في كتابه المسمى « السيرة الحلبي » مختلف الروايات لأشهر المؤرخين . وإن التوافق الكامل بين تلك النصوص التي يرجع بعضها إلى مستهل اثني عشر قرناً ، وبين عوائد وميول وهجات المسلمين من سكان الصحراء الذين تراءى في عصره هذا ، أقرب الناس شياً بعرب الحجاز الذين أكمل محمد رسالته بين ظهرانيهم ، هو دليل على مكانة تلك النصوص من الحق .

ومن في هذه الملاحظة ما يكفي لتنبيه القراء إلى أنهم لن يجدوا بين دفتي هذا السفر شيئاً من تلك المذاهب الغريبة المتعالية ، التي تعمل على هدم السنة ، واتى شغب بها حراً أولئك المستشرقون المحدثون بما لهم من حرام وشهرة بكل ما هو باع من الرأي أو غريب .

على أن دراسة استنتاجات التي دخلت عن هذا الطريق في تاريخ النبي قد أتاحت لنا أن نكشف عن أنها كانت ، أحياناً ، وليدة كراهية شديدة^(١) للإسلام يصعب التوفيق بينها وبين العلم ، ولا تليق بعصرها هذا ، كما أنها ، على العموم مع ما فيها من إحاطة نظرية بمحنة تسجيل على مؤلفها جهلاً عجباً بعادات العرب ، وإنه ليكن في إظهار ريبها أن نقارن بعضها ببعض ، لأنها على

(١) كما هو الشأن في كل ما كتب القسيس « لاس » أو القس « زويمر » .

تناقض بحيث ينسج بعضها بعضاً^(١) . وأخيراً فإن علوها و الخيال فيما يتعلق بالظواهر النفسية الشرقية - ليظهر ، بأجلى بيان ، صدق تلك الآثار المأخوذ بها في العالم الإسلامي .

وتلك الآثار هي التي تهدي خطانا . وقد اقتصرنا على أن نحذر من الروايات ما يبدو لنا أنها الأكثر دلالة ، لكي نضعها في موضعها المناسب ، مستعينين في ذلك بالأخبار التي جمعناها من معادتنا الطويلة مع الحجاج في أماكن الحجاز المقدسة ، وبالنظر إليها من خلال تجارب الحياة الإسلامية الصحراوية التي كان أحدنا حليفاً منذ فجر حياته ، والآخر يمارسها منذ أكثر من ثلاثين عاماً .

ولقد آثرنا ، بالاتفاق مع نصوص القرآن - وهو الكتاب الوحيد الذي يعارض ولا يقبل المعارضة - وبالاتفاق مع علماء الإسلام للصبر الأول ، ومع أصحاب الفكر الحر من المعاصرين كالشيخ محمد عبده الدائع العصيت ، أن نصرب صفحاً عن جميع الخوارق التي نسبت إلى النبي العربي بعد زمن طويل من وفاته ، والتي يبدو أن في نسبتها إليه ما يسببه سبناه الحقيقية .

والحق أننا نرى ، من بين جميع الأنبياء الذين أسسوا ديانات ، أن محمداً هو الوحيد الذي استطاع أن يستغنى عن مدد الخوارق والمعجزات المادية ، معتمداً فقط على بدهة رسالته ووضوحها ، وعن بلاغة القرآن الإلهية . وإن في استغناء محمد عن مدد الخوارق والمعجزات لأكثر معجزة على الإطلاق ، وقد نسي «ريان» ذلك - بالنسبة للرسول - فرصفه بأنه صرب من الخيال ، وقال في معرض حديثه عن المسيح : «إن أعظم معجزاته أنه لم يأت بمعجزة . وإن قوانين التاريخ والقواعد المستمدة من طبيعة الشعب ما كانت لتشهد قط انتفاضاً لها أعظم من هذا»^(٢) .

(١) وقد عارض مؤلف بعض في كتابه « الشرق ك يرى العرب » ركزت النتيجة أن تهاقت هذه الآراء وأنها كانت
(٢) لتوضيح هذه الفكرة ننقل النص الآتي من : « أشعة خاصة بتطور الإسلام » ، تأليف المؤلف ، وترجمة الأستاذ راشد رستم .
« إن في الإسلام دو الوحيد من أصحاب الديانات الذي لم يعتمد في عام رسالته على المعجزات . وليس محض الكبر ، لا بلاعة لتبريل الحكيم . وفي ذلك يقول تعالى (وب سمع أن يرسر بالآيات إلا أن كاذب بها الأولي) »
ويقول « ريان » الكاتب الفرنسي الشهير : « في مدد كلامه عن محمى ومعجزاته :

إنما مع ذلك : قد التزمنا أن لا نطرح جاساً تلك القصص التي تحمل طابع الأساطير الخيالية ، فالأساطير ، وعلى الخصوص الشرق منها ، وسيلة من وسائل التعبير لا تضارع ، إنها تصنع الأشياء والحوادث بألوان قوية لا تمحي ، وتضفي على الحديث حيوية شديدة التأثير ، والمؤرخ العصري لا يمكن أن يسمو بتحقيقاته الخفية - التي يقولون عنها : إنها تزن كل شيء حق ورنه - إلى تلك الألوان وهذه الحيوية .

لذلك يجب على قرائنا ، في المستقبل ، أن يحترسوا كل الاحتراس من مقارنة الأعلاط البشعة ، التي اقتصرتها الثقافات اليونانية ، واللاتينية ، والمندوسية ، أثناء شروحيها الحرة الكتب الشرق المقدسة . وإذا ما عرضت لكم هنا أمثال ومزية تبدو ، أحياناً ، في شكل معجزات ، فيسكون من السهل عليكم أن تتركوا ما فيها من الخفايا ، التي - وإن كانت مفرعة في قالب شعري - ليست أصلاً مما تناوله الخيال العربي بالثشويه .

وإن القرآن لمو أن يفهم بهذه الكيفية ، وقد جاء فيه : « ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون » (سورة ١٤ آية ٢٥) .

« لعل أكبر معجزة موسى أنه لم يفعل منها شيئاً » ثم هو يقول باستعانة أمثال هذه المعجزات ، هناكها لقواعد التاريخ وأصول علم النفس وقد بين « ريسان » أن محمداً صلى الله عليه وسلم مع عدم اعتياده على مثل هذه المعجزات التي يتكبرها ، قد جاء بأكثر المعجزات : مما هو شاذ في تاريخ الديانات كلها . جاء بذلك الدين الخفيف الذي م ينعمك يزداد أنصاراً كل يوم ، منذ ثلاثة عشر قرناً ، حتى بلغوا اليوم ثلاثمائة مليون من النفوس ، دون أن يكون له دعاة ومبشرون .

هل أن المعجزات التي تسب إلى محمد نبوت منصوص القرآن ، وإعما قد نسبها إليه مؤرخو المصور المتأخرة نقيداً للمعجزات التي تسب إلى المسيح : فهي ليست من الدين في شيء .

وأما تلك الحرافات ، والمعتقدات القريية التي شاهدها في بساتين لإسلام المختلفة ، فهي عربية من القرآن ودخيلة على الدين ، ولا تتفق مع شيء من حروف من رسول الله ذاته صلى الله عليه وسلم . فقد جاء في لأثر « مات إبراهيم حزن عليه محمد حزيناً عظيماً . وحدث أنه ساعة دفنه كسعت الشمس فقاد الذين من حوله

إلى لمعزة يا محمد ، فقد شربكم الشمس في حزنك هل ولدك ومع أن الله كان مأخوذاً بحزن الشديد ، فقد أمب القائل ، ودل « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينصفان لموت أحد ولا لمياته »

وأخيراً ، ربما يبلو عربياً ألا توجد في كتابنا هذا ، بين اللوحات المرفقة للنصوص ، أية صورة للنبي ، ولا أي رسم يعرض الحوادث التي كان هو بعدها .

وعنه ذلك أنا - كسنتين مخلصين لم نرد أن نتعدى مهدي الإسلام الصحيحه ؛ تلك المبادئ التي هي أهل عداوة بما يعتمد عادة لتصوير الوجه الإنساني ، ولكنها تمنع صراحه أن تتحد صورا للآلهة ، لأن ذلك عمل فيه نوع من الوثنية المتكررة ، وتأب أن ترسم صورا للأنبياء فتكون حرقاً لخصياتهم لا بد أن ينتقصهم .

وفي الحقيقة ماذا تستطيع أن تمدو به لعيني مؤمن صورة جادة لثني مرسل من الله ، مهما كان من دقة رسمها ، إذا ما قورنت بمثاله الرائع الذي يرسمه له خيال ذلك المؤمن في حبيب يمانه ؟ . . . لقد فهم ذلك بعض الرسامين من الفرس الذين عرصوا لتصوير محمد في مختلف مراحل لبيئة المعراج ، فأحسوا تماماً صورة وجهه لعجزهم عن تصويرها ، وتلوفهم أن يشوهوا قسمااته الشريفة بخطوة الخلال . وما يزيد في توصيح عرضهم من هذا الإحفاء ، ما نمسه من عنايتهم البالغة ، في نفس هذه الرسوم ، لتصوير كل ملامح الوجوه الأخرى ، كوجه الوراق - وهي ذكوبة التي المحبحة ذات الوجه الإنساني ، ووجوه الملائكة الذين يتألف منهم الموكب السماوي .

واكنى نصح بدلا لهذه الصورة الخيالي التي لا يمر فيها من الكذب ، احترنا طريقته للتصوير أقل مباشرة للصميم ، وكنا نأمل توسطتها أن نستعيد بعض انعكاسات من لآلاء تلك انشخصية السامية التي لحت أول بارقة من نور الحياة في مكة .

إن ملاحظه المعروفة لنا من أوصاف مؤرخيه فقط ، إنما يبدو لنا من خلال نعت حميف كصائب الحلم ، ذلك الثقاب الذي لم يسعى في أن يحرقه ، إذ من وراء هذا الثقاب الخفي تستمر تلك الأوصاف ، في أدبر وأتمر بيان ، تهرن به على أنها لم يصفا من الشثويه ما أصاب سواها كثيراً ، بسبب محاولات فاشله لتكوين صور لا يمكن تحقيقها . أما سته الأعراء ورسا على الصد من ذلك ، باقية إن يوما هذا ، يحلوها أعظم لإخلاص ديبى تفيض به نفوس ثلاثمائة مدون من أتباع سته مششرين على سطح مكرة .

إننا ، في الحقيقة ، نجد لأهلهم لـ ثم من جميع المسلمين ، مهما تدرجت
أحاسيسهم ، اهتماماً يتجلى في أن يحدوا في كل صغيرة وكبيرة حتى نبيهم الذي توحد
صورته منقوشة في قلوبهم . وهكذا لا نجد ما هو أعظم تحديراً للمسلم من الطريقة
التي يدرس بها طهاراته من غسل ووضوء تلك الطهارات التي لها مستقيم أن يميز
عربياً مسلماً من عربي مسيحي .

إن في رأي المؤمنين وفي أعمالهم لصورة بلسمها معكسة من تأثير محمد ،
وإذا ما كانت بالطبع باهتة بالقياس إلى كماله العليا ، فإنها : لا جدال في صحتها .
هذا ، على حين أننا نجد قياصرة روما ، مع دقة كمالهم ، لا يقدروا منهم سوى
قناع مزيف لوجوههم الجائفة تحت صورة من الخيال . إن صورهم تصير ميتة
يعجز خيالنا عن أن يلمح لها شيئاً من الحياة . . . وإله سوحى هذه الحقيقة
المفردة أن نامت برعوسا فكرة نشر لوحات في تاريخ محمد هذا ، تمثل المآثر
الدينية لأتباعه ، وبعض صور من حياة العرب ، وبعض مدن الحجاز الذي هو
موطنه .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الأذان :

المح الآن شعاعاً وردبناً ، يتدفق في الأفق ، وانحوم بهت بومها . ويطرق
مسمعى لحن موسيقى ، يتردد صدها في هداة الفجر : « الله أكبر . أشهد أن لا إله
إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، حي على الصلاة ، حي على الملاح » . (١)
واللحان الأخيرة من هذا النداء الذي يردده المؤذن تنتشر من الممارات السامقة ،
هوى أعلى السيوت ودوائب بحين الواحة ، داهية إلى حيث تدوب ، في جنات
الصحراء اللاهائية . . . وعندئذ يهب المسلمون من أعقاب نومهم ، مرمدين في
أرديتهم البيصاء (لشبهة بأكفان الموتى) وقد عرثهم رجفة هذا النداء ، فكأما يهون
من رجفة يوم الشور . وهذا يتقاطرون بحر العيون (٢) فيتطهرون أتم الطهارة . ثم
— على طهر من أجسامهم وأرواحهم — يتطهرون صمواً طويلة ، متحادين بمراقبهم ،
متوحين وجهة واحدة نحو كعبة مكة المقدسة .

أداء الصلاة :

هناك يقومون ، وأجسامهم مستقيمة ، ورؤوسهم في انحناء يمين ، وعيونهم
حاضرة ، ساكنين في تلايف أرديتهم مطوية ، وكأما تحاولوا إلى حشد من التذليل ،

(١) يشير الإسلام في هذه الآية إلى الصلاة بأن الإنسان هو الذي يدعو ، بحوائج إلى تأدية هذه
البريضة . وإن صوب الإنسان هو صوت طبيعي أقدر على جعل العاطفة الإنسانية الصادرة من قلب
المؤمن إلى حوذه يهيم ، فليدفع بهم عروس الإسلام ، من أية آلة صناعية ، ومن الصب إلى القلب رسول
(من أشبه خاصة بنور الإسلام)

(٢) يطلب المؤلف من صورة ذهنية عن الخرائط في صلاتهم . وهذه الصورة — مع اختلاف بسيط
في ألوانها — هي صورة للسلس في جميع بقاع العالم عند ما يذهبون في الفجر إلى الصلاة .

وعن قوة بالإمام الوقف أمامهم بنفس الهيئة . ونفس القصد ، معلماً كل وضع جديد من الصلاة بالكسر « الله أكبر » رفعون كذلك أيديهم مفتوحة حتى تتحدى أفردهم مطهرين ذلك روعهم أمام العذرة فلا يهتد لرب العالمين . ثم ، في حركه وحده ، يحسبون جميعاً ظهورهم ، ويركعون أمام جلال الألوهية .

ولكن هذه الصورة لا تكفي لإظهار ما يحوي نفوسهم من حصر ودا يحسون بالأدق سجداً ، وعلى سطح لأرض يصبغون حاشيتهم وأيديهم ويسكنون لحظات على تلك الهيئة الصارعة ، كأنهم يسبحون تحت عبء السماء بكل ما فيها . وكأنما اسماء معهم ساجدة . وأخيراً يرفعون صدورهم ثنية ، ويبسبون جالسين والركب على الأرض ، والرؤوس مثقلة بوقر من حررة الإيمان ثم التسليم بعد ذلك ، مصحوباً بالثبات توجه مره إلى يمين . وأخرى إلى اليسار ، عاطينين فيهما الملكين اللذين يلازمان كل مؤمن ؛ ولذا تسمى الصلاة .

ومع ذلك فالمسلمون عادة ، وهم لا يسألون الله شيئاً لأنفسهم ، بل لا يسألونه خبرهم نبوي ، يبقون على هذه الصورة ، بعد انتهاء الصلاة ، فتره من الزمن وهم رافعون أكفهم إلى أعلى من صدورهم ، وأيديهم مفتوحة أمام غيرهم كأنما يقرعون فيها كتاباً ، صارعين إلى الرحمة الإلهية من أجل الإسلام ، ومن أجل أقاربهم ، ومن أجل سعادتهم الأخروية .

إن بعض أعمال الصلاة هي وحدها التي يحبرها الإمام ، كالتكبير ، والتمتع والتسليم الخ . أما الخاصرون فإنهم لا يقرعون أثناء الصلاة إلا في قرارة أنفسهم ، ويعوسهم لا تردد سوى التكبير ، في عممة لا تكاد تخرج آذانهم .

وإن بصف السكوت ، يريد في عطية هذه الحركات الجامعة بين البساطة وهو اندلاية ، والتي تتحد فيها الأهلية الكامنة بالتواضع . ويحلوها من الرياء تديماً ، تعطي مشهراً رتفا لعبده تأثيرها أعظم من أن يتصوره حيال .

أوقات الصلاة :

في كل يوم ، كلما غابت الشمس من ألوان صورتها في صحرها لأرجوى . وفي ظهريها المسهية ، وفي عصرها المذهب ، وفي معربها لمحبوب نصرته الخرون عى فرائدها ، وفي تكعب أخيراً بأوضح من الشفق الأزرق لقاتم في المساء ، يرى

المسموع جميعاً من اعتنوم عليهم أن يجردو من أعمالهم وشواغلهم . بل من أهكرهم ، ليتفرغوا للصلاة يؤدوها ليس فقط في المساجد . بل أيضاً في البيوت . وفي شوارع ، وفي المقاهي . وفي الأسواق ، وفي الحقول ، وفي الصحاري ، وفي أي مكان يرحلون فيه . ولو بدون مؤذن أو إمام . انكبي تمجدوا على تلك الصورة مفيض الخير جل ساه

ومد أكثر من ثلاثة عشر قرناً . من لشوطين الأفريقية للمحيط الأصغر إلى الشوطين الصبية للمحيط الهادي ، يستدير أكثر من مائتي ميول من المسلمين خمس مرات في كل يوم إلى ناحية الكعبة المقدسة في مكة حيث تنجمع الملايين من صلاتهم متناسقة لتصعد إلى الملأ الأعلى ، كي تشهد الله على م الروح الإسلامية نحوه من وراء لا يمكن أن يتحول .

وصف مكة :

ما هي مدن تلك المدينة العجيبة التي كانت على التقريب عبر مدروقة في العصور البعيدة القدم ، والتي نهوى نحوها آراء حلائق يصل عددها إلى هذا الحد ؟

أهي إحدى تلك المدن الحميلة الموقع التي أقام فيها شعبياء الملوك قصوراً راهرة ، وجمعوا فيها كوز الفن المنكر ؟

أهي إحدى تلك مدن تكري لتجارية التي تشرف على طرق البر والبحر . وتتدفق عليها الحاصلات والثروات العنية ، أم هي عاصمة إمبراطورية قوية أحصع حدودها الشجعان لها جميع الشعوب المخاورة ؟

لا شيء من ذلك قط . إن مكة واحة في أجند بقع العالم وأشدها حرماً . ونحوها قدماً كانت مقصورة على قوافل الصحراء إنها لم تكن ذات عني ولاد بقة . ولكن كم عدد المدن التي تحسدها على محده الداح باختصاص الكعبة المقدسة . وبأس شرفت ، دون سواها ، بمولد محمد سيد المرسلين .

وحتى في عصر هذا أيضاً . باسرع من اهداما التي يحملها إليها من جميع نواحي الأرض آلاف الحجاج ، يأتيون كل عام للسجود في معبدها المقدس . وقد مكة أم القرى لا تستطيع أن تباهي كبريت المدن في ثرف قصورها وجمامه

مساحدها ، أما في نظر المؤمنين فإن كورها تنألق سناء لا يعادله سناء . بيد أن كورها تلك ليست فقط من هذا العلم .

إن منظر مكة المكرمة لا يختلف عن غيرها من مدن الصحراء العربية . إنها لتفوقها جميعاً بأنها تحوى من البيوت : ما هو أكثر عدداً ، وأرفع سمّاً ، وأسمى رتبة ، ومع كل هذا فإن منظر مكة العام لا يرى قط ذا ميزة خاصة .

من أعلى جبل أبي نعيم الذي يشرف عليها من الشرق . تكشف العين عن شكلها المستطيل من الشمال إلى الجنوب في بطن واد ضيق . وعندما ينظر إليها المرء ، لأول وهلة ، فإنه لا يكاد يميزها عن الأديم الذي تقوم عليه . إن الجبال الجرداء الصخرية التي تكتنفها عبر مفصولة عنها بأية واحدة ، وليس بينها وبين مكة أية بقعة خضراء ، وإن سطوح مزارعها تتحتضن نهار الصحور التي تحدثت على صفوح تلك الجبال . أما بعد أن تراص العين شيئاً فشيئاً فهيها تميز البيوت والدور ، وتكتشف المداخل الخفية ، ونقوش المزارع النصارية في الفضاء صعداً ، ويثنيه الإنسان بعينه لمنظر مصاحي المدينة كبيرة ، لم يكن يظن وجوده في هذا المكان ، فإن العين تراها تكرر دون حد حتى ليكاد الإنسان يعمو تساعها المصاحي إلى سحر ساحر ، وتبدو الصحور بدورها وكأنها تحوالت إلى مزارع ، وتبدو الآكام أشبه بصوح واسعة لا يدرك الطرف لها نهاية . لكن إذا ما كادت العين . وسط هذا الخلط . من أشكال عمادة القسم ، لا تكاد تميز المساكن الإنسانية من الصحور الوعرة ، فإنها على العكس تفاحاً مباشرة بمنظر ضخم من البناء ، قائم وسط فناء مربع الخراب . يكسوه نسيج من حرير أسود ، يغطي لمعنه الرائع على ما حوله من ألوان باهتة ، كأن لحرارة الشمس القوية دخلاً في شحوبها القديم .

ذلك المكعب الأسود هو الكعبة المقدسة ، لها قلب الإسلام النابض .

وكما تحمل الشرايين إلى قلب الدم الذي تحيا به الأجسام ، كذلك جميع صبرات الإسلام تنحدر نحو هذا المكعب ، لتدرك في الأرواح الحياة والنشاط ، وتلك هي النقطة الوحيدة في العام كله ، التي يستطيع المسلمون فيها أن يقف بعضهم أمام بعض وجهاً لوجه حيناً يؤدون الصلاة .

الكعبة والحجر الأسود :

إن هذه الكعبة^(١) ليست قبر النبي ، ولا هي مقصودة بالعبادة - كما يزعم بعض الغربيين - إنما ليست إلا معبداً يحمل اسم « بيت الله الحرام » وأصلها يرجع إلى أقدم العصور .

إنها - حسب المأثور عند العرب - من بناء آدم أبي البشر . وبنا احتاجها الطوفان جدد بناءها النبي إبراهيم ، على نفس الأساس الأول ، بمساعدة والده إسماعيل الذي هو أصل الأمة العربية . ومن ذلك الحين جددت مرات كثيرة على نفس القواعد ، وعلى نفس الصورة ، وكانت - منذ ذلك العهد - غاية بقصد إليها العرب لعبادة الله العز وجل . ويسورون حولها سبعة أشواط من العبادة ، رسمي لهم حنم الأعلى إبراهيم عليه السلام . تسمى « الطواف » .

وعلى خطى الرمس الوثيدة تحولت - في أدهان الحجاج - فكرة عبادة الله الواحد ، فقرنوا بها عبادة الأصنام . حتى لقد بلغ عدد هذه الأصنام ثمانين وستين صنماً ، عندما أرسل محمد للقضاء عليها .

وفي الزاوية الشمالية لشرقية من بناء الكعبة ، ثبت الحجر الأسود ، موضوعاً في دائرة من الفضة . أثرل هذا الحجر من بلخنة ، مع حبريل ، أن إبراهيم وولده وقتما كانا يشيدان الكعبة ، وبأيديهما وضع في مكانه الذي لا يزال فيه حتى اليوم ، لكي يعين مبدأ أشواط انطوف . وقد كان هذا الحجر في الأصل ، أبيض كاللبن . أما لونه لأسود الذي هو عليه الآن فببب من ثلوه^(٢) بحطايا الحجاج الذين يمسونه ويقبلونه ، طالبين المعفرة من مولاهم الرحيم .

(١) كل شيء مالا ورتفع هو كعب ، ومن ثم قيل للكعبة كعبة

(٢) يقول مؤيد « إن الإسلام منذ البداية قد أخذ في محاربة المرات والبدع ، وهذا هو ما يقوم به العلم حتى يومنا هذا ، ولكنه يرى أيضاً أن الشرق يصور ما يريد من معاني وأطوار ليبي ، في أوضح بيان ، ما يريد أن يوصي به من معنى ، ولذلك لا يريد المؤلف أن يضرب صفحاً عن هذه القصص التي صيغت في أساطير الأساطير . والقصة التي نحن بصدد الآن تريد أن تبين أن البشر مخطلون ، وأن خطاهم كثير ، وأن معاصيهم الهائلة وصل بها الأمر أن أثرت في الحجر الحساد فبببته من أبيض ماصع إلى أسود قديم . وهذه القصة توضح بذلك نظر الإنسان إلى الكثرة المفرطة من المعاصي التي يرتكبها بنو البشر . . فاعلمه يرحمى

عين زمزم :

وعن كثب من الكعبة . حضرت عين زمزم . ذات المياه العجيبة التي انسجت من الثرى . بحلبص إسماعيل من آلام العطش . عندما كان هو وأمه هاجر وحيدين في هذا القفر أشبه بمفقودين وفي العصر خاهل طلست عين زمزم بالرمال بسبب إهمالها . ولكن عبد المطلب حاد حصره قبل ولادة النبي بسبع قلائل .

ومد ذلك لحين صار منه زمزم موضع موضع تشريف من الحجاج الذين يتحللون منه للشرب ولتطهير كي يظفروا بالقداسة في جو من ذكرى جدهم وكانت سقاية الحجاج وحجاجة الكعبة من الوظائف المرعوب بها ، لما يتعق بها من الشرف والكرمة ، وكانت - يومذاك - مجموعتين في يد عبد المطلب من هاشم القرشي جد النبي الذي سيحيى به المستقل .

زواج عبد الله أبي النبي :

كان عبد المطلب ، سادس الكعبة . حارحاً يوماً ممسكاً بيد ابنه عبد الله أحب أولاده إلى قلبه . وكان على باب الكعبة امرأة من بني أسد تسمى « قتيبة » ، ما كادت ترى عبد الله حتى انتهت من حلوصها مبدية شديد دهشة ، ثم نظرت إليه بإلحاح عجب - وقد مهرها النور السهاوي الذي يرف على حبيبته - وعقب عيناها به وراحت تسأله .

— أين تذهب في ساعتك هذه ؟

هنا لها : هناك إلى حيث يفودني أبي .

فقدت له قف واسمع ! إلى أهيك مائة من الإبل وهي التي وجب على أبيك التصحية بها لإنقاذ حياتك ، إذا أتت قلت أن تكون لي في هذه اللحظة .

فأحياها عبد الله مبهوئاً لقبة حياء تنبع هذا الجدد ، وعلى الخصوص في حصرة شخصية لها مقامها كعبد المطلب إلى في صحبة أبي الذي لا أستطيع له خلافاً ولا مفارقة .

ونصرف عبد الله وقد ملئ اصصراً وبهبة ، ولحق بوالده عبد المطلب الذي



فداه من هوره إلى بيت وهب بن عبد مناف . حيث العثة التي كان قد اعتزم أن يروحه منها .

كان وهب سيداً من سادات بني زهرة ، كما كان عبد المطلب^(١) أميراً من أمراء قريش التي هي من أنبل قبائل العرب . وبين بيتين أصيلين في الشرف غير متارع ، كان الاتفاق على المصاهرة سهلاً . ولما تم القران بين عبد الله بن عبد المطلب وآمنة بنت وهب فوراً .

وقد عبد الله روحه إلى منزل أخيه أبي طالب لإتمام الرواح . وقضى بالمنزل ثلاثة أيام وثلاث ليال . ولما خرج من المنزل لقي « قتيلاً » مرة أخرى ، تلك المرأة التي كانت قد توسلت إليه في قليل من انتحط . ودهش « رآه عليها هذه المرة من عدم لاهتمام حين مر بها

وكان عبد الله مشهوراً بأنه أجمل شباب مكة . وكانت رجولته الرائعة قد حركت نحوه هوى الكثير من فتيات مكة ، إلى حد أنه حين علمن خبر قرانه سقطن مريضات بفعل الحقد والغيرة .

أما « قتيلاً » فلم تكن من السماء العاصيات ، إنما كانت أخت ورفه بن نوفل ذلك الحمر المشهور في كل جزيرة العرب لمعرفته الثمة بالكتب المقدسة . وكانت تعرف . عن طريقه أن سيباً سيولد في هذه الأرض . وأن والده يعرف بنور بتلاً في جيبته بمثل لألاء الماس أو النجوم . وكانت قد أدركت هذه السمة في

(١) كان عبد المطلب من حرم الحمر على نفسه في الماهية وكان عجاب اللهوة ، وكان يقال له الفيض عوده ، ومعظم طهر السماء ، لأنه كان يرفع من مائدته العير والوحوش في رهوس الجبال وكان من حكام قريش وحكامها .

وكان نديمه محرم بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف والد أبي سفيان ، وكان في حوار عبد المطلب يهوى ، فأغلط القول على حرب في سوق من أمراء بنيهم ، فأغرى عليه حرب من قبله ، ولم يعلم بذلك عبد المطلب ترك منادمة حرب ، ولم يمارقه حتى أخذ منه مائة ناقة ، ذهب لايق من اليهودي حفضاً لحوره . وكان عبد المطلب بأمر أولاده بترك العلم والعلمى ، ويحثهم على مكارم الأخلاق ، ويبيهم عن دينوث الأمور ، وكان يقول : من خرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم منه ونصيبه مدرية . إلى أنه هلك ربيع ظلوم من أهل الشام ثم نصبه عبودية ، فقيل بعد المطلب في ذلك ، ففكر وقال : وقد إن وراء هذه أقدار داراً يجرى فيها المحس بإسعادته وأحس . بإسعادته .

ورفض في آخر عمره عبادة الأصنام ، ووجد أنه سبحانه وتعالى . ويؤثر عنه من عبادة القرآن بأكثرها وسادات السمة به ، منها : الولد بأسر ، ومنع من نكاح محرم ، ومنع يد الدوق ، والبي من قتل موهودة ، وتحريم خمر ولرب ، وأن لا يطوف بدبيته حريان (كذا في كلام سبط بن خورى) .

جيين عبد الله ، فوقر في نفسها حلم ضموح في أن تكون يوماً أم هذا السبي المنتظر .
ولقد كان إحقاقها في هذا المظمح العبد سبياً في أنها لم تبد أية رغبة في عبد الله ،
مهما كان أمر جماله .

أما عبد الله الذي كان يجهل صراح الأمر وإمائه ، فقد تأثر أمام برود قتيبة
المفاحي* ، بعد شعف ثائر كالذي كان منها ، فقال لها :

- مالك لا تعرضين على اليوم ما كنت عرضت بالأمس ؟

فألت له : من أنت ؟

قال . أنا عبد الله بن عبد المطلب .

قلت : آه ، ألسن ذاك الذي كان جيبه يلوح لي تحت إكليل من النور
وقد اختفى الآن منه ؟ ما الذي حدث بعد أن نلاقيا ؟

فقص عليها عبد الله خبر رواجه ، وأدركت هي أن النور الذي كان يحمله
أبو نبي المستقل قد مر من جهة عبد الله إلى أمه روحه .

وقالت له : والله ما أخطأت فيما كان مني . لقد كشفت عني جيبك نورا ،
ورغبت أن أمثلكه وأكبه لأن أصبح في حيازة امرأة أخرى وستأخذ أفصل الخلائق ؛
ولم يبق فيك الآن ما يجذبني فحرك .

هكذا عرف عبد الله من هذه المرأة ما كان من حمل زوجته ، ومن أمر
المستقبل المدحر لولده . ذلك الولد الذي كتب على عبد الله ألا ينحصر برؤيته ،
إدواؤه الأجل اعتراف في يثرب ، قبل ولادة محمد بشهرين .

أما أمته أم المصطفى فقد قالت :

« منذ اليوم الذي حملت فيه ولدي حتى الساعة التي وضعته فيها لم أشعر بأقل
الم ، وإن لم أشعر حتى بمجرد ثقله ، بل ما شعرت ألي قد حملت به حتى أتاني
آت وأنا بين النائم ويقظون ، فقال هل شعرت أنك حملت ؟ فكان أقول :
ما أدري . فقال : إنك قد حملت بسيد هذه الأمة وسبها ، اعلمي ذلك .

« وفي نهم اللحظة حرج من أحشائي حيط من النور ، وترامى ناحية المشرق
حتى بلغ أرض الشام . وعندما دنا موعد ولادتي ظهر لي الملك من جديد ، وأوصاني
قائلا : عندما تصعين ولدك قولي (أعينه بالواحد الصمد من شر الخاسدين) وبسمه محمداً

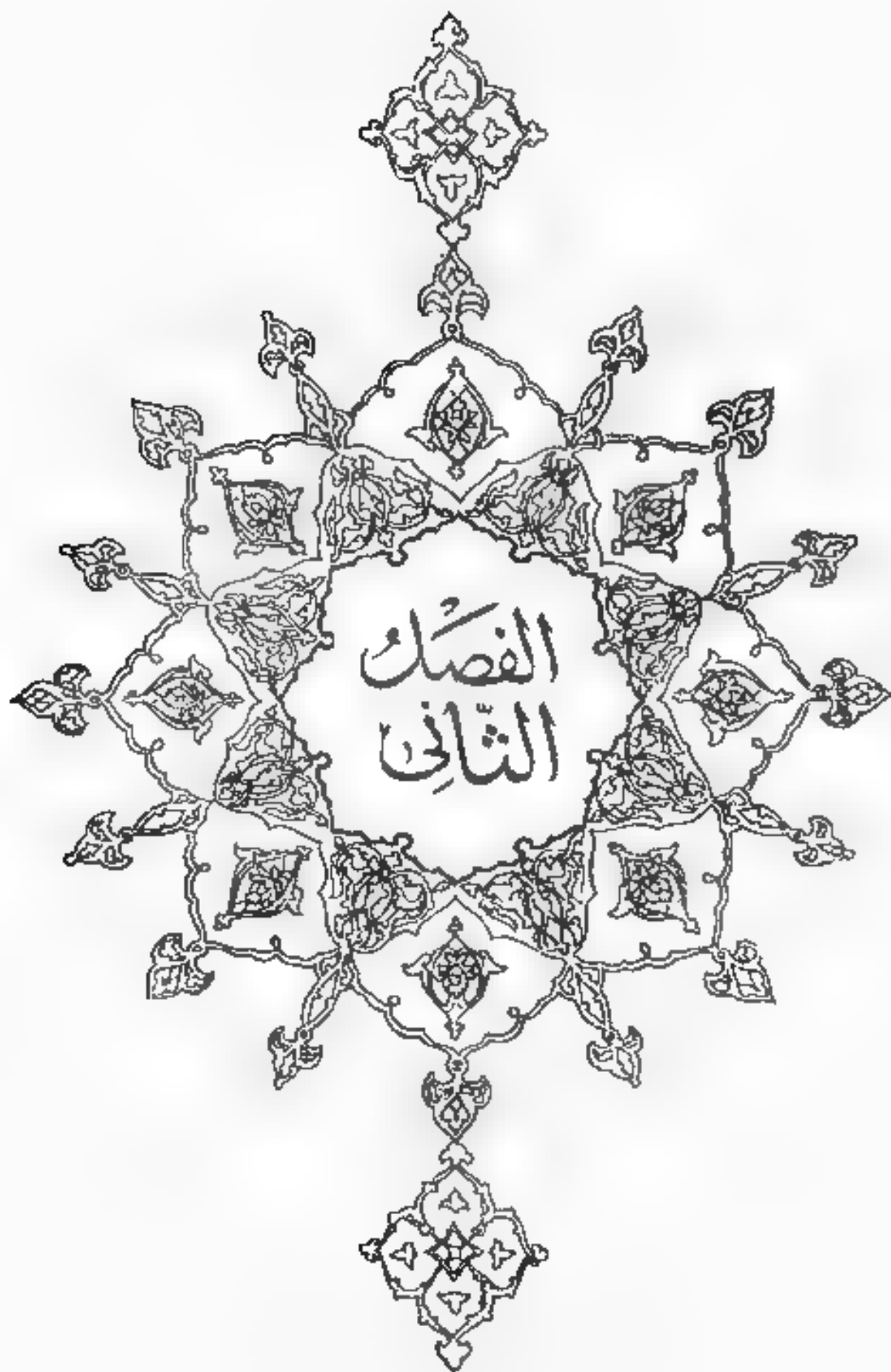
فهذا هو الاسم الذى نشر به فى التوراة والإنجيل . ولأنه سوف يحمى من جميع
سكان السماء والأرض

وعندما مر كوكب المشترى ، رأت آمنة هالة من النور تخرج منها مرة أخرى
متجهة نحو الشام ، حتى أصابت قصور بصرى .

وصهر فى نفس الزمن معجرات أخرى أدهشت العالم ، إذ عاضت مياه بحيرة
ساوى . واهتر قصر كبرى أنوشرون ، فتصدعت أربعة عشر من أبراجه ، وجمعت
رغم جهود عبيدها . بار الهرس المقدسة ، بعد أن طلت مصطربة أكثر من
ألف عام . وشهدت الأصنام فى جميع بقاع العالم مكسة الرؤوس .

ولقد أزعج هذه الظواهر جميع الذين رأوها . وبالرغم من تسؤات الموبدان ،
خادم الدار الكبير عند الهرس والذى كان قد رأى رزيا تدل على قيام انقلاب فى
العالم بسبب حادث يقع فى جزيرة العرب ، بالرغم من تسؤته مر الحوادث دون أن
يشعر به أحد . . . ذلك الحادث هو : ميلاد طمل قرشى فى مكة ، تلك المدينة
النائية فى وسط القفار ، تلك المدينة المجهولة أو المحترقة لدى أكابر الملوك والأمراء
فى الشرق والغرب .

فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ
فِي مَآمَاقِعُودًا وَعَلَىٰ جُوبِكُمْ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ

مولد النبي :

ولد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قبل إشرق نجمة الصبح بمحطات يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول عام الفيل (٦١٠ أغسطس سنة ٥٨٠ م) .

ولد نعليماً مخترباً وقام جبريل بقطع سرته .

كان هواه البليدة غير ملائم لصحة الأطفال الصغار ، فكان من عادة أشرف قريش اتخاذ المراضع اللاتي يقطن البادية ، ينشأ الطفل في جو البادية الصافي .

وبعد مولد محمد بقليل ، حصر إلى مكة عشر من نساء بني سعد يضرب لونهن إلى السمرة ، ويلوح عليهن أثرا قايمنهن الصبحى ، حضرن ياتمنسن الأطفال عند الأشرف ، فالت من ينهن حليلة شرف استرضاعه .

طفولته في بادية بني سعد :

لنستمع الآن إلى حليلة تفصل قصة الرضاع :

« كانت سنة جنباء ، لم تبق لنا شيئاً ، مصيرنو وزوجى في فقر مدقع . فعزمنا على الخروج إلى مكة في رفقة نسوة من بني سعد ، لنتمسس جميعاً الرضعاء ، ليساعدنا آبائهم على الحياة وضرورياتها . كانت الأنان التي أركبها من الخزال ومن الصعف الذى سببه عدم وجود القوت — بحيث نحشينا أن تقع في الطريق فاقدة الحياة ، ولم نتم ليلنا أجمع من صبينا الذى معنا ، والذى يبكى لما يجده من ألم الخروج ولم يكن في ندى ولا في أخلاف الباقاة التي يقودها زوجى ، قطرة من لبن ، نهدي

بها من جوعه . . لقد استنود على أثناء الليل البأس ، وتساءلت كيف يمكنى ،
وأنا فى تلك الحالة ، الزعم بأننى مقدورى لقيام على تنشئه طفل ؟

« وصلنا أخيراً إلى مكة ، وقد سبقنا إليها النسوة ، فأحس الأطفال ، ما عدا
محمدًا . كان والد محمد قد مات ، وكانت أسرته فى أسر قابل ورغم مكانتها العليا
بين سادة قريش ، لذلك أبت النسوة احتضانه .

« واستنعت ، أنا وروحي ، من أحده لئلا يسبب : أغنى اليتيم ، وعدم
الثراء . غير أنى فى النهاية حجت أن أرحع ولم أحداً رضيعاً فأكون - فصلاً عن
الفضل - موضع السخرية ، ثم إنى شعرت بعطاف متوقد نحو ذلك الطفل البارح
الجمال ، الذى سيؤديه هواء البدة الفاسد .

« ملأت العاطفة حروحي ، وشعرت - يا للمعجزة - باللس يعود إلى ثلثي
متحفزاً لأن يسيل فى قم محمد . فقلت لروحي :
- والله إنى لأحد دعه ملته فى أن أحد هذا اليتيم ، مهما كان الأمل فى الخير
الذى يعود علينا من أسرته ضعيفاً .

لا علمك أن تفعل ؛ عسى الله أن يجعل لنا به بركة .

« ولم أملك نصي ، وأسرعته مهرولة نحو الطفل الوسيم ، فوجدته وسنان ،
فوضعت يدي على صدره اللطيف ، « باسم ، وفتح عييه اللتين تشعان نوراً ،
فقبلته بيدهما ، وأحدثه ، ورجعت به إلى رحلى ، ثم وضعت فى حجرى ، وألقمته
ثدي الأيمن لتغذى منه بما شاء الله من تغذية . فوجد عيه - على دهشة منى -
ما يشبه ، ثم محته ثدي الأيسر ، فرفضه . تركاً لياه لأخيه من الرضاعة ، واتبع
ذلك دائماً .

« وما هو أعجب من ذلك : أن روحي قام إلى الناقة ليهدى ثائرة الجوع التى
تنهب بين أحشائه ، فإذا أحلافها حافلة باللبن ، مع أنها ما كانت تبص نفطرة .
فحب منها ، وشرب ، وشربت معه حتى انتهت ريثاً وشبعاً ، فبتنا بحير ليلة ،
وما كنا ندم من قل .

« وقال صاحبي ، حين أصبحنا . تعلمين والله يا حليلة ، لقد أخذت نسمة
مباركة . . . ثم خرجنا ، وركبت أنانى ، وحمدته عليها معى ، فوالله لقطعت بالركب

ما يقدر عليها شيء من حصرهم ، حتى إن صواحي ليقتن لي :
 « يا بنة أبي دؤيب ويحك ! اعطني عليها بالراق في اسير ، أليست هذه أُنثى
 التي كنت نخرجت عليها ، تحضضك طوراً وترفعك طوراً آخر ؟ فأقول لمن : بئس !
 والله إنها لي مي ، فيقتلن : والله إن لها لثأناً !

« ثم قدما مدينا ، من بلاد بني سعد . وما أعلم أرضاً من أرض الله أجذب
 منها ، فكانت غنمي تروح — على حين قدما به معنا — شاعراً بئساً ، فحسب
 ونشرب ، وما يحلب لإنسان قطرة لبن ولا يجدها في صرع ، حتى كان يومنا يفزلون
 لرعيانهم : وينكم أيها الحمقى ! اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي دؤيب .
 « كان الرعاة يطيعون ماداتهم ، ولكن أغنامهم كانت مع ذلك تروح جباعاً ،
 ما تنص بقطرة لبن ، إذ كان النبات الذي يترعرع بالمقدم أغنامي يذبل عنب
 مرووهم به مباشرة . فلم نزل نعرف من الله الزيادة والخير^(١) حتى مضت مستاءة
 وفطمته .

« كان يتسب شباناً لا يشبه العلماء ، فتم يبلغ تسعة أشهر إلا وكان يتكلم
 بسحر ولمحة بصلان إلى حبات القلوب . كان بعيداً عن الأتذار ، وكان لا يبكي ،
 ولا يصرخ قط ، إلا إذا ترك عربناً فتعرض لأقطار الآخرين أما إذا قلق أثناء
 الليل ولم ييم فكنت أخرج به من الخيمة فلا يلبث أن ينظر في إعجاب إلى النجوم
 فيستولي عليه السرور ، حتى إذا شبع عينا من هذا المطر أطقهما ، وأخذ اليوم
 بمعاقد أجفانه .

اصطارت حليلة بعد القطام ، أن تعود بمحمد إلى أمه التي أرادت أخذه .
 غير أن حليلة والحزن يلهي حوانعها لم يمكنها أن تستسلم لهذا الانفصال
 القاسي ، فلما إن رأت أمه ، حتى ألقى بنفسها عند قدميها وأخذت في تقبيلها

(١) كانت حياة الرسول صل الله عليه وسلم مباركة في جميع مراحلها ، وإذا كان قد أصبح
 — في سن الأربعين — أشدرة الهادية ، والأمل الثوب ، لهدية البشر ، فإن حياته قبل ذلك كانت حيرة
 وبركة بالنسبة لكل الذين اتصوا به ، وليس عربياً أن تبعث الطفولة الياسمة بالأمل والرجاء ، فيتعامل
 الإنسان ، ويحميه السؤال ، فيصير ويتخطى النعيت ، ويحيى ثمار ذلك شهية لذيذة ، فيشعر برحة
 وطمانينة ، ويعبرو ذلك — حقاً — إلى العمل الجديد الذي دخل حياته الطفوية الياسمة
 وتأثير الأشخاص صغاراً كانوا أم كباراً ، في يتأثروهم وأرواحهم معروف لا عاراة فيه ، ولعل هذا
 فظنوا إلى ما روى مزني ما هذا المطر لا يجد فيه من المראה ما يحملنا عن التردد في قبوله

وافجرت مستعطفة : « ألا ترين الآثار الناجع الذي تركه هواء البادية الصحى على ابتك ؟ إن هذا الهواء سيكون أجدى عليه الآن وقد بدأ يمشى . إن جو مكة وباء ، وسترينه بليل أمام عيبك ، حين لا يجدى الدم » .

رقت الأم لهذا الاستعطاف ، ورأت أن الخير لصحة الطفل فيها قالت حليلة ، فضغطت على عواطفها ، وقبلت أن يعود محمد مع مرضعته إلى البادية ، وحملته عند ذلك مرضعته الطيبة ، وعادت به إلى الركب سعيدة بما نالها من توفيق .

عاد محمد إلى بادية بى سعد ، وبدأ يطبع بقدميه على البساط المتموج من الرمال الطاهرة ، وأخذ ينشق ملء رئتيه الهواء المعطر برائحة البساتن التى ترعرع على الكشان ، وكان ينام تحت القبة الزرقاء المرسعة بالنجوم ، يغمره نسم الصحراء الليل الصافي . فتفتح صدره واشتد . وكان غذاء العرب الصحى المرتكر على القناعة له نصل كبير فى تفوية الرسول . وهذا الغذاء يتكون من مختلف لألمان ومتجاتها ، وبنى الأقراص التى أنضجت تحت الرماد ، وأحياناً من لحم الجمال أو الأغنام الخالية من النضج الحليث الذى ينبعث من لحوم تلك التى ربيت فى الخطائر . هذه الصحة الأخلاقية والجسمية التى يدين بها إلى البادية ، ساعدته كثيراً على تحمل ما ابتلى به بعد من محن .

كان محمد يحب إعادة ذكريات تلك الفترة ، وكثيراً ما كان يقول : « إن من نعم الله على التى لا تقدر ، أنى ولدت فى قريش أشرف القبائل ، وأنى نشئت فى بادية بى سعد ، أصبح المواطن بالحجاز » . وقد بعيت منطعه فى نفسه صور البادية التى كانت أول الأشياء تأثيراً فى حبه عندما كان يسرح فيها مع الرعاة فينساك شرقاً ليلاحظ القطعان فى مراعيها .

على أن استعداده للتأمل والرحمة لم يكن لينسجم مع أخلاق أقرانه الصاخبة ، فكان يفضل اعتزالهم فى ألعابهم ، ليذهب وحيداً حيث الهدوء والسكر .

محمد والملكان :

خرج الرسول - كعادته - ذات صباح مع أخيه من الرضاع بقودان القطيع إلى المرمى ، فلما انتصف النهار أتى أخره بعدو ، فرعاً باكياً ، ينادى : « يا أم ،

ويا أبت ! أدركا أخى الفرشى ، فإنه ابعد عنا كعادته ، فأحله رجلان عنهما
ثياب بيض ، فأضجعهما فشقا صدره .

حين جدول حليلة ، فعدت — بكل ما تملك من قوة — يشعها روحها ، في
الاتجاه الذى أرشد إليه الصبي ، فوجدوا محمداً خالساً على شرف ، وكان هادئاً ،
غير أن وجهه كان ممتعاً ، فقبلاه في رقعة وعظم وأحدهما يسألانه : « ما حالك
يا بنى ؟ وماذا حدث ؟ »

قال : « بينما كنت ألاحظ الأعناب ترعى ، إذا بصورتين ناصعتي البياض
ظننتهما أولاً طائرَيْن كبيرين ، ثم عرفت خطئى ، وإذا بالصورتين ليستا إلا
شخصين يلبسان لباساً فاصع البياض ! وقال أحدهما لصاحبه مشيراً إلى :

— أئذا هو ؟

قال . نعم .

« حدثت من الفرع ، وأخذاني فأضجعتاني وشقا صدرى ، واتمسا في صدرى
شيئاً أسود ، فوجداه وأحدهما وطرحاه بعيداً ، ثم التأم ما شفاه ، واختفيا كأنهما
شبهان . »

سجل القرآن هذه الحادثة في قوله . « ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك
وزرك ، الذى أنقض ظهرك . . . »

هذه القصة ككل القصص التى من نوعها ، والتى يجدها القارئ أثناء قراءته
لهذا الكتاب ، يجب أن تؤول تأويلاً رمزياً . والقصص التى نحن بصددتها تعنى :
أن الله شرح صدر محمد إلى الفرح بحقيقة التوحيد ، إذ أزال عنه منذ الطفولة وور
الوثنية .

فلقت حليلة وزوجها وأمهما ما حدث ، فقال الرجل .

« يا حليلة ، إني أحشى أن يكون هذا الغلام قد أصيب ، وما أصيب إلا
حصلاً من جيراننا ، غيره منهم لما يرون من عظيم بركته علينا ، وسواء أكان قد
أصابه مس من انشيطان ، فأوهمه ما حدث ، أم كانت رؤيته صحيحة ومنبئة
بمستقبل مجيد ، فإن مسئوليتنا في كلتا الحالتين خطيرة . الحق به بأنه قبل أن يظهر
ذلك به ، وأخرجى من أمانتك . »

ورأت حليلة - على مصص - أن الحكمة فيما قال زوجها ، فأحدث محمداً واتجهت به إلى مكة

سار الطفل - وقد بلغ من العمر أربع سنوات - إلى جانيها ، فلما اقتربا من البدة اختبعا بكثير من السائرين في الطريق الزاهيين إلى السوق ، أو إلى الحج بالكعبة ، وكان الليل قد صرب بجرانه ، فلم تشعر حليلة وسط الناس إلا وهي وحدها ، ولم تسمح لها طاعة الليل بالعثور عليه ، ورغم بحثها بجد وفدائها أخبار المتكرر .

فأسرعت تعدو إلى عبد المطلب ، فأمكه ، عماله من جاءه ، أن يبعث في أثر محمد مهرة الباحثين ، وامتطى هو صهوة جواده ليسوس البحث
وما لبث أحد متفقى الأثر أن وجد في وادي نهامة صبياً جالساً تحت شجرة يجذب غصناً من أغصانها .

فقال له : « من أنت يا غلام ؟ »

قال : « أبا محمد بن عبد الله » . . .

فسر الرجل بالعثور على ماله ، وأخذ العلام فوضعه بين يدي عبد المطلب الذي جاء على الأثر

فبذل عبد المطلب العلام في حبان ، ثم رجع إلى مكة ومحمد أمامه على قمره مرسه ، فغمر الشاء ، وأطعم أهل مكة الفقراء ، ثم حمل العلام على كتفيه ، وطاف به الكعبة شاكراً لله تفضله ولطمه ، ثم قاد محمداً في رفقة حليلة اناساً إلى أمه آمنة . فقالت حليلة بعد أن قلته وعاقته .

- ما أقدمك به ، وقد كنت حريصة عليه ، وعلى مكته عندك ؟

- قد بلغ الله بابي ، وقصيت الذي علي ، وبخوف الأحداث قأديته إليك كما تحبين .

غير أن الاضطرب والخوف كانا يقرآن في وضوح على وجه الموضع ، فلم تصدق آمنة حديثها وقالت :

- إنك تحفين عني الحقيقة ، لأصدقني الخبر .

ولم تدعها حتى أحبرتها ، وأعاد ما قال زوجها . فأساء هذا الرأي الأم ، فقالت في شيء من الحدة .

— أفنخرفت عليه الشيطان ؟

— نعم .

— كلا والله ما للشيطان عليه من سبيل ، وإن لابقى هذا لشأناً . ثم أحبرتها بما حدث من ظواهر عجيبة أثناء حملها ووضعها ، ثم بعد أن شكرت حليمة المحبسة ، وكافأتها على حسن صنيعها ، احتفظت بابنها ، وقد أصبحت صحتها من القوة ، بحيث لم تعد تحشى عليه هواء مكة الفاسد .

موت آمنة (سنة ٥٧٦ م) :

ترعرع محمد تحت رعاية آمنة ، أكثر الأمهات حباً . وفي ظل عنايتها أخذ يرداد كل يوم جمالاً وحكمة . غير أنه لم يعم بالحنان الأموى الذى لا يعرض غير قليل فقد ماتت أمه فجأة . « الأرواء » عند عودتها من سفر إلى يثرب رافقها فيه محمد .

وكان لآمنة جارية حبشية تدعى « أم أيمن » ، تحب محمداً ، وتخلص له الإخلاص التام ، اصطفتها آمنة في السفر فعادت باليتيم البائس إلى مكة ، وكانت هى وخمس من الإبل كل ما له من ميراث .

فكمله جده عبد المطلب ، الذى كان يعزه دائماً ، ويرداد حباً له بتوالى الأيام ، ذلك أن شبه لولده عبد الله كان يأخذ في الازدياد شيئاً فشيئاً ولعل الحكاية الآتية تعطى فكرة عن عاطفة عبد المطلب التى لا تحد نحو محمد :

كانت مكة — ككل مدن الصحراء — ذات شوارع ضيقة كثيرة التعاريج ، ولم يكن فيها مكان يسبح نوعاً ما ، إلا الميدان الذى يحيط بالكعبة ، وفي هذا المكان كان يجتمع سكان المدينة في الصباح وفي المساء للراحة والحديث في شئونهم ، ولأداء الشعائر والطقوس ، وكان يخدم عبد المطلب يضعف له فراشاً في ظل الكعبة ، يجلس حوله بوه وأحفاده وسادة المدينة في انتظار قدومه . وكان احترام سادن بيت الله : « عبد المطلب » عظيماً إلى درجة لا يجرؤ أحد حتى على الاقتراب من طرف المرائش .

وفي ذات يوم ، يجلس محمد وسط هذا القماش المحترم ، فما كان من أعمامه

— وقد ساء لهم ذلك — إلا أن أبعده عنه . غير أن عبد المطلب كان قادماً ، ورأى
— عن بعد — ما حدث فصاح :

— أرجعوا ابني إلى حيث كان يجلس ، إنه قرة عيني في شيخوختي ، وإن جرأته
أتية من خدمته كما سيصير إليه ، وسيلغ مكانة لم يلبها عربي قط .
ثم يجلسه معه ويعسج خديه وظهره بينه ، ويسره ما يراه يصنع .
بيد أن القدر أراد أن يحرمه هذه العاطفة الحنون ، فقد مات عبد المطلب
بعد أن بلغ خمسة وتسعين عاماً ، وذهب تشيعه إلى مفرة الأخير عمرات الناس
أجمع .

أما هذا اليتيم المسكين ، فقد كفاه عمه أبو طالب ، كفله بقاء على وصية
عبد المطلب ، لأنه من بين أعماله شقيق والده الوحيد .

أول سفر إلى سوريا (سنة ٥٨٢ م) :

كان أبو طالب يعون أسرة كبيرة ، وكان قليل الثراء ، رغم أنه ورث سداة
الكعبة ، فاضطر إلى الاشتغال بالتجارة مع اليمن وسوريا .
ولم يلبث محمد غير قليل عند عمه ، حتى أخذ أبو طالب في تنظيم قافلة
تجارية لقريش ، ينودها هو إلى سوريا . فلما تبوأ الركب الرحيل ، وأجمع على
المسير ، أثار منظره في نفس محمد ذكريات البادية المحيبة إلى قلبه ، تمر بها القوافل
الكثيرة الشبيهة بهذه التي توشك أن ترحل .

القافلة على أهبة الرحيل ، ومحمد إذن على وشك الافتراق عن عمه الذي
شعب به ، وعلى وشك أن يغمر في وحدة مؤلة محزنة . كل هذا حصل من محمد
بائساً ، لا ينسب بنت شعبة . وزاد البؤس ، وكاد قلبه أن يتعطر عند اقتراب
الافتراق ، فعدا فحر عمه وألقى بنفسه في حجره . وأحاطه بشراعه الصغيرين ،
ثم ألقى وجهه بين ثديا ملبس أبي طالب حتى لا ترى عمراته ، تلك التي امتزجت
فيها الرغبة باليأس .

ورق أبو طالب لما أهداه محمد من حب غير متكلف ، وأحس برغبة ابن أخيه
القوية في مرافقته ، فقال :

« والله لأخرجن به معي ، ولا أفارقه ولا يفارقني أبداً » .

فسح محمد دموعه ، واستولى عليه الفرح ، وبسط في استكمال التأهب للسفر ،
ثم قفز خفيف عمه على الناقة .

سار الركب وترك جو مكة الفاسد الذي كان يقبض صدر محمد ، فلما
غمر القافلة حواء البادية التي الصافي الذي أنه محمد من قبل ، تفتحت نفسه وأخذ
يملاً منه رثيه في لذة ومنعة ، لقد ساعدته ألغته للحياة البدوية أثناء إقامته مع
حليمة ، عى تحمله قسوة الحرمان وشدة التعب طيلة هذا السفر الشاق في صحراوات
الحجاز التي لا تكاد تجد .

رمال وصحور ، ثم رمال وصحور . . . تلك هي صحراوات الحجاز التي تتشبه
إلى درجة أن السائر فيها لا يشعر بأنه يترك مكاناً ليحل في آخر ، وإنما يشعر بأنه
يدور عوداً على بدء ، في مكان واحد ، تلك هي صحراوات الحجاز الخافتة ، التي
مكثت فيها القافلة شهراً كاملاً لا ترى أثراً للحياة ، اللهم إلا الشعور بوجود الأحـد
الحاد ، الذي لا يحدو منه مكان ، والذي يرى ولا يرى

محمد والراهب :

وقف العالم الراهب « بحيري » على مقدمه دير يعلو جبل « حوران » يشرح
الطرف في شبه إلى سهول سوريا الشاسعة المسطحة بحوضيرة العرب . وفجأة استرعى
نظره قطعة من السحاب بيضاء مستطيلة ، تعرض — على خلاف العادة — زرفة
السماء انصدفية ، وكأن هذا السحاب الذي يشبه صائراً أبيض هائلاً يحلن فوق قافلة
صغيرة تتجه نحو الشمال ، يعمرها بطله الأزرق ، ويسير معها إلى سرت .

وأناحت القافلة أسهل السير بجانب شجرة ضخمة ترعرعت على حافة واد ذهب
نضرتة ، وما لبث السحاب أن داب في عصاء الله الراجع ، بينما انحنى أغصان
الشجرة — كما لو كانت متأثرة بالنسيم — وبالت نحو واحد من الركب لتظله من
قيظ الشمس . فلما شهد ذلك « بحيري » علم أن قد وصل في تلك القافلة من كان
يستظره منذ زمن بعيد : ذلك هو الرسول الذي بشرت به الكتب المقدسة^(١) .

(١) تلك سنة الله تعالى في تأييد كرم بعضهم لبعض وتصديق بعضهم ببعض ، فلابي يهد
للأحق ويشربه ، وللأحق يقيد السنين ويكمل ما جاء به ، وأما من يجاهد منه ويصبره ويدافع عنه =

ترك بحيرى ، فى سرعة ، مقدمة الدبر ؛ وذهب بأمر بإعداد طعام كثير ، ثم أرسل رسولا إلى القافلة يدعوهما - الشاب منها والشيوخ ، والمشرقاء فيها والعبيد - إلى تناول الطعام . فسا عاد الرسول يرافقه المكبرون إلى حيث كان ينتظرهم « بحيرى » ، قال أحدهم : « بحق اللات والعزى ، إن لك يا بحيرى لشأنا اليوم ؛ ما كنت تصنع هذا بنا وقد كنا نمر بك كثيرا ، فما شأنك اليوم ؟ »

— صدقت ، قد كان ما نقول ، وما ذلك إلا لأسباب أعلمها ، ولكنكم اليوم صلب ، وقد أحست أن أكرمكم وأصنع لكم طعاما ، فتأكلوا منه كلكم وأخذ المدعوون فى تناول الطعام بشهوة قوية ، لما لاقوه أثناء سفرهم انطويل من حرمان . وأخذ بحيرى يمحض بعينه واحداً واحداً ، ليميز من بينهم ذلك الذى تتفق صفاته مع ما أنصرت به الكتب المقدسة . غير أنهم جميعاً أخذوا ظنه ، إذ لم يجد فيهم طمته ، فقال فى نفسه : إن ما رأيته من ظواهر حارقة لعادة لا يفسر إلا بوجود من اصطفاه الله بين هؤلاء ثم سألم : يا معشر قريش ، هل تحلف منكم أحد فى الرحال ؟

— نعم تحلف منا واحد فقط ، تركناه لحدائثه سه .

— لا تفعلوا ، ادعوه ، فليحضر هذا الطعام .

فقال رجل من قريش مع القوم : « وللات والعزى إن كان للوم ن أن يتحلف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيما » . ثم قام إليه فأحضره وأجده مع القوم فلما رآه بحيرى جعل يلحظه لحظاً شديداً ، ويظهر إلى أشياء من حسده ، وقد كان يجدها عنده من صفته ، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا ، قام إليه « بحيرى » فقال . يا علام ، أسألك بحق اللات والعزى إلا ما أخبرتني عما أسألت عنه ولم يرد « بحيرى » نفسه عليه باللات والعزى — بعد أن سمع القوم

= والقرآن الكريم أحسن من هذا المعنى فى آيات وسور كثيرة

فى التأيد والتمهيد والتصديق والمصارفة ، قال تعالى فى سورة آل عمران فى الآية رقم (٨١) : « وادع الله مشيئة السبيل ، ما آتاكم من كتاب وسنة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم ، لتؤمنن به ولتنصرنه ، قد أقررتم وأثبتتم على ذلكم ، صلى قائلوا أقررنا ، قال : فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين » . ويقول سبحانه وتعالى فى نهاية سورة البقرة

« آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه وللمؤمنين كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله »

يخلفون بهما إلا امتحانه فقال محمد : « لا تسألني باللات والعزى شيئاً ، فوالله ما أبغضت شيئاً قط بغضهما » :

— فبالله إلا ما أخبرني عما أسألك عنه .

— سألني عما بدا لك .

فأحد بحيرى و الاستمهام عن كل ما يهمه ، عن أسرته ، عن مكانه ، عن أحواله ، إلى غير ذلك من أمور كثيرة . وكاتب الإجابة نواقص ما عند بحيرى من صمته وأحيراً نظر بحيرى بين كتفيه ، فرأى « حاتم البوة » على موضعه من صمته التي عنده ، فرأى من نفسه كل شيء ، وأيمن أن الواقع أمامه ، عما هو الرسول الذي بشرت به الكتب المقدسة ، فأقبل على أبي طالب وقال له : ما هذا الغلام منك ؟

— إنه ابني !

— ما هو بابنك .

— صدقت ، إنه ابن أحمى .

— فما فعل أبوه ؟

— مات وأمه حامل به .

— صدقت ، فأصغ لما أقول : ارجع بابن أخيك إلى بلده ، واحذر عليه

يهود فوالله لئن رأوه وعرقوامته ما عرفت ليسغوبه شراً . فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم .

وتأثر أبو طالب لهذه الوصايا الصادرة عن رجل ذاعت شهرته العظمة ، فخرج

بابن أحمى سريعاً حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام .

ثبت محمد والله تعالى يكلوه ، وصاية أبي طالب تحوطه ، حتى صار فتى

مكتملاً . ولقد كان حبيباً بالغ الحياء ، وما يروى في ذلك . أن أبا طالب كان ذات

مرة يقوم بإصلاح ثوب زرم . وكان غلمان قريش ، ومن بينهم محمد ، ينقلون له

ما يلزمه من حجارة . ولتحاشى المشاق أحد كل منهم إزاره ، فجعله على رقبته يحمل

عليه الحجارة حتى لا تصره خشوبتها ، فأبان ذلك عن عورتهم ، وما إن رأى محمد

نفسه على ذلك الوضع وشعر بأنه معرض للأعين ، حتى استولى عليه انقباض

شديد في الصدر ، وسال على جبينه العرق وأخذته رعشة الخجل ، فسقط مشياً عليه^(١) .

هذا الحياء وتلك الرعاية اللتان يمنحهما الله لمن اصطفاهم ، جعلاه بمعزل عما يتعرض له أحياناً من هم في دور المرافقة من حدة وندفاع . وكان بين أقرانه أحسنهم خلقاً ، وأكرمهم وأحسنهم حواراً وعشرة ، وأصدقهم حديثاً ، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي قدس الرجال ، وأرفعهم لمقتضيات الصداقة ، حتى لقد سمى بين قومه بالأمين .

الرحلة الثانية إلى سوريا (سنة ٩٥٤ م) :

كانت حانة أعب المكيين — كأي طالب — تصطبرهم إلى التجارة ، فإقليمهم من أشد الأقاليم حذباً ، ولدهك لم يكن من الممكن لقاطبيه أن يعيشوا إلا بالتعامل مع اليمن وسوريا ، اللذين تربط بينهما مكة ، فكانت قوافلها تذهب إلى اليمن الذي أطلق عليه « الإقليم العربي السعيد » للبحث عن منتجاته والمستجات التي تصل إليه عن طريق البحر ، هيتاعون مما تنتج الحشنة والهد والصين ، من التوابل ، والعطر ، والبحور ، والتبر ، واخرير ، وفي عودتهم إلى الحجاز يهيئون إلى ذلك تمر يثرب أو الطائف . ثم يذهبون بعد ذلك إلى سوريا ، ليستبدلوا بضائعهم منتجاتها الزراعية :

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (كل ما يروى ابن هشام) :

« لقد رأيي في علفان قرينين ينقلان الحجارة لبعض ما يسمي به العلماء ، كذب قد تعري وأخذ إزاره فجعله على رقبته ، يحمل عليه الحجارة ، فإن لأقيل معهم كذلك وأدبر ، إذ لكى لاكم ما أراه ، لكه وجيئة ، ثم قال شد عليك إزارك وأخذته وشده على ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي وإزارى على من بين أحمالي » (ص - سيرة ابن هشام) .

قال المصنف في التعميق على هذه القصة : « وهذه القصة إما وردت في الحديث الصحيح أو حين بيان الكعبة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل الحجارة مع نومه إليها ، وكانوا يحملون أروهم حل - راقعهم لضيقهم الحجارة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحملها عن حائطه وإزاره مشدود عليه ، فقال له العباس رضى الله عنه -

يا بن أخي لو حملت إزارك عن حائطك . ففعل ، فسقط مشياً عليه ، ثم قال إزارى إزارى ، فشد عليه إزاره وقام يحمل الحجارة .

وفي حديث آخر أنه لما سقط عليه العباس ، بن نفسه وسأله عن شأنه ، فأخبره أنه نودي من السماء أن اشدد عليك إزارك يا محمد . قال : وإنه لأول ما نودي .

وسيدت ابن إسحاق ، إذ سمع أن ذلك كان في سفره إذ كان يذهب مع النسيان ، فحصل من أن هذا الأمر كان مرتين مرة في حال صغره ومرة في أول اكتبه له عند بيان الكعبة .

كانقمح ، والشعير ، والأرز ، والتبن ، والزبيب ، يضاف إليها ما يوجد في سوريا مما يصدره إليها اليرقان والرومان .

ولم تكن النساء تعمل عن هذا النوع من التجارة فقد كن يفترن من يخرج في ماله للتجار في مقابل جزء من الربح . هكذا كانت تفعل خديجة بنت خويلد ذات الثراء الواسع ، والحسب السليل . وفي ذات يوم أرسلت إلى محمد ... وقد كانت تسمع بما له من عقل متزن ، وأمانة وإخلاص — فعرضت عليه أن يسير على رأس تجارتها إلى الشام ، وأن تمنحه في مقابل ذلك ضعف ما كانت تمنح عادة لغيره .

قبل محمد العرس . غير أن أبا طالب تذكر ما قاله الراهب « بحيرى » فأمه الأمر ، وأحسن بالاضطراب حينما تأهت القافلة للسفر ، فجعل يوصي أهل القافلة ... كلا على انفراد — بمحمد ، وأوصى على الأحص ميسرة عبد خديجة الذي تثق به ، والذي رافق محمداً في تلك الرحلة .

كان ميسرة خادماً أميناً ، طيب القلب مخلصاً نشد ما أثرت في نفسه وصية أبي طالب صاحب المكانة الاجتماعية العظيمة ... على أن تأثير محمد الساحر فيمن حوله ، وعموه عليهم أذهلاه حتى عن نفسه ، فأخلص له الإخلاص كله ، وجعله موضع التقديس . وكان ميسرة يرى في كل ما يحدث أثناء السفر معجزة تدهن على أن طبيعة محمد ليست من هذا العالم . وكانت الحوادث — على ما يبدو — تؤيده ؛ فهذا الطريق الذي سلكه غير مرة ، والذي يعرف مشاقه ، وأخطاره ، هذا الطريق الذي لا يكاد ينتهى ، والذي تلتهب فيه الشمس وتجنف الأسقية ، وتوحى إلى سالكيه بأنه طريق جهنم ، هذا الطريق الذي انتشرت حل جابيه عظام البشر والحيوانات التي ألقى عليها انظماً ، هذا الطريق طواه ميسرة في دعة وسرور .

كل يوم — حينما تغلو اشمس رؤوس المسافرين ، وتذرهم بشعاعها المتهيب ... يرى ميسرة في القبة الزرقاء مسجداً خديماً بشه ريش الطائر ينألف شيئاً فشيئاً ، ويزداد ويتجمع ، ثم يستطبل فيشبه بجاحى طائر عظيم يشهرها ليحتضن محمد بظلهما . حتى إذا أخذت الشمس تميل نحو الأفق وبعدد دوه حرارتها الخفيفة ،

أخذ الریش يتناثر ، واحدة فواحدة ، لينوب في ثانيا آخر شعاع ذهبي ينفذه
الكوكب المتأرجح قبل أن يحنى ، وحينئذ يطوى الخناجين ويمسح المكان للنجوم
التي لا تتلألأ في أى مكان ، كما تتلألأ فوق الصحراء

أما لابل القافلة عند عمها هي أيضاً . فيما يبدو . نشوة من عرج : هتسعت
خطاها ، وبدأ الطريق من تحنها كأنه ينطوى من نفسه ، ولم يصب واحد منها
بسوء يتركه جثة هامة بين العظام ، ذات المطر الشع ، التي هي بقايا ما اندثر
من القوافل اسابقة .

سارت القافلة في سلام ، غير أنه حدثت ذات يوم أن تأخر حملان من حمال
حديجة عن القافلة ، وبدت عليهما علامات التعب الشديد ، ولم يصل ميسرة ، رغم
ما صبه عليهما من لعت ونطحات ، إلى إلحاقهما بالقافلة ، فقد غمر العرق جسم
الحيوانين البائسين ، وتلك علامة مؤكدة على اقتراب أجلهما .

ووقع ميسرة - وهو الخدم المخلص الخريص على مصلحة سيده - في بلبلة
وأضطراب ، ولم تسمح نفسه بترك الحملين . وبينما هو كذلك تذكر ما قاله
أبو طالب عن محمد . فعدا إلى رأس لقافلة ليقص عليه الأمر .

عاد محمد إلى الحملين ، فوجدتهما قد استلقيا على الأرض ، فلما أحسهما على
القيام أخرجهما صوباً تتمثل فيه الشكوى والألم العميق ، فانحنى عليهما ، وبس
بيديه المدركتين أحفاهما التي قطعتهما أحجار الطريق الحادة ، فقاما بعد أن كانا
لا يبديان حراكاً ، ونشطا في السير ، حتى أدركا - في ثوب الحملان مقدمة
القافلة .

وصلت القافلة إلى بصرى من أعمال سوريا ، واستمر التوقيق يرافق محمداً ،
فباع جميع ما أتى به من بصاعة بربيع لم يكن منتظراً ، واشترى جميع ما يريد
من سلع بثمان رهيد ، كل هذا بدون أن يلجأ إلى طرق المساومة التي لا تكاد تنتهى ،
والتي يستعملها ، عادة ، الشرقيون

كان طرفه الطبيعي وصراخه ، وما يبدو عليه من بيل ، وعلى لأحص هذه
الإشعاعات التي فيها من المساتير ما فيها ، والتي تبتق دائماً عن اصطفاهاهم الله ،
هذه الإشعاعات التي ترجمها المصورون - فيما مضى - بإكليل من ذهب ،

ويصمها علماء اليوم — حاحرين عن شرح طبيعتها — بالمغناطيسية . . . كل هذا كان يجعل الناس يقبلون عليه في مودة وثقة .

في هذا القطر الذي شغف بالمسائل الدينية ، والذي نجد فيه على قمة كن شرف دبراً ، وتوحي إليك كل صحرة فيه الذكريات رسول أو نبى ، والذي تبدو الطبيعة نفسها فيه كأنها تنحي أمام محمد ، في هذا القطر آثار المصطفى ، في قوة ، اهتمام كل الرهبان — حفلة الكتب المقدسة . وقد كانوا ينتظرون رسولا جديداً من قبل الله . . . جاءوا جميعاً إحد يسألون ميسرة الذي عرفه كثير منهم من قبل أثناء رحلاته السابقة ، والذي يحلمون أنه موضع سر محمد . فلما أرضوا حب الاستطلاع ، صرح أحدهم — وهو راهب نسطورى ، يسمى « جريج » إلى خادم محمد المخلص بمثل ما صرح به « بحرى » لأبى طالب .

انتهى التعامل وتمت الصفقات ، فأحدث القافلة طريق العودة ، وأخذ المحاب الذي بدا كأنه ينتظر اركب مكانه فوق رأس محمد ، واستمر كذلك إلى نهاية السفر . فلما وصلت القافلة إلى بطن مر ، بالقرب من مكة ، أقنع ميسرة محمداً بأن يسبق القافلة ليحمل بشرى العودة إلى حديجة .

كنت حديجة قد تعودت أن تصعد مع خادماتها إلى سطح المنزل ، حيث ترى في وضوح طريق سوريا متجهتاً بين الجبال إلى الشمال العربى ، ولم تكن — بطبيعة الحال — قلقة على ثروتها ، غير أن من أرسلته قد أهمها أمره ، وكانت لم تثبت ، أو لا تريد أن تثبت . ذلك بعدى وضوح على أنه ، لا شك فيه أن ما رآته في وجه محمد من نبل ، وفي أخلاقه من طهارة ، أثر في نفسها تأثيراً كبيراً ، حتى لقد شق عليه حبيبها ، وداها أن هذا السفر يوشك أن يستمر فلا ينتهى .

وفي ذات يوم صعدت حديجة إلى مرصدها المعتاد . وكانت الشمس إذ ذاك تلقى أشوط من نار على البدة ، وتمتع القاطنين من الحارة بالخروج إلى الشارع أو الصعود إلى مصروح المنزل ، ومكنت حديجة تنظر ، وتنظر في أعماق الأفق الشاسع ، عجب ترى القافلة التي لم تعد تصدر على بعدها . فلما يثبت أعصمت عينيها الملتهمتين . وما لبثت أن شعرت فجأة بسيم عليل رطب يتخلل جبينات المنزل ، بينما سحابة رقيقة صاربة إلى اللون البنفسجى قد حطمت من حدة الضوء

الذى تقذفه الشمس على السطوح ، وعلى لصحور . . . في تلك الآونة فتح الباب ودخل محمد بيت خديجة .

أخذ محمد ، كوكيل دقيق ، يعرض عليها سبعة رحلاته ، ويعرفها عما كان لها من ربح عظيم ، فشكرته ، وهبته في حرارة ، غير أنها لم تدهش من نجاحه ، فقد بدأت تعتقد أنه من المصطفيين الأخيار .

ولاحظت خديجة السحاب ذا الطل المنعش ، ساعة وصول محمد ، فجلست ارتباطاً وصلة ، وأرادت أن تثبت فسأت : أين ميسرة ؟ .
— إنه مع القافلة .

— عجل إليه ليحجزك بالإقبال ، فإنني في أشد الشوق إلى التمتع برؤية ماحوت القافلة .

فعاد محمد ، وفارق السحاب المرل ، وتابعه على طريق سوريا ... لقد أصبح حذو من خديجة بقيماً .

ولم يلبث ميسرة أن وصل فأعلن ، مؤكداً رأيها :

« إن هذا السحاب الذى لاحظته لم يتخلف قط عن مرافقتنا منذ أن عايناه مكة إلى أن عدنا إليها ، وند أن تركنا بصرى . وقد عرفني رهبان (حوران) العلماء من هو محمد : فعرفت أن هذا السحاب ليس إلا أجنحة ملكس مكلمين بوقاية سيدى من قيفظ الشمس المهلك . ثم قص ميسرة على مبدته كل ما حدث أثناء الظرمق من حوادث استدل منها على أن محمداً شخص قد بارك الله فيه . وأصفت خديجة في انتباه ، وكلما سكبت سخامها استزادته . . .

زواج محمد بخديجة (سنة ٥٩٥ م) :

صاغت السيدة الفاضلة محمد ما كانت قد وعدته به من أجر . ولم تعد تفكر إلا في جعله امشرف الأعلى على ثروتها . فرأت أن حير طريقة بذلك هي أن تتزوج به ، خصوصاً وأن عواطفها القلبية نحوه لم يكن من شأنها أن تصرفها عن الإقدام على مثل ذلك . نعم ولكن ما العمل في مسألة اختلاف السن ؟

لقد بدأ محمد عامه الخامس والعشرين في حين اقتربت هي من الأربعين

أيقف ذلك عقبة ؟ إن سن خديجة لم تمنعها من أن تكون محط أنظار الكثيرين ،

لا لأنها - حسبما يبدو لأول وهلة - ثروة (فالتقاليد العربية تقضى بأن المهر يدفعه الرجل وليس له أى حق على ثروة زوجته) ، ولكن لما تحولت به من صفات شخصية . ومن سحر ، ومن وحاجة ، ومن فصائل ، ثم لحسبها اليس أيسر هي بس خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب ؟

كانت خديجة ، لكل ذلك ، محاطة بحاشية من الطامحين إلى رواجها ، يعتمد بعضهم على شرف حسبه ، والبعض الآخر على ثروته ، بيد أنهم حاولوا عشياً ، إذ أنه بعد موت أبي هالة زوجها الثاني ، عرمت ، فيما يبدو ، أن تقضى بقية حياتها بدون رواج . هذا العرم لم تجد له ما يبرره عندما رأت محمداً ، وعلمت عن تجربة - الشيء الكثير مما يحل به من مكارم الأخلاق ، فغيرت اتجاه حياتها . وكان كل يوم يمر يريدها ميلاً على ميل نحو محمد ، فعزمت على أن تعرف ما تطوى عليه قلبه .

قال ميسرة : « أرسيتى سيدتى ، بعد شهرين وعشرين يوماً من عودتنا من الشام إلى محمد فقلت له -

- يا محمد ، ما يمنعك أن تتزوج ؟

- ما يبىدى ما أتزوج به .

- فإذا كان ما تمنك ، على قلته ، يكنى ، ودعيت إلى الحمال ودر والشرف والكفاءة ، ألا تعجب ؟

- فمن هي ؟

- إنها خديجة .

- إنك هازل . كيف أحرق على أن أقدم لصاب يدها بما أملك من مهر ؟

- لا عليك ، وأنا محل تلك العقدة كهيل .

« كانت نعمة سيدى في حديثه كافية لمعرفة عواطفه نحو سيدتى ، فأسرعت في العودة لأبشرها ، فمعها السرور ، وأخذت في الاستعداد للزواج » .

وكان أول ما فكرت فيه أن تحصل على موافقة أبيها خويلد الذى كان يرفض

- دون ما رحمة كل الطامحين ، إما لأنهم ييسو من ناحية الشرف أكماء ، وإما

لأن ثروهم أقل مما ينبغي . لهذا استعملت ابنته للوصول إلى ما تريد ، طريفة التحايل الآتية :

صنعت طعاماً وشراباً ودعت أباهما وبناتها من سادات قريش ومحمداً وأعمامه ، وكان خويلد يحب السيد حباً عظيماً ، فشرب منه حسب عادته . أكثر مما ينبغي فانتهرت ابنته الفرصة وقالت : « أبنى ، إن محمد بن عبد الله طلق للزوج وأرجوك المواقفة على ذلك » .

كان خويلد تحت تأثير الخمر ، فأخذ الحياة من حوائطها السارة ، فقبل عرض ابنته بدون تفكير ، وما إن حصلت على رضاء أبيها حتى قامت - حسب عاداتهم - إلى تعطير أبيها وألبسته حبة نفيسة .

وصحبا خويلد من سكره ، فسأل ابنته : ما هذا ؟

قالت : إنك يا أبت به عديم ، فقد قبضت رواجي بمحمد بن عبد الله . أنا ١٩ . أروحك اليتيم الذى كفله أبو طالب ! كلا ! إن هذا لا يحدث ما دمت على قيد الحياة .

- ألا تستحي ، تريد أن تسفك نفسك عند قريش ، تخبرهم أنك كنت

سكران ! ؟

وصرخت خديجة على تلك النخلة طويلاً ، حتى إن خويلداً ارتبك واضطر إلى انقصول الهاتئ ، وحينئذ قام أبو طالب وقال : « الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم ، وروع إسماعيل ، وجعلنا حضرة يسوع وسوأس حرمه ، وجعل لنا بيتاً محجوجاً ، وحرماً آمناً . وجعلنا سادة العرب . ثم إن ابن أختي هذا محمد بن عبد الله لا يورث برجل إلا ربح به شرفاً ودلاً وفصلاً وحفلاً وإن كان فى المل فل ، وإن الماب ظل راتل ، وعرض حائل ، وعارية مستردة . وقد حطب إبيكم رعة فى كريميتكم خديجة ولها فيه مثل ذلك ، وقد بذل لها من الصداق ما عاشله وآحله عشرون بكرة ، وبنى يا معشر قريش . أشهدكم على ذلك » .

تم الزواج ، واحتملت به خديجة ، فأمرت الشابات الرشيقات من بنو بنيها أن يرقصن ويصربن الدفوف أمام المدعوين الذين سروا هذا الرباط بين عائلتين كريميتين شريفتين .

كانت حديجة أول راحة بنى بها الرسول . ونقيت . طينة حياتها . روحه الوحيدة الخبية التي لا يجد غيرها إلى قلبه مسيلاً . وقد أنجبت له سبعة أولاد ، ثلاثة ذكور ، هم : القاسم ، والظاهر ، والطيب ، وأربع إناث : رقية ، وربيع ، وأم كلثوم ، وفاطمة . وبعد مولد القاسم الذي كان أول من أنجب الرسول من الذكور كنى محمد نأبى القاسم . (لَكُمْ سَعِيدٌ مُحَمَّدٌ إِنْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ) ذكرنا ١١ وإكم أعز محمد هذا الطفل وأحمه ، ولكم حزن حين أصابته فيه المقدرة ، وهو ما يزال بعد في دور الطفولة ١١ وأراد الله أن يكون مصير الظاهر والطيب مصير القاسم ، فمات الجميع قبل بعثة الرسول أما البسات فقد عشن إلى ظهور الإسلام وكن من أوليات من أسلمن ، وساعدن ، جاهدات ، في سبيل الله ورسوله .

حديث بنیان الكعبة ووضع الحجر (سنة ٦٠٥ م) :

نهضت الكعبة في بعض أحزائها ، بسبب حريق حدث بها ، فلم تُصمَح كما ينبغي . وتصدع سقفها ، فدخل النصوص من هذه الفجوات ، وسرقوا بعض كنوزها التي تكونت من هبات الحجيج . كادت الحاجة ماسة إدد إلى إصلاحها من جديد ، غير أن حيطتها كادت ، هي أصلاً ، بحالة لا تحتل أي ثقل عليها ، فاستلزم الأمر هدمها ، ولقد حدث هذا الهدم بعد كثير من التردد : فما من شك في أنه إذا كان إصلاح بيت مقدس كالکعبة لا يثير اعتراضاً ، فإن هدمها يالوح ، دينياً ، من الخطورة عكان

وأخيراً ، بعد أن بدت لأهل مكة علامات استدلو، منها على رضاء الله ، أحسوا أنهم على هدمها وإقامتها على أساسها القديم ، ذلك الأساس الذي كان مؤلفاً من كتل من الأحجار ، ترتكز في تمامتها على تداخل بعضها في بعض ، بطريقة هي عبة في المهارة والإحكام ثم حرأت قريش الكعبة ، وحصل لكل عشيرة قسم تبنيه . بدأ القرشيون البناء ، في تحمض يوجد دأئماً الشافص ، فأقاموه بسرعة ، حتى بلغ الشيان موضع الركن ، حيث يوضع الحجر الأسود . . . من بضع الحجر الأسود ؟ من الأحدثر سيل هذا السرف الخليل ؟ هنا ثار الخلاف وأحدث كل قبيلة تذكر شرفها الأصل ، أو حياؤها التي لا تسكر واحتدم النزاع والخور ، ومجالعوا وأعدوا للقتل وقربوا سو عند الدار حصة بموعد دماً ،

ثم تعافسوا هم وسو عدى بن كعب على الموت وأدحوا أيديهم في ذلك الدم ،
عازمين على وضع الحجر أو الموت .

ومكثت قريش على ذلك أربعة أيام . يتهدد بعضها البعض ، ويتوعد وينذر ،
ويراقب حركات الآخرين . وأخيراً ، قال لهم أبو أمية - وكان عامداً أسن قريش -
« يا معشر قريش ، اجعلوا بيحكم ، بما تحتفلون فيه ، أول من يدخل من باب هذا
المسجد ، يقضى بينكم فيه » .

أحد المتخاصمون في النهاية بهذا الرأي . وهما لبثوا حتى رأوا شاة في نحو
الثلاثين قادمة ، فلما عروها قالا ، « هذا الأمين ، رصينا ، هذا محمد » فلما
انتهى إليهم ، وأحبروه الخبر ، لم يأخذ في الإصغاء إلى حجة كل فريق ، وإنما قال
في ساطة - « هلم إلى ثوب وانثروه على الأرض » . فلما أحابوه إلى ما طلب
أخذ الحجر الأسود بين يديه فوضعه على الثوب ثم قال : ليأخذ رئيس كل قبيلة
طرف الثوب ، الذي يوجه تجمعه . فلما أخذوا بأطراف الثوب قال لهم : « ارفعوا
جميعاً » . ففعلوا حتى إذا ملأوا به موضعه . ووضعه هو يده . ودال اختلاف
يفصل بديهة محمد الحاضرة فقد أرواهم جميعاً دون أن يحصى أحدهم على
الآخر . وفق - لأول مرة في تاريخ العرب - بين كدرياء رؤساء القبائل ، فمنعهم
من إسالة الدماء ، واحتفظ بدسه بجانب من شرف وضع الحجر الأسود . ولم
يسرعه فيه منارع

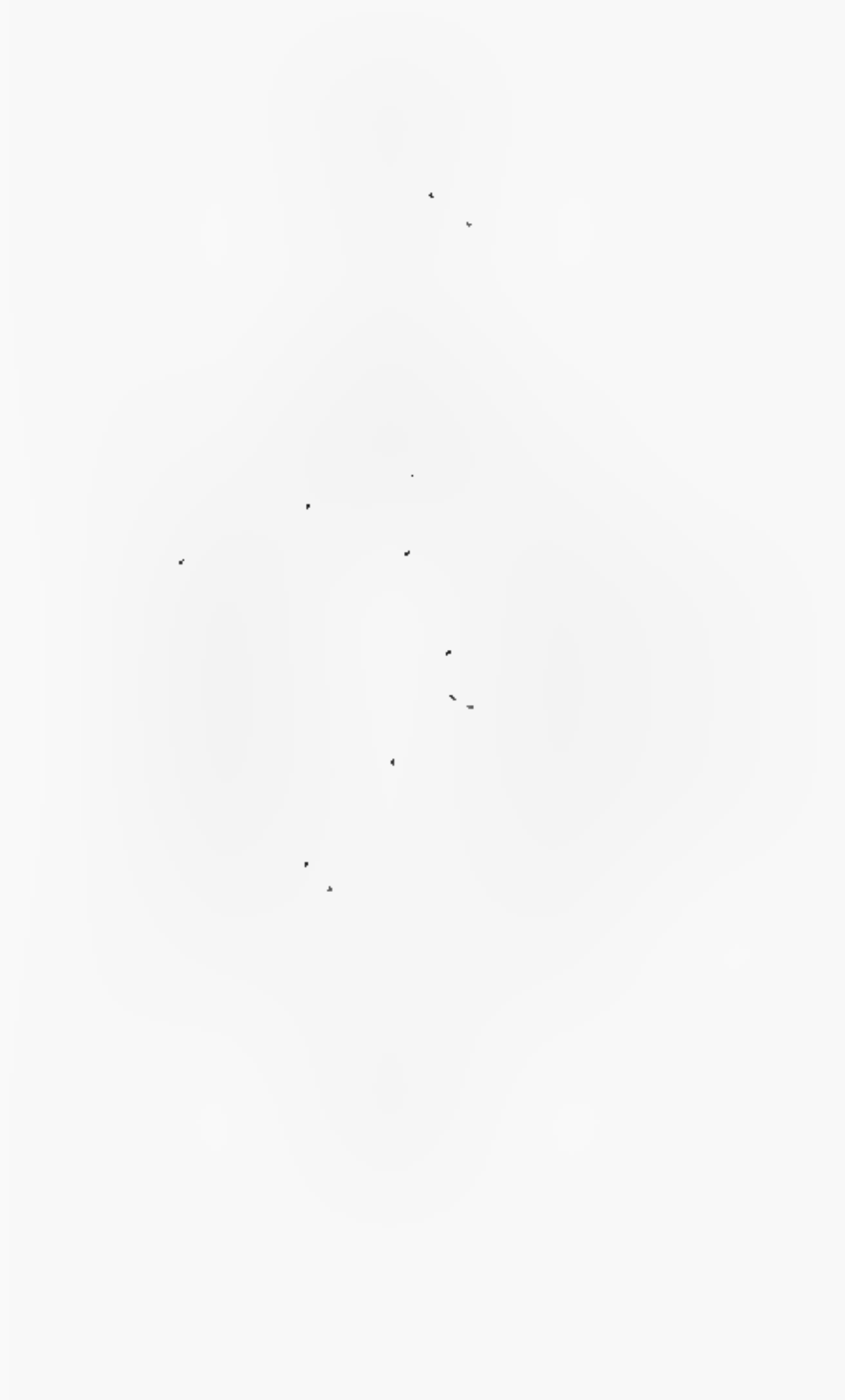
انتهى البناء بعد وضع الحجر الأسود سرعة . وكان الحجر قد رمى بسحينة
على حدة فتحطمت . فأحسوا حشها وأعلوه لتسقيف الكعبة ، ولما كس الأمر
عطوها بقباش من الكتان لدقيق الصنع قام بحمله المصريون

وبما بعد كانت تعطى الكعبة بسبع مقام ، من صنع اليبس ، ثم كساها
الحنججأح من يوسف الخريز الأسود الذي لا تزال تكسى به إلى الآن ، والذي
يُجند دكل عام .

وَقَتَرَوْدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ النَّقْوَى



الفصل
الثالث



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ

عزلة محمد :

كان القرشيون على استعداد لأن يمسحوا من لفوه بالأمين من مرات الشرف ، ما تطمح إليه النعوس وما يعثر به : وأن يمكنوه من مركز اجتماعي سام . غير أن نهمه وهي يعزل عن العجب واطمع كاتب برفض ، في إرداء ، كل عرص من هذا اسوع . لذلك كان تدخله العرصى ، فيما يشأ من خلاف ، سب وضع الحجر الأسود ، هو احادته الاسماعيه الوحيدة ، التي ساهم فيها طيبة الخمسة عشر عاماً التي تلت رواحه .

ثم كان يشغل محمد نهمه إدد ؟ لقد عرس لله في قلبه حب الوحلة ، ثم إنه كان شغوفاً بمصاء الله الراسع يسبح فيه ، هريداً ، ألى شاء ما سب ميله هدا ؟ لا بشك أن تلك الوحلة الكالحة التي تحيط بمكة كانت تحيي فيه ذكريات طفولته السعيدة ، في أثناء إقامته بالبادية . نعم ، غير أن روحه التي اضطهاد الله كانت تجد متعة أسنى وأروع ، في الحرب من الانحلال الأخلاقي والصلالي لديني الدين سادا العرب إد ذلك .

حقيقة إد العرب وصلوا من الاعتد بالفس ، ومن اليس ولشجاعة والاستقلال إد أعصى الترحات ، وبلغ كرمهم بل مرتبة ، هي من السمو بحيث م يأت للأحرار تحطيتها ، ووب حاتم الطائي ليعترأ أمير للكرواء الامناع

حقيقة إد ملاعتهم وشعرهم لا يحشيت التحلف ، في مضمار الساق ، عما ينتجه أعاصم الخطاء ، وفجور شعراء العليلين وما من شك في أن الشعر ، الذي كان يمكنهم من الإشارة بمظهر البطولة وآيات الكرم ، ومن التمتع بعم

الحب والاستغاثة من جحيمه ، كان باسطة إلى هؤلاء القوم ، دوى العواصف
الملتفة ، شعيرة دينية تحيطها اقداسه ، ونحدها ، في السجود ، أحمل اللغات
نصاً وموسيقى .

ولقد كان سوق عكاظ مسرحاً لتأري الشعراء ، يصفق فيه الناس ، منحمسين
مأخوذين ، للمستصر ، ثم تكتب قصيدته بحروف من ذهب وتعلق بالكعبة
ولقد وصل إليها من هذه القصائد سبع سميت بالمعجمات . وهي تُرى في وصور
إلى أي حد من السمو وصلت العبقرية العربية في الشعر .

أجل . ولكن بجانب هذه الصفات الزهراء ، الفطرية في العرب ، كم من
صلال يرقى له ^٩ لقد نسوا شيئاً تاماً دين لتوحيد ، الذي نشره فيهم بعدهم
إبراهيم ، وإن كانوا قد استمروا في تقديس الكعبة التي ساءا يديه ، فقد اتحدوا لله
شركاء ، برغمهم ، من أصنام تحظى عادة ، بتعصبلهم . وكان لكل قبيلة ، بل
لكل أسرة ، صنم تؤثره عما عداه . وأصبحت الكعبة مائة لثلاثمائة وستين صنماً ،
من خشب أو من حجارة ، تعبد من دين الله .

أنصاب ، وأرلام ، وسكر ، واستعمال بسحر والرقى كل هذا كان
بهوى بعقلية هؤلاء القوم الذين وهبهم الله استعداداً فطرياً رائعاً لقد تركوا لأنفسهم
الحبل على الغارب ، وأسرفوا في فهم الحرية ، فكان الرجل منهم يتزوج من النساء
أكبر عدد يمكنه تعديته ، وكان من ثقاليدهم أن النساء تورث كما يورث
العقار ، فقد كان الابن بعد موت أبيه يتصل اتصالاً حسبياً بمن ورثهن من
زوجات والده .

ذلك ، لا شك ، شع عجبل ، بيد أن الإشاعة قد بلغت أقصى مراتبها
في وأد الباط . لقد تغالى العرب وأسرفوا في كل ما يتصل بالشرف ، وذهب بهم
هذا الإسراف إلى تخيل احتمال أن يؤدي شرفهم نسب سوء سيوك فتاة أو بسبب
اغتصابها ، وحسم الخيال ذلك لبعض الآباء الذين أفسدت المعالاة طنائهم ،
فتوهموا ، ثم طنوا ، وتحيلوا ، ثم خالوا ، وحافوا فمضوا القصة على بناتهم مد أن
يتسمن الحياة ^(١٠) .

(١) قال تعالى في الرجم من ذلك : وإدا الموءودة مشف ، يأتي رب سيد .

ولقد كان ميل العرب إلى الشهى ، وحساسيتهم المرهقة فيما يتعلق بالكرامة وكبرياؤهم ، من أكبر انعكاسات التي تجمعهم من الخصوع للنظام ، لذلك كان كل ارتباط ، أو تقدم أو تنظيم اجتماعي ، مستحيل التحقيق وكان من الطبيعي أن تستمر الحرب فلا تنقطع ، وأن يحل الثأر ، الذي لا هوادة فيه ولا رحمة ، محل التقاضي ، فتسيل الدماء في كل بقاع الحريرة العربية .

ذلك هو الصلان الذي أحزن محمداً وأرتقه ، وحمله لا يستطيع الصبر على رؤيته ؛ وهو صلال ليس في طوره إرثته ، لأنه متأصل عميق ، ولأنه عام شام ، وهو حالب ، لا محاله ، على مواطنيه عماء السماء الرهيب ، يعصف بهم كما عصف بناد وثود . لهذا كان يلجأ إلى الأماكن الحالية من في أنشر ، حتى لا يختلط بهم ، وحتى يزيل من ذاكرته شبح ما هم فيه من صلال بشع أليم كان يستسم إدد لرعة قوية عنيفة تسيطر على نفسه وتوجهه نحو الوحدة والعبادة ، فيسير في الشعاب الزميدة ، حسب منحنيات الوديان وتعميقها ، أو يصعد الجبال الصحيرية ليحلس على قممها ويترك بصره وحياله بضان في الفضاء الجلب القاحل الذي يبدأ عند قدميه ثم يستمر ، ويستمر ، حتى يحتفي في لا نهائية لأفق .

وسط هذا انصواء الشاسع المؤثر ، وهذا السكون الرهيب ، وهذا الصمود المتألق ، كان يحلس محمد ساكناً لا حرك به ، تمر عليه الساعات تلو الساعات وهو غارق في تأمل وحداني عميق صامت أحل لشده ، كان يروعه ويملاً نفسه هيبه ، هذا المنظر الرثع المتغير الفريد ، لعناصر الأرض ، والسماء انضغطة نفوة حفية مجهولة ، هي أقوى من أن تقهر وأسمى من أن تحدد وأعلى من أن تتصور ، واحدة لا تعدد فيها ، عالمية ، شاملة

ها هي تلك التلال والصحور ، أمامه ، تترين في لصباح الناكز داخل الوردية لشعافة . وها هي تلك الشمس ، ترسل أول أشعتها على الحصى المنثور . وها هي تلك ، فتصيره جواهر سلالاً ، ثم ها هي تلك في كبد السماء ، جواره طاغية ، ترسل بالأكهار البراهمة ، فتشرها على الأرض ، وها هي دى الأرض هامة ساكنة مستسلمة ، كحثة لا حية فيها ، وها هي تلك أمواج الذهب ترسلها الشمس على

الكون عند غروبها ، في سحاء ، كأنها تريد أن توحى ، إليه بالأسف لمعربها . ثم
 ها هو ذا طوق القمر الباهر ، يشبه طوق الحمامة ، تنسجم فيه ألون الصيف السعة ،
 ويتألق في وسط القمر الذي يرهو ، يصدر عنه من شرر تتحول إلى الآلاف
 المؤلفة من السجوم والكواكب .

ها هي تلك الأعمدة المحتالة تتلهى برمال ، عند هبوب الخو ، بإقامتها رانية
 نحو القبة الزرقاء ، حتى إذا ما ثارت الأعاصير بعثت بالأتربة من بطون الوديان
 قاذفة بها في هجوم عنيف على الغيوم السوداء المصعقة بالبرق . وها هي دى قوافل
 السحاب ، تشبه الحراف النبط ، تطارد ها أرياح حتى تبعها عن قمم بحال التي
 فوقها نشأت ، فتصطر إلى حجرة دون أن تسيل عبراتها على مسقط رأسها . وها هي
 تلك العواصف الممطرة تهمجر شأبها المطالة ، فتصب على السهل العريانة أنهاراً
 من المياه ، حنيقة جدارفة ، لها دوى ولها رثير .

أمام هذه العناصر هائلة العانية التي لم تجر في قط - رغم حرورها - على
 عدم الخصوع ، ولو شروى بقبر ، لتقويس التي تسيرها ، والتي فرصها عليها
 القوة السامية العليا . لشد ما لما محمد من ضعف الإنسانية وعورورها . أجل ،
 وكم من سحرية في أن تنب هذه الإنسانية بحساب فيقدم ها السراب صورة
 براقعة من موجات لأثير المأثر ليشهدا على غرورها المطلق !

كانت الخلوة ، لمحمد ، أعظم مرب : فقد صمت فيه من كل شاعر هذه
 العلم : لذلك أظقت عليه الآثار « صماء اصماء » ، وشربت روحه رويداً
 رويداً - روح الصحراء التي لا تحدد قصرته بعظمة الله اللانهاية وفي الصحراء
 اتصلت أسرار الطبيعة بأعمق نفسه ، وعمرته في قوة . حتى لقد أوشكت أن
 تخرج من مه تلك الحقائق الخائفة التي انتفعت من « كارلاين » المصكر الإنجسرى
 المشهور صيحة الإعجاب التي يقول فيها .

« حقاً إن أحاديث هذا الرجل قد صدرت مباشرة عن قلب الطبيعة ، ومن
 الطبيعي أن تجتذب أفئدة بني البشر فيستمعوا إليها . ويجب أن يستمعوا إليها
 أكثر مما يستمعون إلى غيرها ، فكل ما عداها هباء إذا قورن بها »^(١)

محمد لم يؤلف القرآن :

حقيقاً إنه ليدهشني أن يرى بعض المستشرقين . أن محمداً قد انتهز فرصة الحلاوة هذه مروّى ورتّب عمله المستقل بل لقد ذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك ، فوسّوس بأن محمداً ألف في تلك الفترة القرآن كله . أحفناً لم يلاحظوا أن هذا الكتاب الإلهي حال من أمة خطئة سابقة عبي وجوده ، مرسومة على نسق المناهج الإنسانية ، وأن كل سورة من سورته متصلة عن غيرها ، وخاصة بحادثة وقعت . بعد الرسالة ، طيلة فترة تزيد على عشرين عاماً ، وأنه كان من المستحيل على محمد أن يتوقع ذلك ويتشأ به ؟

ولكنهم في حيلهم للعقيدة العربية لم يجدوا غير ذلك تعسلاً لهذا التحدث الطويل .

سبحانك ربّي ! إنهم لو أتبعحت لهم الإقامة وسط البدو في الصحراء فترة تكفي لأن يفهموا حادة التأمل التي يعي فيها هؤلاء البدو ، حادين عن قمة أكّة ، تاركين نظرتهم بصل في فضاء الله الواسع ، لعرفوا أنها ليست هي حالة اللادة والبلاهة التي يصفها بعض انشائين الدين يعلب عليهم طابع التسلية أكثر من طابع الدقة في الملاحظة ، ولو أتبع لهم ، عن الأحص ، أن يتدقّقوا بأنفسهم سحر هذا الوحد الذي لا يوصف ، والذي لا يشيره حقاً إلا لانهائية الصحراء ، وأن يشاهدوا العوائد الروحية الرائعة التي يكتسبها الإنسان من ذلك . لو أتبع هم كل هذا لما وقعوا في ذلك الضلال المبين .

إن هذا التأمل : ليس إلا بوقنة تصهر فيها العواطف والأفكار الناشئة لتخرج منها صافية ، به مصع تكتبل القوى الروحية ، رغم أنها حية وأنها لاشعورية . هذه القوى الكامنة التي تتكبل بالمرآة والتأمل . تمكث مستترة مجهولة ، حتى من هؤلاء الذين تصوى عليها جوامعهم ، وما مثلها في ذلك إلا كمثل النار الكائنة في أشجار عابيات . فإذا ما أثارها شرارة واحدة اشتعلت ملتبهة حارّة صاعدة إلى عنان السماء فتبهّر العالم

لا شك أن محمداً لم يدر بحلده أثناء تلك الفترة شيء مما يزعمه المستشرقون ، ولم يروّ في نفسه أية خطة أو منهج . حقيقة إنه ، في حذونه ، كان يتأمل ، ولكنه

لم يكن يقدر ، ولقد استمر كذلك إلى أن حان الموعد الذي حددته لعديّة الإلهية لتتجلى ، عن طريق من اختارته وسولا .

الرؤيا الصادقة :

أحمد محمد يرى الرؤيا الصادقة الوصاءه ، ويسمع النداء الذي لا يعلم له مصدراً .

قال رسول الله . « طيلة العشرة شهور التي تقدمت الوحي ، كان يتجلى نوى نور ياهر يشه فلق الصبح ، وكنت حيناً أبعد عن الديار أسمع أصواتاً نادى يا محمد ! يا محمد ! فكنت أنظر بومة ، وبسرة ، ومن خلف ، فلا أرى إلا شجيرات وصحوراً ، فأحدثى القلق والحيرة . إنى ما أبغضت شيئاً بعضى الكهان والسحرة ، وقد خشيت أن أكون قد أصبحت - على غير علم منى - واحداً منهم ، فيكون الذى ينادى - حيناً مستوراً - ناعماً من الحنن الذين يتحدثون إلى السحرة والكهان بخبر السماء ، فيساعدونهم بذلك على القيام بمهتهم الآثمة » (١) .

الوحي (سنة ٦١١ م) :

يقع عار حراء في جانب من جبل النور ، ذلك الجبل الذى يقع على بعد ثلاثة أميال تقريباً من مكة شمال طريق عرفة . وقد اختار محمد هذا الغار ، الذى هيأته الطبيعة داخل حجر الصوان الأحمر ، ليتحدث فيه شهراً كل عام مراعيّاً ، ليلا ونهاراً ، الخاطرة الثامة . وكان يحمل معه الزاد المكون في جوهره من الكعك ، وذلك لئلا يضطر إلى العودة لمكة . فإذا اتفق وفرغ رده فإنه يضطر إلى العودة للحث عن غيره ، ثم يسرع في الرجوع إلى الغار ، إذ أن كل انقطاع عن التأمل العميق في فترة التحدث هذه كان بالنسبة له عذاباً أليماً

وبنح محمد صلى الله عليه وسلم الأربعين من حياته الكريمة وكان حلال الخمس عشرة سنة لأجيرة يتحرى في عاداته (٢) ، حائراً قلقاً ، استخلاص الدين

(١) يقول الله تعالى في الزمر من ذلك في نهاية سورة الشعراء في الآية رقم (٢٢١) « و أنزلنا من السماء ماء فأنزلناه نارا » يقول السمع وأكرمهم كما يقول
(٢) « قيل : كان يعبد صلى الله عليه وسلم التمسك مع الانقطاع عن الناس وقول تعبه صلى »

الحبيب ، دين التوحيد ، دين جده إبراهيم ، من بين الأباطيل التي أدخلها عليه موافقوه . .

وهناك ، في غار حراء ، في اليوم الخامس والعشرين ، أو السابع والعشرين ، أو التاسع والعشرين من شهر رمضان (١٥ - ١٧ - ١٩ - يناير سنة ٦١١ م) ، حدثت الحادثة الخالدة ، إذ تجلّت رافة لرخص عباده فأرسل إليهم الوحي من طريق الرسول ، صلوات الله عليه وسلامه .

قال الرسول : « أتاني جبريل في غار حراء وأنا قائم بنمط من ديباح فيه كتاب . فقال : اقرأ . فقلت : ما أقرأ . ففتنى به (١) حتى طشت أنه لموت ، ثم أرسلني . فقال : اقرأ . فقلت : ما أقرأ . ففتنى حتى طشت أنه لموت . ثم أرسلني . فقال : اقرأ . فقلت : ماذا أقرأ ؟ ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي . فقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ » فقرأتها ، ثم انتهى فنصرف عني ، وهبت من نومي فكأني كنت في قلمي كندسا ، فخرجت . حتى إذا كنت في وسط الجبل سمعت صوتا من السماء يقول يا محمد ، أنت رسول الله وأنا جبريل . فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أناخر وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء . فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيت ثم قال ثانية : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل . فأنصرفت راجعا إلى أهلي . »

وم يكده الرسول بعشي داره حتى هرع إلى حديقة وحيا رأسه في حجرها وقال - وقد أخذته رعدة المحموم « دثروني . دثروني » فأسرع لخدم

= الله عليه وسلم كان يذكر . وقيل كان يتعبد قبل ديوانه بشرع إبراهيم وإسماعيل بشرقة موسى عبر ما نسخ بها ، في شرعنا . وقيل بكل ما صح أنه شرعه من قبله غير ما نسخ من ذلك في شرع . (السيرة الحلبية ، ج ١ ، ص ٢٢٧) وسياق القرآن في عمومته يرشد إلى أنه صلى الله عليه وسلم كان من دين إبراهيم مثل قوله تعالى .

« إن أوى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا الدين آموأ » فثبت الإتيان في صيغة المصطفى وصفه حل المتبعين إتيان به وتخصيص له وبين أن قدوة صلى الله عليه وسلم (١) فضلى أو ففتنى ، ببناء بدل الطاء ، غنى بذلك الجمع . بأن جعله حل فله وألفه

إليه يزمّلونه ويدخلونه حتى هدأ روحه . وسأله خديجة ، وقد تمسكها ذرع عظيم

« يا أبا القاسم حدثني بالله ، أين كنت ، وماذا حدث لك ؟ لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا حراء ووصلوا إلى ضواحي مكة ، ورجعوا إلى دون أن يلقوك » .

فحدثها بالذي رأى ، ثم قال « حسبيبت » . والله من شدته أني أموت » فقالت خديجة ، وقد رجع إليها اطمئنانها :

« والله لا يحريك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدم ، وتعين على نوائب الدهر . أشتر يا بن عمي وأثبت ، والذى نفس خديجة بیده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة » .

فقد أن أيد حديث ميسرة العجيب لخديجة ملاحظاتها الشخصية بالنسبة لمحمد ، وخديجة مقتنعة بأن مصبراً سامياً قد قلر له ، ولذلك لم تلدهش لما علمت من أمر الوحي . بيد أنها أرادت أن ترى الأمر في وضوح فتهايات فلخرج ، ونطلقت مسرعة إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ، وألقت إليه الخبر كما سمعته

كان ورقة من هؤلاء الدين اعتنقوا النصرانية ، وكان يعد أعلم رجال مكة بالنصوص المقدسة ولهم عاش ، مثلما عاش رهبان الشام ، في انتظار الرسول انعمى . فإذ سمع خبر الذى ألقته إليه خديجة حتى تحسرت عيراته من الفرح وصاح : « قدوس قدوس . والذى نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتى يا خديجة فلقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى . وإنه لنبى هذه الأمة ، نقول له فليثبت » .

وبينا الرسول يطوف بالكعبة - وقد كانت تلك عادته عقب كل فترة من فترات التحث - إذ سارع إليه ورقة ، رغم شيخوخته وضعفه ، ورغم ما مسته له كثرة اطلاعه من كعب البصر ، وطلب منه أن يقص عليه قصته بنفسه

وقص الرسول عليه ما حدث ، وتبين ورقة صحة كلامه ، فأعاد على سمعه التنبؤات التى أحبر بها خديجة من قبل وأضاف « يا ليتنى أكون حياً حين يخرجك قومك »

قال : أو مخرجي هم ؟

نعم ، لم يأت رجل بما أنبت به إلا عودى . ولئن أدركنى يومك لأتبرنك
نصراً مؤزرأ .

ولكن المنايا لم تهمل ورقه حتى تتحقق أمنيته .

نزل الوحي كجدوة وهاجة بلذت من نفس محمد كل شك ، وأشعلت فيها
تلك الآمان اللاشعورية ، وتلك اقوى الكامنة التي كدسها في نفسه خمس عشرة
سنة تقصت في التأمل والتحس . لقد فتح الوحي عييه على آفاق شاسعة ، وأظهره
على ما يجب أن يقوم به نحو تلك الرسالة من جهود حمارة خطيرة .

لم يدر بخلد محمد يوماً ما أنه سيحمل هذا العبء الهائل ، ولئن كان بعض
الرهبان قد تسأل له بشئ منه ، فإنه لم يعر تنبؤاتهم أى اهتمام ، بل لقد نسيها . وإن
اصطربه وحوله ، حيها فوحى ، يا وحي ، من أن يكون هريسة تحيلات شيطانية ،
ليؤكلنا بنا صحة ما نقول

وهذا محمد الذى كان يفر من الاختلاط ببني جسه ، والذى كان يأبى أية
وظيفة من تلك الوظائف العامة ، التي كان مواطنه على استعداد لأن يحسوها إياه ،
وقد أصبح — بحسب تأثير الوحي — مستعداً لأن يواجه الحياة الصاحبة بخارفة ، وقد
امتلاً قلبه إيماناً مكيناً ، وأفعمت نفسه شجاعة لا تدب ، وتأهب للقيام بالرسالة ،
بل تأهب للقيام بأعظم رسالة أوتم عليها بسار . ولقد تأهب ، في غير ما خوف
أو إشفاق من تلك الامتحانات الهائلة التي لا يمر من أن يستلبي بها أمثاله من الخداف
المرسلين .

في تلك الليلة الحائلة ، ليلة القدر ، نزل القرآن كله من اسماء العليا حيث
كان محفوضاً بها إلى اسماء الدنيا ، التي تنتشر مبشرة ورق كرتنا الأرضية . وفي
هذه اسماء الدنيا وضع القرآن في بيت العزة ، ذلك البيت الذى على سميت بيت الله :
الكعبة المقدسة .

بسم الله الرحمن الرحيم

« إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي سَبْعَةِ آفَافٍ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ . سَبْعَةٌ . الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ . تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحُ فِيهَا يَأْتُونَ رَبَّهُمْ مِنْ كُلِّ امْرِئٍ . سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ » .

من هذه السماء الدنيا نزلت أولى الآيات الكريمة على محمد ، كما نزلت التعاليم العامة للدين الإسلامي ، وتوالى الوحي طيلة ثلاث وعشرين سنة ، مرشداً وهادياً ، وموجهاً للرسول في كل أعماله . توالى الوحي مشتتاً لقواعد الدين ، ومبشراً لقوانينه ، وموضحاً طريق انتصار الإسلام .

وإلى قصة الوحي هذه التي يرويها مؤرخو العرب ، نصيف البيان لأنى انتهى بحسه مفيداً لقارئنا من الأوروبيين :

إن الملك جبريل الذى رآه الرسول صلى الله عليه وسلم في غار حراء إنما هو الملك جبريل الذى ظهر للنبي دانيال ، ولريم أم عيسى عليه السلام ، ولكمه عند المسلمين لمسيح للإسلام حقاً لا يمت بصلة من شبه إلى الملاك الذى تصوره لمارسوم الكنيسة لأوربية في شكل غلام بأجنحة محتشف ألوانها ، دى حديد وردية ، وشعر ذهبي متموج . إن جبريل في نظر المسلمين هو الروح أو الناموس ، وقد كان يأتي إلى الرسول في صور متعددة وأحياناً يأتيه في مثل صانعة الخرس أو طين النحل - وذلك أشد طرق الوحي على نفس الرسول فيهمص عنه وإن حبيبه يتعمد عرقاً ، حتى في اليوم الشديد البرد . ثم يهدأ روعه ، وقد وعى ما أوحى إليه ، وأحياناً يتمثل له في صورة رجل يشبه كل الشبه دحية الكنى ، أحد لصحابة فيكلمه فيمعي عنه ما يقول .

أما الوحي - وهذا الملك هو الوسيط الرمزي له - وإنما هو التجنى لإلهي ، ويجب أن نعتبره أسمى درجة تصل إليها تلك لقوة الخفية التي يسميها بالإلهام ، وهي بالبداية حارحة عن محيط الفرد ، لأنها مستقلة عن إرادته تمام الاستقلال .

المسلمون الأول :

كانت الصلاة . والظهارة شرط بتقديمها — أول واجب تلقفه النبي من ثم رسول السماء .

وحينما عاد إلى مهبط الوحي ، ظهر له « جبريل » من جديد في صورة رجل ، فقال :

« يا محمد إن الله تعالى أمرني أن أقرأ عليك منه السلام ، ويقول لك . أنت رسول الله إلى البلى والإنس ، فادعهم إلى قول لا إله إلا الله »

ثم أحده في ناحية الوادى ، حيث صرب برجله لأرض فتعجرت عين من الماء ، فتوضأ جبريل ورسول الله صلى الله عليه وسلم ببطر ، ليريه كيف الطهور الذى يتقدم الصلاة ، ثم قام « جبريل » ، فصلى بالنبي صلى الله عليه وسلم ركعتين ، وكان انبى يقتل به في حركاته ، من ركوع وسجود ، وفيما يقوله أثناء ذلك

شعر محمد براحة ونشاط عظيمين . شعر براحة في جسمه من أثر الطهور ، وشعر براحة في نفسه من أثر الصلاة ، فعاد — يملأ الإيمان عليه جميع أقطاره — إلى روحه ، فظهر له « جبريل » ، وقال له . اقرأ على « خديجة » السلام من ربها . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا « خديجة » ، هذا « جبريل » يقرأ عليك السلام . فقالت « خديجة » : الله السلام ، ومنه سلام ، وصلى « جبريل » السلام .

وهكذا كانت « خديجة » أول من أسلم من بنى البشر ، فقادهم الرسول إلى السبع انبى تفجر تحت قدم « جبريل » فتوضأ لها ليربها كيف الطهور للصلاة كما أراه جبريل ، فتوضأت كما توضأ لها رسول الله عليه السلام . ثم صلى بها رسول الله كما صلى به « جبريل » ، فصليت بصلاته .

آمنت « خديجة » ، فخفف الله بذلك عن نبيه صلى الله عليه وسلم ، فكان لا يسمع شيئاً مما يكرهه ، من رد عليه وتكذيب له ، فيحزنه ذلك ، إلا فرج الله عنه بها إذ رجع إليها ، تخفف عنه وتصدقته وتهون عليه أمر الناس

كانت تضحية « خديجة » ، تلك السيدة المثالية توحى إلى محمد بالحنان

لا أحد له نخبة الناس وشروهم ، وكان يمانه الذي لا تزغزه الأعاصير يقوى في نفسه الثقة حينما كان المشركون يصفونه بأنه مقبول على الله .

وكان أول من آمن برسائله من الرجال « علي بن أبي طالب » ، وكان يومئذ ابن عشر سنين . وكان الرسول قد كفه في عام من أعوام القحط ليحفظ عن عمه « أبي طالب » الذي كان كثير العيال

وحينما رأى « علي » محمداً وحديجة منحنين جانباً ، ومستغرقين في الصلاة تملكته دهشة عظيمة ، ذلك أنه لا يرى بهينه ما يعبدانه ، وسأل الرسول : « ما ذا كنتم تؤديان من الشعائر آنفاً ؟ » .

فأجاب الرسول : « كما نقيم صلاة الدين القويم ، الذي اصطفاه الله واختارني له مبلغاً ورسولاً ، وإني أدعوك إليه يا علي ، أدعوك إلى عبادة الله الواحد ، الذي لا شريك له ، وأدعوك إلى نفي الأصنام من أمثال « اللات » و « العزى » التي لا تملك ضرباً ولا نفعا » . ثم تلا الرسول :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« قُلْ : هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ • اللَّهُ الصَّمَدُ • لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ • وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » (١) .

« هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ » (٢) .

« إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ » (٣) .
« اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ » (٤)
« لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ، وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ، وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ » (٥) .

(١) نهاية سورة المشر .

(٢) البقرة : ٢٥٥ .

(٣) سورة الإخلاص .

(٤) يس : ٨٢ .

(٥) الأنعام : ١٠٣ .

«وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى . وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ^(١) .
 يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَبِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ، وَيُخْرِجُ الْأَرْضَ
 بَعْدَ مَوْتِهَا ، وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ^(٢) .
 وَرَبُّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ، قَائِمًا تُولُّوا فَشَمَّ وَجْهَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ رَاسِعٌ
 عَلِيمٌ ^(٣) .»

«وَالَّذِي يُرْجِعُ الْأَمْرَ كُلَّهُ ^(٤) .»
 «ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ، وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ
 قِطْعِيرٍ ^(٥) .»

فقال علي . « هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم ، فليست بقاص أمر آخى أحدث
 أبا طالب . وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفشي سره قبل أن يجهر بالدعوة ،
 فقال : « يا علي ، إذ لم تسلم فاكم هذا .»

صلى « علي » ليلة مصطربة يفكر في الأمر ، ولكن الله . تبارك وتعالى ،
 هداه للإسلام . فأصبح عاديًا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم مطمئنًا
 معتبطًا .

وسد ذلك اليوم وعلى يتبع الرسول - إذا حان موعد الصلاة - إلى شعاب مكة
 ليؤدي القرىضة ، مستخفيًا من أبيه « أبي طالب » ، وبن جميع أعمامه ،
 فبصليان .

ثم إن « أبا طالب » عثر عليهما فجأة يومًا وهما يصليان بمخلة ، فقال رسول
 الله صلى الله عليه وسلم . « يا بن أخي ، ما هذا الذي أراك تدين به ؟ » فقال :
 « هذا دين الله ، ودين ملائكته ورسوله ، ودين أبينا " إبراهيم " يعني الله به رسولاً
 إلى العباد ، وأنت أحق من يذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى ، وأحق من أجاوبني

(٢) الروم : ١٩ .

(٤) هود : ١٢٢ .

(١) النجم ٤٣ - ٤٤

(٣) البقرة : ١١٥

(٥) فاطر : ١٣

إلى الله ، تعالى ، وأعاني عليه . فقال « أبو طالب » : « إني لا أستطيع أن أمارق دين آبائي وما كانوا عليه ، ومع ذلك فإني أعلم من صدقت ما يجعلني أومن بحقيقة ما تدعو إليه ، والله لا يصل إليك أحد بشيء تكرهه من أميت . » والتفت إلى ابنه فقال له : « أما إنه لم يدعك إلا إلى خير فائز به . »

وأسلم بعد ذلك « ريد بن حارثة » وهو رقيق كان قد أعتقه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتناه . وكان يحب الرسول إلى درجة أنه رفض العودة إلى أسرته ، حماتها ، طلب يمدوه .

وبعد ذلك اعتنق الإسلام شخصية من كبار الشخصيات المرموقة في مكة ، ومعنى به « عبد الكعبة بن أبي قحافة » الذي أطلق عليه فيما بعد اسم : « أبي بكر » كان « أبو بكر »^(١) مع « حكيم بن حزام » يوماً ، إذ جاءت جارية « لحكيم » وقالت له : « إن عمك حديثه تزعم في هذا اليوم أن زوجها بي مرسل مثل موسى . »

سمع « أبو بكر » ذلك ، وكان يؤمن بصدق « محمد » وإحلاصه ، وكان قد سمع قول « ورقة » من قبل « الرسول » صلى الله عليه وسلم وتنبؤاته له ، فأصرع تحدوه عاطفة قوية - حتى أتى الرسول ، فسأله عن حقيقة الخبر ، فقص عليه قصته المتضمنة بحبي الوحي له بالرسالة : فأخذ الخمس من نفس « أبي بكر » كل مأخذ ، فصاح قائلاً : « صدقت ، بأبي أنت وأمي ، وأهل الصديق أنت ، أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنتك رسول الله . »

ولما سمعت « حديثه » ، وكانت في عرفة مجاورة ، ما قاله « أبو بكر » ، خرجت وعليها حمار أحمر ، فقالت : « الحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا نبتغيه . »
أشاع إسلام « أبي بكر » في نفس الرسول سروراً عظيماً . وكان « أبو بكر » صديقاً معظماً في « قريش » على سعة من المال وحسن الوجه ، وصاحب منظر أنيق ، وكان أصيب « قريش » « لقريش »^(٢) ، وأعلم « قريش » بها وبما كان فيها من

(١) ذكر القرآن حين قرأه تعالى : في سورة التوبة « لا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا » وفي سورة البقرة « ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤثروا » أي العرب والمهاجرين والمهاجرات في سبيل الله وليصنعوا ألا تحبون أن ينظر الله لكم وأهكم عمود رحيم .
(٢) عليهم بأسمائهم .

خير بشر ، وكان من أعلم الناس بتعبير الرؤيا ، صادقاً في حديثه ، حسن المجالسة وقد احتاره قومه قاصياً في المعارف والدينيات وحكماً في المعاشرات .

في إيمان حار ، أحد « أبو بكر » يدعو إلى الله وإلى الإسلام من وثق به من قومه ، ويكرس جهده في نشر الإسلام . ويقود أصدفائه إلى الرسول ليعلنهم الإسلام . وكان النجاح حليف « أبي بكر » وكانت ثقة الناس به توحى إليهم بأن يتقبلوا - يقبلوا - يدعو إليه . وكان مظهر الدين الجديد ، في بساطته وفي عظمته ، وفي انسجامه مع ما تتطلع إليه الفطر السليمة ، يحجبهم يشعرون بمو شديد من عبادة الأصنام التي عاشوا عليها طيلة ماضيهم . ومع كل ، فهذا الدين الجديد إنما هو دين جددهم « إبراهيم » الذي يحملون أثره - « طريفة لاشعورية - في قلوبهم » وكان من السهل عليهم لذلك أن يدينوا به من جديد^(١) .

وكانت لهجة الداعي إليه ، تلك اللهجة التي تسمو فوق حدود الإنسانية ، وكانت نظرت التي يشع منها الضياء ، تخرجهم من الظلمات إلى النور ، فيسرعون إلى اعتناق الإسلام بين يديه .

تشرف بالإسلام بهذه الطريقة خمسة عشر رجلاً من أشرف « قريش » منهم « عثمان بن عفان » ، و « عبد الرحمن بن عوف » ، و « سعد بن أبي وقاص » ، و « الزبير ابن العوام » ، و « طلحة بن عبيد الله » ، و « عبيد بن الحارث » ، و « جعفر بن عبد المطلب » .

بجانب إيمان هؤلاء وإسلامهم . الذي كانت له أهمية كبيرة بسبب مركزهم الاجتماعي يجب أن لا ننسى حالة متواضعة مؤثرة ، تلك هي حاة « حليلة » مرسعة الرسول ، فبمجرد أن سمعت الناس يتحدثون عن دعوة أسها من الرصاع وكانت تؤمن دائماً بأن لابنها هذا شأنًا - بادرت بسرعة - برفقها روحها ، ليستظما في سلك المؤمنين . ومن قبل أسلم كل من كان يعيش مع الرسول تحت سقف واحد ، ومن بينهم بناته ، وكن في سن الخلقة ، وحاريتة « أم أيمن » .

هذه المجموعة الصغيرة من المؤمنين كانت بحيا حياه مليئة بالاعمال والعواطف . حياً ما أجمع اجتماعهم في عبادة الله مستحيين عن أعين الناس . لشدة ما كانوا يأجلون

(١) وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة الروم في الآية رقم (٣٠) : « فأقم وجهك للدين حياً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله » ، ذلك الذي القيم ولكن أكثر الناس لا يعصون »

حدرهم حتى لا يشيروا لثناء المشركين لقد كان الرسول حتى في منزله معه ،
مصطراً لتنتشر من جيرانه ، وحينما كان يعلى التكبير يضع فيه فرق آية مفروسة في
الأرض ليخفض من رنين صوته .

الظهر بالدعوة :

في هذه الظروف لا يمكن للدعوة الإسلامية أن تنتشر إلا سراً ، وبين
الأصدقاء ، وهذا كان تقدم الإسلام في مسوانه الثلاث لأولى تقدماً بطيئاً . ومع
ذلك في أثنائها انقطع الوحي فجأة ، وشعر « محمد » بأنه لم يعد معصداً لإمام الله
النفدير ، فشق ذلك عليه وأحزنه .

وبينما كان يسير حائراً مطرقاً ، قلقاً ، وحيداً ، في شعاب « مكة » ، إذ سمع
نداء صديقاً جعله يرفع يصره إلى أعلى ، فرى - في حالة من « سور - الملاك الذي
ظهر له في غار حراء . ولم يسمعه أن يتحمل مسا رقه الذي يذهب بالأبصار ،
فأسرع إلى بيته وطلب أن يغف بعاءته حتى يذهب عن جسده الرعشة وعن عينيه
الإعشاء . وحينئذ نزلت الآيات التالية :

بسم الله الرحمن الرحيم

« يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنذِرْ ^(١) . »

« وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ . وَاخْضَعْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ . فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ : إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ » وَتَوَكَّلْ عَلَى
الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ^(٢) . »

قام الرسول ، وفي عيبيه بريق لمشط الرائع . إنه إلى ذلك اليوم لم يجرؤ على
الظهر برسائنه ، ما كان يتوقعه من حقد مستبهر في نفوس مواطنيه المشركين . ولكنه
تلقى من ربه الأعلى الأمر بالظهر ، وكان هذا أعز أمانيه . لذلك ترك الانكماش

(١) المدثر ١ ٢

(٢) الشعراء ٢١٤ - ٢١٧ .

الذى طالما صاق به درعاً وعزم على أن يعسها منوية لا لبس فيها ولا خفاء ،
فأمر « علياً » أن يعد مادة يدعو إليها بنى المطلب ، فصنع طعاماً مكوناً من
فخذ شاة و مد^(١) من بر ، وصاع^(٢) من لبن .

وجاء « سواطلب » ، وكانت عدتهم أربعين ، وكان من بينهم « أبو طالب »
و « حمزة » و « العباس » و « أبو طهب » .

فقدم لهم « الحفنة » وقال « كنوا باسم الله » . فأكلوا كلهم من الحفنة حتى
شبعوا ، وشروا كلهم من الصاع حتى نهلوا ، مع أن الواحد منهم يأكل الشاة
بأكملها ، وبشرب وحده حرة من لبن . ولكن « الحفنة » على صعرها أشبعتهم ،
واللبن على قننه رويهم ، فأخذهم من العجب من ذلك ما أحدهم .

فدما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتكلم ، كان « أبو طهب » قد
فص إلى ما يدور . فخلد ابن أخيه من آراء ، وكان لا يقرها ، فسرده بالكلام وقال :
« ما رأيت سحراً كسحر اليوم ، فسيادر بالأصراف » . وكان كلام « أبي طهب »
صدى في نفوسهم بعد ما رأوا من تلك الحفنة الصغيرة التي أشبعت أربعين
رجلاً . . . ونهروا .

سخر رسول موقوف « أبي طهب » منه ، ذلك الموقف الذى حلا من كل مجاملة
فقل لعل . « رأيت ما وصلت إليه فصاطة عمى الذى حال بينى وبين تبليغ
الرسالة ؟ ومع ذلك فالفرصة لم تفلت أصنع لنا مثل ما صنعت من الطعام
والشراب ، وادع نفس القوم »

وفى أحد ، حينها تكامل القوم ، يادر الرسول بالحديث قائلاً . « ما أصم
إنساناً في العرب جاء قومه بأفضل مما جنتكم به ، قد جنتكم بحير الدنيا والآخرة ،
وقد أمرني ربي أن أدعوكم إليه ، فأياكم يحببني إلى هذا الأمر ويؤارق عليه ،
فيكون وصي ووزيرى ويكون أني ؟ »

ولم تكن الدعوة على هذا الوجه متوقعة ، فأخذ المدعوون ينظر بعضهم
إلى بعض في دهشة عقدت أنستهم ، ولكن كرهية شديدة كانت ترنم على
وجوههم وتقوم مقام الإحابة . أما « علي » فقد كان يتوقع منهم فرحاً غامراً يسودهم

(١) مكيال ، وهو ظل وثلاث عند أهل الحجاز وروطلان عند أهل العراق .

(٢) والصاع ، أربعة أمداد

بمجرد سماعهم لبدأ العظم ، وكان يتوقع مأساة حارة في التشرف بالانصواء تحت
بواء هذه الدعوة . فلم رأى ما رأى لم يمكنه أن يكظم غيظه ، فاندفع واقفاً
... ناصباً ، تعرضه عليه التقليد لصعر سنه بين هؤلاء الأشراف - وصاح ، وقد
ملأه الحماس : « أنا يا رسول الله وريرك »

ولم يسسم الرسول هذه الآمال التي فاه بها هذا العلام ، وإنما وضع يده على
كتفه في حان ، وأعلن : ها هو ذا وصي ووري ، ها هو ذا أخي .

وحينئذ ، لم يعد الدهشة المدعوين حد تفقأ عبده . بيد أنهم كتموا غضبهم ،
واستقبلوا هذا لإعلام بحاصفة من الصحت ، وصح أبو هب بأبي طالب ساحراً .
« أسمع ما قال ابن أخيك ؟ إنه يأمرك أن تسمع لأبوك وتطيع » . وخرج
الجميع ساحرين حائقين ، عدا أبا طالب ، فقد خرج بملاً آخر حوانحه

لا شك أن هذه المزعجة التامة آلمت الرسول . ولكنها لم تثبط - لا ، ولا علامة
ظهر من عريمته ؛ إذ أن لوحى من يومئذ لم يفت عن تعذيبه وإرشاده

القيامة .

بدأ محمد يبشر برسالته ، وأحد لوحى يتتاع في سرعة ، ويلبس أسلوباً رهيماً
معناً قرب الساعة ، حدثاً بذلك عن العمل ودفعاً إليه :

بسم الله الرحمن الرحيم

« الْقَارِعَةُ ^(١) ، مَا الْقَارِعَةُ ؟ وَمَ أَذْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ؟ » يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ
كَالْفَرَّاشِ الْمُبْشُورِ ، وَكَوْنُ أَحْسَانُ كَالْفُشْرِ الْمُنْفُوشِ ^(٢) »

أما موعد هذه القارعة التي سيحاري فيها المني ، على إسماعته ، فقد كان محمد
يعتقد أنه وشيك الوقوع . ولذلك صاعف من نصائحه ووعظه مواظبه ليخرجهم

(١) « القارعة » أي القيامة التي تفرع القلوب بشعورها ، « ما القارعة » تهويل لأفان ، « الفرش
شوش » عود الخراف مشر « الفش المنفوش » المرفوف المندوف
(٢) القارعة .

قبل قيام الساعة - من الصلوات إلى نور : ولكمهم كانوا يحييونه . لا تأتي الساعة (١) .

وَأَمَرَ اللَّهُ أَهْلَ مُحَمَّدٍ

« إِنَّ السَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا » (٢)

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ رُحُوتَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ » (٣)

« إِذَا رُكِّلَتِ الْأَرْضُ رُكْلًا » وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَنْفَالَهَا . وَقَالَ

الْإِنْسَانُ مَالَهَا . يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا . بَأْسٌ رَبِّتٌ أَوْحَى لَهَا . يَوْمَئِذٍ

يَضُرُّ نَاسٌ أَشْتَاتًا لِيُسْرُوا أَعْمَالَهُمْ . فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ .

وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . (٤)

هذه الأبناء المهرجة التي كان يعلنها الرسول - في يقين حارم - كانت

تبعث في قلوب الكفار القلق والاضطراب ، ولكمهم لما لم يروا أنها قد تحققت ،

ونالهم يروا علامات تدل على قرب وقوعها ، أحذروا إلى ما كانوا فيه من ضلال (٥) .

وكان الرسول يجهل موعد قيام الساعة : « عَلِمْتُهَا جِدَدَ اللَّهِ » (٦)

ولكنه كان على يقين من عذاب ما هم منه من محيص في هذا العالم ، أو في

العالم الآخر : « وَإِنْ مَا تُرِيدُكَ بَعْضُ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعُكَ ، فَرَبِّكَ عَلَيْكَ

الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْجَمَابُ » (٧)

(١) سبأ ٢ (٢) عاف ٥٩

(٣) الحج ١ (٤) سورة الزلزلة

(٥) بصور ذلك قوله تعالى في أول سورة البقرة : « مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا ، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا

جُودَهُ ذَهَبَ أَهْلُهُ بِمَوْرِهِمْ وَتَرَكُوهُمْ فِي ضُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ، صَمٌّ بَكْمٌ مِمَّنْ لَمْ يَلْمِزُوا ، أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَنَارٌ ، يَجْعَلُونَ أَصَابَهُمْ فِي أَفْئِدِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حُدُودًا ، وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكَافِرِينَ يَكُونُ الْبَرُّ مَخْلُوفٌ أَبْصَارُهُمْ كَمَا أَصَابَهُمْ شَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَدَمُهُمْ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكَافِرِينَ بِأَبْصَارِهِمْ رَأَوْا كُلَّ شَيْءٍ قَدِيرٍ ، رَأَوْا عَذَابَ الْكَافِرِينَ ، يَصُورُ ، صَرَاهُمْ عَلَى الْكَفْرِ ، وَبِعَرَاضِهِمُ الْبَاطِلُ مِنَ الْإِيمَانِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي أَوَّلِ سُورَةِ فَصَّلَتْ : « وَهَالِكَا » غُيُوبٌ فِي أَكْثَرِ مَا تَدْعُوهُ إِلَيْهِ ، وَفِي أَكْثَرِ مَا تَدْعُوهُ ، وَمِنْ يَمِينٍ وَبِيْنَيْكَ حِجَابٌ ، فَاعْمَلْ إِنَّمَا جَاءُواكَ

(٦) الأعراف ١٨٧

(٧) الرعد ٤٠

وكان الرسول بصيق درعاً عندما يتحيل أن مصير مواطنيه الكفار ، وما كان
أسوأ عاقبة من عاد وثمود .

المناوشات الأولى :

أصبح المؤمنون — منذ أن جاهر الرسول بالدعوة — لا يخفون إيمانهم ، ولكنهم
— ليتجنبوا الاحتكاك الذي لا فائدة فيه بالمشركيين — كانوا يذهبون إلى شعاب مكة
المقفرة صراً ليزدوا صلاتهم .

وحدث يوماً : أن تجسس عليهم جماعة من المشركيين ، وعرفوا مكان
اجتماعهم ، فأخذوا يكيلون لهم السباب والشتائم ، ولم يصبر المسلمون على إهانة
دينهم ، فغضبوا له ، ونار القتال بين الفريقين ، فأحد سعد بن أبي وقاص (حتى
يجمل كان متقياً نصحراء . وروى به في وجه أحد المشركيين بقوة وشدة فأسال دمه ،
وكان هذا أول دم أهرق في الإسلام .

وأراد الرسول أن يتنادى مثل هذه الحوادث ، فقرر أن يتخذ من بيت الأرقم
— لبعده — مصلى . وكان بيت الأرقم يقع على رأس الصفا ، ومع ذلك فقد كان
العيظ يزداد في قلوب المشركيين : لقد كانوا فيما مضى يهرون أكتافهم اسمهاراً
أو سخرية ، حينما كان محمد يقنصر على دعوتهم إلى الإسلام ، حتى ولو كان
يستعمل معهم التأنيب والتهديد بعذاب من السماء يرسل بهم ، ولكنه حينما تعرض ،
بدوره ، يهراً بأصنامهم التي صنعت من خشب أو من حجر ، والتي لا تسمع
ولا تبصر ولا تنطق ولا تعي عن أحد شيئاً ، بلغ بهم لعصب متناه ، ذلك أن
محمدآ . . جعله هنا — لم يكن يحرجهم في معتقداتهم فحسب ، وإنما كان يؤذيه
في مصالحهم المادية إبداء حظيراً ، إذ أن تلك الأصنام كانت في يد الأشراف
مصنوع ربح عظيم ، وكانت أداة فعالة في السيطرة على الشعب الجاهل .

وكان أبو طالب ، من بين القوم الذين مكثوا على إشراكهم ، هو الوحيد
الذي بقي على حبه لمحمد ، رغم سخرية القرشيين الآخرين . ولما رأوا منه ذلك بعثوا
إليه بوفد من أكبر الأشراف ، بينهم عترة بن ربيعة ، وأبو سديد بن حرب ،
وأبو جهل ، وكثير غيرهم ممن لا يقبلون عنهم مكانة . فقلوا لأبي طالب :

« يا أبا طالب ، إن ابن أحمك قد سب آلتنا ، وعاب ديس ، وصفه أحلامنا
وصلل آباءنا ، وإما أن تكف عنا ، وإما أن تحل ببتنا وبيتنا ، وإلّا على مثل
ما نحن عليه من خلافه ، فنكفيك » .

فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً ، وردهم رداً جميلاً ، فأنصرفوا عنه
ولم يبق نشاط محمد في الدعوة إلى الإسلام ، ولكن عدوة القرشيين ازدادت ،
وانحذت وجهها أخطر وأغصم ، هزج الوفدي إلى أبي طالب ليقولوا له - « يا أبا طالب
إن لك ستاً شرهاً ومنزلة قينا ، وإنا قد استهيك من ابن أحمك فلم تنهه عنا ،
وإنا والله ، لا نصبر على هذا : من شتم آبائنا ، وتصفيه أحلامنا . وعيب آلتنا ،
حتى تكفه عنا ، أو نبارله وإياك ، حتى يهلك أحد الفريقين » . فعظم عليه
فراق قومه ، ولم يطلب نفسه بإسلام رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لهم
ولا خذلانه .

وبعث أبو طالب ، وهو في حالته النفسية هذه ، إلى رسول الله يستدعيه ،
فلما حضر قص عليه رسالة قريش ، ثم قال :

« تدبر الأمر ، وأبق على وعلى نفسك ، ولا تحملي من الأمر ما لا أطيق ، .
فأجابه الرسول - « يا عم ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ،
على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ، ما تركته » .

وظن أن أبا طالب يريد أن يظهره على ما هو فيه من استحالة مناصرته ،
ووجوب تركه ، فاستمر ماكساً ثم قام . فلما رأى ، ثارت عواطف أبي طالب ،
ونادى محمداً ، وقال له في حنان : « اذهب بابن أخي فقل ما أحببت ،
فوالله لا أسلمك لمكروه أبداً » .

ورأت قريش أن التهديد لا ينال من حب أبي طالب لابن أخيه ، فأوفدوا
إليه وهدم مرة أخرى ومعه عمارة بن الوليد ، وقالوا له :

« يا أبا طالب ، هذا عمارة بن الوليد : أنهد فتى في قريش وأجمله ، فحده
فلك عقله ، ونصره ، واتخذ ولدأ ، فهو لك ، وأسلم إلينا ابن أخيك ، هذا الذي
حالف دينك ودين آبائك ، وفرق جماعة قومك ، وصفه أحلامهم فتقتله ، فإنما
هو رجل برجل » .

فأجابهم أبو طالب قائلاً :

« والله بئس ما تسوموني ! أنعطوني ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيكُم ابني تقتونه ؟ ! هذا ، والله ، ما لا يكون أبداً » .

أنصرف الوعد والعبط نملأ قلوبهم . واقترب موسم الحج ، فاجتمع مشركو قريش في دار الوليد بن المعيرة ليتشاوروا في أمر النبي ، فقال الوليد :

« يا معشر قريش ، إنه قد حصر هذا الموسم ، وإن هود العرب مستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ويرد قلوبكم بعضه بعضاً » قالوا .
هأنث يا أبا عبد شمس . فقل . وأنتم لنا رأياً نقل به .

— بل أنتم فقولوا أسمع

— نقول كاهن .

— لا ، والله ، ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان في هو برمزة^(١) الكاهن ، ولا سجع .

— فنقول مجنون .

ما هو بمجنون لقد رأينا المجنون وعرفناه فما هو بحنقه ، ولا تحالجه ولا وسوسته .

— فنقول شاعر .

— ما هو بشاعر ، لقد عرفنا جميع أنواع الشعر فما هو بالشعر

فنقول ساحر .

ما هو بساحر لقد رأينا الساحر وسحرهم فما هو بمسحهم ولا عقدهم^(٢) .

واعترف المشركون في دخية نرسهم بصحة تلك الملاحظات ، وكلهم قد أحسوا ، في قليل أو كثير ، أن قد عرا قلوبهم ذلك الكلام العجيب الصادر من أعماق قلب الرسول الملهم ، وكلهم كثيراً ما كانوا على وشك الخصوع لتلك الألفاظ الأخاذة التي ألهمها إيمان سناوى ، ولم يمسحهم عن الإسلام ، لا قوة حسم لأعرص الدنيا ، وللملادهم وميولهم التي حاربها الدين الحديد حرباً شعواء

غير أنه كان يتحتم عليهم أن يتخذوا قراراً سريعاً ليمسحوا — بأي ثمن كان —

(١) الزمزمة : الكلام المحلى لا يسمع .

(٢) إمارة إلى ما كان يفضل الناس بأن ينفذ شيئاً ثم ينفذ فيه .

العرب العربيه من الإيمان به . فاتفقوا على أن يدعوا أن محمداً ساحر جاء بقول هو سحر يهرق بين المرء وأبيه . وبين المرء وأخيه . وبين المرء وروجه . وبين المرء وعشيرته . وما بدئت وفود اصحاب تأتي من كل فج عميق . تعرض هم الوليد وأعواده في الطريق المؤدية إلى مكة . ولم يمر بهم أحد إلا حذروه من محمد وسحره . بيد أن الذين تأثرو بتلك التحذيرات . وتخوفوا من السحر العظيم ، كانوا قلة بالنسبة للذين أحسوا برعة قوية في التعرف على هذا الرجل العجيب الذي أقص كلامه مصاحف أشرف مكة . لم يكادوا يرجعون إلى بلادهم حتى جعلوا يقصون ما سمعوا وما شاهدوا . ولا رأى القرشيون أنهم بحملتهم هذه قد أذاعوا أمره بين أرحاء الجزيرة . فأحدث شهرته ترداد ، وبشبه الناس له ، اشتعلت حدوة عصبهم . وأخذوا يتهزون كره فرصة لإبدته . ويجمعوا يوماً في حرم الكعبة . واستحدث بعضهم بعضاً قائلين : « لم نصبر أبداً على أحد مثل ما صبرنا على هذا الرجل »

وفي هذه الآونة أقبل محمد يطوف بالكعبة ، ووثرا عليه وشه رجل واحد . أحاطوا به يقولون : « أنت الذي تقول كذا وكذا في آلهتنا وآبائنا ؟ » فأجاب بكل هدوء ورواية « نعم ، أنا الذي أقول ذلك » . فارتجى عبه أحدهم وأحد تجمع رداؤه محاولاً أن يقضه خنقاً . فقام أبو بكر رضي الله عنه دونه وهو يسكن ويقول « أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله » . وانتشل محمداً من يد الرجل . بيد أنه أودى هو الآخر وتساقط بعض خفيه .

ولم يمتنع الرسول رغم الخطر الذي هددته في تلك الحادثة عن العودة إلى الكعبة للصلاة غير مبال بالنظرات الحاققة التي أحدا أعداؤه يرمونه بها . وذهب رجل - بأمر أبي جهل - يبحث عن أمعاء شاة ، فأتى بأمعاء دابة مهي على دبحها أيام كثيرة . ثم ترقب الرسول حتى سجد في صلاته . وإذا ذلك ربي عما في يده على عنقه وأكتفاه . فانتصم القوم صاحكين ، حتى انقلوا على قفاهم يتحدث أحسامهم أما رسول الله فم يظهر عيه أي أثر لتنت لإهانة الشيعة وطل براول عذبه ، ولم يخلصه من تلك القاذورات إلا استه فاطمة التي أقبلت بعد ذلك بقليل . وجعلت نسب هؤلاء الطعاة الذين لا يردهم أي وارع من شرف أو قرابة . عن فعلة شيعة مثل هذه

وإذا ذكرنا أن جهن وسادوكه لمشين تحاه الرسول ، فلندكر أيضاً أحد أعمام الرسول ، وهو أبو لهب ، فقد سجل عليهما التاريخ مواقفهما محزنة الديثة •
 فديما الرسول يوماً يعظ جماعة من أهل مكة على الصفا ، وإذا بأبي لهب يقاطعه •
 في صفاقة وسماحة ، قائلاً : « تبتاً لك سائر هذا اليوم ، ألمثل هذا جمعتنا ؟ » •
 فأجابه الرحي بالسورة الكريمة :

« تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ • مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ • سَيَصْلَىٰ
 نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ • وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ • فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ • ^(١) »
 وذاعت تلك السورة سريعاً ، فزدات أبو لهب عيظاً على غيظ ، أما
 روحه أم حمل التي أثارت الآية ذكرها تلك الصفات التي بلغت ذلك المبلغ
 من الصدق ، رغم حذتها وحشونتها ، فقد كاد الغيظ يمزق صدره تمريراً : إنها
 لم تستطيع أن تتحمل ذلك البعت ، ولكن أيسست هي حمالة حطب التي نثرت
 الشوك على طريق الرسول ؟ أيسس لسانها هو الذي أشعل نيران الحقد بحطب النجاسة
 التي كانت تحملها إلى كل مكان ؟

ومن ذلك اليرم وهذا الزوجان لا يرتاجعان أمام أنجح الأعمال ، فراحا
 يرميان ، كل صباح ، بأكوام القددورات على بيت محمد وأمامه ، وكان حارهما
 وأخذت الجماهرة العظمى من أهل مكة — حائرة من هؤلاء المتعصبين العظيمة
 أو متحمسة بهم — يصدون عن الرسول ، أو يفرون منه . وأصبح الأطفال والرجال
 الذين لا صوائر عدهم ، يلاحقونه في الشوارع يسخرينهم . ولكنه تحمل الأذى
 صابراً غير مدل وماد ، يصيره من السحرية ؟ إنها دحان في الطواء . لم يكن
 يهتم ، حتى ولا لمعرفة من هم مصدر هذا الأذى ، لم يكن يهمه إلا أمر الدين
 يأمل في اعتناقهم الإسلام .

الأعمى :

كان الرسول سهمكاً في قبايح بعض أشراف مكة ، وقد أوشكوا أن يقتلوا
 بحججه ، فبدأ بأس أم مكرم ، ذلك المسكين الأعمى ، قد أتى يطلب في

تواضع — بعض العلم الذي أنزله الله على رسوله . وكان رسول منهنكاً في حديثه مع هؤلاء . لأشرف الدين كان ينمي ، في حرارة ، هدايتهم إلى الإسلام ، وحاف أن تصوته فرصة قد لا تعود أبداً ، فصجر من الأعمى ولم يلتفت إليه إلا قليلاً . فلما أكثر غديه نصرف عنه الرسول عابساً وفركه ، «انصرف الأعمى حزينا دون أن يصبر بما يريد . ولم يكذبصرف حتى تملك الدم الرسول . ألم يكن في استطاعة هذا الأعمى — وقد استدار قلبه بالإيمان — أن يفتح أبصار خلائق كثيرة غمرت في ظلام الجهل الدامس ؟ ونزل الوحي لافتاً نظر الرسول :

«عَبَسَ وَتَوَلَّى • أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى • وَمَا يُدْرِيكَ ؟ لَعَلَّهُ زُرَكْنِي • أَوْ يَذْكُرُ فِتْنَتَهُ الذِّكْرَى • »

«أَمْ مَنِ اسْتَعْنَى • فَأَنْتَ بِهِ تَهْتَكُنِي ؟ • وَمَا عَنِتَّ إِلَّا يَرْكُنِي ؟ • وَأَمْ مَنِ خَافَهُ نَشَعَى • وَهُوَ يَخْشَى • فَأَنْتَ عَنْهُ تَنَهَى ؟ • كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ١ • »
ومد ذلك الحادث والرسول لا يفرق بين غني وفقير في رعايته وعنايته ، ولا بين عبيد وسادة ، ولا بين سوقه وأشرف^(١) .

ووصل غيظ المشركين دروته العليا حينما رأوا عبيدهم وخدمهم تغريهم بالدين الجديد ، فكرة لإحاء والمساواة^(٢) وحينما سمعوا تلك السورة التي تهتد الأعياء والطعاة اسين يستعلون فقراء الشعب :

«الْهَآكِمُ التَّكَاثُرُ • حَتَّى زُرْتُمُ لِمَقَاسِرَ • كَلَّا • سَوْفَ تَعْلَمُونَ • »

(١) « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بن أم مكتوم ، وأمام أبيه عبد الله بن شرح بن مالك بن ربيعة الهذلي من بني عامر بن مزي ، وعنده صناديد قر يش عتية وشيبه ابن بركة ، وأبو جهل ابن هشام ، والناس من هذه القبيلة ، وأممية بن جندب ، وأبو زيد بن جندب ، يدعوهم إلى الإسلام ، رجاء أن يسلم بإسلامهم عنهم ؟ فقال : رسول الله ، أقررتي وعسى لا يهلك الله ، وكرر ذلك ، وهو لا يعلم تشعبه ، تقوم فكر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قطعه بكلامه ، وعيسى وأعرض عنه ، هزلت ، فكذب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يكرمه ويقول بأد رآه موحياً من هاتين فيه ربي ، ويقول له هل لك من حاجة ؟ واستخلفه على المدينة مرتين » (الزحزحري)

(٢) « وقد أوصاه الله بذلك حيث قيل في سورة النسخي : «فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر»

(٣) « لقد حقق لإسلام نظرية المساواة بين العوائل والشعوب ، وهي النظرية التي تآب أخيراً

ولا على يد الثورة الفرنسية

وهذه البلاد عشتي أهداه الرسول مؤدداً للمستقبل ، فكان العرب وهم من الشعوب التي يصعب بالأجداد والأكساب ، تسعح ، وتسعى إلى الصلوة ، ما أدب بهم هذا العبد الخبيث (من أشعة خاصة بدور الإسلام » ترجمه الأديب الباه وأشد رستم)

ثُمَّ كَلَّا ، سَوْفَ نَعْلَمُونَ كَلَّا ، لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ • لَسَرَوْهُنَّ نَحِيمًا •
ثُمَّ لَسَرَوْهُنَّ عَيْنَ الْيَقِينِ • ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنْ لُجِيمٍ (١) •

والتقى أبو جهل يوماً بالرسول على سبيل انصهار ، فلم يمانع منه ، وأساءه
حقده واحبات رجل في مثل سبه ، ورمى الرسول بشتم ثم بدعت من القضاة حداً
بحيث يحصل الإنسان من قتلها ، أما الرسول فلم يجر حواك كعادته يريد أن
مولاة لعد الله من سعدان شاهدهت ذلك الحادث من دلة بيت مبيدتها الملى
يقع على مقربة من المكان ، ولم يمض كبير وقت حتى مر بها حمزة عم محمد .
فقصت عليه ما سمعته .

إسلام حمزة :

وكان حمزة شديد الشكيمة ، سريع الغضب ، عزيزاً في قومه ، فلم يكف
بسمع خبر الإهانة التي لحقت بابن أخيه حتى هار دمه غيظاً ، ولم يقف ، كعادته
إذا رجع من القلص وهو هوايته المحبوبة ليحدث من يلاقيه في طريقه .
بل أسرع متجهماً نحو الحرم ، ونظر إلى أبي جهل حارساً في قومه فأقبل عليه
حتى إذا قام على رأسه ، رفع قوسه فضربه بها ، فمشجه شجرة مكرة رصاح فيه
أثمنه • فأنا على دينه ، أقول ما يقول ، فرد ذلك على أن استطعت فقام
رجل من بني محزوم إلى حمزة ليصرو أنا جهل ، إذ كان منهم ، ولكن
أما جهل تملكه الحزى من فعلته التي دفعه إليها الحقد ، والتي لا تليق برجل ذي نسب
شريف ، فأوقف قومه قائلاً : دعوا أبا عثمان إلى والله قد سببت ابن أخيه سباً
قبيحاً •

أما حمزة فقد مسته نعمة من حباة الله ورحمته في حال غصبه . فألسته
بالإسلام لدس التقوى ، وأصبح من دعائم الدين الحديد الأقوياء المخلصين
وأسلم حديمة ، وفرق عن أبيه عنة من ربيعة الذي كان سيداً في قومه .
فتألم أبوه لذلك ، وراوده الأمل في أن يقصى على تلك الانقسامات الداخلية التي
أحدثتها تعاليم محمد ، لا في قلب قريش محبس . بل في قلب كل أسرة

وعتزم أن يقوم مقام المصلح بين الطرفين ، فقال لقومه ، وقد رُئى رسول الله حالساً وحده بالقرب من الكعبة .

« يا معشر قريش ! لا أقوم إلى محمد فأكلمه بالسياسة عليكم ، وأعرض عنه أموراً بقل يعصها فمعطيه أيها شاء ويكف عما ؟ » . وكان قد أصابهم اليأس بسبب إسلام حمزة . تلك الشخصية المهيبة التي جرت إلى الإسلام شخصيات أخرى عديدة - ففهموا أن خير وسيلة هي الخلافة والسياسة ، فقالوا لعبة « يا أبا الوليد ، قم إليه فحكمه »

عروض المشركين على الرسول :

فقام عتة حتى جلس إلى الرسول ، وقال له . « في أسوب عاطي رقيق : « بن أحيى إنك ما جئت قد عمت من لشرف في العشيرة والمكان في النسب ، وإنك قد أنيت قومك بأمر عظيم ، فرق به جماعتهم ، وسمعت به أحلامهم ، وعجت به آلتهم وديهم ، وكفرت به من مصى من آباءهم . فسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها نعلك تغفل ما بعضها » . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم . « قل يا أبا الوليد أسمع » . قال : « يا بن أحيى :

إن كنت إنما تريد عما سئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثر أموالنا .

وإن كنت تريد به شرفاً سوددك علينا ، حتى لا نقطع أمراً دونك .

وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا .

وإن كان هذا الذي يأتيك رثماً^(١) تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبك ذلك

الطرب وبذلك فيه أموالنا حتى نبرئك منه

فاحتر نفسك »

وكان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يصغى ، في رزانة وهذوء ،

فقال لعنة

« أقدم فرغت يا أبا الوليد ؟ »

() الرثم : يتمى للإسراء من عن

قال : « نعم » .

قال . « فاسمع مني الآن » ثم قرأ سورة « فصلت » وفيها تهليل المؤمنين بعذاب الجحيم الخالد ، وتشير المؤمنين بالسعادة في جنات الله الصبيحة ، وكان عتبة يصت إليه ملقياً يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه ، وقد ملكت عليه نفسه تلك الآيات البينات ، الأمر تارة ، الرحمة تارة أخرى ، التي تفرع أدنيه بتوقيع ومقطع هربية عليه كل العروة . وعقدت الدهشة من حركات حنية فوق على حاله ساكناً لا يرم^(١) . ثم انتهى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، إلى

(١) تعتبر سورة فصلت من السور التي تحذب في قوة هؤلاء الذين يرون الحق ولا يتبعونه ، وإنها تهدد هذه لفظة في قوة تناسب مع عاصمهم ويشر الذين رأوا الحق فاسمعوه مما له عند الله رايته وسعادته لا يمكن صفاها ظل من شفاء قال الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

« حم » تنزيل من الرحمن الرحيم . كِتَابُ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ هَرَامًا
عَرَبِيًّا يَقُومُ يَغْنَمُونَ . بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، فَأَعْرِضْ أَكْثَرَهُمْ ، فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ
وَقَالُوا فَلَوْ لَمْ يَأْتِكُمْ مِمَّا تَدْعُونَ إِلَيْهِ . رَأَيْتُمْ آدِينَ وَقُرْ . وَمِنْ بَيْنِنَا
وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ، فَأَعْمَلْ إِنَّمَا عَامِلُونَ . »

(آيات من ١ إلى ٥)

« فَإِنْ أَعْرِضُوا فَقُلْ أُنذَرْتُكُمْ ضَاعِقَةً مِثْلَ ضَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ .
إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ سَبِيلٍ أَيْتَرَهُمْ وَمِنْ خَلْقِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ،
قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً ، فَإِنْ يَمَّا أُرْسِنْتُمْ بِهِ كَاذِبُونَ .
فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنْ قُوَّةٍ ؟
أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ؟ وَكَانُوا بِآيَاتِهِ
تَحَدِّثُونَ . فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِيشَاتٍ لِيُلْذِقَهُمْ
عَذَابَ الْعِزِّ فِي سَحَابٍ اللَّذِي ، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَحْزَى ، وَهُمْ لَا
يُنْصَرُونَ . وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ، فَاجْلَدْنَاهُمْ =

السجدة منها، فسجد ثم قال بحسبة .

« قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك » .

فقام عسة إلى قومه حائراً مشدوهاً ، وقد تغير وجهه .

فقالوا له : « ما وراءك يا أبا الوليد » ؟ .

فقال : « ورأى أنى سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يا معشر فريش ، أطيعوني ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، هو الله ليكون لقوله الذى سمعت منه نأ ، فإن تصبه العرب فقد كفىتموه بعيركم . وإن يظهر على العرب ملككم مدكم ، وعزه عركم ، وركم أسعد الناس به » .

ولكن ماذا تعيد تلك المصائح بحكمة . وقد تملك القوم الحقد والبغية ؟ فصاحوا في وجهه : « سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه » فهز كتفيه وتركهم قايلاً .

« صَاعِقَةُ لَعْنَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . وَتَحْيَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ وَبِیَوْمٍ يُخْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى لُئَارٍ فَهُمْ يَبْزَعُونَ » . حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَخُبُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . وَقَالُوا لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ؟ قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْصَنَ كُلَّ شَيْءٍ . وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . وَمَا كُنْتُمْ تَشْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْنَكُم مِّنْكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا خُبُودُكُمْ ، وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ . وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ بِهِ أَنْ تُصْبِرُوا فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالْأُتَارُ مَثْوًى لَّهُمْ ، وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُغْثِينَ .

« إِنَّ الدِّينَ قَالُوا . رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَسَرُّوا عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَحَامُوا وَلَا تَحْزَنُوا ، وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ » . نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ، وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ . نَزَّلْنَا مِنْ عَقُودٍ رَّحِيمٍ » .

(الآيات من ١٢ إلى ٢٤ . . .)

« هذا رأيي فيه فاصنعوا » ، هذا لكم .

بيد أن كلام عتبة كان قد أثر في نفوس المشركين ، فاجتمعوا في مساء الغد . كعادتهم - في الحرم ، وقرروا أن يكلموا محمداً مباشرة ، وبعثوا في طلبه ، فجاءهم مسرعاً ، يحسب أن قد فتحت أنصارهم لنور الله . ولكن أمه ذهب أدراج الرياح ، إذ أنهم لم يدعوه إلا ليكررو نفس عروس الأمس ، فأشاح عنهم باشمتراز . عندئذ غير الغوم سلوكهم وقالوا له :

« إن كنت تدعى أنك رسول ربك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أصبق للدا . ولا أقل ماء ، ولا أشد عيشاً ما ، فسل ربك الذي بعثت عما بعثت به فليسبر عما هذه الخيال التي صيقت عينا ، وليسط لنا بلادنا ، ويهجر لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام أو العرق ، وليبعث لنا من مصرى من آثاننا ، وليكن فيما بعث لنا منهم « قصي بن كلاب » فإنه كان شح صدق . فسألهم عما تقولون أحق هو أم بطل ، فإن صدقوك وصعبت ما سألتك صدقناك ، وعرفنا به مرثك من الله ، وأنه بعثت رسولا كما تقول »
فأكنى محمد بأن يجيبهم قائلا :

« ما بهذا بعثت إليكم ، إنما جئت من الله عما بعثني . وقد بلغنكم ما أرسلت به إليكم . فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة . وإن تردوه عني أضربنكم بالسياط » .

فقالوا : « فإن لم تعمل هذا لنا فاحدث لنا نبيك » . سل ربك أن يبعث منك نبيا صدقت عما تقول ويراحنا إليك ، وسبه فليحمل لك حبات وقصوراً وكبرا من ذهب وفضة يديك به عما يراك تمنى . فإذ تقوم لأسواق كما تقوم . وتلتمس المعسر كما تلتمسه ، حتى يعرف فضلك ومراحمك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم » .

(١) بعض القرآن تسمية مشركين مع رسولهم

« وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ؟ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ۚ أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَافُرًا أَوْ تَكُونُ لَهُ حَافَةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ »

(سورة العنكبوت) =

قل . « ما أن يعاقل وما أنا بالذي يسأل ربه هذا » وكرر لهم دعوته
ثابتة .

قالوا « فأسقط علينا بن السماء » كسفاً كما رعمت أن ريث إن شاء فعل ،
وإن لا يؤمن لك إلا أن تفعل ^١ » .

قل « ذلك إلى الله ، إن شاء أن يعمله بكم فعل أنطسرون منه المعجرات »
ليست المعجرات فيها خلق ولكم لا تفقهون ؟ لا ترون أنه يخرج الحى من الميت
ويخرج الميت من الحى ؟

« إنه يستطيع أن يأتى بمعجرات خارقة للطعام الطبيعى المعجرات التى أوحده ،
ولكن كذب ^٢ بها الأولون . تأملوا معجراته التى تتجدد فى هذا لعم كل لحظة
وافتحوا بها »

« وَقَالُوا . نَ نُؤْمِنُ بِكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْشُوعاً » وَ تَكُونَ
لَكَ حِجَّةٌ مِنْ نَجِيلٍ وَعَسَى فَتَجُورَ لَأَنْهَارٍ جِلَاحُهَا تَفْجِيرًا أَوْ تُشْقِطَ السَّمَاءَ
كَمَا رَعِمْتَ عَمِيماً كِسَافاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً » أَوْ يَكُونَ لَكَ
بَيْتٌ مِنْ رُحْرٍ أَوْ تَرْفَى فِي سَّمَاءَ ، وَلَنْ نُؤْمِنَ بِرُفُيَّتْ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا
كِتَاباً يَقْرَأُ »

ود موصى آخر

« لَوْ مَا تَأْتِيكَ بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ! »

ويصور القرآن - ومنهم المعبودين

« وَلَوْ فَسَحْنَا عَلَيْهِمْ بِنَاءً مِنْ السَّمَاءِ فَطَوَّوْا فِيهِ يَعْرِجُونَ » لَعَالُوا . إِنَّمَا
مُكِّرَتٌ أَبْصَارُنَا ، بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مُسْحُورُونَ ! »

(١) « ما أن يعاقل » وهو ابن عمه ، يا محمد ، حرص عليك قومك ما
عرضوا فم تعبته بهم . ثم سألوهم أموراً يعرفونها ما عرفت من الله كما تعلمون ، ويصدونك ويتهددونك ،
فهم يفعلون ، ثم سألوهم أن يأخذوا أنفسهم ما يعرفون به ففعلك عليهم ، ومزيتك من الله فم فعل ، ثم سألوهم
أن تجعل لهم بعض ما تحبونهم به من العذاب ، فم فعل ، أو كذا هو الله والله لا يؤمن بك أبداً حتى
تتخذ من السماء سباً ، ثم يرى فيه رأياً أظهر لك من أناتها ثم قال سمع أو سمع من الملائكة يشهدون
لك أنك كذا تقول ، وإيم الله ، لو جئت ذلك ما غشت أبداً نفسك .

(٢) قال المسيبى . « وذكر ما سأله قومه من الآيات ، وإرأته خيال صميم ، وإيران الملائكة
عنده ، وغير ذلك جهلاً بهم بحكمة الله تعالى فى إصباحه اخلو وبعدهم بتصديق الرسل ، وأن يكون - عابهم - »

وإن لم يستطع المشركون إصحام محمد خثوا إلى مصر بن الحارث وكان كثير الأسير . يحفظ القصص لعديدة ، ولا يرى محمداً قام يدعو إلى دمه حتى يحبس بالقرب منه ويحاول ختداب الناس من حوله بقصص أحاديث رؤسهم أو استفسادهم ، وقد يدع من حرأه أن قال « سأرسل مثل ما أنزل الله على نبيه » وبعث القرشيين يوفد إلى أحرار يهود المدينة ، وإلى الأمير حبيب بن مالك ، إلى أشهر بين صائر الناس بحكمته ، وعلمه . وسلطه : متلين عن وسيلة تمكهم من إلصاق تهمة الكذب وإلصاق محمد . ولكن تلك اليهود ذهبت هباءً وانهارت من نفسها دون ما حجة إلى معجزة الشقاق العمر - أنى برعونها مستدين إلى الآية الكريمة « افتركت لساعة وأنتن القمر » (سورة القمر) فعضهم يدعى أن حياً سأل الرسول أن يأتيه معجزة تؤيد كلامه . فاشتق القمر بأمره شفين متساويين ، وذهب أحدهما غرباً والثاني شرقاً ، أما علماء الإسلام المؤثوق بهم مثل البصوي والبرمشرى فيرون أن هذا أحد رأيين . قال البصوي « وقبل معناه : سيشق يوم القيامة »

== من نظر وتكر في الأدلة ، فجمع الدواب على حسب ذلك ، ولم يكشف بطلان ، وحصل ثم العلم الضرورى بطلان أخفة أنى من أحده . يكون الثواب والعقاب ، إذ لا يؤجر الإنسان على ما ليس من كسبه ، كذا لا يؤجر على ما حتى فيه من سوء وشعر ونحو ذلك ، وإنما اعتداهم من الدين ما يخص الضر فيه العلم الحسنى ، وذلك لا يحصل إلا بفعل من أصل الفيل ، وهو النظر في الدليل ، وفي وجه دلالته معجزة على صدق الرسول ، وإلا فقد كان قدراً سبحانه أن يأمرهم بكلام يسمونه ، ويصحبهم عن إرسال الرسل . وبكسبه سبحانه قسم الأمر بين الدارين ، فجعل الأمر . ثم في الدنيا بنظر واستدلال وتفكير وحذر ، الأمر . دار بعيد وحتي ، وحصل الأمر بعلم في الآخرة محاسبة واستقرار لا يمحى به ثوب ولا حرام ، ولا يكون الخراب عن ما سبق في الدار الأولى ، حكمة دبرها وقصة أحكامها ، وقد قال الله تعالى « ومن بعد أن فرس الآيات إلا أن كذب به الأولون » يريد بها قال أهل التأويل أن تكذيب بالآيات نحو ما سألوه من يرأه خاس عجم ، وانزال تلك الحكمة يوجب حكم الله ألا يثبت الكافرون بها ، وأن يدخهم بهنهم كذا فعل يقوم صدق وبأن فرعون ، فهو أعنت قرين . ما به من آيات ، وحاصلهم في اقترحوا ثم كذبوا بغيره ، ولكن الله أكرم محمد ، في الأمة التي أرسله نبي ، إذ الله سبق في عنه أن يكذب ، من تكذب ريسق به من يصل ، وبعثه رحمة للناس من يو رداجر ، عالم الفروع حصة [بهم من الدين والآخره ، وأما الفاجر فبهم أموا من الحصف والمزق وإرسال حاصب عليهم من السماء ، كذلك قال بعض أهل التنصير في قوله « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » مع أنهم لم يسموا ما سألوه من الآيات إلا تحسناً وسهر . لا حل جهة لاستشاد ودعم الشك ، عند رآر من دلائل النبوة . فيه شعاع لم الحصف ، قال الله سبحانه « أ لم يكفهم أن أنزل عبت الكتاب » الآية . وفي هذا المعنى قبل

لو لم تكن فيه آيات مبينة كذب منه عتة قد شك باخر

ويؤيد هذا الرأي الآيات التي تليها مباشرة وهي :

« فَتَوَلَّوْا عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَكِيرٍ • حُشْعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ • »

وفي الواقع أنه لا يستطيع تصديق تلك المعجزة المرعرة ، لأنها تنافي .
صراحة ووضوح ، مع الكثير من آيات القرآن ، يقول تعالى : « وما معنا أن نرسل بالآيات إلا أن نكذب به الأولون »

ما أقل تأثير المعجزات فيما مضى من التاريخ . لقد عبد هو إسرائيل المعجل بعد أن أنقدهم موسى بمعجزة من حلقة البحر ومن طغيان فرعون . وما كان أهل مكة المشركون ليتأثروا بالمعجزة أكثر من عبرهم من بني إسرائيل الطغيان الإنسانية واحدة .

« وَاقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ . لَإِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا • قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشِيرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ • وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَلْنَدِّمُهُمْ فِي طُعْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ • وَلَوْ أَنَّا رَزَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَخَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لَيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ، وَكَانَ أَكْثَرُهُمْ بِخَهْلُونَ • »

معجزة القرآن :

ومع ذلك فقد أتى محمد بمعجزة . إنها المعجزة الوحيدة التي مُنحت له . ولكنها معجزة أقصت مصاحح المشركين وأعطى به « آيات القرآن » ولعن القارئ يلاحظ أن معنى « آيات » : « العلامات ، المعجزة » .

إن معجزة الأنبياء الذين سبقوا محمداً كانت في الواقع معجزة وقفية . وبالتالي معرضة للسيال لسريع . فيما نستطيع أن نسمي معجزة الآيات القرآنية « المعجزة الحادثة » . ذلك أن تأثيرها دائم ومفعولها مستمر ، ومن اليسير على المؤمن في كل زمان وفي كل مكان أن يرى هذه المعجزة بمجرد تلاوة كتاب الله . وفي هذه المعجزة نجد تحليل الشافى للانتشار هائل الذي أحضره الإسلام . ذلك الانتشار

الذى لا يدرك سببه الأوربيون ، لأنهم يجهلون القرآن ، أو لأنهم لا يعرفونه إلا من خلال ترجمات لا تنضج بالحياة فضلاً عن أنها غير دقيقة .

إن الحداثة الساحرة التى يمتاز بها هذا الكتاب . الفريد بين أمهات الكتب العلمية ، لا تحتاج منا - نحن المسلمين - إلى تحليل ، ذلك أننا نؤمن بأنه كلام لله أنزله على رسوله ، ولكننا نرى من الضريف أن «ورد هذا رأيين مستشرقين دعت شهرتهما عن جدارة . نقول «سفرى» وهو أول من ترجم القرآن إلى الفرنسية :

« كان محمد عليهما بدعته . وهى لغة لا نجد على ظهور السبيطة ما يضارعها عبي واسجاساً . إنها ، تركيب أفعالها ، يمكنها أن تتابع الفكر فى ظرائفه العبد ، وتنضمه فى دقة دقيقة وهى كفى فيها من نعم موسيقى تصحى أصوات الحيوانات المختلفة ، وخرير المياه المناسبة ، وهريم الرعد ، وقصف الرياح .

« كان محمد عبيساً كما قلت . تلك اللغة الأرية التى تزيست بروائع كثير من الشعراء ، فاجتهد محمد لى أن يحى تعابيه بكل ما فى البلاغة من جمال ومن سحر . . .

« ولقد كان الشعراء فى الحرية العربية يتمتعون من تقدير مسمى مكة . ولقد علق لبيد بن ربيعة . انشعر بشهور ، إحدى قصائده على باب الكعبة وحالت شهرته وقدرته الشاعرية دون أن يبرى له المنافسون ولم يتقدم أحد لينازعه الخثرة . . . ودأت يوم علق بجانب قصيدته السورة الثانية من نقرآن (وقيل اسورة الخامسة والخمسين) فأعجب بها لبيد أيد إعجاب رعم أنه مشرك . واعترف بمجرد قراءة الآيات الأولى ، بأنه قد هزم . ولم يلبث أن أسلم .

« وفى دأت يوم سأله المعجبون به عن أشعاره يردون جمعها فى ديوان فأسجاب . لم أعد أتذكر شيئاً من شعرى . إذ أن روعة الآيات المنزلة لم تترك لغيرها مكاناً فى ذاكرتى » .

ويقول «ستانلى لين بول» . « إن أسلوب القرآن فى كل سورة من سورته لأسلوب أنى يميز عاطفة وحياة . إن لألفاظ ألفاظ رحن حلاص الدعوة وإنها لا تزال حتى الآن تحمل طابع الحماس واقوه وفى نديها تلك الحنوه التى ألقبت بها . . .

إنها ألعظ قدت من قلب إنسان يستحيل أن يكون منافقاً . وهذا القلب هو قلب رجل كان له أخطر لشأن في تاريخ الإنسانية .

إن كان سحر أسلوب القرآن وجمال معانيه ، يحدث مثل هذا التأثير في نفوس مثل هؤلاء العلماء الذين لا يمتدون إلى العرب ولا إلى المسلمين نصبة ، فإذا ترى أن يكون من قوة الحماس الذي يستهوى عرب الصحار ، وهم الذين نزلت الآيات بينهم الشعرية الحميلة ؟ لا يستطيع أن يكون لنفسه عن ذلك فكره مقاربة ، وإن كانت مصغرة ، لا أتم أيها المسافرون حبها سماح لكم الفرصة بشاهدة تتأثر لدى يمتلك قلوب قوم يصوتون إلى الإمام ، وهو يزل الآيات المقدسة . لقد شهدتم أهل الأعراب شأناً - دور وصولهم من أسفارهم المجهدة وقد كسبهم رمال الصحراء حيث دافعوا من المتاعب أشقها - يتسابقون إلى المسجد يجذبهم إليه ، كما يطيس ، صوب الإمام ، فيمضون الاجتماع إلى ترتيبه ، على الاستسلام إلى يوم هدى مريح . وفي شهر رمضان يقصون الليل في الإنصات . الإنصات المسعوق - الآيات الله بعد يوم شاق لم يدوقوا فيه طعاماً ولا شرباً .

حقاً إن أعراب عصرنا الذين لم ينالوا أدنى قسط من العلم ، لا يدركون دائماً المعنى الخرق للألفاظ التي يقرؤها الإمام ، بيد أن الموسيقى العذبة ولتوقع اللطيف والجرس المسجج ، كل هاتيك الأشياء التي تلتزم الآيات العجيبة ، يجد صداها في دقات قلوبهم . فتحمل إليهم شرحاً قد يكون غير دقيق ولكنه على كل حال يثير الخيال في قوة خصبة ، ويهيه نظم القلوب . بجوار هذه الآيات التي نزلت من دوة عن تأثر عاطفي سدد شرح الحويين والمنطقيين حثة لا حياة فيها .

أما عرب الصحار الذين يدركون أدق معاني اللغة القرآنية التي هي لغتهم الخاصة ، والذين أخذوا لسور عن مواطنهم الرسول العبقري ، فكأنوا لا يسمعون القرآن إلا وتملك نفوسهم انفعالات هائلة مباحة ، فيضون في مكانهم ، وكأنهم قد سمروا فيه أهده الآيات الحارقة تأتي من محمد ، ذلك الأبي الذي لم يزل حفظاً من المعرفة ، أنهم إلا ما حثته به الطبيعة وما أمتاز به من رقة في الشعور ؟

كلا إن هذا القرآن مستحيل أن يصدر عن محمد ، وإنه لا ماص

من الاعتراف بأن الله العليّ القدير هو الذي أملى تلك الآيات البينات . إن الرسول لم يكن مخادعاً ، حين قال « إن الله هو الذي أنزل القرآن »
 لقد كان يؤمن كل الإيمان بمصدره الإلهي فالوحيات الخائلة التي كانت تنبأه عند مجيء الوحي حملاً عليه ، لم يكن يعلمه . في لغة جديده كل إخلة بالنسبة له تختلف كثيراً عن لغته المألوفة . هذا الوحي الذي يعاتبه إن أخطأ ، ويلزمه بحفظ تلك الآيات دون أن يفكر على مقاومتها . هذا الوحي ، خلال تلك الوحيات ، لم يكن ليترك لديه أدنى شك في المصدر الإلهي في القرآن
 لهذا كله كان أصحاب الرسول بالقرآن ، أي بكلام الله ، لا حذره . وقد أوحى الله إليه :

قُلْ قَاتِلُوا بَعْشَرَ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ ، وَادْعُوا مَنِ اسْتَضَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ • •

ولا عجب في أن نرى النبي الأُمِّي يتحدى الشعراء ، ويعترف لهم بحق معنهم له بالكذب إن أتوا بعشر سور من مثله ، فقد آمن بعجزهم عن ذلك .^{١١}
 لقد حاول بعض المؤرخين المعاصرين أن يدعوا إلى الشك في ذلك الإحلاص العظيم المؤثر الذي أمتار به محمد ، وحاولوا أن يصوره في صورة رجل لا مؤهلات لديه للعظمة ، إلا الطمع المؤسس على المهارة ورأيهم هذا لا يصدر إلا عن شخص أعماه التعمص ، ولا يصبر إلا في زمن يشبه الزمن الذي كانت تقوم فيه محاكم التفتيش . ولقد قصي « كارلايل » في كتابه « الأبطال » على ذلك

(لغة القرآن)

لقد حقق القرآن معجزة لا تستطيع أعظم ، غامض العظمة أن تقوم بها ، ذلك أنه بكر اللغة العربية في الأرض بحيث لو عاد أحد أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، يومئذ لكان ميسوراً به أن يتفهم تمام التفهم مع المتعلمين من كل اللغة العربية ، بل لا يجد صعوبة تذكر في التحدث مع الشعوب الناطقة بالهند ، وقد عكس ما عده مثلاً أحد معاصري « رابيه » من أهل القرن الخامس عشر الذي هو أقرب إريب من عصر القرآن من الصعوبة في مخاطبة العديد الأكبر من قريسي اليوم
 وإن لغة القرآن وإن كانت تمتد إلى أصولها - إلى صور بعيدة قدمه ، فهي لغة طيبة ، نبع التعبير عن كل ما يجد من المستكشفات والمخزعات الخفية ، دون أن يفقد شيئاً من روحه و سلامته وأما ما دراه من أدبيات التي تستعملها الخرافة العربية بنفس أصولها الأصلية ، فليس ذلك عن ضروره وري ضره نوع من النكاس والتهديد والتدليل ، التي يجد منه عدد من الفرنسيين في استعراش الاصطلاحات الخاصة بالألعاب الرياضية عن أصولها الأسبوسكوبية (المؤلف)

التعصب الدميم . وتلك الحماقة العمياء ، إذ يقول متحدثاً عن محمد : « يستطيع رجل محادع أن يؤسس ديناً ؟ كلا ورنى . إن رجلاً محادعاً لا يستطيع أن يقيم بيتاً من آخر ١١ ! » إنه لو لم يكن عليمًا بحواص الطوب والموتة وسائر المواد البناية الأخرى ، لما استطاع أن يقيم بيتاً ، وإن يقيم - إذا أقام - إلا أكواماً منقصة لا يمكن أن تقوم اثني عشر قرناً تضم بين جدرانها ما يربو على مائة وثمانين مليوناً من الناس . إن بناء المحادع ينتهار لا شئت لساعته »

الصله عن سماع القرآن :

ورأى القرشيون المشركون أنهم عاجزون عن مقاومة الأثر القاهر الذى تحدثه تلاوة القرآن فى صفوفهم ، فقرروا أن يبعثوا الناس من الإنصات إليه .

وحملوا تهمة بدعتهم من حادلو الإنصات إلى رسول ، وهو يتلو الكتاب المنزل كعادته على باب الكعبة . وكانوا تارة يحملون أصابعهم فى آذانهم لكيلا يسمعوا ترثيته ، وتارة أخرى يصفرون ويصفقون ويصيحون بشعر الشعراء المشركين ليسكتوه . ولكن أتدرى ماذا كانت النتيجة العربية ؟ لقد أحس هؤلاء الدين حرموا الإنصات إلى القرآن ، أحسوا بالرعة المدحة تعمل فى نفوسهم ، تلك الرغبة التى تدفع الإنسان نحو كل ما هو محرم .

وفى ذات ليلة حرج أبو سميان وأبو جهل والأحس من بيوتهم لينذهبوا حفيه من بيت الرسول وهناك ألصقوا آذانهم بالخائط وراحوا يحاويون الاستماع إلى تلاوة بعض آيات الإلهية وشملهم ظلام الليل ، فلم يلاحظ كل منهم الآخر . ولكن طريق الرجوع ، عندما أشرق الصجر ، جمعهم وجهاً فلاموا ودل كل منهم :

« لا تعودوا فلو راكم بعض سمهانكم لأوقعم فى نسه شيئاً »
فأحدوا على أنفسهم عهداً عتيظاً ألا يقدموا مرة أخرى على مثل تلك الحماقة . ولكن ليلة العدة ويلة اليوم الذى تلاه شهدنا نفس الحادث ونفس التراجع والتلاوم .

يَا أَيُّهَا الْمُنَذِّرُ فَذَرْنَاهُ لِذُرِّهِ وَرَبِّكَ فَكَيْفَ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَسْبُلُونَنَّا فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ

قال رسول الله : « خلق الله الجنة لمن أطاعه ، ولو كان عبداً حبشياً ، وخلق النار لمن عصاه ، ولو كان شريفاً قرشياً » .

بهذا المبدأ قرر الإسلام المساواة بين جميع الطبقات والأجاس ، وبهذا المبدأ اجتذب الإسلام إلى صدره كل متواضعى مكة ، أما السادة الوثنيون فإنهم كانوا يرون - فى غيظ يزداد بمر الزمن - عبدهم يعتنقون الإسلام متحمسين طوائف وجماعات . وإذا كان هؤلاء السادة لم يمكنهم أن يبالوا ممن اعتنق الإسلام من غير الأرقاء فإنهم صبروا بجام عيظهم على من دخل فى الإسلام ممن ملكت أيديهم .

هل أتاك حديث أمية بن خلف ، وقد علم بإسلام عبده بلال بن حمامة ، فلم يكن له من هم إلا التفتن المحجل فى إذافته العذاب ألواناً ؟ لقد أحاط عنقه بحبل من ليف النخيل الحشن ، وأسلمه إلى أيدي العصيان الذين لا سبيل للرحمة إلى قلوبهم ، فأخذوا يمشون بحره كحيوان ، يجرونه إلى الأمام ويجرونه إلى الوراء ، يجرونه يميساً ، ويجرونه شمالاً ، والحبل يمز فى عنقه حتى حضر فيه مجرى دامياً . غير أن بلالاً ، رغم كل ذلك ، لم يبد عليه التأثر ، فما كان من أمية إلا أن مع عنه الطعام والشراب ، وكان يخرجه إذا حميت الظهيرة ، فيطرحه على ظهره فى بصحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره . على هذا الرمل الذى جعلته حرارة الشمس كالبحر ، كان يلقي أمية بلالاً ، ويقول له :

« لا تزال هكذا ، حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعد اللات والعزى » . تجاه كل هذا كان بلال الصبور يكتفى برفع سبابته إلى السماء مكرراً : « أحمد أحمد » ، يظهر بذلك احتقاره لسيده الذى بلغت به الجراءة أن جعل لله شركاء ، يزعمه ،

من خشب أو حجارة . وكان تأكيد الأحذية لله تعالى يشير في روعه أنه شهيد الإيمان ، ويبعث في نفسه بذلك عنوبة فائقة الوصف ، فلا يشعر معها باليم العذاب .

وشامت الأقدار أن يمر أبو بكر بالرمضاء ، حيث كان يعذب بلال ، ويشهد هذا المنظر البشع ، فقال ، في اشتزاز :

« ألا نخشى عقاب الله يا أمية حينما تدبى هذا المسكين العذاب ألواناً ؟
فأجاب ، في برود صاخر :

إنك أنت الذي أفسدته ، بأنقذه عما ترى .

قال أبو بكر : عدى علام أسود أقوى منه وأجلد ، وهو على دينك ، أعطيك به ؟

قال : قلت ، هو لك .

فأعطاه أبو بكر غلامه ذلك ، وأحد بلالا فأعتقه . ولم يقتصر كرم أبي بكر رضى الله عنه على ذلك ، بل اشترى أيضاً ستة من العبيد الذين أسلموا . ما بين رجل وامرأة — يخلصهم من مصادتهم الوثنيين ويعتقهم ومع ذلك ، فقد استمر التعذيب ، بل ازداد وحشية . بسو مخزوم أحدوا عمار بن ياسر وأباه وأمه صبية إلى الرمضاء ليتمسوا في تعذيبهم ، ويعرضوهم لكل ما توحى به غلظتهم الجاحدة .

كانوا يلبسون عماراً درعاً من الحديد في اليوم الصائف ، ويطرحونه أرضاً ، ويستبويه كذلك معرضاً لأشعة الشمس الملهية ، وكان جسم عمار يحترق كما لو كان معرضاً لقطعة من معدن في حالة الانصهار . بيد أن الوثنيين لم يمكنهم بالتعذيب أن يردوه ، أو يردوا أبويه عن الإسلام ، كما لم يمكنهم أن يردوا بلالا . فأعفى العبيط أبا جهل وطمع بحربته قلب سمية وقال لها منهكماً : « إذا كنت قد آمنت بمحمد ، فما ذلك إلا لأنك عشقته لجماله » .

كانت سمية الشهيدة الأولى في الإسلام . ولعلت من الثبات والصبر مسعاً لم يصل إلى مثله بعض المسلمين الآخرين الذين أضعفهم الحرمان والعذاب ، واشتد بهم الضعف حتى وصل بهم إلى العجز عن القيام ، فندت عن شفاهم — لا عن قلوبهم — ألسان الردة التي أنقذتهم مما هم فيه . وما إن أنقذوا حتى ناعوا تحت

عبء الحمل والخرى ، وسالت دموعهم بدمماً على ما فعلوا ، فزلت عنهم الآية
الكريمة :

«إِلَّا مَنْ أَكْثَرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ، وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ
صَدْرًا فَعَبِثَتْهُمْ عَصَبٌ مِنْ اللَّهِ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » (١)

ثلاث نفس الرسول حرباً ، أمام هذه المآسي التي كان يتحملها صغار
المسلمين الذين لا يجدون من يحميهم حقاً إن شجاعة المعديين والشهداء في
سبل الله تزهت عن إسلامهم العميق ، بيد أنه رأى أن من أضر ألا يستمر
هد السلاء ، فصيح الصمغاء ومن لم تدعهم الضرورة إلى البقاء في مكة بالهجرة
إلى الحبشة حيث المسيحيون . وحيث التسامح والعدل اللذين اشهر بهما ملكها
النجاشي

هجرة المسلمين إلى الحبشة (سنة ٦١٥ م) :

سافر أول من سافر من المسلمين ستة عشر ، من بينهم عثمان بن عفان ورواحنه
رقية - إحدى بنات رسول الله - وفي حصح من الليل ، خرج المهاجرون من مكة سيراً
على أقدامهم . وحيثما وصلوا إلى شاطئ البحر الأحمر ، استأجروا فكا حملهم
إلى الشاطئ الأحمر ومن هناك ذهبوا إلى الاط النجاشي فرحب بهم ، وما لبثوا
إلا حتى بنم غيرهم ، فأصبحت الحاية الإسلامية في الحبشة مؤلف من ثلاثة وثمانين
رجلاً وثمان عشرة امرأة

ثرت ثورة الوثنيين حينما رأوا أن صحابياهم تهر من بين أيديهم ، واشتعل
عيطهم حينما علموا أن من المهاجرين أفراداً من أسرهم ، مثل أم حبيبة بنت
أبي سفيان ، فأرسلوا إلى النجاشي سفيرين هما عمرو بن العاص ، وعبد الله بن
أبي ربيعة ، ومعهم هدايا نفيسة . وكانت عاية السفيرين رد الالاشيين ، فصوراهم
للنجاشي في صورة دائرين خطرين ، في مقدورهم أن يثيروا فتناً صده .

كان النجاشي قد شاهد عكس ما قالاه ، وكانت فصائل المهاجرين قد نعت
في الناس تقديرهم وعظمهم ، فلم يكن عنده استعداد لقبول دهوى السفيرين رغم

ماسة الهدايا . . . فرأى السعيران عند ذلك أن يثيرا النعمة الدينية عند الملك
المسيحي ، وأن يحذرا من لخطر الإسلامى ، فقالا له .

« إذا أردت أن نعلم خبر هؤلاء المعززين ، فلما على علم بهم ، إنهم جاءوا
ليردوا رعبتك عن دين عيسى ، كما حاولوا أن يردوا قريشاً عن دين أجدادها ،
وإذا أردت دليلاً على صدقنا فما عليك إلا أن تسأهم عن عقيدتهم في عيسى
ميدكم » .

أقر المجاشي رأيهم ، وسأل أعلم المهاجرين عن عيسى ، فأجابهم جعفر ابن عم
النبي بالآية القرآنية :

« إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلَّمَتْهُ ، أَلْفَاهَا إِلَى مَرْيَمَ » ^(١) .

هذه الإجابة طمأن المجاشي . نعم لأنها لم تتضمن الاعتراف بالوهمية
عيسى ، بيد أنها على الأقل برهنت على الاحترام العميق الذى نكته صدور
المسلمين نحو عيسى ، وأزالت شكوكه من ناحية غايتهم ، فصرفت السعيرين ورد
إليهما هديتهما ، ولم يجب لهما رجاء .

إسلام عمر بن الخطاب ^(٢) :

أقنع الكمار عمر — وكان جافاً غليظاً إذ ذاك — بأن في القضاء على محمد
إنقاذاً لوطنه ، فنقلد عمر سيفه واتجه ، يتطأثر الشرر من حينه ، نحو « النساء »
حيث يعتقد وجود الرسول ، وبينما هو سائر في طريقه ، إذ لقيه نعيم الذى كان
يسمى إسلامه فترقا ^(٣) من قومه ، فقال له :

— أين تريد يا عمر ؟

أريد عمداً ، هذا الذى فترق أمر قريش . وحق آلمت سوف لا أهدأ
حتى أقتله .

فقال له نعيم :

— لقد غرتك نفسك يا عمر . أتوى بنى حيد مناف تاركيك تمشي على الأرض

(١) سورة النساء .

(٢) إلى إسلام عمر كان خماً ، وإن مجرته كانت نصراً ، وإن إسلامه كانت رحمة .

(٣) خوفاً .

وقد قتلت محمداً؟ ... ثم أضاف ليحوله عن مشروعه البشع : أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟

قال : وأى أهل بيتي ؟

أختك فاطمة ، وزوجها سعيد بن زيد ، فقد أسلما
عند هذا توجه غضب عمر وجهة أخرى ، وعدا مسرعاً نحو مسكن أخته
فاطمة . وكان فيه ، حيناً وصل عمر ، المسمم لمتحمس خياب ومعه صحيفة
فيها سورة طه يقرئها لإبها ، فلما سمع دق عمر القوى على الباب ، لحاً خباب
، من حجرة مجاورة ، وأخفت فاطمة الصحيفة تحت رداها .

سمع عمر ، حيناً دنا إلى البيت ، قراءة خباب عليهما ، فلما دخل قال في
صوت حشن :

« هذه الهستيمنة ^(١) التي سمعت ؟ قلالة .

— ما سمعت شيئاً . قال

— بى . لقد أحررت أنكما تابعتهما محمداً على دينه ثم لم يتطر إجابة
أو شرحاً ، بى هجم على حنثه ، وطرحه أرضاً ، وجلس على صدره آخداً
بالحيث . فألقت فاطمة نفسها على أحبها . وقامت بمجهود يائس لتكفه عن
زوجي وصاحت :

« نعم أسلما ، وما علمته حق » . عند ذلك طار صواب عمر . ولم يبالك
أن يصمها في غبطة على وجهها فشجه ، فانقلبت فاطمة للشجاعة عرفت في دمي
يبد أنها لم تنهن ولم تضعف ، بل استمرت تمد إليه يديها وتكرر .

« نعم ، لقد أسلما يا عدو الله . نعم آمنا بالله ورسوله ، فاصنع بنا
ما تريد » .

عندما رأى عمر ما بأخته من الدم وأثرت في نفسه «جاعتها التي لا تفهر ،
مع أنها ضعفة ، حجل مما صنع ، وطلب في صوت أشرب بالودعة .

« أعطيتي هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأون آتساً . أنظر ما هذا الذي جاء به

محمد ؟ » فقالت له أخته

« إنا نخشك عليها » فقال

(١) صوت كلام لا يفهم .

« لا تخافى » ، وحلف لها ما فاته ليردنها ، يد قرأها ، إليها .

ودعم أن فاطمة طمعت في إسلامه ، فإنها اعترضت قائلة : يا أحمى إليك
رجس ، على شركك ، وإنه لا يحسها إلا الطاهر
قام عمر في ودعه وغسل ، فأعطته الصحيفة^(١) التي بها سورة طه والتي
تبدأ

« بسم الله الرحمن الرحيم طه » ما أُرسلنا عليك القرآن لتشقى * إلا
تذكراً لمن يخشى ،

وما إن قرأ عمر الذى كان كتباً ببيعاً الآيات الأولى حتى قال
« ما أحسن هذا الكلام وأكرمه » . فلما سمع ذلك خيب حرج إليه فقال له
« يا عمر والله إنى لأرجو أن يكون الله قد حصلك بدعوة نبيه . فأبى سمعته
أمس وهو يقول اللهم أيد الإسلام بأبى الحكم بن هشام ، أو بعمر بن الخطاب ،
فقال له عند ذلك عمر :

« سر بى الآن إلى محمد ، فإنى أريد أن أعتنق الإسلام ، أين هو ؟ »
فهذه خياب مستبشراً متوللاً إلى بيت الأرقم عند الصفا .

(١) قال السهيلي عند الكلام على نشر عمر لرس القرآن ، وقور أخيه له « لا عنه إلا
« مطهرون » ، واضطرر في هذه الآء هم الملائكة ، وهو قول مالك في الموطأ ، واحتج بآية الأخرى التي في
سورة عس ، ونكهم ، وإن كانوا ملائكة هي وصلهم ، « مطهرون » مقروناً بذكر المس ما يقتضى ألا عنه
إلا طاهر اقتداءً بالملائكة المطهرون ، فقد تحقق الحكم بصحة التطهير ، ولكنه حكم منسوب إليه ، وليس
محمولاً على العرض ، وإن كان العرض فيه أبى عنه في آية ، لأنه جاء بلفظ النهى عن مسه من غير
طهاره ولكن في كونه بى عرض هذه الآء « يا أهل الكتاب معاشر بى كلمه » دليل على ما قلناه وقد
دعاه داود ، وأبو ثور ، وداققة من سلف ، منهم الحكم بن عتيبة ، وسهيد بن أبي سليمان ، إلى إباحتها
من المصحف على غير طهاره ، واحتجوا بذكر من كناه بى هرقى ، وقالوا يحدث عمرو بن حرم
مرسل عن « ود حجة ، وأدريطى قد سده من طرق حسنة ، أفرد روى به أبو داود الصائبي عن
الزهرى عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حرم عن أبيه عن جده « وما يشق أن يطهروا في الآء هم
الملائكة ، أنه م يعل « « تطهرون » وإعاقب « « تطهرون » « وروى « بين المطهر والمطهر أن
تطهرون من فعل الطهور ، وأدخلى نفسه فيه ، كدفعه من يسخن نفسه في الدية ، وكذلك المتعمل « في
أكثر الكلام وأشد سبويه

* « وليس عيال ومن قبس » « لا أدبون مطهرون إذا تطهروا ، والملائكة مطهرون مخلقة ، ولآدميات ودا
« مطهرون مطهرون » وفي السري « جود تطهرون » ومن حيث أمركم الله « واحور العين ، مطهرون
في السري « هم فب أواح مطهرة » وقد فرى بى وقوة لتاوين مالك رحمه الله ، والعلو عندي في
الرسول عليه السلام أنه متطهر ومطهر ، أما مطهر ، فلاه نشر آدمى يعمل من أعباء ويرص من
« حذب ، وأب مطهر ، فلاه قد عمل ببطه وس عن نيه ومن حكه وإعاقب ، فهو مطهر ومطهر

بينما أصحاب رسول الله يصعدون إلى كلامه فتشربه أرواحهم ، إذا بالباب يندق دقاً عيماً ، فقام رجل من أصحاب رسول الله ينظر من حائل الباب فرأى انفارس الرهيب متوشحاً بسيفه ، فرجع إلى رسول الله وهو فرع يحذره الخبر . فقال الرسول وهو هادئ مطمئن :

« إني له : فإن كان يريد حراً بدلنا له . وإن كان يريد شراً قبلناه بسيفه »

امثل أصحابي أمه . ودخل عمر . فهصر إليه رسول الله حتى لقيه في الحجرة فأخذ بيحجرتيه ، ثم جسّاه بسندة (١) شديدة وقال :

« ما جاء بك يا ابن الخطأ ؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة »

فقال عمر في تواضع ليس من عادته

« يا رسول الله حدثت لأول مرة برسوله . وغا جاء من عند الله » فكرر

رسول الله تكبيرة عرف بها أهل البيت من أصحاب الرسول أن عمر قد أسلم ،

وتفرق الأصحاب شاكرين لله توفيق عمر للإسلام

لم يكن عمر بالرجل الذي يصير ويُسَرُّ سلامه . فلما إن وصل إلى الضريق

حتى أوقف أول ما ربه . وكان حميل بن معتمر الحمصي وفان له

« أعلمت يا حميل أني أسلمت ودحت في دين محمد » وكان حميل

ثباتاً بالطبيعة . فإذ سمع كلام عمر حتى حر رداه وعدا حتى إذا كان باب

الكعبة صرخ بأعلى صوته :

« يا معشر قريش : أتيتكم بأمر مريح . وب من أخطأ قد صأ » . فقال عمر

وكان تبعه :

« كذب . ولكني قد أسلمت ، وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده

ورسوله »

بعد ذلك ثار لقوشيون ثورة عسفة . وهجمو على عمر . فاستقبلهم ثابت

الحداد ، وما برح يقاتلهم ويقاوتهم حتى دامت أشمس على رؤوسهم ، فاضطر

المحاربون إلى هدة قصيرة المدى . فقام عمر وقام أعداؤه على رأسه ، فقال لهم في

احتقار وشتم :

(١) بحزته أي بجميع رؤسائه . وجدته وجيده على واحد

« اعلوا ما ندا لكم ! فأحلف بالله أن لو قد كن ثلثمائة رجل فقط
 لأنزلناكم عن الكعبة ، ولما وحدثتم فيما بعد إلى استردادها من سبيل » .
 فبينما هم على ذلك إذ أقبل شيخ من قريش عليه حلّة حنّرة^(١) ، وقميص
 موشى . حتى وقف عليهم فقال
 « ما شأنكم ؟ » قالوا :
 « صأ عمر » . فقال :

« له ؟ » رجل اختار لنفسه أمراً . فإد ترون ؟ أترون نبي عدى بن كعب
 يسلّمون لكم صديهم هكذا ؟ ، ونخلو عنه خوفاً من الشار ، لا اتعاضاً لمطلق
 العثل ، ولكأنهم كانوا ثوباً كشط عنه

كان رسول الله وحده هو الذى يجرؤ على الصلاة في الكعبة علناً . فما أسلم
 عمر ، عزم على محاكاته في ذلك ، فكان يذهب كل يوم إلى الكعبة ويقف
 كما كان يقف رسول الله ، بين الركن الذى به الحجر الأسود ، والركن الذى يتجه
 نحو اليمين ، وكان يصلى متحيزاً نحو بيت المقدس ، مثل الرسول . شجع ذلك
 كثيراً من المسلمين فحاءوا بصوب بحوره تحت سمع المشركين وبصرهم وحامت
 هبة عمر ، ندى سحرى بجدارة لقب الفاروق ، دون البطش بهم .

نبي بنى هاشم إلى الشعب (سنة ٦١٩ ميلادية) :

رغم كثرة الوثنيين من قريش ، فإنهم اضطروا إلى الاعتراف بأن محالة حزمهم
 حرجة ، وأنهم ، إن لم يقوموا بعمل حاسم تجاه تلك الحركة المستمرة الخارفة التى
 يتبعها كل يوم أنصار حدد ، فقد قصى على سيادتهم بين العرب .

فاجتمعوا وتناقشوا ، ثم تعاهدوا على قطع كل علاقة تربطهم بنبي هاشم ونبي
 المطلب ، وإحراجهم من مكة إلى شعب أى طالب ، حتى يسلموا إليهم محمداً .
 ولأجل قطع الطريق أمام كل من تسول له نفسه الإخلال بهذا العهد ، كتبوا بذلك
 صحيفة علقوها في جوف الكعبة

كانت خطتهم ماهرة فقد قدروا أن من غير المعقول أن يتضامن من لم يؤمن
 بمحمد من عشيرته مع من آمن وأن يتحمل الأثم من أجل دعوة لم تصل بعد إلى

(١) ضرب من ثياب اليمن .

شغاف قلبه ، فإذا حدث هذا - وهو حادث لا محالة - فقد وجدت التفرقة والخلاف بين عشيرة محمد ، وهذا لذلك أمرهم أجل ! غير أن المقادير قدرت خلاف ما قدروا واقدت أسرة محمد بأبي طالب فتصامت . ولم يشأ منها إلا أبو طالب الذي عميت بصيرته .

ولعلنا نلاحظ من هذا الحادث سبباً من الأسباب التي حالت دون اعتناق أبي طالب للإسلام ، مع أنه ساعد - في حدود نشاطه - على انتصاره نعم ! إنه لم ينس تهكم أبي هب به وقوله :

لم يبق لك إلا الخسوع لاسك على فقد اختاره محمد وريه .

وكانت أمة أبي طالب تجعله يحشى تسليق قريش به .

ولقد قال يوماً :

« لو لم أصر أصحوة في أفواه القرشيين حينما يروني أصلي لاعتنقت الإسلام » .
غير أنه ، كان يقيم لهذه الاعتبارات وزناً ، أو لم يؤمن بأن حمايته لابن أخيه تمهد أثرها الفعال منذ الساعة التي ينكر فيها دين آبائه .

و، إن أعان لتحالف ، حتى خرجت عشيرة الرسول من مكة - المسلمون منهم والنوثيون - وتركوا مآلهم الممرقة في مختلف أحيائها وأقاموا في شعب أبي طالب .

دافق للدير أخرجوا من ديارهم أشد أنواع الحرمان طيبة عامين ، إذ ما لبث رادهم أن مضى ، ولم يجدوا سبيلاً إلى تجديده .

كدت الأسواق معقة في وجوههم ، فإذا ما تمكن أحدهم - حلف قافلة - من دخولها ليشرى شيئاً من الطعام يقدت به ، فإن التحار ، خشية مراقبه أبي جهل أو خشية التبايع عنهم ، يزيسون في أسلحة أصعافاً حتى يرجع إلى أطفاله . وهم يتضاعون من الجوع - وليس في يده شيء يعلمهم به .

وحملت البرودة بعض الناس على تعدية المنيين سرا ، وكان أحسنهم بلاء في ذلك هشام بن عمرو ، فكان يأتي بالبغير ، وتنو هاشم وبنو المطلب في الشعب ليلاً ، قد أوقره طعاماً ، حتى إذا أقبل به فم الشعب خلع عظامه من رأسه ،

ثم ضرب على جنبه فسدحل الشعب عليهم . عن إن ذلك كتاب نادراً وقد وصفت
الحالة بمحمد وآله أن كانوا يصنعون من ورق الشجر .

أكل الأرضة الصحيفة :

وبينا كفار في عبادهم رأى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أن الله
قد سبط الأرضة على صحيفة قريش ، ومحت منها الظلم وانقصية والبهتان ،
وبركت كل سم هو الله وقص الرسول رؤاه على عمه ، فصدق عمه رؤياه ،
وأحد إخوته وذهب إلى حيث يجتمع الكفار ، فما إن رآه هؤلاء حتى تساءلوا
- لما رأوه على وجهه من أثر الجوع - هل سيسام إليهم أخيراً ابن أخيه
وقد هرمه الحرمان ؟ لقد كانوا مقتنعين بذلك كل الاقصداع فلما حدثهم
برؤية ابن أخيه وقال لهم - « هدموا إلى صحيفتكم » فرب كانت كما قال ابن أخيه
فانتهاوا عن قطيعتنا ، وأرسلوا عما فيها وإن كانت كدماً دعيت ، بيكم بن أخيه
قدوا هذا العرص وهم على يقين من أن ذلك إنما كان محلياً ماهرأ من حمايته
لابن أخيه .

كانت الصحيفة محتومة بثلاثة أحدم ، وهدأ أودعت . لكعبة لم يرها إنسان ،
ولم تمسها يد بشر ، وهذا لأعداء الله أنه من المسحجل أن يكون ما قاله الرسول
صواباً ، ولاحت عليهم علامات الانصار وهم داهبون مع أبي طالب إلى
الكعبة برؤية ما وصلت إليه الصحيفة ، ثم بطروا ، وقد هي كما قال الرسول كن
ما هو حاتم وشتر أكلته الأرضة ولم يبق إلا « باسمك اللهم » .

سقط في أبدى الوشيين وتولاهم الدهون ، وكان أوب من مخرج منهم أبو حنبل
محولاً لتخلص من قبول قريش عرص أي طاب . ودام في وجهه هشام بن عمرو ،
ورهير بن أبي أمية ، ومطعم بن عدي وعبرهم من أصرت بهم في مصالحهم
وعلاقته تلك صحيفة المشنومة - التي لم يمسوها إلا مرعبين ، وقالوا محتجين
الواحد تلو الآخر .

« إن هذا العمل الشاذ الذي لم يوافق عليه إلا عن غير رعة ما ، لم يعد له
وجود ، وما تصممه إدد من عهد فهو مردول يجب أن يلغى » .

أمام هذه الاحتجاجات الصارخة اضطر أبو جهل للخضوع .
أبى لعنه الله ، ورجع أبو هاشم ونو عبد المطلب إلى مكهم .

وفاة أبي طالب وخديجة :

بدو أن نمو الإسلام أصبح بعد ذلك مأموناً . غير أن حادثتين جاءتا فحأة
فعرقتا ما كان في الحسان ، أما أولاهما فهي موت أبي طالب حامى الرسول ،
الذى كان لا يمل ولا يسأم . وكان قد تجاوز الثمانين .

لقد رأينا أنه ، رغم ما كانت تشتمل عليه حوارج أبي طالب نحو الإسلام
من وُدٍّ ، فإنه لم يعتقه . بعد موته قل : « يا معشر بني هاشم ! أطيعوا محمداً
وصدقوه ، تملحوا وترشدوا » فانتهاز الرسول الفرصة وقال : « يا عم تأمرهم بالمصحة
لأنفسهم وتدعها لنفسك ؟ » . قال : « يا ابن أخي » قال : « أريد أن
تقول فقط . لا إله إلا الله » . فقال : « يا ابن أخي ، قد علمت أنك صادق ،
غير أبى أحشى أن أنهم بالخوف عند ما حان حينى ! ولولا ذلك لاتبع
نصيحتك لأمر عنيك اللتين أرى فيهما مبالغ حزنك »

وذكر أنه لما تقارب من أبي طالب الموت ، نظر العباس إليه ، يحرك شمتيه ،
فأصغى إليه بأذنه ثم قال : « يا ابن أخي ! لقد نال عليك الكلمة التي نصحت بها »
غير أن مؤرخى اسيرة المعتمدين يرفضون هذا النص . ولا يعزم الحقيقة ، لا الله .

بعد هذه الكارثة المصعبة بأيام ثلاثة ، أصيب الرسول بكارثة أخرى أدهى
وأمر : ماتت خديجة وقد ارسل رقيقته المثالية ، التي وهبت نفسها له وهو فقير ،
وآمنت به في حين أعلن الآخرون أنه ساحر ، والتي كان يسر إليها بأمانه وأمانيه
فتنصحه ، والتي واثقة في رفق ومودة في ساعات الشدة .

ماتت خديجة أم المؤمنين ، أولى النساء إسلاماً . في سن الخامسة والستين
رضي الله عنها .

كان تخليجه في نفس الرسول مجدية قوية لطيفة ؛ علم يشرك معها غيرها
طوبه حياته ، ورغم أنه كان في ريعان شبابه فإنه لم يقص الروح بأحرى ، أو اتخاذ
صديقة ، مع أن التقاليد كانت تسمح بذلك ، ومع أن الأسباب من كل جانب
كدت تمهد له وتغري به . وإذا كانت قد عارفته فإن ذكرها دائماً كانت على لسانه ،

وكانت عائشة ، التي صارت روح الرسول المفضلة ، تمجد لدع الغيرة وتحسن به في قسوة ، ونقول :

« لم تستوى على قلبى العبرة من أية واحدة من روجات ارسول سوى حديجة ، رغم أنى لم أعرفها ، ورغم أنها ماتت من رواجى نرس طويى . لا أن الرسول يردد دائماً ذكرها ، ويختلط ، حينما يستحضر حروفاً ، بحزء كبير لهديجات حديجه .

وقفت له مرة : يظهر أنه لم يوجد فى العالم من ساء غير حديجة . فأخذ مباشرة فى تعداد قصائلها ، وأعن أن ها فى اللجنة بيتاً من للؤلؤ تنعم فيه بما تريد .

« ودحت عليه هادة يست حويد ، ذات يوم ، فعرف فى طبعها وحديثها طجة حديجة وحديثها ، فأثار ذلك فى نفسه لشحن ، فم أتمالك نفسى من العبرة وقلت حادثة : مالك تثر دائماً ذكر مات عجائز قريش ذوات لأنياب الحمراء ، والأسنان الساقطة ، والوجه الذى دهمت بصارته السون ؟ ألم يعوضك الله خيراً منهن ؟ »

رغم كل هذا ، ورغم جمال عائشة ودكاها ، وما تحلت به روجاته الأخريات من جمال ومطلة . فإنه كان دائماً يفضل عبيهر حديجة ، ويعدها واحدة من أربع ساء . هى أكمل من وحد على ظهر السبيطة ، أما الثلاثة لأخريات فهن . آسيا امرأة فرعون التى ألقنت موسى ، وريم أم عسى . وفاطمة الزهراء ست محمد من حديجة

خروج الرسول إلى الطائف :

ناء كاهل الرسول بالكثيرتين المتتبعتين ، وأضحت قريش بعد موت حامية السبيى تعلن ما كانت تسرُّ من أعراض وأحداث . فعزم الرسول على نشر الدعوة خارج مكة ، ورأى أنه لو وفق فى حمل حص العرب من خارج مكة على اعتناق دعوته ، فإن تعضيدهم لأبصاره ملكيين الذين بلغوا عدداً لا بأس به يجعل الإسلام حزباً يمرض نفسه على المناوئين .

نوجهت أولى محاولات الرسول من هذا النوع إلى الطائف - وهى بلدة صغيرة شرقى مكة ، وعلى بعد اثنين وسبعين ميلاً منها تقريباً ، وهى مشهورة بعسها ،

وتبينها ، ورمائها ، وتمرها ، وأرهاها وحداثتها الفيحاء . ولما وصل الرسول إليها ، ومعه زيد بن حارثة ، عمدا إلى حيث يجتمع سادة ثقيف ، فجلس إليهم ، وكلمهم فيها جاء له من نصرتهم للإسلام ، والقيام معه على ما خالقه .

بما حدثه بأحد بأعندة أغلب الحاضرين ، ويؤثر - كعادته - في من يصغون إليه . وإذا ثلاثة إحوة من أشرف ثقيف ، ممن لهم الرأي المسموع فيها ، يقطعون عليه فجأة حديثه ، فقال أحدهم مكذبا

« إلى أقطع ثياب الكعبة إن كان الله قد أرسلك » . وقال الثاني . « أما وجد الله أحدا يرسله غيرك ؟ » وقال الثالث : « والله لا أكلمك أبداً ، لئن كنت رسول الله كما تقول ، لأنت أعظم قدرا من أن أرد عليك ، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك » .

هدمت هذه المعارضة حادثة حديث رسول الله وسحره . فأجملت الدهماء تصحيحه وتسه فرأى الرسول ألا رجاء في هذه البينة الآن ، وقام ليعود من حيث أتى

ولم تتركه ثقيف وشأنه . بل أرادت أن تؤسسه منها . فلا يكرر محاولته مرة أخرى . لذلك أثارت عليه سمهاها وعبيدها ، واجتمع عليه الناس وقعدوا له صمير في طريقه ، فمما مر بين الصميرين جعل لا يرفع رجله ولا يصميرها إلا أرضحومها بالحجارة ، وكان إذا وجد ألم الحجارة قعد على الأرض ليحمي رجله من اللمبتين فيأخذون بعصديه ويقيمونه ، فإذا مشى عادوا إلى عبتهم المقبوب كل ذلك وزيد بن حارثة يقيه نفسه حتى لهذا شج وجهه بحجر كانت قوة صلته به بحيث طرحته أرضاً . هكذا سار الرسول في طريقه . يسقط مرة ويقوم أخرى ، ويجر نفسه حراً ثقيلاً أليماً بين سحرية الدهماء وعبتهم . وكذلك كان زيد ، حتى وصلا في النهاية إلى حائط ستان ، وحدا وراءه مأمنا ، وهماك سقطا من الإعياء مستظلين بشجرة كرم ، ثم دعا الرسول فقال :

« اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربني ، إلى من تكلني ؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي »

لم يجرؤ سمهاء ثقيف على دخول البستان خيف ضيقتهم ؛ فقد كان يمكنه
 قوم كرماء ، ساء لهم اضطراب الذي شهده ؛ فأمرؤا عندهم عداستاً أن يقتطف من
 لعنت ويحمله في سلة إلى ضيقتهم العابرين .

فلما هدأت حدة آلامهما بسب الراحة في ليل الوارف وهذا الظمأ
 بالارتشاف من عصارة عنب لطائف السكرية ، قام وأحلبا الطريق إلى مكة .
 فكم الرسول في موقف أهل مكة منه عند وصوله ، ورأى أن لا مناص من أن
 يستجير بأحد أصحاب السوء ، فصار إلى حراء ، ثم بعث ريداً إلى الأحبس فلم
 يجره ، وبعثه إلى سهيل فأبى ، فبعثه إلى المطعم بن عدى فأجابه إلى ما أراد ، ثم
 تسلمح المطعم وأهل بيته . وخرجوا حتى أتوا المسجد ، وأتى ريد برسول الله فدخل
 المسجد وطاف بالبيت سبعة قبل أن يذهب إلى مثواه

الإسراء والمعراج :

أثار الإسراء والمعراج كثيراً من مناقشات ابن علماء الإسلام ؛ فبعضهم يرى
 أن ذلك معجزة حصلت فعلاً بالروح والحمد في اللفظة ، بينما الآخرون يعتبرون
 على أصح الآثار ، من سها حدث عائشة روح الرسول المنصلة وسب إلى بكر ،
 ويرون أن الروح وحده هي التي أسرى بها وعرج إلى السماء^(١) ، وليس ذلك إلا رؤيا

(١) في الرأي المشهور ، بما يتعلق بالإسراء والمعراج ، أنهما كانا بالروح والحمد ، وهو رأي
 يابون عليه مختلف الأدلة ، ويعبره كل من له أدنى إلمام بالسيرة النبوية ، ولكن المؤلف اختار رأياً
 آخر أقل شهرة ، وهو مع ذلك قد قيل به
 يقول السهيلي

« وقد ذكر من انجاء عن عائشة ورواه بها (أي سائر الإسراء) كذا في الحديث ورواه أبو عائشة
 في كتابه ثم بعد ذلك ، ورواه عرج بروحه تلك الليلة ، ويخرج ذلك هذا القول بقوله
 « وما حسب الرؤيا التي أريته إلا قلبه لماساً ورواه عن الرواية ، وما يسمى رؤيا ، كما في النوم في
 عرف الله ، وعنه أيضاً يحدث البخاري عن أنس بن مالك قال : « ليته أسرى برسول الله صلى الله
 عليه وسلم من مسجد الكعبة ، أنه جاء ثلاثة نفر ، في أولهم رجل ، وهو قائم في المسجد حرم
 فقال أوهم أنهم ذو « فصار أسعهم هو هذا ، وهو خيرهم ، فقال آخرهم جدو خيرهم ، فكانت تلك
 الليلة فلم يره ، حتى أراه منه أخرى ، بها يرى قلبه ، وسام عينه ولا يسمعه ، وكذلك الأنبياء عليهم
 السلام تسم أعينهم ولا تسم قلوبهم ، فلم يكلموه ، حتى أحسبوه ، فوجدوه عند بكر برم ، فتولاه بهم
 سبريل ، فحدثهم ، وقال في خبره وسيعطوه في مسجد حرام ، وهذا نص لا يسكن به ،
 أنها كانت رؤيا صادقة

ثم يذكر السهيلي الرأي المشهور وأدلتها ، وبعد ذلك يذكر رأياً ثانياً يراه هو وحدته ، والله ويرجعه ،
 يقول

صادقة ، كما كان يحصل كثيراً للرسول أثناء نومه .

وفي الليلة سابعة وعشرين من شهر ربيع الأول ثاقى حبريل - وهو الموكل
بكو كب النور - الأمر من الله تعالى أن يأخذ من ضوء الشمس ليُرِيدَ في ضوء
القمر ، وأن يأخذ من ضوء القمر ليزيد في ضوء النجوم ، لتزدهر القبة الزرقاء ،
وتتألق سماء وإشراقاً ، ثم ينزل إلى محمد فيوقفه من النوم ، ويرفعه إليه تعالى
محرقة طبقات السماء السبع ، وفي ذلك يقول الرسول « بينا أنا نائم إذ أتاني جبريل
بالبراق - وهي الدابة التي كانت تحمل عبيها الأنساء - لا يمانه حيوان من
حيوانات الأرض . فهو بين المثل والحمار ، أنف من السرد^(١) ، له وجه إنسان ،
بيد أنه لا يتكلم . وله جناحان كبيران يرفع بهما في الهواء ، ويشق بهما طبقات
العصاء . أم دؤبته وذيله ومانه وشعره فقد كانت محلاة أنف الخواصر التي بلغ
لألاؤها من النساء بحيث يصارع لآلاء آلاف المحوم^(٢) ورأسه حمص
مثل ملح النضر - من الحرم المكي ، في بيت المقدس ، فلما برت رطته حيث
كان يربطه الأنساء - وحاء في رجل يحمل في يمينه ، في أحدهما حمر ، وفي الآخر
لس . فشررت اللس وتركت الحمر ، فقال في حبريل الذي رافقني ، وحاداني
طبعه رحاني - " هُتدب إلى المفطرة ، ودو اخترت الحمر ، وفصلته على اللس ،
لما صبت أمتك الفصل على الهدى " .

و بعد أن طاف الرسول المسجد الأقصى . صعد على الصخرة التي دحبت
شراباً ، وتمكيتاً من أن يعطي البراق . وتابع الرسول - يموذه حبريل مبعوث
سواء - رحلته خلال طبقات القبة الزرقاء .

ولا يمكننا أن نعرض هنا لكل ما ذكر من وصف المعراج غير أن نلاحظ
أن بعض المؤلفين ، وعلى الأخص «معرض» - قد أخطوا حينهم «البيان» وبعضهم ،

« وذهب طائفة ثالثة ، منهم شيخنا القاضي أبو بكر ، رحمه الله ، إلى تصديق لمقاتلين ،
وتصحيح حديثه ، وأن لاسر - كان مرتباً ، إحداهما كانت في يمينه ، ودؤبته له وتيسراً عليه
وكذا في الحقيقة . ثم دنا - بعد الثوب هو الذي يصيح ، وانه تنطق مدعى الأخير

وأن يتحقق ، بعد ، ذكر رأى عثته ومعاريه من جانب ، ورأى جمهوره من جانب آخر ، قال
« الله أعلم أي ذلك كان من حواء وعائني فيه ما عاب من أمر الله ، على أي حابه كان ، إنما أر بعضنا
كل ذلك متى صدق » (الروص الأكت لمطبعة ١٩١٤ به ١ من ٢٤٣ وما يليها)

(١) في هذا الحديث الصريح اعتراف بأنها كانت نعمة بالروح واحد وخاصة ذكر البراق الذي
لا يحمل عليه إلا الحسد والروح .

(٢) كرات النج الصغيرة متناقلة من السماء أثناء المفطر

مثل ابن هشام ، وابن سعد ، وأبي العلاء ، اتخذ خطة حكيمة فاقصروا عن رواية هي غاية في البساطة . وسنقتصر نحن هنا على ذكر مقابلة محمد مع الرسل الذين سبقوه ، وهم : إبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ثم طوافه بالجنة التي أعدت للمؤمنين ، والتي تعصرت رياضها تشريعاً له وتعظيماً ، ثم رؤيته للنار التي أعدت للكافرين والتي حمدها فيها عند مروره بها .

فما إن احترق الرسول السموات السبع حتى سمع صرير الأقلام يكتب في « لوح القلم » ، وسمع تسبيح الملائكة وتقديسهم لله تعالى . ثم وصل إلى « صدره المنتهى » وهذا تركه حريبل قائلاً : « هنا حدود المعرفة ، وهنا يجب أن أقف » ، أما أنت يا خير الرسل ، وحبيب رب العالمين ، فتابع معراجك المبارك ، واصعد محاطاً بنور من أنوارك .

وتابع المصطفى احترق الحجب التي تحول دون رؤية المسابير ، إن أن وصل إلى حجاب الوحدة ، فرأى ما لا تراه الأعين ولا يخطر على قلب بشر . لم تكن حاسة بصره الحسية تتحمل هذا الطريق الذي يحطف الأبصار^(١) ، ففتح الله عينه قلبه بمنحه القدرة على مشاهدة هذا الجمال « اللانهائي » .

ثم قربه الله من عرشه حتى أصبح « قنات قنومنين أو أدننى »^(٢) وبعد أن أخبره الله بما سبق أن أخبر به ، أعنى اصطفاؤه لتسليخ الرسالة .. إبع حدد لصلاة خمسين مرة في اليوم واللييلة ، يؤدنها المؤمن اعترافاً بمصلحته مع الله . وما نزل المصطفى تقابل مع موسى لدى سألته قائلاً « يا رسول الله ، كم فرص الله على أمتك من الصلوات ؟ » .

— خمسون صلاة في اليوم واللييلة .

عد يا حبيب الخلق إلى إلهك وسئدا ، فاطلب منه التخفيف ، لأن أمتك لا تطيق . ذلك حمل ثقل على الصعفاء والكسالى من نبي الإنسان ، فإني قد بلوت بني إسرائيل وجبرتهم .

(١) في هذا أيضاً عترب آخر بأب كانت يقفلة بالروح واحد وعلاوة عن ذلك ذكر الذي صلى الله عليه وسلم بأنه ركب وشرب ونزل كل ذلك صريح في أنها كانت بالروح واحد ، وذكر بعض الأحاديث أنه صلى الله عليه وسلم كان دائماً ، وأحدثت بعض الأحاديث الأخرى أنه أيعظته الملائكة وسيقظ ظم يكن حثالة تمارض .
(٢) سورة الحج

وعاد محمد إلى رب العالمين ، وتكررت عودته إلى أن فرض الله على أمته خمس صلوات فقط في اليوم والليلة .

هذا الرمز يدل على شأنه تحديد عدد الصلاة نهائياً يدل أيضاً على أن المخالفة في العبادة ليست إلا ابتعاداً عن روح الإسلام .

«يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ ، وَحِطُّوا لِلْإِنْسَانِ ضَعِيفاً»^(١)
(سورة النساء، آية ٢٨) .

وما حاجة الله إلى صلاة البشر ؟

«لَا تَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ»

(سورة طه ، آية ١٣٢ م)

كتب الله الصلاة على عبده ، واقتضت حكمته أن تكون أنفع وأصح ما منحهم من خير ؛ نعم ، خمس صلوات في اليوم ، تمكن بني البشر من الراحة التامة خمس مرات يومياً ، فحول يسهم ويب الاضطرابات والعوظف المثيرة التي تؤدي تارة إلى المعاناة في الفرح ، وذلك طريق يؤدي إلى الرذائل ، وتارة إلى المعاناة في الحزن ، وذلك طريق قد يؤدي إلى جنون اليأس . خمس صلوات يومياً ، بما لحظ من مقدمات في الطهارة ، يلزم الإنسان العمل على نفاذ نية وصفاء روحه .

أصبح رسول الله ، غداة الرؤية ، مشرق الوجه من الفرح ، وراه أبو جهل عليه الميّن ، فسأله في سخرية :

يا محمد ، هل من بئاً جديد من أنباءك المدهشة التي عودتنا إليها ؟
— نعم ، لقد أسرى في ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، ثم عدت إلى مكة .

فصاح أبو جهل : « يا معشر قريش ، أسرعوا ، هيا أسرعوا ، لتسمعوا نبأ محمد العجيب ، نبأ رحلته الليلية » .

تراكم الناس وتجمعوا ، وأخذ رسول الله يعرض عليهم قصة إسرائه .

(١) يقول الله تعالى : «يريد الله بكم اليس ولا يريد بكم العسر» البقرة (١٨٥) ،
و: « ما جعل عليكم في الدين من حرج » الحج (٢٨) .

كان أغلب المجنوعين وشيئين ، فحاكوا رئيسهم أبى جهل ، وقالوا القصة
ساخر بن هارثين ، وأحد النعمان يصفق ، والنعمان يصعق على قوديه يديه كما لو كان
يخشى انفجاراً في رأسه من غواية ما سمع (١) .

أما المؤمنون ، فقد تردد بعضهم في التصديق بالحبر ، ولم يحرثوا لبعض الآخر
— أمام ما أظهره انعامه من سخرية — أن يعين ثقته في رأى .
وبينما القوم في صحيحهم واضطرابهم ، إذ رأى جهل يذهب مسرعاً إلى
أبي بكر ويقول

« هل أتاك بأصحابك ؟ » يرغم أنه أسرى به اللبنة إلى بيت المقدس وصلى
فيه ورجع إلى مكة ! » . ثم صحت أبو جهل — سعيداً بما يتوقع أن يراه على وجه
محدثه من اضطراب وغيره .

بعد أن أبى بكر أحلف ظنه وقال ، في ساطة : « لئن قال ذلك لقد صدق
وأنا به مؤمن ، ولئن زعم أنه صعد إلى السماء الساعة ، وعاد في ساعة من ليل أو نهار
لآمنت بما يقول » . هذا الإيجاء وضع حداً لسخرية أبى جهل فسم يدر ما يقول .
ومسح أبو بكر لقب الصدّيق من أجل ذلك .

هذه الثقة من أبى بكر — وهو من هو — شجعت المسلمين ، وبعثاً حاول
أوجهل ، بعد هذا ، أن يبعث لإنكار في نفوسهم ، من لم تؤد محنته ، لا إلى
تقوية اعتقادهم ، فأوحى إليه شيطانه بفكرة لإظهار كذب الرسول . فسأله عن
وصف بنت المقدس ، ولم يكن محمد قد رآه قبل ليله الإسراء فأحد رسول الله في
وصفه وصفاً دقيقاً محددًا ، ووافق على صدق وصفه من شهد بيت المقدس من
الحاصرين ، فحاط قال أبى جهل ، وبدأ عليه الاضطراب .

وما لبث المسموم — وقد قوى — يمدحهم — أن أسرعوا إلى ارتداء ملابس الطهارة
الخمسة ، أعى أداء الصلوات التي حمدتها إليهم الرسول من السماء

وفي أواخر سنة الإسراء عاد عثمان بن عفان ورواحته رقية من الحبشة مع بعض
المهاجرين ، وكان من بينهم مهاجر اسمه سكران ، مات عند وصوله إلى مكة ،
فتروح الرسول أومنته سودة بنت زمعة ، ليكافئها بذلك على تحميسها للإسلام ، وعلى

(١) أبو وهب بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .
هذا النجيد والذهبي الباقية . صدق الله إذ قال « وما جمعا الرؤيا التي أريتك إلا قصة الناس »
الإسراء (١٠) .

صممه على إيلام المشركين لها ، وتحملها مشاق الهجرة في سبيل دينها . وكنت من أوليات المسلمات .

وكذلك رعب رسول الله في الاعتراف لأبي بكر الصديق بتضحيته التي لا تحدد في سبيل الدين ، وأراد أن يزيد فيما بينهما من صلة ، فتزوج بابتنة عائشة ، في الفترة التي بنى بها بسودة تقريباً ، ولم تكن عائشة إلا ذلك من الرواج ، فقد كانت تبلغ من العمر عشر سنين تقريباً ، ولذلك لم يدحض بها الرسول إلا بعد سنوات عدة ، بعد أن هاجر وأقام بالمدينة .

إسلام ستة من أهل يثرب (سنة ٦٢٠ م) :

ورغم تصديق أبي بكر البالغ بالإسراء والمعراج ، ورغم ما أحدثته الصلوات الخمس في نفوس المسلمين من حرارة وتحمس ، فإن أثر قصة الإسراء والمعراج لم ينفذ الإسلام — من حيث انتشاره — إلا قليلاً ، بل لقد قدم إلى أعدائه شبه انتصار مكهم من أن يضاعموا مستخريتهم وتعلميهم للمسلمين .

أمام هذه الحالة يئأس عظماء الرجال ، ولكن محمداً لا يعرف اليأس وإنما يعرف أن الله القادر سوف لا يحدل قط رسوله الذي أوحى إليه :

« قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ • مَلِكِ النَّاسِ • إِلَهِ النَّاسِ • مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَاسِ • الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُفُوفِ النَّاسِ • مِنَ الْخِصَّةِ وَالنَّاسِ • »

غير أن الرسول انصرف عن دعوة أهل مكة - مؤقتاً - إلى الإيمان ، متجهماً إلى العرب الخارجين عن مكة ، الذين كانوا يأتون فرادى وجماعات في موسم الحج ، وفي الأسواق التي كانت تقام كالمسارعة بنقل ، لا يكل ، بين مختلف الجماعات من ورائه لا يكل أيضاً . عه أبو لهب الذي لا يلبث حيناً يري القوم يحيطون بمحمد أن يصيح : « لا تصغوا لهذا الرجل ، فإنه إنما يدعوكم إلى أن تطرحوا عبادة أصنام والعرى وراء ظهوركم ، ليحدثكم بما أتى به من عقيدة غير معقولة يرغم أنه أرسل لمشرها » .

هذه الكلمات كانت تثير الريبة والحذر في نفوس العرب ، فيبتعدون عن محمد قائلين مثلاً : « إن « واطليك أعسم بك ما ، هندا يلقاعهم » ، أو : « إذا منحك

الله النصر ، فإن ثمرة انتصارك لا تعود علينا ، وإنما تعود على عشيرتك فلا فائدة
نرحى إذا من التحالف معك .

لم ينهه مثل هذا اللقاء الخاف من عزم الرسول ، وما من شخصية عظيمة
وصلت إلى مكة إلا وكان الرسول من أمرع الناس إلى لقاءها .
وبينا رسول الله عبد العقبة ، إذ لقي رهطاً من العرب وصل حديثاً . عنده
سنة نفر ، فتقدم إليهم في رفته المعتادة سائلاً :

— من أنتم أيها السادة ؟

— نفر من الخزرج .

— أمن موالي يهود يثرب ؟

— نعم .

— أفلا تجسود ؟

— بلى .

جلس القوم بجواره ، فدعاهم إلى الله . عز وجل ، وعرض عليهم الإسلام
وتلا عليهم القرآن .

سحرم القرآن سلاعه وجمدة أسلوبه ، فأصعقوا في انتباه ، وأحلوا يمحرون .
كان يهود يثرب تحت سيطرة العرب فيها ، وكان اليهود أهل كتاب وحلم ، فإذا
كان بينهم وبين العرب شيء قالوا : « إن بيت مبعوثاً الآن ، قد أظل زمانه ،
نسعه ، ومفضل عونه مستنصر عبيكم ، ونصير به سادتكم » . فلما كلم الرسول
أولئك النفر ، نظر بعضهم إلى بعض قائلين : « ها هو ذا والله البى الذى تهددنا به
اليهود ، وسوف لا نتركهم يسبقونا إليه » .

وأجابوا دعوته قائلين

« إن تركنا قومنا ، الأوس والخزرج ، وبينهم من العلوة والشر ما بينهم ،
وعسى أن يجمعهم الله بك ، فسندقم عليهم ولدعوهم إلى أمرك . ونعرض عليهم
الذى أحضرك إليه من هذا الدين . فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك » .

بيعتا العقبة (سنة ٦٢٩ م) :

مرّ المسلمون الجدد بوعدهم ، فبشروا بالإسلام ، وأذاعوه . حتى إذا كان

العام المقبل ، وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً ، عشرة من الخزرج واثنتان من الأوس ، ولقوا رسول الله بالعقبة ، فبايعوه ، ولما انصرفوا ، بعث الرسول معهم مصعب بن عمير ، وقد كان فقيهاً في الدين ، ليرشدهم إلى ما لا يعلمون من أمر دينهم .

لم يجد الإسلام من العقبات في يثرب مثل ما وجد في مكة ، حيث المنافع الآتية من استغلال عبادة الأوثان التي كانت حجر عثرة في سبيل انتشاره ، لذلك وجد مصعب أن عمله في يثرب سهل مسود ، وأن ما كان يتلوه من القرآن - تلك المعجزة الباهرة - يؤثر في الناس بسرعة لا تكاد تتصور . وكان مثلُ الإسلام في يثرب كمثل غيث أصاب أرضاً جديداً من قلة الماء ، فبعث فيها الحياة ، وأنبث فيها من كل زوج بهيج . كذلك عمر الإسلام بروحه الصافية السديّة كل أحياء المدينة ، وقضى على عوامل التفرقة وغرس في قلوب سكانها الفصائل الضرورية لانتصاره وسيادته .

رما لبث مصعب غير قليل ، حتى لم يعد بيت من بيوت الأوس أو الخزرج إلا ومن بين أفراده عدد من المؤمنين . وعاد مصعب فخوراً بشجرة بعثته إلى مكة ، ليعرض الحالة على محمد . حتى إذا كان موسم الحج حضر إلى مكة مع من حضر إليها من أهل الشرك ، خمسة وسبعون مسلماً من بينهم امرأتان

حضر هؤلاء المسلمون ، وكلهم تحمس ، فتواعدوا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عند العقبة ليلة ثاني أيام التشريق ، ليعرضوا عليه الإقامة - هو وأتباعه - بيلدتهم ، ويضمنوا له الأمن بها والطمأنينة .

بترك الآن أحد هؤلاء الحجاج ، وهو كعب بن مالك ، يقص علينا ما حدث :

« انفقنا على ألا نخبر المشركين من شيء ، فتمنا تلك الليلة مع قوما في رحالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل ، خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ، تسلسل تسلسل القحط ، مستخفين ، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة فنظر الرسول الذي ما لبث أن حضر ومعهم العباس بن عبد المطلب ، وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب ، لعاطفته القوية نحو ابن أخيه ، أن يحصر أمره ويتوثق له ، ويحفظه ، كما

كان يعمل أبو طالب ، من كل شر . فلما جلس الرسول ، كان أول من تكلم العباس
أبي حيد انطلب فقال :

” معشر الأوس والخزرج ، إن محمداً ما حيث قد علمتم ، وقد سمعنا من
قومنا ، ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو في عز من قومه ، وسعة في بلسه ، وإنه
قد أتى إلا الانحياز ليحكم ، وللحق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم واثقون له بما
دعوتوه إليه وسمعوه ممن حاله ، فأنتم وما تحماتم ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه
وخادلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه ، فإنه في عز ومنعه من قومه
وبنده ” فقنا بلون تردد :

” إنا والله لو كن من أنفسنا غير ما ننطق به لقننا ، ولكنا نريد الرفاء والصدق ” .
ثم التفتا إلى الرسول قائلين : ” تكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك وبريك ما أحببت ”
فتلا رسول الله القرآن وذكر أسس الإسلام ، ثم أضاف :

” أبايعكم على أن تمنعوني وأتاعى مما تمنعون منه نساءكم وأبائكم ” . فابعاه
في تحمس عام قائلين :

” ونحن والله أهل الحرب وأهل الحنقة ^(١) ، ورثناها كابراً عن كابر ” وقال
أبو الهيثم :

” يا رسول الله ، يبسا وبين أرحام - يعنى اليهود - حبالا ، وإنا نطعمها
فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرت الله أن ترجع إلى قومك ، وندعنا ؟ ” .
فتبسم رسول الله وقال محتجاً : ” إن دمكم دمي ، وشرفكم شرفي ، أنا معكم وأنتم معي ،
أحارب من حاربتم ، وأسلم من سلمتم ” ثم قال رسول الله : ” أخرجوا إلى معكم اثني
عشر نقباً ليكونوا على قومهم بما هيهم ” . وبعد مشورة أرحام تسعة من الخزرج
وثلاثة من الأوس ، فلما عرصاهم على رسول الله تخاطبهم قائلاً : ” أستم كهلامي
على قومكم ، ككفالة الخواريين لعيسى بن مريم على قومهم ” .

قالوا : نعم .

وقبيل البيعة وأخذ العهد ، قام العباس بن عبادة ، وقال :

يا معشر الأوس والخزرج ، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟

قالوا : نعم .

قل : إنكم تباعون على حرب الأسود والأحمر من الناس ، وإن كنتم ترون
أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة ، وأشرفكم قتلا ، أسلمتموه ، فمن الآن ، فهو
والله ، إن فعلتم حذى الدنيا والآخرة . وإن كنتم ترون أنكم وأولادكم له بما دعوتكم إليه
على نهكة الأموال ^(١) ، وقتل الأشراف فحلوه ، فهو والله خير للناس والآخرة .
وأجابوا في غير تردد :

” إنا نأخذه على مصيبه الأموال وقتل الأشراف ، طالما أن ذلك لمصلحة
الإسلام ، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفيما ؟ “ .
قال : ” الجنة ، وأنتم فيها خالدون “ .

« وَابْدِئْ صَبْرُوا اتَّبَعَاءَ وَخِي رَبَّهُمْ ، وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ ، وَأَتِمُّوا بِمَا
رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ، وَيَذَرُوا بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ، أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ *
خَتَاتُ عَذَى يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ، وَالْمَلَائِكَةُ
يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ ، فَنِعْمَ عُقْبَى
الدَّارِ » [سورة الرعد ، آية ٢٢ - ٢٣ ، ٢٤]

« وَيُبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ خَتَاتٍ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، كُنُفًا رُرُقًا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رُرُقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا
مِنْ قَبْلُ وَأَنْتُمْ بِهَا مُتَسَاوِينَ ، وَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ *
[سورة البقرة ، آية ٢٥]
« وَخُورٌ عَيْنٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ * حِزَابٌ بِمَا كَانُوا يَكْمَلُونَ *
لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا *

[سورة الواقعة ، آية ٢٢ إلى ٢٥]

« وَسَرَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ عِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ، وَقَالُوا

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا * »

[سورة الأعراف ، آية ٤٣]

«وَأُخْرَى تُجِوِّنَهَا : نَصْرٌ مِنْ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ •
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ • »

[سورة الصف ، آية ١٣ ، ١٤]

فلما سمع المؤمنون بما لا يخطر على قلب بشر من نعيم الجنة هذا النعيم الذي أعلنه الرسول في الصورة الوحيدة التي هي في متناول العقل الإنساني العاقل الضعيف — أحسوا بالأمل بدب في أرواحهم ، فقالوا للرسول :

” أبسط يدك “ فبسط يده ، فكان أول من صرب عندها أسعد بن زرارة وتلاه أبو الهيثم ، ثم البراء ، وتبعهم الديقان ، وسموا من ذلك الحين بالأنصار •
وعندما بايعنا رسول الله ، أخذنا نتأهب للعودة إلى رحالك نخبة . وفي القلب فرح ، وفي النفس أمل ، وإذا صرخة من أعلى العقبة بأنفذ صوت ما سمعته قط :

” يا معشر قريش ، الحذر ، الحذر ، إن الأوس والخزرج قد اجتمعوا على حربكم “ .

أحدث فيما هذا الصوت قشعريرة ، بيد أن الرسول طمأننا قائلا :

” هذا صوت شيطان العقبة ، هذا صوت إبليس عدو الله ، ولم يسمعه أحد من أعدائنا “ .

فعدنا إلى رحالنا حيث وجدنا مواطنينا يغطون في نوم عميق ، ولم يشعروا بشيء •
مما حدث .

فلما أصبحنا ، غدا علينا وفد من أشراف قريش ، ولعلهم من أعينهم للذين كانوا يتبعون أثر الرسول أتى سار ، وقالوا :

” يا معشر الأوس والخزرج ، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا ، تستخرجونه من بين أظهرنا ، وتتابعونه على حريتنا “

فأبعث من هناك من مشركي قريش يحلفون بالله ، ما كان من هذا شيء ، وما علمناه ، وقد صدقوا ، فما لهم بما كان من علم ، وقال عبد الله بن أبي بن سلول لهم :

” إن هذا الأمر حسيم . ما كان قوي ليخموه على ، وما علمته “ •

انصرف القرشيون وهم على شيء من الاطمئنان ، غير أنهم بعد قليل تقابلوا

مع أعراب كانوا قد شهدوا مبايعة العقبة ، فأكلوا لهم ما نساء مشركو يثرب ، فعدوا مسرعين في طلب القوم ، فوجدوهم قد ارتحلوا .

المؤامرة ضد الرسول :

أصبح للرسول بعد هذه السبعة منجأ أمين في مدينة يثرب ، فأمر أتباعه بالهجرة إليها .

ولم يطمئن المشركون إلا هذا الأمر ، ورأوا من الخطر عليهم أن يؤلف أصحاباهم مع أهل يثرب . تلك المدينة التي ناقس مكة - جماعة واحدة ، فعارضوا الهجرة ، بكل ما يملكون من وسائل العنف ، لذلك لم يتمكن المسلمون من الهجرة إلا فرادى أو جماعات صغيرة متناحرة ، وقد سمى هؤلاء ، منذ ذلك الحين بالمهاجرين .

أما الرسول . وقد اطمأن إلى مصير المهاجرين . فقد مكث في مكة مع صاحبيه . أتى نكر وعلى . حقيقة أنه لم يكن يجهل ما يحيط به من أخطار . غير أنه - رغم إلحاح أتى نكر - أراد أن يحاول محاولة أخيرة لإقناع بعض مواطنيه باعتماد الإسلام ، والهجرة إلى حيث يجدون الأمن والطمأنينة ، وذلك قبل أن يفادرو مسقط رأسه وقبل أن يضطرو إلى الاحتكام إلى السيف . ثم إنه - فصلاً عن ذلك - لم ير أن يترك مكانه قبل أن يتلقى الأمر من ربه سبحانه .

وصل العصب بقريش إلى أقصاه بسبب هجرة المؤمنين ، واستولى عليهم القلق ، فعزموا على القيام بأمر حاسم . واجتمعوا لذلك في دار الندوة ، وهي دار بناها أحد أسلافهم . قصي بن كلاب . في هذه الدار كانت قريش تشاور في كل أمر حلال ، ولم تكن تسمح بحضور الشورى إلا لمن كان من نسل قصي ، ويكون قد بلغ من العمر على الأقل أربعين خريفاً .

في اللحظة التي بدأ كل ممثل لعشيرته يتأهب لدخول الدار . رأوا شخصاً في هيئة شيخ حليل ، عده طليسان من صوف ، يقف بالباب ، فسألوه من يكون ، وماذا يريد ؟

قال : « شيخ من أهل نجد ، رأيتكم حسنة وجوهكم ، طيبة ريحكم ، فأحسنت أن أحلس إليكم وأسمع كلامكم . وعسى ألا بعدكم مني رأي أو نصيح »

كان مكان محمد بنى عنهم تهمة التحالف مع محمد ، فام يروا مانعاً عن السماح لهذا الشيخ الحليل بحضور مجلسهم ، فدخل خلفهم ، وبدأت المناقشة بين أعضاء الجماعة ، وقال قائلهم :

نحن نعلم جميعاً ما كان من هذا الرجل ومكائده ، وإن والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا فليُسبَد كلٌّ منكم — في حرية تامة — ما يرى ، وأجمعوا فيه رأياً .

قال أبو البخري : « احبسوه في الحديد ، وأغلقوا عليه باباً ، ثم ترصوا به لموت » .

فقال الشيخ المجلى : « لا والله ، ما هذا لكم برأى ، والله لو حستموه كما تقولون ليحرقن أمره من وراء الباب الذى أغلقتن دونه إلى أصحابه ، فلا وشكوا أن يشربوا عليكم ، فيمتزعوه من أيديكم ثم يكتاثروكم حتى يعلبوكم على أمركم ، ما هذا لكم برأى ، فانظروا في غيره » .

قال الأسود بن ربيعة : « نخرجه من بين أظهرنا ، فنضفيه من بلادنا ، فإذا خرج عنا ، فوالله ما نألى أين يذهب » .

فقال الشيخ النجلى : « والله ما هذا برأى ، ألم تروا حسن حديثه ، وحلاوة مسطقه ، وغلبته على قلوب الرجال مما يأتى به ، والله لو فعلتم ذلك ما أستم أن يسجل على من أحياء العرب فيعيب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه ، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم في بلادكم بهم ، فيأخذ أمركم من أيديكم ، ثم يفعل بكم ما أراد . دبروا فيه رأياً غير هذا ،

قال أبو جهل : « والله إن في فيه لرأياً ، ما أراكم وقعتم عليه بعد » .

— وما هو يا أبا الحكم ؟

أرى أن تأخذ من كل قبيلة شاباً حليداً حسيباً في قومه نسيباً ، ثم يعطى كل فتى منهم سيفاً صارماً ، ثم يعملون إليه ، فيصربونه صربة رجل واحد ، فيقتلونه ، فيستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه بين القبائل جميعاً ، فلا يعدر ذو عد مناف على حرب قومهم جميعاً ، فيرصوا ما بالدية تعطونها لهم .

قال الشيخ العجلي ، الذي لم يكن إلا إلبس في شخصية إنسان ، القول ما قال الرجل ، هنا هو الرأي ، لا رأي غيره .

أقرت الجماعة ، المغادرة هذا الرأي ، واعتقد المشركون مند إقراره — أنهم قد تخلصوا من عدوهم ، خير أن المشيئة الإامية أحلمت ظنهم (١) ، فقد أرسل الله جبريل إلى رسوله يعرفه بمؤامرة دار الندوة ، ويأمره بالهجرة ويطلب إليه أن لا يبيت على فراشه لدى كان يبيت عليه .

كان يعمر الرسول أمانات وضعها صده المشركون لثقتهم في طهارته ، فأبت نفسه الهجرة قبل رد الأمانات إلى أهلها ، لذلك أتى بعلي المخلص الوفي ، وكنهه بردها ، بعد أن أحبره بشأ دار الندوة ، وقال له :

« م عى فراشي ، وتسحج نردى هذا المحتصر في الأحصر ، هم فيه فإنه لن يخلص إليك شيء » تكرهه منهم . »

مضى الطريق الأول من الليل والمؤمنون يخاف باب الرسول ليحولوا بينه وبين الحرب ، وأدو جهل معهم يشعن فيهم دار التحمس والحمية . وكانوا على عهد نألا يقوموا بحربهم إلا إذا أشرف نور الفجر ، حتى لا يسكر أحد مساهمته متخذاً الظلمة ستاراً رحمة يتقى بها تكذيبه في دعواه هكذا قدروا . . . غير أن من لا ينام كان يلحظ بعين الرعاية رسوله المحاط بالأعداء :

« إِنَّا حَفَّيْنَا أَعْنَاقَهُمْ أَغْلَالًا فَبَيَّ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ . وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ . »

وخرج رسول الله وكله ثقة في الله ، وإيمان بحمايته ، فأخذ حصة من تراب في يده ، ففترها على رؤوس المرتعزين . وقد رست أحنانهم من طول الانتظار ، وأحدثهم سعة من نوم أرسلها الله عليهم فنام يروا شيئاً .

أناهم آت بمن لم يكن معهم فقال : « من تظنرون هنا ؟ » .
— محمداً .

(١) وفي هذا يقول الله تعالى :

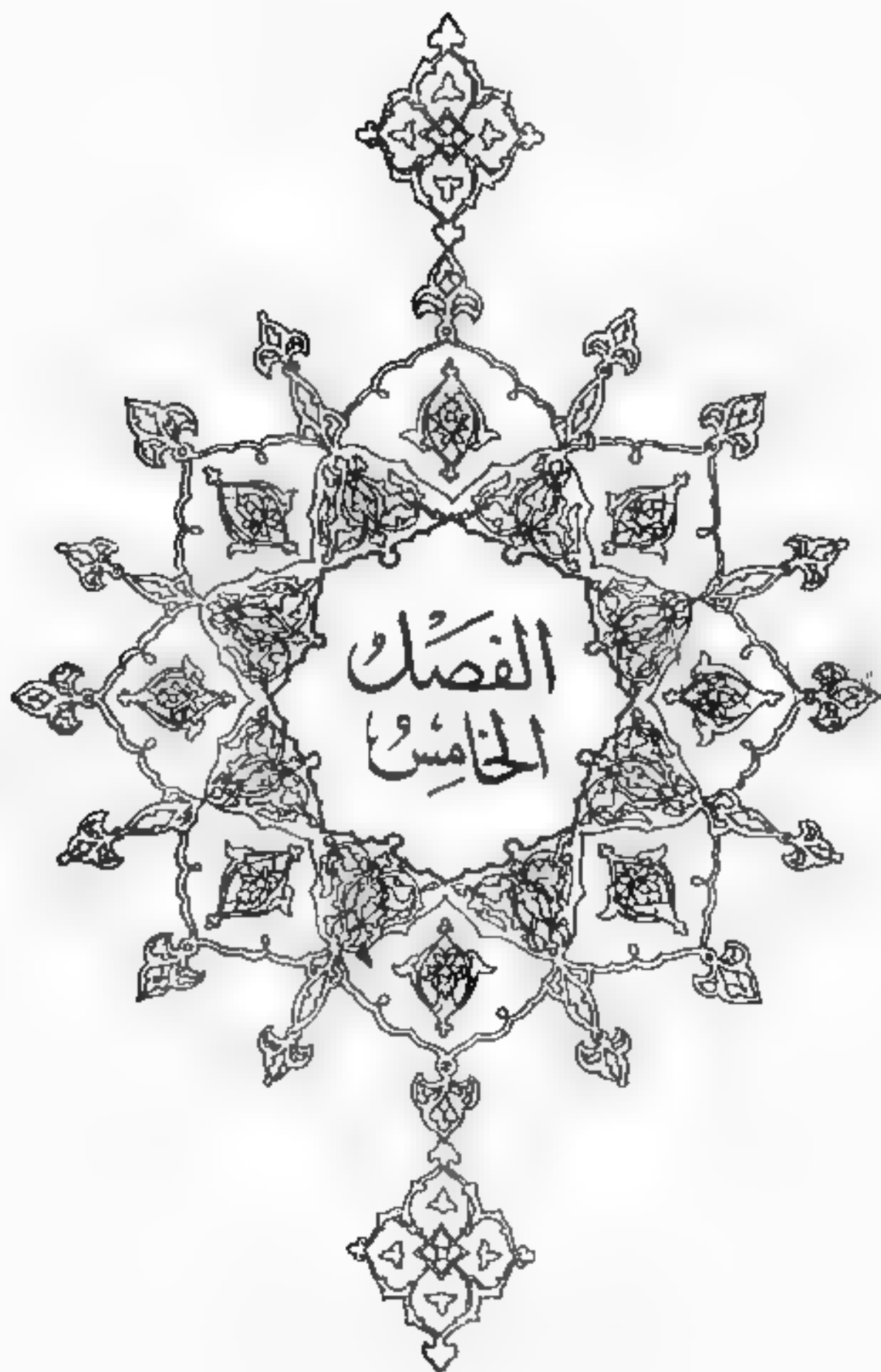
« وَرَدَّ يَمْكَرُ بَكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ ، أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ، وَيَمْكَرُونَ وَيَمْكَرُ اللَّهُ ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ » (الأنعام : ٢٠)

— إنا إله قد أنقذه ، ولقد لعب بكم . وخرج من بينكم ، ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه تراثاً ، وانطلق لحاجته ! ! .

وضع كل شخص يده — في راحة — على رأسه ، وإذا عييه نراب . اختراهم اللذول ، ثم أخذوا ينظرون من خصائص الباب ، غرأوا علياً على الفراش متسجياً ببرد الرسوب . فاطمأنوا . فلم يبرحوا مكانهم حتى أصبحوا . حينئذ دفعوا الباب دفعة أتت عليه ، وهجموا مصالحة سيوفهم . على على الذي ألقته دفعة الباب ، فهب واقفاً ، فلما رأوا بهتوا وصاحوا به : « أين رفيتك ؟ » .
— لا أدري .

فلما رأوا أنهم خلعوا قبضوا على على ، وسجروه في الكفة . وبعد قليل رأوا من الحماقة أن يثاروا من محمد بن شخص ابن أبي طالب ، فأطلقوا سراحه

وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ
سَدًّا فَأَعْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ

هجرة الرسول إلى المدينة :

هاجر المسلمون إلى يثرب فاستأذن أبو بكر رسول الله في الرحيل ، ولكنه قال له لا تعجل بل الله يجعل لك صاحباً ، وطمع أبو بكر أن يكون رسول الله إنما يعني نفسه حين قال له ذلك ، فابتاع واحلتين سريعتين احتسبهما في داره يعلفهما إحداهما لذلك الرحيل المنتظر

قالت عائشة :

كان لا يحظى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار ، إما بكره ، وإما عشيّة حتى إذا كان اليوم الذي أدن فيه لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم في الهجرة والخروج من مكة ، أتت بالهجرة في ساعة كان لا يأتي فيها . فلما رآه أبو بكر قال : إنه لم يأت في هذه الساعة إلا لأمر حدث . فلما دخل تأخر له عن سريره ، فجلس رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وليس عند أبي بكر إلا أنا وأختي أسماء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخرج عني من عندك ، فقال :

يا رسول الله إنما هما ابتائى ، وما ذلك ، فذاك أبي وأمي ؟ فقال :

إن الله قد أدن لي في الخروج والهجرة ، فسأله أبو بكر ، في لحظة وتوسل : والصحة ، يا رسول الله . قال : « والصحة » . قالت : فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ . ثم إن أبي أنبأ الرسول بأمر ما أعده للسفر .

وكانت اراحتان على أتم لاستعداد ، فدعنا إلى عهد الله بن أرقط ، وكان على

الرغم من إشراكه موضع ثقة أبي بكر المطلقة . وكان على عبد الله بن أرقط أن يرحلها ثلاثة أيام ثم تأتي بهما ليعاديه وبين أبي بكر إلى غار جبل ثور ، وكان بأسفل مكة ، بينه وبينها ساعة ونصف سيراً ، ويقع على الطريق المؤدى إلى البحر ثم كان عليه أيضاً أن يهديهما الطريق حتى يثرب

وخرج المهاجرون ، خفية ، من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته ، فساروا على أطراف الأصابع متجهين نحو جبل ثور . كان رسول الله يسير خائفاً ، فام تلبث الدماء أن سالت من فدى الرسول ، وقد شهجتوا الصخور الخادة التي تكسو الطريق الوعر ، وفزع أبو بكر لما علم بدماء المصطفى وهي تسيل ، فحمله على كاهله حتى فوهة الغار ، حيث أحلسه ، ثم دخل وحده ليمتس في سائر الأركان ، حتى يستيقظ من أن يس هالك وحوش صارية ، أو زواحف خبيثة ، ثم جمع ما كان في الغار من الأحجار والصخور المؤذية ، وحملها في طرف ثوبه ، ورمى بها على حجاب الطريق ، ثم عمد إلى الصخور التي من شأنها أن تحيى حيات أو حيوانات أخرى شربيرة عسدها بخرق من ثيابه ، وبعد أن انتهى من توفير كل وسائل الراحة في الغار ، أدخل رسول الله الذي ما لبث أن استغرق في النوم ، مسنداً رأسه على فخذ صاحبه .

بيد أنه ، بالرغم من كل احتراز أبي بكر ، تمكنت حية من الاختفاء تحت الرمل الذي كان يكسو الغار . وفي حركة لاشعورية وضع الخليل رجليه فوق الزاحفة ، فعضت وأدارت رأسها مصفرة وأخذت تلدغه في كعبه . وأحس أبو بكر بألم مبرح ولكنه لم يحرك ساكناً خوفاً من إيقاظ الرسول الذي كان مستنداً إليه .

سد أن السم الخبيث كان يسرى في عروقه ، وبلغ من شدة الألم أن انتزع من عينيه دموعاً غزيرة حارة ، وقع بعضها على فخذ محمد ، فانتشلت من نومه انتشالاً ، وحمل يسأل حائراً : « ماذا بك يا خليل ؟ » قال : « لدغني حية » .

وكانت فرحة التضحية قد ملأت قلب أبي بكر حرارة وحماساً ، فتنقلت على شر السم الفتاك الذي كان قد بدأ يسرى في دماؤه . ونقل الرسول على الجرح المسموم ومسحه قليلاً ، فرأى الألم ، والتورم في الحال (١)

(١) تريد هذه القصة أن تبين ، في موع ، حب أبي بكر لرسول الله ، وقد كان حياً حقيقياً ، وكان قلب أبي بكر كله رعباً وإخلاصاً وحباً لله ورسوله . ولعل القصة لا تريد أن تقول أكثر من ذلك .

أما القرشيون فقد ثارت ثائرتهم حينما علموا بهجرة محمد وأبي بكر . فبعثوا بمناذرين أحدهما أسمل مكة والآخر بأعلاها ، يتأديان بأن قد جعلت مائة ناقة لمن مآنى بالهاريين . فراح أشهر القافة يتقصون لآثار في كل ناحية

وهرع أبو جهل إلى بيت أبي بكر وطفق يضرب على الباب في عيظ ، فخرجت له أسماء أخت عائشة ، فقال لها : « أين أبوك ؟ » قالت : « لا أدري والله » . فرفع يده . وكان قاحشاً حينئذ ، فطعم خلدما لطة قاسية طرَح منها قرطها ، ثم انصرف ولفق بجماعة من القتيان يفششون في جبل ثور .

ولم يكد الرسول يدخل العار حتى شمله الله بهيبته ، فأمر شجره في قامة الرجل تسمى أم الغيلان ، وكانت تنمو قريباً من العار ، فانتقلت حتى سدت فوهته . وبعث إليه عنكبوتاً فجعلت تنسج شبكتها بين غصون الشجرة وزوايا الكهف . وأمر بروج من الحمام فعمش في فوهة العار ووضعت الأنثى بيضها^(١) .

ولم يمض قليل وقت على ذلك حتى هل من كل جانب ، هؤلاء المهاجرون المنقبون الذين طمعوا في الباقات المائة . ولكنهم توقفوا حيارى أمام ذلك الغشاء الرقيق الذي نسجته أضعف الحشرات وجعلته عرضة لرياح تطوح به أقل نسمة . عندئذ قال أمية بن خلف :

« وما أربكم إلى العار ؟ إن عليه لعكبوتاً كان قبل ميلاد محمد ، ولو دخل العار لتمزق ذلك النسيج وتكسر البيض » .

واعتقد الجميع أن ما قاله أمية هو الصواب ، فتولوا عن ذلك البحث الذي لا يحدى ، إلا أن أبا جهل تشكك في الأمر وقال : « والله إنى لأحسبه قريباً يرانا ولكن بعض سحره قد أخذ على أبصارنا » ، ولكنه انصرف معهم جميعاً دون أن يفكر أحد في تتبع آثار الأقدام التي تركها الهاربان في ذلك المكان .

وكان أبو بكر أثناء كل ذلك ترتعد فرائصه ، لا خوفاً على حياته بل على حياة رفيقه ، وكان يقول له : « ما أخشى ميتى ، وإنما هي ميتة رجل واحد ، أما موتك فهو موت كافة المؤمنين » .

(١) وفي هذه المسجزة يقول المستشرق دوسم : إن هذه الأمور الثلاثة هي وصفها المسجزة التي يرويها التاريخ الإسلامي الصحيح . فسج عنكبوت ، وقوف سائمة ، وماء شجرة . هذه هي الأعاجيب الثلاثة ، وإن لها كل يوم في أرض الله نظائر .

ليث الرجلان في الغار زهاء ثلاثة أيام وثلاث ليل . وكان عبد الله بن أبي بكر يتسمع لهما ما يقول للناس فيهما نهاره ، ثم يأتيهما إذا أمسى عما يكون في ذلك اليوم من الخبر . وكان عامر بن فهيرة مولى أبي بكر برعى عنقه بين غنم قريش ثم يريجها عليهما إذا أمسى في الغار فيزودهم باللبن ولحم ، ثم يرجع بعنقه في الصباح فيمر على آثار عبد الله ليمحوها . حتى إذا أتى اليوم الثالث وسكنت عنهما قريش أنهما ابن أرقط في ميغاده بالراحتين وراحلة ثالثة له . أما أسماء فقد أتت بأكياس من الزاد ونمت عدة الرحيل ، فدفع أبو بكر أحسن الناقتين إلى الرسول ، وحثه على الإسراع في الركوب فأجاب محمد :

«إني لا أركب بغيراً ليس لي» ، فقال أبو بكر : «مهى لك يا رسول الله مائتي أمت وأمي» ، قال : «لا» ، ولكن ما الشئ الذي ابتعتها به ؟ . وتم الاتفاق على شراء الناقة ، فركبها الرسول ، وامتطى أبو بكر الأخرى وقد ركب في عجزها عامر بن فهيرة الخادم الأمين ، أما ابن أرقط فامتطى ناقته وأخذ يدل القاهلة الصغيرة في الطريق الغربي ليثرب ، ذلك الطريق الذي يحاذي البحر في بعض المواضع

قصة مراقبة :

قال مراقبة بن مائث : «بينما أنا جالس في نادى قوى يتحدثون في الحوادث الأخيرة وفي العمل الذي وعد به من يأتي بمحمد ، إذ أقبل رجل من البداية حتى وقف عليا فقال "إني رأيت ركبة ثلاثة بالسواحل ، أراهم محمداً وأصحابه" . فأومأت إليه بمي أن اسكت . ثم قلت بصوت مرتفع دون أن أبسى اهتماماً . "ليسوا بهم ، ولكنك رأيت ثلاثاً وفلاناً انطلقوا بمعرفة يتبعون صلاة لما" .

وتمكنت قليلاً ، ثم قمت إلى منزلي فأمرت جديتي أن تخرج فرسي خفية إلى بطن الوادي ، وأمرت عبداً لي أسود ذا قوة وجرأة أن يسوق بعيراً لي إلى هذا المكان ويستظرنى به . ثم خرجت من باب خلف البيت ، مسحياً مخفياً وقد حططت برح الريح في الأرض لتلا يرى بريقه أحد . ولما بعثت ذلك كله لأفوز بالحل ولا يشاركني فيه أحد . حتى أتيت بطن الوادي فامتطيت بعيري وأمرعت به في أثر الهاربين ، ومن ورائي العبد يعود الهرس . فلما اقتربت من صالتي امتطيت فرسي وتركت بعيري بين يدي العبد وأمرته أن يسرع في اللحاق بي وكانت الهرس لم

تزل على أحسن حال ، لأنها لم تتركب ، وكانت معروفة بسرعتها ، وبالفن في إحرائها ، ولكنها لم تلبث أن عثرت في ، فوقعتم لمنحريها ثم قامت تحمحم فخررت عنها ، فقامت فأهويت بيدي على كعنتي فاستخرجت الأرقام واستقسمت بها فخرج الذي أكره^(١) . وكنت أرجو أن آخذ المائة ناقة ، فركت فرسي وعصيت الأرقام .

« وظلت أستحيث الدية حتى اقترمت بي من أمارين ، وسمعت قراءة الرسول وهو لا يلمع لصوت فرسي وأبو بكر يكثر الانفعات وقد تملكه القلق الشديد

« ولم تكن بيني وبينهم إلا مسافة قصيرة . بيد أن فرسي غابت رجلاها فجأة في الأرض على الرعم من صلابتها في المكان فخررت من فوقها لساعتي فرحت ألعنها في حق وأرجرها شهص ، ولكنها لم ترد بجهودها إلا إيعالا في الرمال حتى عاصت لبطيها . وخرج من مكانها غبار في السماء مثل السخان ، فتملكني الدعر واستقسمت بالأرقام فخرج الذي أكره . فعرفت حين رأيت ذلك أن عذاب الله سيحل بي إذا تمديت في غيبي ، فدريت قائلا : « يا محمد بي أطلب منك الأمان . وأخبرتك بما سمعت ، ولأردن عليك من يتعنوث . ولكن ادع لله أن يطلق فرسي » .

فرفع محمد يديه إلى السماء قائلا « اللهم إن كان سرقة صادق فأطلق دابته » . وصدت الفرحت الأرض فاطلقت المرس فركبتها ولحقتهما بهما وعرضت عليهما رادى وسلاحى فرفضوا أن يأخذا شيئا من يدي مشرك . وطلبا مني الانصراف . ولكنني أيقنت مما رأيت بموز محمد الهائل ، فطلعت منه كدبا يكون أمانا بيني وبينه . فكتب أبو بكر كتابا أملاه الرسول على قطعة جلد وأخذته . وكان من شأنه أن أتقد حياتي فيما بعد في عزوة الطائف . ورجعت على أعقابى فأخبرت عبيدي وسائر أهل مكة الذين عرفوا غرضي بأن لم أعر على شيء . وأحدث العن تلك الأحجار التي أتى بها ، لدوى واتي حشمتي تلك الرحلة المتعبة الحمقاء » .

(١) كان العرب إذا أرادوا قتلا صردوا ثلاثة أقذاح مكتوب على أحدها أمرؤ وبى ، وعلى الآخر جدى رى ، والثالث غمز . وإن خرج الأول مصرو على ذلك ؟ وإن خرج الثاني تعبوا عنه ، وإن خرج الفضل أجابوه ثيبا . ومعنى الاستقسام بالأرقام : طلب معرفة ما قسم لهم

وصول الرسول إلى قباء (٢٨ يولية سنة ٦٢٢ م) :

بفضل السرعة العجيبة التي بها تنتشر الأخبار في بلاد العرب لم يلبث مسلمو يثرب أن علموا بهجرة الرسول واعتزمه الإقامة بينهم .

قال أحدهم : « كنا نخرج إذا صلياً لصبح إلى طاهر حرتنا (سهل منبسطة ندى الرمال ، تقطعه الصخور الحادة ، يمتد إلى الجنوب الغربي للمدينة) وكنا نتظر رسول الله ، فوافقه ما كنا نبرح حتى تعلب الشمس على الضلال .

« وفي يوم من تلك الأيام الحارة رحلنا إلى البيوت بعد انتظار طويل . فإذا برجل من اليهود عرف بمعدة نصره يكشف من أعلى أطم (١) قامة صغيرة مكونة من قليل من الإبل تحبس أشعصاً قد ارتسوا ثياباً بيضاء ، يظهرهم السراب تارة ويخفيهم تارة أخرى ، فعرف الرجل في القادمين رسول الله ورفقه . فأتجه إلى المدينة وصاح بأعلى صوته : يا معشر العرب هذا حظكم الذي تنتظرون .

فاستبقنا من غموتنا ، وسارعنا إلى القادمين . فلاقبناهم قد حطوا الرجال في ظل نخلة منفردة غير بعيدة من واحة قباء . كان الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر يجلسان في ظل هذه النخلة . ولكن أكثرنا لم يكن شاهد الرسول من قبل ، وراد من حيرتنا أن الاثنين كانا في نفس السن ، فلم ندر إلى أيهما ننتوجه ، ولكننا شهدنا الظل يزول عن أحدهما فيقوم الآخر ويظل صاحبه بردائه ، وعندئذ زالت حيرتنا وعرفنا الرسول » .

وأقبل أبو عمرو بن عوف يسورهم ، وقد تملكهم الفرح ، وكانوا يملكون بلدة قباء . ودعوا الضيف العظيم الذي أرسله الله لهم ، فنزل النبي على كعثوم ابن هذم ونزل أبو بكر على خبيب بن إساف ، بينما أقام باقي المهاجرين في بيت سعد بن خبيصة الذي لم يكن قد تزوج وتزوج .

التاريخ الهجري :

كانت نهاية هذه الرحلة الموقفة ظهر يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول ، واشتهرت السنة التي رحل فيها الرسول باسم سنة الهجرة ، واتخذها المسلمون بدءاً لتاريخهم . وهي توافق سنة ٦٢٢ م .

(١) ألم : أهل المرتفع .

وقد تمجّب ، لأول وهلة ، لذلك الاختيار ، ولكن دهشتا نزول إذا ما علمنا أنه لم يكن في حياة الرسول حادث أعظم شأنًا وأجل أثرًا في دبور الإسلام وانتشاره بين ربوع العالم من حادث الهجرة ، فلر لبث محمد بمكة ، حتى ولو كتب له في النهاية الانتصار على أعدائه ، لمكث الإسلام فيها معه ، إذ لا شك في أن حرب الحرية جميعها كانوا يدفعون إلى الاتحاد ويحاولون منع الدين الحديدي من اجتياز حدود مكة المكرمة خشية أن يربد انتشار الإسلام في عزة قريش ، على حين أنه ستهل على الرسول ، وقد غرس في مكة جذور دعوه ، رغم العداوات ، أن يرجع إلى موطنه ، بعد أن تشجع له العرب الآخرون .

إن هذا لبديل في وصوح على مقدار خفاء الأقدار ، وعلى مقدار عجزنا عن كشف مسابير العناية الإلهية . وصلى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم . فلو أن الرسول لم يؤذه مواطنوه ، ولم يخرجه قومه ، لما استطاع أن يؤدى رسالته العالمية ، ولما سطع نور الإسلام على وجه المعمورة .

وأقام الرسول قضاء أيام الثلاثاء ولأربعاء والخميس وحق به على ، وقد ردت ما أؤمن عليه من ودائع ، وقطع الطريق بين مكة والمدينة ماشيًا ليل نهار ، حتى تشققت قدماه ، فعانقه محمد في حرارة ، وضمد جراحه بيده المباركة ، وأجلسه إلى جنبه في بيت كلثوم .

ثم عمل الرسول على إنشاء مسجد . هو أول مسجد أقيم في الإسلام . وقد أكمله عمار بن ياسر . وقد سمي المسجد باسم مسجد التقوى وفيه نزلت الآية :

«لَسَجْدُ أَسَسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ، فِيهِ رَجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ »

[سورة التوبة ، آية ١٩٨]

الرسول يصل إلى يثرب :

ورغم إلحاح بنى عمرو الدين أرادوا أن يستمر محمد في ديارهم فقد رحل عنهم الرسول في صبيحة يوم الجمعة ممطّبينًا نافته التي ابتاعها من أبي بكر والتي عرفت بالقصواء ، وقد تبعته جموع غفيرة من الناس ، ما بين مترجل وراكب ، وتسابق الصحابة في الشرف بإمسالك خطاه دابته .

وفاتحة ساعة الصلاة وهو يمر بأرض بني سالم بن عوف ، فترحل ، ولأول مرة
 قدم بصلاة الجمعة في دار الهجرة ، وقد تمّ جموع المؤمنين الذين اصطفوا وراءه
 حاشعين . وانتهت الصلاة فاستفت إلى المسلمين يعطهم ، ثمّ أصلى ناقته ودخل
 يثرب دخول المنتصر . يحف به الشعب الذي ثار في نفسه حماس مستفهد .
 وفوق السطوح اجتمعت ربات الخدور كأنهن ، في ثيابهن العاتنة الألوان ،
 طيور جلابة حطت فوق الصحور . وأخذن يعين في صوت شجي ساحر ، يفصح
 عن التأثير العميق :

طمع الدر عليا من ثنيتات الدواع
 وحب الشكر عليا ما دعا لله داع
 أيها المبعوث ليها جنب بالأمر المطاع

وكان الرسول أياً سار ، سواء في حي بني بياضة أو بني ساعدة ، أو بني
 الحارث . أو بني عدى . يقال له وقد من أشرف القوم ، ويمسكون بحطام ناقته
 قائدين : « أقم عندنا يا رسول الله في العدد والعزة واجتمعنا » .
 فيقول : « خلوا سبي الناقة ودعوها فإنها مأمورة » ، ثمّ يتسم في عطف
 ويقول : « بارك الله فيكم » .

وكان قد أرخى الزمام ضا هسارت ، وقد ارتفع عنقه لحوال فوق جموع
 المؤمنين ، وظل رأسها يلتفت يمنة ويسرة كأنها تبحث بعينها الواسعتين اللتين تظلهما
 هدايت طويّلة عن المكان الذي حددته العناية الإلهية . وبعد تردد ولف كثير
 توسمت أرضاً خالية وبركت فيها ، ولم ينزل عنها أرسول ، هويت وسارت غير بعيد
 في تردد وحيرة . ثمّ التفت خلفها وقد قوى عزمها فرجعت إلى مركها وبركت فيه
 من حديد في تمكن واسترحاء ، وصوتت دوك أن تفتح لها ، فنزل عنها الرسول
 قائلاً : « رَبِّ أَنْزِلْهُ مُنْزَلاً مُبَارَكًا وَآتُ خَيْرُ الْمُنْزِلِ » . وكانت هذه الأرض
 الحالية ميربداً^(١) لبني أنصار ، لا بعد كثيراً عن بيت أبي أيوب الأنصاري الذي
 تصافى رسول الله صلى الله عليه وسلم وحمل رحمه إلى بيته . . . وأحسن الرسول في
 ذلك البيت أنه تحلص وقتياً من مظاهر الحفاوة الدالة ، وراح الشبان والعبيد

(١) المراد : الموضع الذي يجذب فيه الحجر

يصيحوون في كل حي وفي جميع أرجاء المدينة « حياء محمد ، حياء محمد ، نزل
الرسول بمدينتنا » ومد ذلك اليوم المشهود ويترتب تعرف مدينة النبي أو بالمدينة
المنورة اختصاراً .

بناء مسجد المدينة :

كان أول ما شغل الرسول عندما قدم المدينة أن يقيم بها مسجداً . وبحث عن
أصحاب الأرض التي بركت فيها الناقة فقيل له : إنها لأخوين يتيمين هما
سُهَيْل وسُهَيْل ، وقد كانا تحت وصاية معاذ بن عمرو ، فسأهما عن الثمن الذي
يرغمان فيه ، فقالا : لا نطلب ثمناً لنا ولا ثواباً من الله . ولكن الرسول لم يقبل
تلك الهبة ، وحُدِّد الثمن بعشرة دنانير قدمها أبو بكر الذي كان قد استقدم كل
أمواله من مكة .

وشرع المؤمنون في العمل فوراً بإرشاد الرسول ، فطهروا أرض المسجد ،
وكانت بها أسوار متهدمة ، وبعض القصور المنهجرة ، ونحطة ، ثم مهدوا البناء
بتسوية الأرض . ولما أرادوا إقامة لأساس تناول الرسول حجراً كبيراً ليحمته إليها .
فالتصق العمار بصبره الشريف ، فأراد أصحابه أن يمسكوه ، ولكنه قال لأبي بكر :
بل ضع حجرك إلى حسب حجري ، ثم أمر عمر أن يضع حجره بجانب حجر
أبي بكر وحاء أشراف المسلمين وحداً واحداً ، كل يضع حجره في هذا البناء ولما
بلغ ارتفاع البناء لحجري ثلث لارتفاع المقدر ، جعل المؤمنون يضعون البنايات
اللامعة لإكمال وداوم الرسول على خطته ، فجعل يشجع العمار ، ويصربهم
من نفسه مثلاً ، فيحمل اللبنة في ثوبه . ولاحظ ذات مرة أن أحد العمال يحمل
صعق حمل الرحل فجعل يمسح برأسه في رفق قائلاً : « للناس أحر ولك أحران » .

والتهب لجميع حماساً . وراح لبناة يشدون الشعر الذي يعبر عن آمالهم
كحي تتوزن حركاتهم فيسرع عملهم . ولما ارتفعت الخيوط إلى سعة أذرع سقمها
المؤمنون بجذوع النخل المغطاة بالسعف والجريد ، ثم صعدوا فوق ذلك طبقة من الطين
تحمي المطر . وأسند العرش من الداخل بجذوع النخيل ، وفرشت الأرض بالرمال
الناعمة .

وبلغ طول البناء مئة ذراع . أما عرصه فيقل عن ذلك قليلاً . وفتح فيه

ثلاثة أبواب ، عرف أكبرها بباب الرحمة أما المنبر فكان من جنوع النخيل يعتليه الرسول وقت الخطبة ، فما أعظم الفارق بين المسجد الأول الشبيه بمسجد القرى الصغيرة الصحراوية وبين الأبنية السامقة التي لم تلبث أن أقيمت لأداء شعائر الإسلام .

وفي الوقت نفسه أقام محمد بناء بيتين من الطين (الحجرات) لاصفين بالمسجد : ليسكن فيهما مع أسرته التي نعت زيدا ، متبناه ، في طلبها من مكة . فلما تم بناء هذين المنزلين انتقل إليهما من بيت أبي أيوب ، وما لبث أن لحقت به أسرته .

أما المهاجرون فقد أضافهم الأنصار الكرام الذين اقتسموهم بينهم ، فعاد كل منهم فحوراً بضيقه الذي بعث القدر به إليه .

وقد تأثر محمد تأثراً عظيماً لذلك الاستقبال الأخوي الذي حظى به المهاجرون لدى هؤلاء الأتباع الحدد ، ولكن بصيرته النفاذة إلى ما تنطوى عليه النفوس جعلته يعمل على توثيق رباط تلك الصداقة المؤثرة ، كي تستطيع مقاومة روح التنافس ، تلك الروح التي لا بد أن تنشأ يوماً بين المهاجرين الذين ضحوا بوطنهم وبأمرهم وورثتهم وبكل شيء ليتبعوا النبي ، وبين الأنصار الذين آووه ونصروه . أليس لكل فريق حقوقه وحججه و المطالبة بالمكان الأول من عطف الرسول ، وبالصدارة في الإسلام . وفي سبيل دمه تلك الاحتمالات الخطيرة ، وفي سبيل تكوين أسر حقيقية للمهاجرين . انتهز محمد فرصة الحساس الذي لا تشوبه شائبة ، الذي جمع بقوة بين المهاجرين والأنصار ليقرر بينهم أخوة كاملة ، وتم له ما أراد فأخى بين المهاجرين والأنصار ، اثنين اثنين ، وقال لهم : تأخروا في الله ، أخوين أخوين . ومنذ ذلك اليوم أصبح كل مدني له أخ مكّي .

ومن العبث أن نحول التعبير بالألفاظ عن مقدار ما وصلت إليه من الإخلاص والسمو تلك لأخوة في الله ، تلك الأخوة التي هافت أخوة الدم لأنها دينية سماوية ، فكل تلك القلوب التي تأخت في حب الله لم تعد إلا قلباً واحداً قريباً بحقوق في صلور عديدة . كان كل أخ يحب لأخيه أكثر مما يحب لنفسه ، وقد رأيت في أوائل أيام الهجرة أن الذين يموتون إنما يرثهم إخوانهم دون أهلهم وورثتهم من النسب .

ومن بين تلك الأسر الأخوية نذكر ، على الأخص ، أخوة أبي بكر وسارحة

ابن زيد ، ثم أخوة عمر وعثمان بن مالك ، ثم أخوة عثمان بن عفان وابن النجار ، وأخوة أبي حبيدة وسعد بن معاذ . وقد اختار الرسول أن يكون على بن أبي طالب أخاه . فثبت بذلك هذا التآخي الذي أعلنه في أوائل بعثته . ولكن علياً كان من المهاجرين ، فحشى الرسول أن يعصب الأنصار لأنه لم يختار أحداً منهم . فلما مات أسعد بن زرارة ، وكان من نقباء الأنصار شغل الرسول مكانه بحجة أنه منهم ، وذلك لأن حاله كان يقطع المدينة .

وهكذا بفضل فهمه للنسبة الإنسانية ، وبفصل سياسته البارعة ، توصل محمد إلى تقيحة عظيمة لخطر : لم يكده بدخول المدينة حتى كفف الخزرج والأوس عن حروبهم الداخلية الدامية ، كفوا عنها وكأنه قد مسحهم بعصاه السحرية ، فجعل من أهل المدينة إخوة ، وكانوا أحزباً متنافسة .

القبلة :

كان الرسول في أول عهده بالرسالة يترك المؤمنين حرية اختيار قبلتهم في الصلاة وذلك لأن :

«لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ» ، فَأَيْنَمَا تَوَلَّوْا فَجْهَ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ .

[سورة البقرة ، ١١٥]

وبينا الرسول يوشك أن يتم مسجده الأول إذ أحس بمقدار التسامى والجمال الذي سوف تحصل إليه الصلوات ، إذا ما اتجهت القلوب كلها نحو وجهة واحدة ، فاتحدت النفوس في مثل أعلى واحد نشأ عن ذلك الاتجاه الواحد ، لذا عمد إلى قالب مصنوع من الحجر والطين ووضع ملامحاً للحائط لشمال من أبيه وبه عين القبلة الأول ، وكانت بيت المقدس ولكن الوحي أمر بأن تكون القبلة مكة :

«قَدْ نَرَى تَغَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ» ، فَلَتَوَلَّيْنٰكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ، قَوْلُ وَجْهِكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ .

[سورة البقرة ، ١٤٤]

ومذ ذلك اليوم ، ومكة هي القبلة الثابتة لجميع مسلمي العالم

الأذان :

الصلاة الجامعة هي بلا شك أكثر الصلاة بعبادة ، وفيها يسرى الإخلاص والنجس من روح كل مسلم إلى روح جاره ، ولقد قال عنها الرسول : إنها تعدل الصلاة المنفردة سبعاً وعشرين مرة . فمن لم يهتم إذن ، والأمر كذلك ، جمع كل المؤمنين في وقت محدد ، خمس مرات في اليوم .

ولكن كيف يعدلون الوقت محدد لاجتماعهم ؟ لأن أكثرهم مشغولون في كل أحياء المدينة . فيصل بعضهم مسكراً ، ويصل البعض الآخر متأخراً ، فيجتمع مجلس من رؤوس المسلمين للتشاور في الأمر ، يصح بعضهم بإشعال نار تصبى فوق علم وتجعل كإشارة للاجتماع . واقترح بعضهم أن يستعمل بوق كبير . ورأى آخرون أن خبر وسيلة هي دف النواقيس . ولكنهم عدلوا عن كل تلك الاقتراحات لأنها كانت تشبهها بغيرهم من المرص أو اليهود أو من المسيحيين . وبينما هم كذلك إذ أقبل عليهم عبد الله بن زيد فحكى لهم رؤيا رآها في الليلة السابقة .

« مر بي رجل عليه ثوبان أحضران ، يحمل ناقوساً في يده . فقلت له : يا عبد الله أتبيع هذا الناقوس ؟ قال : وما تصنع به ؟ قلت : بدعو به إلى الصلاة . قال : أدلا أدنك على خير من ذلك ؟ أن تشهد شهادة الإسلام . »
وفض الرسول إلى ما للصوت الإنساني من تأثير سبب عاطفة وهو في تأثير أجمل الآلات المعدنية . فقال « إنها لرؤيا حق إن شاء الله ، فقم مع بلال فألقها عليه فليؤذن بها : فإنه أدنى صوتاً منك . »

فقام بلال عبد المحرر يؤدي مهمته ، فيجمع للصلاة المسلمين على اختلاف طبقاتهم وأجاسهم ، وعمد إلى سطح المسجد فصاح منه بذلك النداء الصادر من أعماق الروح الإسلامية :

« الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، حي على الصلاة ، حي على الصلاة ، حي على الفلاح ، حي على الفلاح ، الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله . »



كانت هذه الخدمات حارثة من قم بلان في قوة وانسجام كأنها المياه المطهرة
سبل من إبريق نقيس . وكانت منتشرة في جميع أرجاء المدينة مساة داخل
المساكن . وكان المؤمنون يأبسون سرعاً ، أواجاً أواجاً ، ليتنسموا في لذة ، طيب
الصلاة المعش .

ومد ذلك الحب من أقصى المنارات المرتفعة الرشيفة في جميع بقاع العالم يدعو
المؤذن للصلاة خمس مرات في اليوم .

صوم رمضان :

بعد أن احتار محمد الأذان بداء للصلاة أخذ — وهو في مستهل عهده بالمدينة —
في تحلب الفروض الدنية .

لقد كان من عادته أن يصوم ثلاثة أيام من كل شهر ، فزل عليه الوحي
بما يأتي :

«شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى
وَالْفُرْقَانِ ، فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ، وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى
سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ، يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ ، وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ،
وَلِتُكْمِلُوا الْعِلَّةَ ، وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَذَاكُمْ ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » . وَإِذَا
سَأَلْتُمْ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ، أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ، فَلْيَسْتَجِيبُوا
لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ » .

أَجِرْ لَكُمْ لَيْلَةُ الصِّيَامِ الرِّقَّةُ إِلَى نِسَائِكُمْ ، هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ
لِبَاسٌ لَهُنَّ ، عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا
عَنكُمْ ، فَالآنَ بَاشِرُوهُمْ وَأَبْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ، وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى
يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ، ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ
إِلَى اللَّيْلِ ، وَلَا تَأْشُرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ . تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا
تَقْرُبُوهَا ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » .

بهذه الآيات فرض صوم رمضان ، وكانت نتيجة هذه الفريضة الخير الكثير ، ذلك أن الإنسان - وهو مجبول على الأنانية - يبحث عن كل ما يُلذ له مادياً ، ويتجنب كل ما من شأنه أن يكون من حظ الفقراء الضعفاء ، وليس هناك من علاج لهذه الأذنية سوى الشعور القوى بنؤس الآخرين من جوع وظلم .

واؤمّنون - وقد تخففوا من ثقل الطعام - يجتمعون أثناء النهار ، فيتزودون بالعناء الروحي الذي نحمله إليهم صلواتهم ، وإن شوقهم إليه لأشد من شوقهم إلى الغناء المادي .

ومع ذلك فإن الإنسان ، في جو المدينة الملتهب ، يشعر شعوراً قاسياً بالظلم أثناء أيام الصيف التي لا تكاد تنتهي ، وإن بعض المزمّنين - وقد جفت حناجرهم ظمأ - ليلتهون ويوشكون أن يقطعوا صومهم عند مظهر الماء الباورى الصافي يسيل من السواقى ، يساب في صوب حافى معرٍ ، ولكنهم يبطرون إلى إخوانهم ذوي العزيمة القوية ، فتعود إليهم شجاعتهم ، ويواصلون صومهم ، وتتقوى بهذه الرياضة الروحية أواصر الأخوة بينهم ، وينتصر المؤمنون متعاونين على هذا العدو الشرس ، أعى الجوع وانظماً ، فيصبحون أكثر استعداداً وأوثق تعاوناً لخباية أشد أعدائهم مراساً من بنى البشر .

ويستمر المهاجرون والأنصار على هذا الوصف ثلاثين يوماً دون تألم أو صجر ، بل في تحمس متزايد ، ثم ها هو ذلكم الهلال يوشك أن يرى غتملى سطوح المنازل وتكتظ قمم الآكام بالمؤمنين لرؤيته ، ها هو ذا قرص الشمس الذهبي يحتفى وراء الأمواج الزرقاء في آفاق الصحراء العيدة ، فتتطلع الأعين قلقة باحثة في أعماق السماء الصافية كأنها «رمرد» ، وهجأة في الثلث الأسفل من القبة الزرقاء يرسم قوس فضي دقيق . . . إنه الهلال . فتتنمس الصدور في عمق متهددة ، كأن سهاماً خفية سددت إليها صادرة من هذا القوس .

وبكنه ليس تنهد فرح يصدر عن هؤلاء المزمّنين ، بل تنهد أسف على انقضاء شهر الصوم في سرعة سريعة .

إن هذا الصوم تضحية بسيطة تقدم شكراً للاح العم وهذا الاحتيار الديني

التعبى يحيى الأرواح ويفوق الأجسام ولأجل أن يعبر المؤمنون الصحراوات
الرهيبة التي تحيط بهم لفتح العالم ، كى تكون كلمة الله هى العليا ، كان لا بد لهم
من هذا التدريب الذى يعتبر هيناً بالنسبة لما سيلاقونه من الشدائد فى فتوحاتهم
ولما قلر المؤمنون نعمة أعداء ، بعد الحرمان ، حق قدرها ، فرص الله عليهم
زكاة الفطر ، وهى حق معلوم فى مال الأثرياء للفقراء

الزكاة ونحرىم الخمر :

ولما كانت تعدية الفقراء يوماً واحداً فى العام ، وذلك عقب الصيام ، لا تكفى ،
فرض الله - تعالى - زكاة الأموال . وهى جزء ميسور يؤخذ من أموال الأعياء
ويعطى للفقراء ، وينالك يضمن المجتمع الحياة لهم
هذه الزكاة ، التى هى أحد أركان الإسلام الخمسة . تجب على الثروة النابتة
وعلى الدخل ، سواء كان ذلك ذهباً أو فضة أو أثماناً ، أو فواكه ، أو زرعاً
فيؤخذ جزء من ذلك يتراوح بين العشر وربع العشر معونة للفقراء كل عام ، ويجب
أن يعطى فى رقة بالغة وفى تواضع تام .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْذِرُوا صُدُقَاتِكُمْ بِالْأَذَى ، كَالَّذِي
يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ (١) النَّاسِ ، وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ
صَفْوَانَ (٢) عَلَيْهِ تُرَابٌ فَاَصَابَهُ وَابِلٌ (٣) ، فَتَرَكَهُ صَلْدًا (٤) ، لَا يَقْدِرُونَ عَلَى
شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا (٥) ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ .

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَشْفِيتٍ مِنْ أَنْفُسِهِمْ
كَمَثَلِ حَنْةٍ بَرَبْرَةٍ (٦) أَصَابَهَا وَابِلٌ ، فَآتَتْ أَكْثَلَهَا ضِغْمِي ، فَإِنْ لَمْ
يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌ (٧) وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

[سورة البقرة ، ٢٦٤ - ٢٦٥]

- | | |
|--|-----------------------------|
| (١) مرايا هم | (٢) حبر أندس . |
| (٣) مطر شديد . | (٤) صلباً أملس لا شئ عليه |
| (٥) عمدوا . أى لا يجدون له ثواباً فى الآخرة كما لا يوجد حل الصفوان شئ من التراب الذى كان | (٦) مكان مرتفع |
| عليه لإدحاب المطر له | (٧) مطر خفيف . |

«إِنْ تُبْدُوا لَصَلَفَاتٍ فَحَيْثُ هِيَ ، وَإِنْ تُحْمَوْهَا وَتُوتَوْهَا الْفُقَرَاءُ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَيُكْفَرُ عَنْكُمْ مِنْ مِثْلَاتِكُمْ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ *»
[سورة البقرة ٢٧١]

«لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا^(١) فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحَسِّنَهُمْ الْجَاهِلُ غِييَاءً مِنَ التَّعَصُّبِ ، تَعْرِفُهُمْ بِسِيَاهِهِمْ ، لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا . وَمَا تُفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ *»
[سورة البقرة ٢٧٣]

«لَنْ تَسْأَلُوا بِرَّ حَتَّى تُفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ، وَمَا تُفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ *»

[سورة آل عمران ٩٢]

«إِسْمًا لِلصَّدَقَاتِ : لِلْفُقَرَاءِ ، وَالْمَسْكِينِ ، وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ، وَالْمَوْلَمَةِ قُلُوبِهِمْ ، وَفِي الرِّقَابِ ، وَلِلْعَامِينَ ، وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَابْنِ لِسِيلِ فَرِيضَةٍ مِنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ *»

[سورة التوبة ٦٠]

هذه الآيات فرصت الركاه ، وبعثها الحرقى : التطهير ، أى تطهير الثوب وحبها طيبة مقوله

ولما كان للحمر تأثير هدم على العام حرمها الله تحريمًا تامًا^(٢) ، وقد رل على الرسول - صلى الله عليه عليه وسلم - أولا الآية الثانية

«تَسْبَأُ بَوْلَكَ غَيْرَ هَحْمَرٍ وَالدَّمَسِيرِ ، قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَثِيرٌ وَمِمَّا يُسَاسُ ، وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ..»

[سورة البقرة ٢٠٩]

(١) حيروا أنفسهم على الجهاد

(٢) الحمر : ذلك هو الدماء المنية ، وهو أحد الأمور من الاحتججه الوبيقة في عصره الحاصر على أن محمداً هو الشخص الوحيد الذي أحس بأذى السبي الشديد للحمر في النفوس فحارب حتى حرمه تحريمًا تاماً ، وقد بر في ذلك قورا كبراً

حده ذلك تركه بعض المزمين استعمال الخمر ، ولم يجد الآخرون العربية القوية على تركها . فنزل الوحي ثانياً بإصدار الثاني .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُؤُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ »

[سورة النساء ٤٣]

وقد كـ على سبب في نزول هذه الآية ، فقد أكثر ذات يوم من الشرب ، ولما حان وقت الصلاة قرأ : « يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ، نحمد ما تعدون » بدل أن يقرأ : « قل يا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * »

ثم نزل التحريم صريحاً رادعاً

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، إِنَّمَا الْخَمْرُ ، وَالْمَيْسِرُ ، وَالْأَنْصَابُ ، وَالْأَرْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ، فَاجْتَنِبُوهُ ، لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ * ،

[سورة المائدة ٩٠]

« إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ »

= « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ ، وَالْمَيْسِرُ ، وَالْأَنْصَابُ وَالْأَرْلَامُ ، رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ، فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ » . إِنَّهُ يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ، وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ، وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ؟ * [سورة المائدة]

نعم إن من المسلمين من لم يعمل بذلك ، فهو يخالف الدين في محرم الخمر بحريماً قاطعاً . غير أن الكثيرين من هؤلاء قد تركوها ثم تبرأوا ، وهم لم يعملوا ذلك إلا بتأثير الدين معه و ما جاء فيه من النهي عن الخمر ولأمره بتحريمه ، في حين أنه لم يسمع أن أحداً من المسيحيين الذين يسمون الخمر قد تركها أو جمعها .

ولا يخفى أن لأدجيل المسيحية ذكرب أن المسيح في أفراح « قانا » ملا من الجليل متراً من قدر الماء ، تسع كل واحدة منها ما يقرب من صيني إلى تسعين تراً مكتوباً بالحجر .

كما أن الكنيسة قد جمعت « موبك » لأربعة في عدد القديسات ، مع أنها كانت من عذبات الخمر ، كما ذكر عنها ذلك . ولقد نعت القديس « أوغسطين » في اعترافاته الذكور بيشيه سجنه في كـ ، « جرد يدور » (عن أشعة حاصه يدور لاملام)

وَالْمَيْمِرَ وَيَصَدِّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ، قَهْلَ أَنْتُمْ مُتَّهَوْنَ ؟
وَأَطِيعُوا اللَّهَ . وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .

[سورة المائدة ، ٩١ - ٩٢]

بناء الرسول بعائشة :

لقد بلغت عائشة حداً من الظرف والدكاء والثقافة لا يكاد يصارع ، ولم يكن الرسول ، إذ ذاك ، قد دخل بها .

وتحدثنا عائشة بقصتها فتقول :

« دعتنى أمى ذات يوم ، وكنت فى أرجوحة ألعب مع صاحبائى ، فلبيت نداءها دون أن أعرف ما تريد ، فأخذتنى من يدى ، تقودنى ، حتى وقفت بى عند الباب ، وإنى لأبهج ، حتى سكن نفسى ، فسحت وجهى ورأسى بشئ من الماء ، ثم أدخلتنى الدار ، فإذا نسوة من الأنصار فى البيت ، فقلن : على الخير والبركة ، وعلى خير طائر ، فألسننى إليهن ، وأصلحت من شأنى ؛ يوماً إن انتهين حتى دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءة . »

عداوة اليهود والمشركين :

فى مبدأ الإسلام تأثر بعض اليهود بما فى الإسلام من روعة ، وبما فيه من حجاج مستقيمة فأسلموا على يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن هؤلاء العالمان : خبريق وعبد الله بن سلام .

أما الآخرون فلوهم لما رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يتجه فى صلاته إلى هيكل سليمان جدهم العظيم أرمى ذلك كبرياءهم ، واعتقدوا أن معبدهم أسمى بكثير من معبد مكة . واعتقدوا ، من حراء ذلك ، أن الجنس اليهودى يتفوق تفوقاً عظيماً على الجنس العربى .

ولما أمر الله رسوله أن يولى وجهه شطر المسجد الحرام ، انقلبوا على أعقابهم مغضبين . ثم إنهم - فضلاً عن ذلك - لم يلبثوا أن شروا بأن يحيى محمد إلى المدينة كان مضراً بمنافعهم الانتهازية ، فالفضل يرجع إلى محمد فى إعادة السلام والصفاء إلى الأوس والخزرج ؛ وقد كان اختلافهما فيما مضى يعتبر من الفرص الطيبة بالنسبة

للـيهود . على أن هذا الرسول الذى بشرت به كتبهم ، والذى كانوا يعلقون عليه آمالا واسعة ، والذى يعرفونه إذ ذاك ، كما يعرفون أنسائهم هذا الرسول لم يكن من ذرية آبائهم وأجدادهم : إنه من ولد إسماعيل .

وها هو ذا ، يحمل سراج الإسلام انير ، محاولوا ، بكل ما أوتوا من وسائل ، أن يطفئوا نور الله .

ولكنهم رأوا أنهم اضعف من أن يقفوا أمام تبار الإسلام ، محاولوا أن يثيروا الخلافات بين عرب المدينة ، ووجدوا عوناً قيماً من بعض أشراف المدينة :

كان بعض أشراف المدينة ضيق النفس لما أتى به القرآن من مبادئ المساواة . وكانوا يعتقدون — فى جاهليتهم العمياء — أن من الضعة أن يقفوا على قدم المساواة مع من كانوا يحقرونهم من الفقراء والمساكين .

هؤلاء الأعداء الحدد الدين سموا فيها بعد بالمنافقين ، كانوا يتظاهرون بالإسلام ، ويختلطون بالمسلمين المخلصين فيعرفون أسرارهم ، ويلغونها — مقابل أحرار — لليهود والمشركين .

الجهاد :

شعر الرسول حينئذ أنه لا بد من الاتعاج — وى سرعة — إلى السيف لانتصار الإيمان ، هذا الانتصار الذى لم تنوطد أركانه إلا بعد فتح مكة حيث اكتمت المقدسه عند العرب . ولقد تلقى الرسول الوحى باستعمال السيف فى جهاده ضد الوثنيين

« وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ، وَلَا تَعْتَدُوا : إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . » « وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ، وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجْتُمُ »

[البقرة ، ١٩٠ — ١٩١]

ثلاث هى الآيات التى فرضت الجهاد ، واتى أثارت ، من جانب المسيحيين حاصفة من اعتد :

بيد أن المسيح نفسه ، وهو سيدنا وسيد المسيحيين ، يعلن : « لا تظنوا أنى جئت أنشر السلام على الأرض ، إني لم آت أحمل السلام ، وإنما السيف » . (إنجيل متى ، الإصحاح العاشر ، ٣٤) .

« بنى تحت لألقى النار على الأرض ، وماد أريد من ذلك إلا شتعالها » .
(إنجيل لوقا ، الإصحاح لثاني عشر ، ٤٩) .

وإذا كان الجهاد من أجل بصره الحق على الوثنية ، قد أثار ، أثناء بضع
سنوات ، الاختلاف في أسر مواطي الجزيرة ، فما ظمت بكلمات عيسى ، وهي
الأمرة بالاختلاف أمراً ، ألم تسع نتائج مفرقة لدى كل الطوائف المسيحية أثناء
عصور متطاولة ؟

« إذ أنى جئت لأفرق بين الولد وأبيه ، والبست وأمهها ، وبين زوجة الابن وأمه » .
(إنجيل متى ، الإصحاح العاشر ، ٣٥) .

« إن كان أحد يأتي لي ولا يهضم أمه وأمه ، وامراته وأولاده ، وإخوته وأخواته
حتى نفسه أيضاً ، فلا يقدر أن يكون لي تلميذاً » . (إنجيل لوقا ، الإصحاح
الرابع عشر ، ٢٦) .

على أن الجهاد لم يشرع من أجل أعداء الدين وحسب ، وإنما شرع أيضاً
صد هذا العدو العادر الذي يحمله الإنسان بين جوانحه ، وفي ذلك يقول رسول الله
صلى الله عليه وسلم — ما معناه : « إن الجهاد حقاً هو جهاد النفس » .

لقد صبر محمد طويلاً ، وصبر المؤمنون معه كذلك حقبة طويلة على إيذاء
المشركين ، الذين أخرجوهم من ديارهم بعد أن أدقوهم فيها ألیم العذاب فرأى
المسلمون مزيدين بالقرآن — أن طم الحق في استعمال السيف دفاعاً عن
أنفسهم .

كان موقع المدينة يساعدهم على النصر ، ذلك لأنها تسيطر على كل الطرق
التي تمر بها القوافل إلى سوريا ، وكانت التجارة المورد الوحيد بمكة المحوطة بحد
عير ذي ررع ، فإذا ما منع الرسول هذه القوافل فلا بد من أن المجاعة ستعود هذه
البلدة المجاعة وتضطرها إلى الالتياح حاصبه للرسول دون أن يلجأ إلى إزاحة دماء
قومه المكيين ، الذين كان يحافظ عليهم ، رغم إيدائهم له ، والذين كان يود
لهم خير ، أملاً في أن يهتدوا يوماً ، فيكون مهم الأسس الإسلامي الوطيد .

عندئذ بدأت السلسلة الطويلة من السرايا والعزرات ، والفرق بينهما ، أن الغزوة
كان يقودها الرسول بنفسه ، وأن السرية كان يقودها أحد أتباعه . وستحدث هما عن

أهم «عزوات» فحسب ، تاركين كل ما تعتبر أهميته أمراً ثانوياً ، ومن أجل ذلك سنبداً مباشرة بغزوة بدر الشهيرة

غزوة بدر (سنة ٥٢ هـ ، ٦٢٤ م) :

ألف المكبوت قافلة ، عامة في الأهمية ، سر فيها ألف حمل ، مثقلة بالتجارة إلى سوريا ، حيث تعود محملة بأنفس انضمت وأثمنتها ، فأنسحت بذلك الفرصة التي كان ينتظرها الرسول .

فقد أن الرسول تمكن من الاستيلاء على هذه القافلة لقضى - في سرعة سريعة - على هؤلاء الذين يعرفون ، ولتجنب إراقة الدماء ، إذ أن حماية القافلة لم تكن تزيد على أربعين رجلاً ، وهؤلاء ، وقد رأوا أنفسهم أنهم أضعف من أن يقاوموا ، كانوا يضطرون للتسليم .

ولكنه لم يترك القافلة ، عزم على أن ينير عليها في العودة ، وترك أحد أساعه ليرقب الطريق ، ودامت يوم جاء هذا الشخص يعلن أن القافلة على وشك أن تمر بمحاذاة المدينة سائرة في طريقها العادي بين الحبل والبحر .

فندب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المسلمين ، فيها دون تمرة بينهم ، ولبي المسلمون النداء - فبلغ عددهم أكثر من ثمانية ، وكلهم رغبة في أن يديقوا المشركين مثل ما أداقهم من عذاب .

كان في هذه الحملة ثلاثة وسبعون من المهاجرين ، ومائتان وأربعون من الأنصار وكانت الإبل يومئذ سبعين بعيراً تحمل الماء وراة ، وبعضها المشاة . ولم يكن معهم سوى أربعة أفراس ، منها فرس لمحمد ، يقال له « سبي » وفرس الزبير ، يسمى « ابغسوب » . وكانوا يقودون هذه الأفراس دون أن يركبوها ، وذلك لإعدادها ، مستريحة ، ليوم التزل . ورفع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - اللواء إلى مصعب العبدري ، أما لواء الأنصار فقد حملة سعد بن معاذ .

على أن تهية مثل هذا العدد الكبير لا يمكن - للأسف - أن تبقى سرية ، ولقد لاحظ المنافقون واليهود كل الخطوات التي قام بها محمد - لقد أحسوا بما يعلو ، وأحسوا بالهدف الذي يسعى للوصول إليه ، فأرسلوا رسلهم إلى أبي سفيان رئيس القافلة ، يشنون الخطر الذي يتهلده ، فأرسل إلى مكة صمضم بن عمرو الغفاري ،

وأمره أن يأتي قريشاً فيستنصرهم إلى أموالهم ، ووعدته بجائزة قيمة إذا أسرع ، إنقاذاً للقافلة .

كان المكيون قد ساهموا جميعاً ، كل بحسب ثرائه ، في تجهيز هذه القافلة التجارية العظيمة ، وكانوا ينتظرون بفارغ الصبر عودتها ، وينعمون مقدماً بالآمال العذبة فيما ستلذه عليهم من ربح عظيم ، وكانوا يخرجون جماعات في كل ساعة من النهار إلى أبواب مكة ، يمدون أيديهم إلى بطون الوادي الذي يشقه طريق سوريا على أمل أن يروا بعض رسل القافلة .

ودات يوم رأوا عن بعد رجلاً على ناقته الضامرة السريعة يسير في اتجاههم . وحيناً قرب بحيث يميزون مظهره ومنظر ناقته ، بلغت بهم الدهشة حدّاً عظيماً ، كان ذلك الشخص هو ضيفهم ، قد شق قميصه ، وشق أدف بعبه ، وقطع أذنيه ، وحول رجليه . وما إن قرب منهم متعباً مجهداً لاهثاً ، حتى أخذ يصرخ :

يا معشر قريش ، اللطيمة اللطيمة (١) .

وأسرع القريشيون يحيطون به ، تهال عليه الأسئلة من كل جهة . فما كاد يستمق حتى قال لهم : أموالكم مع أبي سفيان ، قد عرض لها محمد في أصحابه ، لا أرى أن تتركوه ، الموت ، الفقر ، فامتلؤوا غبطةً وغبساً . لقد كانوا منذ لحظات ، يسعدون بالخيال ، ينحنيهم بما سيصنعون بمكاسبهم النفيسة ، وما هو ذا محمد ، الذي كانوا يظنون أنهم قد تخلصوا منه نهائياً ، يهددهم بالحرب والدمار .

واجتمع كبراؤهم في سرعة ، وقرروا أن يسرعوا في مناهضة محمد قبل أن تفوت الفرصة . وكان أشعور العام يوحى بهذا الرأي ، فقد كان الكل مستعداً لأن يضحى في سبيل إنقاذ القافلة ، بالنفس وبالمال . وتألف جيش بأقصى سرعة ، يتكون من سعمائة وخمسين رجلاً يفودون مائة فرس ، وسعمائة جمل وخرجت حملة المشركين من مكة ، فودعتها عاصمة حارة من السلام والدعاء ، وكان يتقدم الحملة صرب من انصبابا المغنيات ، لامعات كأنيهن الشموس ، مشرقات الوجه كأنهن الأقمار ، يمترن بأعين رجل . ملاسهن موشة ، يكاد ما عليهن من ذهب وزينة

(١) أي أدركوا اللطيمة ، وهي العير التي تحمل اللبن والير .

يدهب بالأصار ، يعنين بشعر فيه ذم المسلمين ، أو يشدد أشعار الحماسة ، صاريات بالدعوف في لحن متعجم يبعث التحمس في النفس ، ويثير العواطف في قلوب المحبين .

ورين الشيطان للمشركين أعمامهم ، وأوحى إليهم بأحلام المصير . وماذا على الشيطان لو هزموا ، سوى أن يتركهم وحزبهم ؟

«وإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ، وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ ، وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ ، فَلَمَّا تَرَ اتِ الْفَيْثَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ ، وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ ، إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ ، إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ، وَاللَّهُ شَعِيدُ الْعِقَابِ » .

[سورة الأنفال : ٤٨]

على أن الرسول لم يكن يعلم قط شأن حملة قريش . وبعد أن تزود في طريقه من ماء الروحاء سار حتى نزل بالصرماء ، ثم بعث بسبس بن الجهمي وعدى بن أبي الزعراء إلى بدر يتحسنان له الأخبار ، ثم ارتحل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى أتى على وادي يقال له : دفران ، فأقام به .

وفي الصباح المبكر من الغد ارتحل رسول الله من دفران ، وسار حتى نزل قريباً من بدر ، وكان بسبس وعدى قد مضيا حتى نرلا بدرأ ، فأناحا إلى تل قريب من الماء ، فوجدوا امرأتين تملآن حراهما وتشارعان بصوت مرتفع ، إحداهما دائئة والأخرى مدبنة ، قالت المدبنة

اصبري قليلاً فعداً أو بعد غد تأتي العير . فأعمل لهم وأقصبك دينك . وكان على الماء مجدى بن عمرو الجهمي ، فقال لها : صدقت . ثم تخصص بينهما سمع ذلك عدى وسبس فجدسا على تعيريهما ، ثم نطلقا حتى أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحراه بما سمعا ، وكان ذلك موافقاً لحسه .

بيد أنه بعد لحظات أتى إلى الرسول شخص كان النبي قد أقامه بمكة بتحسب الأخبار . أتى يحمل أخباراً مزعجة ، أتى ينفي الرسول بأن المشركين يسرعون للحظ لإنقاذ القافلة .

اهتم محمد بالأمر اهتماماً كبيراً ، وأخذ يتساءل :

ماذا يكون موقف المسلمين ، وقد خرجوا للقاء الفاعلة فحسب ، حينها يرون أمامهم قوى هائلة تهوقهم عدة وعدداً ؟ أيتزعزعون ؟ أيفقدون تحمسهم خشية العدو ؟

ومع هذه الاحتمالات لم يرد محمد بن يحيى عنهم خطورة الموقف . لذلك جمع رؤساءهم وكاشفهم بحقيقته الأمر ، وأخذ يستشيرهم في مفاتلة لغير أو التعبير ؟ وساد الصمت ، وانتاب القوس شيء من التردد .
وإنا نعتزف بأن الأمر في المعجم كان يضيف حذيفة وسحرأ إلى الرعة في ينزل العقاب بالمشركين . وقال أحد الحاضرين
ألى مذممة إدن تقودنا ؟

وقابل القرآن هذا الموقف برجر قاس :

« وَإِذْ يَبْعُدُكُمْ اللَّهُ لِخَذَى الطَّاغُوتِينَ أَنَّهَا لَكُمْ ، وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ دَاتِ اشْوَكَةَ تَكُونُ لَكُمْ ، وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ »

[سورة الأنفال ، ٧]

قام على الفور المقداد بن عمرو ، وقال محتجاً في قوة :
يا رسول الله ، امض لما أراك الله ، فحق معك ، والله لا نقول لك كما قالت
سو إمراتل لموسى :

« ذَهَبَ أَنتَ رَبُّنَا فَقَاتِلْ ، إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ »

وبكر . اذهب أنت وربك فقاتل إنا معكما مقاتلون ، والذي نعتك بالحق ،
لو سرت ما إلى شرك العباد . لحاننا معك من دونه حتى تملعه . هاركة الرسول
ودعاه له بحير

ثم قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم « أشبهوا علياً أيها الناس » . وإنما
يريد الأنصار ، لا احتمال أنهم يعتقدون أن بيعة العقبة لا تدرهم بشيء آخر غير
حماية الرسول ما بقي في المدينة .

فلما قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال له سعد بن معاذ وقد أحزبه أن يوضع لإحلاص الأنصار موضع الشك والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال : أجل .

قال سعد . فقد آمنا بك وصدقك ، وشهدنا بأن ما حثت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا ، على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت . فبحن معك ، والذى بعثك بالحق ، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخصمنا معك . ما نخلف من رجل واحد ، وما نكره أن نلقى بنا عدونا حذاً . إنا لصبرٌ في الحرب ، صدقٌ في اللقاء ، لعل الله يربك منا ما نقر به عيناك فسر على بركة الله .

أراح هذا القول الرسول محمد كان يحامره من قلق ، وسره ذلك وبشطه فأشرق وجهه مصيئاً بعاطفة من الرضى ، وينور من الإلهام ، وكانت عيناها تتحدقان في مطر لا يراه غيره ، وقال . أشيروا أيها الناس : إلى لأرى الموقعة . وقد التحم السريقان ، وها هي تلك فلول الأعداء تولى مهزمة .

فهم الكثر أنهم على أبواب المعركة ، فأخذوا يستعدون لها ، في ثمة وفي إيمان .

أما أبو سفيان ، فإنه حينئذ عزم بحروج الرسول لملاقاته أخذ حبله وأسرع الخطى ، وتقدم الركب ، فوصل إلى سر بعد دهب سس وعدى مباشرة تقريباً وكان لا يزال مجسئ بن عمرو عسئ الماء ، فسأله أبو سفيان . هل أحسست أحداً ؟ فقال : ما رأيت أحداً أنكره إلا أنى قد رأيت راكبين قد أناسا إلى هذا التل ، ثم استقيا في شس^١ (١) لهما ، ثم انطلقا .

فأتى أبو سفيان مسحهما ، فأخذ من أعاربغيريهما ففته فإذا فيه انوى ، فقال : هذه والله ثلاثف يتوب .

فرجع إلى أصحابه سريعاً ، فحضر وحه غيره عن الطريق ، وأحد بها جهة الساحل ، وترك مدرأ عن يساره ، وانطلق حتى أسرع ، وبهذه الطريقة أفلت من حنله الإسلام .

ولما اطمأن وأمن أرسل إلى قريش . « إنكم قد حرجتم لتسمعوا غيركم ورجالكم وأموالكم ، فقد نجت ، فارجعوا » .

فقال أبو جهل — متأثراً بحقده النقيض — : « والله لا يرجع حتى نرد يدرأ ، فنقيم عليه ثلاثاً فسحر الخزر ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر ، ونعرف عليه الغياض (١) ، ونسمع بنا العرب ، ونحسبنا وجمعنا ، فلا يرانوا بها بونا أبداً بعدها ، فامضوا » .
وملاهم كلام أبي جهل كبرياء وفخراً ، وسال لعابهم لذكر المآذب ، وكثوس الخمر تنوى مترعة ، فوقفوا على رأى رئيسهم ، وساروا إلى بدر .

وكان المؤمنون يتجهون إلى بدر أبصاً ، غير عالمين بما سيكون أيلتقون بالعير ، أم بالنصير ، أم بهما معاً فأرسل الرسول عليّاً والزبير يتعرفان الأحبار ، فلقيا شابين يبحثان عن آبار الماء ليملاّ السقاء المعلق بكتفيهما ، فأنيا بهما إلى معسكر المسلمين ، فسألاهـما ، ورسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قائم يصبى ، فقالا : نحن سقاة قريش ، نعدون نسقيهم من الماء . وكانت الدهشة في حشش المسلمين : أحقاً وصل جيش قريش إلى هذا المكان ؟

وبدا لهم أن هذا غير محتمل . ذلك لأنهم كانوا يجهلون ما تزودت به قريش من جمال تحمل أنقالهم ، ومن أفراس ، فأخذوا قول الشابين على أنه كذب ، فصرياهما راجيين أن يعترف بأيهما لأنى سفيان ، فلما اشتد بهما ألم الضرب قالوا نحن لأنى سفيان .

فلما اعترفا بهذا تركهما على والزبير ، مخورين لاحتقادهما أنهما ظفرا بالحق من بين شتى الأسيرين .

وركع رسول الله صلى الله عليه وسلم وسجد سجدة ، ثم سقم ، وقال : إذا صدقكم صرتموهما وإذا كذباكم تركتموهما ، صدقاً ، والله إنهما لقريش . ثم اتجه إليهما سائلاً :

— أخبراني عن قريش .

قلا : هم والله وراء هذا الكتيب الذي ترى .

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : كم القوم ؟

قالا : كثير .

قال : ما عدتكم ؟

قالا : لا ندرى .

قال : كم يسحرون من الإبل كل يوم .

قالا : يوماً تسعاً ويوماً عشرة .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : القوم فيما بين التسعمائة والألف .

ثم قال لهما : فمن فيهم من أشرف قريش ؟

فأخذا بذكران ألمع الأسماء في مكة .

فهز رسول الله رأسه في حزن ، وأقبل على الناس فقال : « هذه مكة قد ألقت

إليكم أفلاذكبدها » .

ومهما يكن من أمر فإن المقادير أرادت غير ما أراد المسلمون . لقد خرجوا

لمفاجأة قافلة تجارية ، لا يحميها سوى عدد قليل من احمقطين عليها ، فإذا بهم

يجدون أنفسهم وجهاً لوجه أمام عدو يفوقهم عدداً وعدداً ثلاث مرات ، ومزوداً

بسلاح من الفرسان خصير .

تحاه ذلك يجب — مهما كان الثمن — أن يسبق المسلمون إلى آبار بدر . فأخلوا

في السير حتى وصلوا إلى أعلى الوادي ، وكان الوادي من الجذب بحيث لم يجدوا به

قطرة ماء

ونفذ ما كان مع المسلمين من الماء فلما كان الغد بلغ بهم الظمأ حداً أليماً

من العذاب . وانهر الشيطان هذه الفرصة ، فوسوس إليهم . « انظروا إلى ما قادكم

إليه ذلكم الذي برعتم أنه رسول الله لندر ! ! ها هم أولاء الأعداء ، لا يحصيهـم

العد ، يحيطون بكم ، ولا ينتظرون إلا أن نحور قواكم من شدة العطش ، هيلتهموكم

البهام المريسة السهلة التي لا تجد من يحميها . وأخذت وسوسة الشيطان تدور

برؤوسهم . .

ومن حسن الحظ أن تعودهم الظمأ في صيام شهر رمضان قوى من صبرهم .

وفي الوقت الذي بلغت فيه الحرارة أشدها ، وأرسلت الشمس شعاعها كشواخد من نار ،

وكاد ينفذ مصر ، أرسل الله إليهم السحب تنوح انقسم والآكام ، وتضجرت من
الحيث المعش .

بهل المسلمون معه وعلوا وحضروا حمراً صديرة انملأت بالماء فمسلوا فيها ثيابهم
التي كانت تنضج عرقاً وتطهروا للصلاة ، ولم تقف فائدة المصير عند ذلك : فقد
كان طريقهم في «إحدى نيساً تعرض فيه الأقدام» ، فلد لهم انظر لأرض ، ولم
يمسحهم عن السير .

«وَيُرْسَلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءٌ لِّبَطْهِرْكُمْ بِهِ . وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ رِخْسًا
الشَّيْطَانِ (١) ، وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ ، وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ .»
[سورة الأنفال : ١١]

وعنى العكس كانت هذه العاصفة ، صرراً على المشركين : فقد أصحابهم منها
ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه . فقد كانوا في أرض سيحة ، وكانت إبلهم تتراق ،
وتعثر على الأرض ، وأرجحها الطويلة ممدودة وراءها في صورة تبعث على الضحك .
وكانت قوائم الخيل تعرض في الأرض وتعجز عن إخراجها ، ويحاول المارس تحييصها
من الأرض فتزنى عليه الفرس ، وساد الاضطراب وعت انموصى ، وعرق كل
ذلك من سيرهم ، وأنهك قواهم .

أما المؤمنون ، وقد تطهروا وانتعشت نفوسهم ، فلأنهم قصوا لينة في هدوء ،
مريحة ، حتى لقد أهملوا الحراسة واثقين كل ثقة فيما أحمر به الرسول من أن الملائكة
ستتولى حراستهم ، ولكن محمداً بقي ميقظاً ، مسغراً في الصلاة .

«إِذَا يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمَةً مُّثَّةً»

[سورة الأنفال]

رجاءت الساعة التي سينتفريها مصير الإسلام ، وكان ذلك يوم الجمعة السابع
عشر من شهر رمضان .

وكان الحباب بن المنذر مشهوراً بجودة «أرى وإخلاص» المصيبة ، فحاطب
رسول الله قائلاً : يا رسول الله أرايت هذا المنزل ، أمزلاً أدركه الله بس لنا أن
نقدمه ، ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأى واخرب والمكيدة ؟ فقال رسول الله بل الرأى

والحرب والمكيدة . فقال . يا رسول الله ، فإن هذا ليس بأمرل ، فانهض
بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم منزله ، ثم نغور^(١) ما ورءه من القُتُب^(٢) ،
ثم ننسئ عليه حوضاً فمملؤه ماء ، ثم نقابل القوم فشرب ولا يشربون .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . أشرب بالرأى . ثم أخذ رسول الله يهدد
البصيصة حطوه فحطوه ، وتحدد بذلك مكان الموقعة فسيصغر المشركون ، بلا شك ،
إلى الحصور لينارعو المسلمين على الماء ، فليس في الوادي غيره

وقام سعد بن معاذ ، فقال : يا بنى الله ، ألا نبى بك عريشاً^(٣) تكون فيه ،
وبعد عندك ركائسك ، ثم تلقى عدونا ، فإن أعزنا الله وأطهرنا على عدونا كان ذلك
ما أحسننا ، وإن كنت الأخرى حسنت على ركائسك فلحققت عن وراءنا من قوما ،
فقد تحيف عليك أقوام . يا بنى الله . ما نحن بأشد لك حساً منهم ، ولو ظنوا أنك
تلقى حرباً ما تحيفوا عليك ، يجمعك الله بهم ، يا صحوذك ويجهدون معك فأثنى
عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خيراً ، ودعا له بخير .

وقطع المسلمون عصود لأراك ، وألغوا بينها حتى صارت عريشاً ، فعطوه بأعواد
الطرفة . فأوى إليه رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يرافقه أبو بكر ، رضى الله
عنه . وأنت الطلائع الأول لفرسان الأعداء ، تسير في حيلاء ، على مرأى من
الرسول ، فلما رآه قال . اللهم هذه قریش . قد أقبلت بحيلائها ومخزها ،
تحاذيك^(٤) وتكذب رسولك ، اللهم همرك اندى وعدتى ، اللهم أحزنهم^(٥) الغداة

وتجمع لمشركون ، فبعد جهدهم بالأمن لينحلصوا من أحوال السبعة التي كانوا
بها ، ناموا ما بنى من ليلتهم . ثم استيقظوا وقد شعروا بظلماً شديداً وكانت
العاصمة من السرعة بحيث لم تبدأ «مصر» ، أما آبار الوادي فقد ردمها المسلمون ، فلم
يجد المشركون ماء يروى ظمأهم .

أشد بهم الظمأ ، ورأوا البساط الدئل مستشراً في الخوص اندى حصره المسلمون ،
وكاد شعاع الشمس الذى يعكس عليه يخطف أبصارهم ، فأثار ذلك من حصيلتهم ،
وحرك عرائرهم للانتقام . وأقبل نصر من قریش . معمدلين على سرعة أفراسهم —

(١) نطس ويردم
(٢) فيه خيمة يستظل به
(٣) (٢) الآر
(٤) تعاديت .
(٥) أهلكهم

حتى وودوا الخوص ، وفيهم حكيم بن حزام فأراد المسلمون أن يصوبوا إليهم سهامهم ، فقال - صلى الله عليه وسلم - دعوهم . فما شرب منه رجل يومئذ إلا قتل ، إلا ما كان من حكيم بن حرام فإنه لم يقتل ، ثم أسلم بعد ذلك ، فمحسن إسلامه^(١) .
أما الأسود المخزومي فقد ركبته كبريأؤه ، وأعجب بقوته ، فصرخ بحيث يسمعه المسلمون والمشركون قائلًا : وحق آلها ، وحق اللات والعزى ، لأشربن من حوصهم ، أو لأهدمنه ، أو لأأموتن دونه . فلما خرج ، خرج إليه حمزة بن عبد المطلب ، فلما التقيا ضربه حمزة فأطار قدمه بنصف ساقه ، وهو دون الخوص ، فوقع على ظهره ، ورجله تشعب دماً نحو أصحابه ، ثم حنا إلى الخوص في مهاره مدهشة ، وأصرع نحوه ، يريد أن يبر يمينه ، ولكن حمزة أدركه فقصى عليه .

وعلى إثر ذلك خرج ثلاثة من أبطال المشركين يدعون المؤمنين إلى المباراة الفردية ، وهم - عتبة بن ربيعة ، واسه الوليد بن عتبة ، وأخوه شيبة بن ربيعة . فأرسل إليهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عبيدة بن الحارث ، وحمزة ، وعلياً . فأما حمزة فلم يعهل شيبته أن قتله ، أما علي فلم يعهل الوليد أن قتله ، واختلف عبيدة وعتبة بينهما صريحتين ، فأثبت^(٢) كل منهما صاحبه فوقع الضربة في ركة عبيدة ، فأطاحت رحله ، وصار مخ ساقه يسيل ، فأصبح تحت رحمة عدوه ، فأدركه علي وحمزة فأجهزا على حصصه . ثم احتملا صاحبهما في رفق . إلى جوار الرسول الذي أسد رأسه ووضعه على فخذه ، وأحد يواسيه : ويشره بالثواب الذي ينتظره بين أرجاء الفردوس الصبيحة ، ولم يلبث عبيدة أن لفظ النفس الأخير فكان أول شهيد في الجهاد .

بعد هذه المباراة الفردية التي أثارت العواطف الحربية بين جوانح المحاربين ، لا يمكن أن يطول انتظار الرد بين هذين الجمعين . فأخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يعدل بجيشه كتفًا بكتف ، في صفوف متلاصقة كالسيان المرصوص ، وأخذ يكبح شكبة هؤلاء المشهورين ، الذين يريدون أن يتقدموا لجمع إلى القتال ، فيلاقوا ، بلا شك ، مصرعهم دون فائدة تعود على المسلمين من ذلك

(١) كان إذا اجتهد في يمينه ، قال : لا والله نجاني يوم يدر .

(٢) جرحه جراحة لم يقم معها .

من هؤلاء سواد بن غزيرة ، فقد برز من صفه ، فضربه رسول الله بقدح^(١) كان بيده ، وقال : استو يا سواد .

فقال : يا رسول الله ، أرجعتني ، وقد بعثك الله بالحق والعدل ، فأقذني^(٢) .

فقال رسول الله : اقتص مني

فقال سواد : كيف وقد ضربتني على بطني العريان ؟

فكشف له رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بطنه ، وقال : استقد يا سواد . فاحتقه سواد فقبل بطنه .

فقال : ما حملك على هذا يا سواد ؟

فقال . يا رسول الله ، حضر ما ترى ، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يحس جلدي جلديك .

فدعا له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بحير .

عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الصفوف ، وأمر أصحابه أن لا يحموا حتى يأمرهم ، ورجع إلى العريش يرافقه أبو بكر ، فدخله ، وكان على يابه سعد بن معاذ ممسكاً سيفه ، فأخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يناشده^(٣) ربه ما وعده من النصر ، ويقول فيقول :

اللهم إن تهلك هذه المصابة اليوم لا نعبد ، واستعرق في الدماء والتصرع حتى سقط رداؤه دون أن يشعر ، فأعاده أبو بكر وهو يقول : يا نبي الله بعض مناشدتك ربك ، فإن الله منجز لك ما وعده . وقد خفي^(٤) رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حفنة وهو في العريش ، ثم انتبه فقال : أبشر يا أبا بكر ، أناك نصر الله ، هذا جبريل ، أخذ بعنان فرس يقوده ، على ثيابه النعم^(٥) .

ثم خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من العريش ، يحرس الناس على القتال مكرراً . **وَسَيُهَزَمُ الْجَمْعُ وَيُولَوْنَ الْمُبْرَءُ** ، والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً شحسباً ، مقللاً غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة .

(٢) اقتصر لي من نفسك .
(٤) نام نوماً يسيراً .

(١) القدح : السهم .
(٢) سأله وبصرع إليه
(٥) البار .

وسمع عمير بن الحمام ذلك ، وكان في يده تمرات يأكلهن ، فرمى بهن ، وقال :
 بخ^(١) ألفا بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يفتاني هؤلاء ؟ . واشتق سبعة ،
 واقتحم صفوف المشركين محصاً الأرض بدمائهم ، واستمر يقاتل القوم حتى
 قتل

رسأل أحد المؤمنين قائلاً : يا رسول الله ، ما يُصنع بك^(٢) ، لربّ من عبده ؟
 قال - صلى الله عليه وسلم - : غنّته يده في العذر حاصراً^(٣) .
 فترج حرقاً كانت حنّيه ففقدوها ، ثم اشتق سبعة يحضيه بدماء العدو .
 وأصبح من المستحيل صدر المسلمين ، على تلك الحال ، فأخذ رسول الله ،
 صلى الله عليه وسلم - حفنة من الحَصْبَاء ، فاستقبل قريشاً بها ، ثم قال :
 شأمت الوجوه ، ثم لصحبتهم بها ، وأمر أصحابه فقال : شدوا .

ونقض المسلمون كل أعصار هائل على المشركين ، وكان للاستخدام ضجيج
 قد منع عَمَان السماء ، وكنت قطعاً السلاح ، وصراخ الناس ، وصياح المتصرين .
 كان كل ذلك يردده الصدى من حوائط الوادي ، ويرافقه صرضاء عريب .
 متقطع كصوت الطول المضطربة .

حدث رجل من بني عمار قال : أقبلت أنا وابن عم لي حتى أصعدنا في
 جبل يُشرف بنا على بدر ، ونحن مشركان ، ننظر الواقعة ، على من يدور الدائرة
 فذهب مع من يذهب .

وبجأة ، وفي وقت ارتجف فيه المسلمون ، رأيت في أعماق الوادي ، من وراء
 جيش الإسلام ، عموداً من التراب ، يرتفع ويقرب في سرعة هجيبة ، ومن
 خلال شكله الخروفي كانت تطير وتحثي أشباح عريية مرعبة . وكان العمود
 في سرعته يهدد السحاب ، وكأنه حرب عوان أقامتها الأرض في ثورة ضد السماء
 وكان يخرج من هذا للعمود أصوات عريية أيضاً ، كدت منها أموت فزعاً ،
 كان منها صهيل الحبل وقدحها نحو أعرها وهي تعدر ضحاً . وكان منها خفق

(١) كلمة تقال لمظيم الأمر والنهي .

(٢) يرصيه عاية الرضى

(٣) لا درع له

الأجنحة الضخمة ، وقرع الطبول ، وسمعت صوتاً آمراً ، ساد كل هذا الضجيج يقول : أقدم ، حيزوم (١) .

وما هي إلا طرفة عين حتى أصبح هذا الطائر الضخم بجوار المسلمين ، وانقضّ معهم على صفوف المشركين ، ولم يلبث أن أسقط بنا وغمرنا في ظمته الداكنة ، فلم أجد أرى شيئاً ، وكنت أعتقد وصي من العزع ، وكانت رياح المعركة تدمني في كل اتجاه ، فشبثت . تشبثت المسميت — بأطراف الصخور ، حتى لا أطيح معها كدرة من حطيم ، ولقد تمزقت أدنى من الصيحات المرعبة ، لقي أصيب إليها إذ ذاك اللعنات تقلد بها الأفواه ، وأبصر الخرحى ، وسب المهزئين على أفواههم ، وكنت لا ترى في ظلام هذه الموقعة سوى لمعان السيوف وميض الخناجر ، وبريق الخراب .

وانتهت العاصمة فرأيت ربي مبي على الأرض بجاني ، وقد انشق صدره وانكشف قذع قلبه . وكانت الجثث ، لا تعد ، ملقاة على الأرض نفضليها ، أشبه بجذوع أشجار أطاحت بها الأعاصير . وعن بعد كان حود الإسلام ، يغمرهم شمع الشمس ، يكرون رواء الهاربين .

هذا العمود الطائر إنما كان أثراً بجبريل وهو على فرسه حيزوم ، يقود ثلاثة آلاف من الملائكة لإغاثة المسلمين ، وكان إيمان المسلمين من الحرارة بحيث كان لا بد من انتصارهم ، وأعدت العاصمة المسلمين على هذا الانتصار ، فكانت أمواج الرمال تصرب في وجوه المشركين ، وتتؤدى بشرتهم ، وتعلأ بالرب أفواههم وأنوفهم ، وكان المشركون لا يدرون أين يصرون وعن أي وجهة يندفعون

أما المسلمون . فقد كانوا على العكس . يشعرون أن قوتهم ترداد يدفع العاصمة ، وكانت أعينهم المبصرة تجعلهم يتقون هجرم الأعداء وتجعلهم يضربون في ثبات وإصابة نهديف . ومضلا عن ذلك كانوا يشعرون بأن قوة حمية أسى من الطيعة تصاصف من قوة سواعدهم ومن نشاطهم ، بدرجة أنهم كانوا يشعرون بأنهم يضربون في الهواء . إذ أن أسلحتهم كانت تنفذ في أعدائهم في سهولة لم تكن تتصور ، ولم يشعروا في ذلك بأية مقاومة .

(١) أقدم : كلمة تزجر بها الحيل ، وحيزوم اسم فرس جبريل عليه السلام

يقول أحد الذين حضروا غزوة بدر : « لم أكد أتوعد أحد الرعوس بأنى سأحزه بسيفي ، حتى رأيته يطير عن كتفي عدوي ويهوى إلى الأرض متدحرجاً قبل أن يمسه ذباب سفي » .

قتل في هذه المعركة سبعون من المشركين ، ومن هؤلاء كل الذين تعاهدوا على قتل الرسول في مكة . « هَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ » [سورة الأنفال] . وكان من ضمن قتلى المشركين أربعة وعشرون من أشراف قريش ، أمثال عتبة والوليد ، وشيبة ، وأممية بن خلف ، وحظظة بن أبي سفيان ، وأهم من هؤلاء جميعاً قائد الحملة أبوجهل .

كان المسلمون يعلمون أن أباجهل هو المحرك لكل المؤثرات التي تحاك ضد رسول الله ، فأخذوا يبحثون عنه ، وتمكن معاذ بن عمرو من الوصول إليه ، فضربه ضربة أطارت قدمه بنصف ساقه ، وأسرع عكرمة بن أبي جهل لإغاثة أبيه ولئلا يثار له ، فغريب معاداً على عاتقه فطوح بيده التي تعلقت بجلده من حنجه ، وصايقته في القتال فسحبها خلفه ، ولكنها بقيت حملاً عليه أيضاً يقول معاذ : فلما آذنتي وضعت عليها قدمي ، ثم تمطيت بها عليها حتى طرحتها . ثم مر بأبي جهل ، وهو عقير ، فثبان من الأنصار هما ولدا عفراء وهو على فرسه ، فطمعناه حتى هوى عن فرسه .

واهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالبحث عن مصير أبي جهل ، وأمر أن يلتصق في القتلى ؛ فذهب عبد الله بن مسعود للبحث عنه فوجده بآخر رمق ، فوضع رجله على عنقه ، كما يصع الإنسان رجله على أنفي ، ولكن في اللحظة التي يوشك عبد الله أن يقضي عليه فيها ، أخذ أبو جهل بلحيته ، وأرسل إلى عبيه فظرات سكرى من العيظ العاجز ، وصرح في حشرجة : « لقد ارتقيت مرتقى صعباً يا رويحي العثم » .

ولاحل أن يصع ابن مسعود حذاء لسباب هذا الملهد احتز رأسه وجاء بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وحين رأى رسول الله وجهه عليه الدامي قال : « الله الذي لا إله غيره » . ثم حمد الله ، ثم قال : « هذا فرعون هذه الأمة » . وتحت شعاع الشمس الملتهب بدأت الحشيت تمسد ، وأخذت الوجوه المستعفة

لون القار ، وهذه الظاهرة جعلت المسلمين يعتقدون أن المشركين قد صرعهم جند السماء ، وأنهم اخنقوا بلهب من نار جهنم . وتفقد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الميدان ، سائراً بين القتلى ، آمراً بملئ الجثث دون تفرقة بينها .

ولما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم أن يلقوا في القليب (١) ، أخذ عتبة ابن ربيعة ، فسحب إلى القليب . فنظر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في وجه أبي حذيفة بن عتبة ، فإذا هو كتيب قد تغير لونه ، فقال : يا أبا حذيفة ، لعلك قد دخلت من شأن أهلك شيء ؟ فقال : لا والله يا رسول الله ، ما شككت في أبي ولا في مصرعه ، ولكنني كنت أعرف من أبي رأياً وحلماً وفصلاً ، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام ، فلما رأيت ما أصابه ، وذكرت ما مات عليه من الكفر ، بعد الذي كنت أرجو له ، أحزنني ذلك فدعا له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بخير وقال له خيراً .

جاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم بتناقة مركبها وذهب إلى القليب حيث أمر أن يلحق فيه أربعة وعشرون من أعدائه ، فلما وصل إليه نزل عن ناقته ، وأخذ يسأل الموقى ، كلاماً باسمه ، يقول :

يا أهل القليب ، يا عتبة بن ربيعة ، ويا شبة بن ربيعة ، ويا أمية بن خلف ويا أبا جهل بن هشام (فعدد من كان معهم في القليب) هل وجدت ما وعد ربكم حقاً ؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً .

فقال له عروة : يا رسول الله ، أنكم قوماً موتى ؟ قال :

والذي نفس محمد بيده ، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يحسبوني .

وهكذا ، عرفه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن هؤلاء المشركين وقد أصبح مسكنهم النار ، لم يجدوا متاعاً من الاعتراف بصحة ما حدثهم به الرسول صلى الله عليه وسلم في حياتهم . وبهذا المعنى يفسر حديث عائشة الذي يشرح هذا الموقف [إذ أن القرآن يقول : « إنك لا تسمع الموتى » . . .] [سورة الروم ٥٢] أما المؤمنون فلم يفقدوا سوى أربعة عشر : ستة من المهاجرين ، وثمانية من

الأنصار . وهؤلاء - وقد أصبحوا خائفين على مر الزمن - أول شهداء الدين استشهدوا في الجهاد .

الإقامة ببدر ثم العودة إلى المدينة :

ومكث رسول الله صلى الله عليه وسلم ببدر ثلاثة أيام ليدهن المؤن ، ويجمع الغنائم التي أقام على حراستها أحد أفراد بني النجار ، ثم تأهب للعودة إلى المدينة ، وبعث أمامه زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة ليشرأ أهل المدينة بالانتصار ، فوصلا في ساعة حرجة بالنسبة للمسلمين . قال أسامة بن زيد : أتانا الخبر حين سويننا التراب عن رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم التي ماتت إثر مرض ألم ، وكانت زوجة عثمان بن عفان ، وكان المنافقون واليهود ، إذ ذاك ، يذيعون لشائعات الخطيرة التي تقص مضاجع المسلمين ، عن مصير الرسول في بدر ، ويتأهبون لمهاجمة أنصاره .

وسرت الشرى في جميع أرجاء المدينة مسرى البرق ، فأشاعت القلق في نفوس المشركين واليهود ، والعلانية والتحمس في نفوس المؤمنين الذين خرجوا بملامعة انتصر رراعات ، زراعات ، رجالا ونساء وأطفالا ؛ ضاربين على الدخوف ، ينشدون بأشودة الاستقبال التي استقبلوا بها الرسول عند دخوله المدينة أول مرة .

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبهوث فينا جئت بالأمر المطاع

هذه العروة الخالدة ، التي لم يكن بها من المخربين إلا عدد قليل ، كانت نتائجها من الأهمية بحيث غيرت وجه العالم ، وأصبح وادي بلرم مزاراً لآلاف من الحجاج كل عام .

يمول الرحالة بن جبير عن بدر : إن قرية تقوم هناك الآن ، محاطة بسياج . . . وعلى القصب ، حيث دهن المشركون ، عرس طائفة من أشجار الحنين ، وعلى بعد خطوات من هناك ، مقبر الشهداء .

وعلى شهب الطريق الآن من الصغراء يمتد جس الرحمة ، حيث رلت الملائكة من السماء .

أما العريش الذي كان فيه الرسول ، فإنه كائن - كما يقولون - على حافة جبل من الرمل ، يسمى (جبل الطبول) ، ويسمع الحاج عادة فيه قرع الطبول التي لا يعرف مصدرها ، ولا يراها سرها ، واني تحيي ذكرى أول انتصار للإسلام .

وكان عدد الأسرى سبعين كمند الدين قتلوا ، وكانوا ينتسبون - في الأغلب - إلى أكبر أسر المشركين ، وكان من بينهم اثنا : هما : حقة والنضر ، قد تجاوزا في إيذاء الرسول كل حد ، فحكم عليهما بالإعدام بعد الحكم .

ولم يكن العباس ، عم محمد ، قد اعتنق الإسلام . وقد اضطر إلى البدء بمكة للتجارة ، ثم لحق بالقبيلة المهتدة ، ووجد نفسه في عداد الأسرى . ولم تجد ضخماته حشته وقوته شيئاً ، إذ أسره ضعيف من الأنصار . فكان ذلك مثير دهشته ، وضاق بالحبال التي كانت تربطه وتشد جسمه في قسوة ، فأخذ يتهدد . ثم لحقه مؤنس رحيم القلب تذكر كرم العباس وقربته من النبي فخفف شيئاً من قيوده . وعلم محمد بالأمر ولم يكن يرى أن يلتقي أفراد أسرته أي نوع من المحايأة ، فأمر بتخفيف قيود سائر الأسرى على نحو ما كان بالنسبة إلى العباس .

وبنى أن يبيت في مصير كل هؤلاء الأسرى .

ورأى أبو بكر أن تقبل فديتهم ، لما بين العالين والمعلوبين من أواصر القرابة . أما عمر في شدته ، فكان يرى أن يقضى عليهم جميعاً لما تسبوا فيه من اضطهاد للمسلمين وإخراج للرسول من مكة . وتساوى عدد الصحابة المضمين إلى كل من الرأيين .

فرأى الرسول رأى أبي بكر وأمر باحترام الأسرى الذين ، وإن كانوا قد ظلموا على أمرهم . إلا أنهم أظهروا شجاعة وإقداماً ، وحث الدس على معاملتهم بمعاملة طيبة . وفك قيودهم ، ووزعهم على المسلمين الذين كلفوا بحراستهم . ونفذ هؤلاء المسلمون تعييات الرسول في دقة ، فعملوا أسراهم أحسن معاملة ، حتى إنهم كانوا يؤثرونهم على أنفسهم بالتبخر ويكفون بالشر .

وقد رتب فدية كل أمير حسب ثروته . فكانت فدية العباس عم محمد أكبر فدية . وصرح بعضهم ، لفقرهم ، دون مقبل . وأصاف محمد إلى ذلك أن طلب

من كل أسير يعرف الكتابة والقراءة أن يعلمها لاثني من أولاد الأنصار قبل أن يطلق سراحه نهائيًا .

وكان من بين الأسرى أبو العاص بن ربيعة ، وهو من وجهاء القوم وأعيانهم ، تزوج زينب بنت الرسول قبل الوحي ، وظل على إشرافه . وقد بعث زينب من مكة فدية له مبلغًا من المال وعقدًا أهدته إليها أمها خديجة عند رواجها . ورأى محمد العقد الذي كان قد رآه من قبل في عرق روجه المحببة خديجة ، وعرفه ، وثارت له في نفسه شجون ، فسأل المسلمين إعادته الفدية إلى زينب وإطلاق سراح زوجها . فلم يعترض أحد على ذلك ، فأطلق محمد سراح أبي العاص على شريطة أن يبعث إليه بابتنته ، لأن المسلمة لا يمكن أن تبقى في دمة المشرك . وقبل المشرك الشرط وإن لم يكن مستريحًا إليه . فعاد إلى مكة وبعث بزيب إلى المدينة . وعلم القرشيون برحيل زينب فتنصروا خطاها ، ولحقها أحدهم فلطمها في قسوة ، بكعب رجمه ، فوقع من هودجها . ثم وصلت تلك المرأة الحزينة المدينة وكانت حاملا ، فماتت بعد قليل من آثار ما لافته من قسوة المشركين .

وغيظ الرسول لهذا ، فأمر المؤمنين إذا تمكنوا من الرجل الذي كان سبيًا في موت زينب أن يحرقوه حيًّا . ثم رجع عن هذا الأمر لأنه رأى أن الله وحده . سبحانه مالك الملك . ألحق في إحراق الناس في جهنم .

أما أبو العاص فقد أسره المسلمون ثانية وهو يقود قافلة إلى الشام . فأطلقه الرسول مرة أخرى ، فأسلم .

وهكذا حاول محمد ، في كل مناسبة أن يظهر كرمه بالنسبة إلى الأسرى من قبيلته . وكان نتيجة هذا أن أسلم عدد من أهل مكة ، أعجبهم ما رواه الأسرى الذين شهدوا عند عودتهم بحس معاملة المسلمين لهم .

ولكن ألم تكن هذه الرحمة بأعداء الله صارة وخطرة بالنسبة إلى مستقبل الإسلام ؟

لقد جاء الوحي بسبب الرسول بسوء العاقبة ويلومه على ما فعل . فحزن محمد حزناً عميقاً عندما علم أن رأته بالأعداء سوف يترتب عليها استشهاد الكثير من المؤمنين . ولم يكن يعقل في الواقع أن تؤدي هذه الرأفة إلى إيقاف القتال .

وكادت مشكلة تقسيم الغنائم بعد الانتصار تثير الفتنة بين المسلمين . فقد رأى هؤلاء الذين تلقطوا الغنائم أن يحتفظوا بها كلها لأنفسهم . أما الذين قاتلوا ولم يفكروا في الغنم وسلب الموتى ، فقد طالوا بصيبيهم . وقالوا : إنه لولاهم لما استطاع أحد أن يغم أو يسلب شيئاً . ورأى جند المؤخرة أنه ، لولا حرصهم على الإحاطة بالرسول ، لقاتلوا وغموا وسلبوا كالآخرين . ولغظ القوم وكادت الفتنة تدب بينهم ، فجاء الوحي بفصل الخطاب .

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ، قُلْ : الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرُّسُولِ

وحاد محمد إلى المدينة ، قسم الأنفال بكل دقة ، وقرر أن يأخذ حند المؤخرة نصيبهم منها ، وكذلك بعض المؤمنين الذين قعدوا في المدينة خدمة الإسلام و غياب قائده .

واستطاع محمد بذلك أن يرضى الجميع . ولم يستبق لضمه إلا نصيب الجندي البسيط . ولكنه تقرر أن يكون فيها يسجد من الغنائم . أن

« لِلَّهِ نِصْبُهُ وَلِلرُّسُولِ ، وَلِذِي الْقُرْبَىٰ ، وَلِیَتَامَىٰ ، وَلِلْمَسَاكِينِ ، وَابْنِ السَّبِيلِ »

وطن أهل مكة أن قفلتهم الكبرى التي سببت لهم الكثير من القلق ، عائدة . فأعدوا العدة لاستقبالها في أحرس وأفراح . ولكنهم وأوا فلول جندهم مقبلين ، فلم يصلحوا في أول الأمر هذه الحسارة العظيمة ، لشدة إيمانهم بتفوق جنودهم في العدد والعدة ، فلاقوا الماريين من الجند أسوأ لقاء ظناً منهم أنهم بعض الخوذة فروا من المعركة قبل انتهائها .

ولكن جاء النبا اليقين بعد قليل ، واكشف الشك عند أعداء الله عن يأس صديق . وثارت ثورة أبي لبب — المنظم الحقيقي للحملة — عند ما حكى له أحد الماريين الأمور العجيبة التي شهدوها والتي تسر في رأيه هزيمة فريش ، فقد رأى المسلمين يتشقون عوناً من السماء يمكنهم من أعدائهم ، ورأى يقبلاً ، في صحب العاصفة ، جسداً عجيباً في أثواب بيضاء على سجاد قوية يقاثلون في صفوف أنصار محمد . وصاح عند ذلك رجل من القوم يقال له أبو ربيعة ، وكان من حدم العباس هم محمد ، مؤكداً أن هؤلاء الجند الشداد لم يكونوا إلا ملائكة .

وغيض أبو لهب لما رأى من خوف القوم من هذا الحديث وما أعقبه من التعليقات ، فأخذ بتلايب الخادم ، فصرعه ، وراح يصربه في وحشية وقوة شديدة . وثارت امرأة العباس لهذا ، فصرحت في أبي لهب تعنفه على صربه الخادم في خياب السيد ، وعلته بقطعة خشب وضربت بها فأدمت رأسه . ولم يغضب القوم لذلك ، إذ رأوا أن أبا لهب يستحق ما ناله من عقاب ، فقام الرجل يحقن خفيه وسخطه في عقر داره ، وكان مرصفاً وهم استطع بعد ذلك مقاومة ما ثار في نفسه من ألم وخزي ، ففسد دمه واكتسى حصه بدمامل حمراء يقال لها عدسات ، ومات من دائه في سبعة أيام .

أما أبو سفيان وامراته فقد آلمهم موت ابنيهما حنظلة ، وأحفظهما عار اهزيمة ، فعرفا بين الناس بتعششهما للثأر .

واستعس أبو سفيان سلطته في مع مطاهر الألب والباس بين أهل مكة . فقد رأى في بكاء الموتى والمآتم التقليدية وقصائد الرثاء أشياء لا تجدى ، ورأى أن حزن قومه من شأنه أن يبعث السرور في نفوس أعدائه . فراح يبحث الناس على البلد في أمر واحد ، ألا وهو طلب الثأر .

وحلف أن يحرم نفسه من النساء والطيب حتى يروى قلبه ثأر عظيم .

وداع بياً انصار النبي بين قتائل ملاد العرب كلها . فكان له فيها الأثر

الفعال .

كذلك تحصي السبا البحار ، ومشي رسول من محمد بالخبر إلى بجاشي الحبشة وأنبا المسلمين الذين استجاروا فيها مصى بهذا الملك أن لهم ، إذا أرادوا ، بالمدينة حصناً ومقاماً مبيعاً يجوز بيعهم وأهلهم .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا
وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ
الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ

لِوَجْهِ عَلِي :

أصبح عليّ بن أبي طالب ، بفضل إخلاصه المتناهي وشجاعته التي لا تقاوم وحرصه اللبيق على طاهر السجايا ، أحد أبطال الإسلام المشاهير . غير أن فقره الشديد ألزمه بأن يعمل أحياناً عند أحد الملاك من الأنصار ، فكان يقضي يومه بين الصلاة وري النخيل . ولم يكن — بأعماله المحميدة — أهلاً لتلك الحال المتواضعة ، فجدير به أن يحتل مكانة سامية في أعين الناس .

وقد مر به أبو بكر وعثمان يوماً وهو يمتسح الماء من بئر ، فوقاه عن عمله وذكراه برغبته التي كثيراً ما أبداها في الزواج من فاطمة بنت الرسول قائلين : إنه أحق الناس بها . فنصب عليّ وعصب عليهما أن كلاماً في هذا الحزم الذي ظنه محال التحقيق لضيق ذات يده .

لكهما ألماً عليه أشد الإلحاح ، وأكداً له استمدادهما لمعاونته . فجمع عليّ لباس الخجل ، وأتى دار الرسول حاملاً سيفه ودرعه وخفه وكان ذلك كل ماله .

وطرق الباب ، فاستقبله الرسول مرحباً بأحب الناس إليه ، روقف عليّ أمامه مطأطئ الرأس في حياء . فسأله النبي عن حاجته فتكلم عليّ ذاكراً أن الرسول ربه يتيماً وعطف عليه عطف الآباء على الأبناء حتى كان رجلاً . وهو اليوم يريد أن يكون له بيت وأولاد ، وإلى الرسول يلجأ في هذا طائفاً الزواج من ابنته فاطمة . فسأله محمد صلوات الله وسلامه عليه عن المهر . فأجاب عليّ : أن إصبر معروف ، وأنه جاء حاملاً كل ماله . سيفه ودرعه وخفه .

قال رسول الله ﷺ إن السيف للإسلام ليس للرسول أن يقبله . أم، المرح في
 قوة ذراع البطل عاء عنها ، ويستطيع أن يبيعها ، يأتي شمعها مهرأ فاطمة
 وورج على كل المرح . وراح يبحث عن شار لدرعه فانتاعها منه عثمان
 بثمان لا بأس به ، ثم أعادها إليه في ساعته هدية عرس
 ونم الرواح بأن نال محمد لعلى إن الله قد أعطاء فاطمة في السماء قبل أن
 يعطيها له محمد في الأرض .

ودعا بلال عدداً كبيراً من المؤمنين ليستمعوا إلى خطبة نبيهم الذي رأى أن
 يحرمهم بهبته اسمه لعلى ، وأمر بلالا برحصار بوارم الرواح المتواضعة ، فاشترى بنصف
 امهر الأشياء التي لا يستغنى عنها في بيت حشية ووصادة من ألباف الخيل ،
 ثم قرنة وأوان للطبخ وأتقى الباقي في أربد والدقيق والتمر بوليمة العرس .
 ودحت جماعة من النساء يجهز الزوجة — تنعاً للتقاليد — في حجره زوجها .
 فما رآهن الرسول رحعت به الداكرة إلى السيدة التي لو كانت على قيد الحياة لما
 تركت غيرها يقوم بهذا العمل ، رحعت به الداكرة إلى السيدة حبيجة أم فاطمة ،
 فتعذكه حزن شديد ، وصابت دموعه غزيرة على خديه ولما ولت اندكرى بما تحمل
 من حزن وألم ، جعل عالياً إلى يمينه وفاطمة إلى يساره ودعا طمأن أن بهبهما الله ذرية
 صالحة تكون محرراً للمسلمين .

وقضى الروحاني ثلاثة أيام وثلاث ليال في صلاة وتعب . ولم يقرب على الحبي
 المحلول روحته ذات النسب الشريف إلا في الليلة الرابعة . إذ أراد أن يحقق رعة
 الرسول في سلالة من الذكور .

ووصعت فاطمة بعد تسعة أشهر ولداً سمى الحسن . ثم جاءت بالحسين بعد
 مولد الحسن ستة . فكان نسل الحسن والحسين ، ذلك النسل الذي عرف بالشريف
 نسل محمد خاصة .

زواج الرسول بحفصة وبأم المصاكين :

رعت حفصة ست عمر — وأرملة حنيس — في الزواج ، فلم يتقدم أحد
 لخطبتها ، إذ رأى الناس أنفنها وكرياءها . ونقد عرصت يدها على أبي بكر ثم على
 عثمان ، فأبيا . وعاظ عمر ما لحق نابتة من إهانة ، فشكا حابه إلى الرسول . فقال

الذي لكريم به إن حصصه سوف تتزوج محير من عثمان وإن عثمان سوف يتزوج محير من حصصه . وروح لى استه أم كثوم عثمان بينما تزوج هو من حصصه المتكثرة إكراماً لعمر . ولم يمكث طويلاً على ذلك حتى بى بأرملة حبيدة المدي مات شهيداً يوم بدر . وكانت تقيّة رحيمة بالفقراء والصعفاء كثيرة الصدقات ، وقد لقيت من أجل هذا بأم المساكين .

معركة أحد (سنة ٥٣ سنة ٦٢٥ م) :

رجع أهل مكة من هزيمتهم في بدر ، فم تفر هم بعدها عين ، ولم يهدأ لهم بال ، وبطروا نظرة اليأس إلى مستقبلهم ، فقد قطع عليهم الرسول بتلك الحربة الحريثة طريق الشام ولم تعد القوافل تجرؤ على رتيادها . وهذا لهم أن الحراب والمخافة أقرب إليهم من حل أوريد . ومن أجل ذلك حزموا على تخصيص الأرباب الطائفة التي تدرها عليهم قافلتهن التجارية الكبيرة سجهير حملة تنار لقتالهم ونهي الأمان لقوافلهم . وجاء لمساعدة أهل مكة الكثيرون من البدو طمعاً في الأحر الصبحم ، وقد استمغنهم قصائد كعب بن الأشرف وأبي امرئ الحماسية الملهمة ، فانصموا إلى جيش أبي سفيان .

وكان على رأس ذلك الجيش ، المكون من ثلاثة آلاف مقاتل ، رجال ممن أصيب أهلهم يوم بدر ، كصفوان وعكرمة ، كذلك كان هناك خالد بن الوليد السطل المقدام ولم تكن النساء أقل تحمساً لطلب الثأر . فخرجت هذ ست عتبه روح أبي سفيان . يرافقه زمرة من صواحبه ، وقد وطد الحرم على سداً طريق في وجه كل جدي يريد الفرار .

انصرف الملاحون . في السهول الحصنة الممتدة شمال المدينة . إلى الأعمال في حوضهم ورعى قطعانهم في وداعة وهذوء ، ولم يدر أن جند أبي سفيان قد نزلت من شعاب الجبال العربية ، حتى دغنتهم بفضل ما اتخذته من حيلة شديدة لإحباط مسيرها السريع . ورأى الملاحون المسلمون الجند ، وعموا أنهم لن يقدروا على مقاومتهم . فولوا هاربين مسرعين لينقذوا أنفسهم من الموت المحقق . ولخبروا بحوانهم بقدوم أعداء الله .

ووقف أهل المدينة فوق أسوار حصنهم يشهدون مظراً تقطعت له أكبادهم
وأكباد الفلاحين أصحاب الأرض إذ وقعت إبل المشركين كسرب من الجراد
المائل على الحقول الخضراء ، بينما انقص المشاة على الأنعام يذبونها ، والمرسان
على العلات الناصجة يدوسونها ، ويبحرونها ، وهم في ذلك إنما يقودهم ارداء
التجار لأعمال الملاحة .

وإزاء ذلك الخراب الذي جرى تحت أنظارهم ، وجد المؤمنون أنفسهم ، في
وقت واحد ، في أشد حالات العجز والاضطراب ، إذ رأوا السهل الرطب وقد أصبح
مجالاً لفرسان الأعداء ، الذين لا قتل لهم بهم . وكان ملجؤهم الأخير قطعة
رسول الله ، فالتفتوا حوله يستشيرونه ، وقد أبدوا استعدادهم لكل تضحية ، مهما
عظمت ، في سبيل إنقاذ حقوقهم وأموالهم .

ولقد رأى محمد رؤيا ، قال : « إني قد رأيت والله خيراً ، رأيت بقرأ تذبج ،
ورأيت في ذباب سبي ثلماً ، ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة ، فأولتها
بالمدينة . . . فأما البقر فهي ناس من أصحابي يقتلون ، وأما الثام الذي رأيت في
ذباب سبي فهو رجل من أهل بيتي يقتل . فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم
حيث نزلوا ، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام ، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها »

وكانت تلك اللحظة الحربية خطة يعرفها أهل المدينة خير أنفسهم ، وقد أسلموا
وانتصروا في بدر ، تعبوا حالمهم ، فأصبحوا يرون أنفسهم قوماً لا يقهرون ، فصاقوا
درعاً بتخريب الأعداء حقولهم . وكذلك كان المؤمنون من الذين لم يشهدوا بدرأ
يشعرون شوقاً إلى إصهار بسالتهم بدورهم ، ولم يكن شراً لهم التعرض للاستشهاد
الذي نهفو نفوسهم عنده إلى .

ولم يعارض فكرة الهجوم إلا عبد الله بن أبي بن سلول رحيم المواقفين ، الذي
وجد نفسه لأول مرة يرى رأى الرسول . غير أن محمداً لم يرد أن يقاوم الرغبة الملحة
التي أبدتها مخلصو المؤمنين ، وما كان ليكت حماستهم ، فعزم على الأحد برأيهم
الذي أبته نفسه في تبصرها ووطنها . فلما صلى العصر باناس دخل بيته ليرتدى
لأمتعته . وأعد الجند عندهم من جانيهم ، ثم أحاطت جموعهم بالشدقة بيت
الرسول ، الذي ما لست أن خرج لهم مظهراً درعه ، لابساً خوذته ، متقلداً سيفه

ملقياً بالترس على ظهره . وممسكاً برمح . ولكن المؤمنين حينما كانوا ينتظرون النبي ، تبصروا في أمرهم . فتقدموا على ما اتخذوه في عجلتهم من نداير ، فقال زعمائهم للمصطفى ، وقد هاجم ما بدر منهم من معارضة . « يا رسول الله استكرهناك ولم يكن لنا ، فإن شئت فاقعد » .

فأجبههم محمد . « ما ينبغي لشي إذا ليس لأمته أن يضعها حتى يقاتل » . وكان عدد جند المؤمنين يباع الألف من المشاة ، غير أنه لم يكن في جيشهم إلا جوادان . وقد دفع لواء المهاجرين إلى مصعب بن عمير ، وسلم لواء الأوس إلى أسيد ، أما لواء الخزرج فكان بيد الحباب .

وارتحل الجند قبيل غروب الشمس مولين وجوههم شطر الشمال . ولكنهم ما كادوا يبرحون أسوار المدينة حتى لحقت بهم كتيبة يهودية مؤلفة من ستمائة مقاتل على تمام لأهية والسلاح ، وكانوا من حلفاء عبد الله بن سلول المنافق من اليهود ، وجاءوا يلبيغونه يعرضون على النبي مساعدتهم . ولكن النبي كان عليماً بمكنون سرهم ، فخاف حياتهم ، وردهم قاتلاً . إن الله يغضب عن مساعدتهم .

واغتاض عبد الله إذ رُد حلفاؤه ، فقام بين الجند ينشر بذور الفلق والشقاق في نفوسهم ، ويقول : « أطاعهم وعصاني ، ما ندرى علام تقتل أصمسا ها هنا أيها الناس ؟ ! »

فانحار إليه ثلاث الخييش الصغير الذي لم يبق منه إلا ما يقرب من السبعماية رجل ، وقص المناطق واجعاً إلى المدينة في المنحرفين ، وتشيعهم سخرية المسلمين المخلصين .

وفي اليوم التالي ، يوم السبت الحادي عشر من شهر شوال ، ارتحل الرسول بجنده قبيل الشروق ، وطلب دليلاً يستطيع أن يقود الجند دون أن يراهم العدو في مسالك جبل الذي يرتفع معزلاً وسط السهل ، فتقدم أبو خيثمة وبقيهم في حرة بني حارثة وأموالهم ، حتى سلك في مل أربع . وكان رجلاً مافقاً ضرير البصر . فلما سمع صوت رسول الله ومن معه قام بصيح . « إن كنت رسول الله وإلى لا أحل لك أن تدخل حائطي » ثم مال إلى الأرض ، ونبض على حفنة تراب واعتدل قائلاً : « والله لو أعلم أني لا أصيب بها عيرك يا محمد لصرت بها وجهك » .

وأراد المؤمنون أن يعاقبوا ذلك المذموم على وقاحته ، غير أن محمداً معهم قائلاً :
 « إن الرجل ليس أعمى البصر فحسب ، بل قد عمى قلبه عن الحق أيضاً » .
 وسار المسلمون في ذلك الطريق الملتوي المحتفى تحت غصون الأشجار المتشابكة
 الكثيفة ، حتى وصلوا إلى جبل أحد عند برور الشمس ، دون أن يشعروا انتباه
 أعدائهم .

وأعد الرسول أئمة للقتال ، وجعل الحبل خفيف ظهره ، فلم يكن ليخشي
 حركة دائرية من الأعداء ، غير أنه - ليرداد اطمئناناً - جعل فوق الحبل
 حسيب من أمهر رمايه ، واستعمل عليهم عبد الله بن جبير ، وأمره أمراً قاطعاً .
 « أن انضح الحبل عنا بالثلج ، لا يأتونا من خلفنا ، إن كانت لنا أو علينا ، فأنبت
 مكانك لا تؤتين من قتلك » .

وفي تلك الآونة ارتفع الصباح من ابواب الآخر للسهل : لقد بصر المكيون
 بالمؤمنين وقت أن وقعت عليهم أشعة الشمس المشرقة ، فأطهرتهم - جلياً - في
 هالة من نور ، فوق سهوح جبل أحد الصخرية .

انتظم جيش الأعداء ، كما قدر الرسول ، وعلى ميمنته نخادع بن الوليد البطل
 المذوار ، وعلى مبسرته عكرمة بن أبي جهل ، على شكل القوس ، ليحيطوا بالمسلمين
 ويباغنونهم من الخلف .

وأحد أبو سميان ، قائد المشركين ، يقول لبي عبد الدار حاملي اللواء ، حائناً
 على القتال : « يا بني عبد الدار ، إنكم قد وسمتم لواءنا يوم بدر ، فأصابنا ما قد
 رأيت ، ولما يئس الناس من قتل رايئهم . إذا زالت زالوا ، فإذا أن تكفونا لواءنا ،
 وإذا أن تحلوا بيتنا وبيتكم فكميكموه » .

فوقعت تلك الإهانة موقعها من بني عبد الدار وأثارت حممهم ، فوثبوا
 يدفعون عن أنفسهم ويعدون أبا سميان بأنهم سوف يقاتلون أشد القتال
 وأقبلت هند بدورها تسرع في صواحبها فأحطن بحاملي اللواء وأشدن :

وبهنا بني عبد الدار وبهنا حماة الأديار

صرباً بكل بئار

نحن بنات طارق نمشي على النار

والدبر في الحقائق والمسك في المواقف
إن تصالوا تعانق أو تدبروا تصارق
فراق عبر وامتق

ولم يكن النبي ليألو جهداً في سبيل تشجيع المؤمنين . من ذلك أنه رفع سيفاً
بتاراً براقاً وقال وهو يمدّه إليهم : « من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ » . فتقدم
أبو دحية قائلًا . « وما حقه يا رسول الله ؟ » . قال : « أن تضرب به في العدو
حتى يسحق » فقال : « أنا أحده بحقه » .

وكان أبو دحية حديدًا في الحرب مهيبًا ، فأخذ السيف من يدي محمد ،
واعترض بعضه حمراء لم يكن يعتصب بها إلا في أعظم المواقف . ثم سار في
صفوف الجند ينحتر . فقال الرسول : « إنها لمشيئة بعضهما الله إلا في مثل هذا
الدوطن » .

وكان من بين الأعداء رجل من أهل المدينة يقال له أبو عامر ، وكان قد تنصر ،
فكفى عنه بالراهب ، واعتقد أنه يستطيع جذب فئة من قومه من الأوس ويرجعهم
عن الإسلام . فقام إليهم وصاح فيهم : « يا معشر الأوس أنا أبو عامر »
فأجابوه قائلين : « فلا أنعم الله عليك يا فاسق ! » . فرجع الراهب حائثًا حائضًا
بعد أن رحمهم بالحجارة شدة غظه . وروح بعده رجل من المشركين على بعير له
صحم ، وكان منظره يبعث الحوف والفرع ، فدعا المؤمنين للمباذرة ، فأحجم
عنه الناس ، حتى دعا ثلاثًا ، فقام إليه الزبير ، فوثب عليه وثبة العهد فاستوى
معه على البعير وطوقه بذراعيه فوقها معاً على الأرض ولم يترك الزبير غريمه إلا وقد
دبحه

ولما رأى أبو دحية أن قد دارت رحى القتال ، لم يفكر على كبح حصاص نفسه
فاستل سيفه صائحًا

أنا الذي عاهدني خليلي ويحيى بالسمع لدى الخيل
أن لا أقوم أندمر في الكيول^(١) أصرب بسيف الله والرسول

(١) الكيول : الخيل . وهو أيضاً آخر الصفوف

وشاهد المشاهدون حصانته الحمراء ، وكأنها الحمرة المتقدة تشق جموع الأعداء ،
وتنفذ إلى مرجل القتال .

وكان أبو دجاجة ذا جرأة فائقة بآتي في الحرب بالمعجائب ، فلم يلق أحداً إلا
قتله ، حتى وجد نفسه يتنقذ أمام إنسان غريب يخشئ الناس خمشاً شديداً ومن
ورائه زمرة من ضاربات الطبول . فصمد له أبو دجاجة ، وحمل عليه بسيفه ،
فسمع منه ولولة وصراخاً ، فعرف من الصوت أنه أمام همد ، فأكرم سيفه رسول الله
أن يضرب به امرأة .

وقد أثار أبو دجاجة النحمنس لقتال فاحتلم وهم . وقام حمرة فقتل أرطاة
حامل لواء القرشيين الذي خر فداغراً فاه ، كاشعاً عن أسنانه ، مكشراً تكشيرة
الموت . وسرعان ما تقدم سباع بن عبد العزى العيشاني ، فرفع اللواء داعياً قاتل
زميله إلى المبارزة ، فلما كان من حمزة إلا أن ألحقه بأرطاة ، بصربة واحدة قاتلاً :
« هلم إلى يمين مقطعة الظاور » . وأراد جبير بن مطعم أن يثار لعنه طعيمة اندى
قتله حمرة يوم بدر ، فوجد علاماً له حبشياً يدعى « وحشياً » أن يعتقه إن هو
قتل حمزة .

قال وحشى : « وخرجت مع الناس ، وكنت رجلاً حبشياً أقذف بالحربة
قذف الحبشة ، فلما أخطئ بها شيئاً . فلما اتقى الناس ، خرجت أطر حمزة
وأنبصره حتى رأيته في عرض الناس مثل الحمل الأورق . يهز الناس بسيفه هزاً ،
ما يقوم له شيء : فوالله إني لأنهيأ له أريده ، فأستتر منه بشجرة أو حجر ،
ليدنو مني ، إذ تقدمني إليه سباع بن عبد العزى . فلما قتله حمزة بصربة على
رأسه ، هزرت حربي ، حتى إذا وضيت عنها دهعتها عليه دفعا ، في ثنته (١) ،
حتى خرجت من بين رجله ، وذهب لينوء نحوى فغلب ، وتركته وإيها حتى مات ،
ثم أتيت فأحلت حرتي ثم رجعت إلى المعسكر وقعدت فيه ، ولم يكن لي بعيره حاجة
ولأنما قتله لأعتق . فلما قدمت مكة أعتقني »

وفتل مصعب بن عمير ، حامل لواء المهاجرين دون الرسول ، وكان الذي قتله
ابن قمنة الليثي ، وهو يظن أنه رسول الله ، فرجع إلى قومه وقد انتفخ اختيالاً ،
وصاح : « قتل محمد » .

(١) التثنية ما بين السرة والعانة من أسفل البطن

فرمغ على اللواء الذى سقط من يد مصعب ؛ ولهى دعوة أبى سعد بن أبى طلحة حامل لواء المشركين إلى المبارزة . وكان أبو سعد هذا يسحر من المسلمين قائلا : « يا أصحاب محمد ، عثم أن قتلاكم فى الحنة ، وأن قتلانا فى النار ، كذبتم واللوات والعربى ، لو تعلمون ذلك حقاً ، لخرج إلى بعضكم ! » . ولم يدعه حتى يتم كلامه ، إذ أوقعه بضربة واحدة على الأرض مختصراً ورفع ذراعه يبهجر عليه ، غير أنه أدبر عنه فجأة ، إذ انكشفت سوءه .

واحتدم حبل لواء القرشيين قتال عصف ، شرب فيه الكثير من المشركين كأس المدون . وأصيب اثنان من حماة الراية ، هما مسافع بن طلحة وأخوه الجلاس ، وكلاهما بسهم ، فتحملا حتى أتيا أمهما سلافة إحدى صواحب هذ ، ووضعها رأسيهما فى حجرها ، وهما يتفياآن سيلا من الدم ، فصاحت الأم شاهقة : « يا ابناي ما أصابكما ؟ » . فالا : « ممنا رجلا حين رمنا بقول : « خذها وأنا عاصم بن أبى الأفلح » . فذرت سلافة إن أمكها الله من رأس عاصم أن تشرب فيه الحمر .

كان للنصر — من غير ما شئت — للمسلمين . ولقد وقع لواء القرشيين تحت كومة هائلة من القلى ؛ هم يحسرون أحد منهم على رقبته . وشرع أعداء الله فى الحرب وتقلب حتى هند وصواحبها إلى رعب ، فشمروا عن سبماهن استعداداً للفرار . وشاهد الرماة عند مضيق الوادى على سفح جبل أحد ذلك المنظر مهللين ، غير أنهم لم يستطيعوا صبراً حتى انتهاء المعركة — خشية أن تموتهم العاصم — رعباً حاول أمبرهم عند الله بن جدير أن يوقنهم ويذكرهم بأوامر الرسول المشددة ، وواجبهم الذى يقضى بحماية ظهر الجيش ، وبأن ذلك لا يأتى إلا بالصمود فى مكانهم ، فقد أحابوه عاضبين : « انهزم المشركون ، فما مقامنا ها هنا » . ونحدروا إلى الوادى كالسيل الجارف ، غير عاشين بأوامر الله ورسوله :

« وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ ، إِذْ تَحُسُّوهُم بِرُؤْسِهِ ، حَتَّى إِذَا فُشِيتُمْ
وَتَمَارَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ ، وَعَصَيْتُمْ مِمَّنْ بَعْدَ مَا أَرَاكُمْ مَا تَحِبُّونَ »

[سورة آل عمران ، ١٥١] .

كان خالد ، ذلك البغدى الداهية الشجاع ، على يمينه القرشيين ، وكان قد

رأى أول الأمر ، استحانة لجهوم على المسلمين من الخلف ، ثم رأى حالهم الكبري ، فكر فرسانه على ابن حبير ومن تنبى حوله من رماة قبيلين مختصين ثم نثر مقاومتهم شيئاً ، إذ سحقهم تحت سداك حيله ، ثم انقض من الخلف على المسلمين الذين لم يكن لهم من شغل شاغل إلا السلب والمغانم . وفي هذه الآونة داتها تقدمت امرأة مشركة تدعى عمرة بنت علقمة الحارثية ، قرفعت دواء أهل مكة الذين غمرهم أخرى من جنسهم إذ نظروا مشجاعة تلك المرأة فأقبلوا ثابئة إلى الميدان ، بينما ارتفع صوب ابن قمنة ، قاس مصعب ، مهللاً فوق جمعة القتال :
 « إن محمداً قد قتل » .

وانقلب وجه المعركة ، هذا ذلك اليوم يوماً عصيباً ، بعد أن بدأ بالشر والإقبال ، وفزع المسلمون إذ باعتههم اشركون من خلفهم ، وحل فيهم الخوف عند ما سمعوا الخمر الرهيب ، فتشتتوا ، وفرت جماعة منهم إلى المدينة ، من بينهم عثمان نفسه ، ذلك أن أياض ملأ صدره . ووقع شهيداً في هذا اليوم عدد غير قليل من أجلاء الصحابة وأشرافهم ، بينما أخذ أعداء الله يرمون وأبلا من الحجارة والسهام على الجمع الصغير الذي أحاط بالرسول ، فوقع حجر ، وقدره عنة بن أبي وقاص ، على عميد فكلم شفته وكسر إحدى أسنانه الأمامية ، وأصابه حجر آخر في معمره فاعرست خلفات في وجهه وأحرق أبو عبيدة تلك الخلفات التي اعرست في اللحم بأسنانه ، فكسر على كل حله سناً من أسنانه ، ومض مبتهجاً اسم أبي وقاص من جراح المصطفى ، فأثار ذلك الإخلاص العميق عطف محمد فقال : « من من دمه دى لم نسه أنار ، كيف يفلح قوم حصوا وجه نبيهم باسم ، وهو يدعوهم إلى ربهم ؟ ! » . وارتدت المعركة خطراً ، ودفع محمد على بعثة منه ، فوقع في حفرة عميقة لم يرها ، لكن سرعان ما حلصه منها على وطلحة ثم أقبل على وصبغته أو بكر وعمر اللذان جرحا بسورهم ، فانقصوا على الكافرين الذين ما فتئت جموعهم تزداد ، حتى أشكوا على الإحاطة بالمؤمنين . وفي بعض الأوقات ما كان الرسول يجد من حوله إلا أما دحانة الذي جعل من حمله درعاً كستها السهام ، وأنا طلحة الذي يدود عنه بحججته الحديدة وكان أبو طلحة رجلاً رامياً ، شديد اليرى ، فكسر في ذلك اليوم ثلاثة أقواس وهو يثنيها . وصار

رسول الله يشرف على القوم ، ليرى مواقع الليل ويدير المعركة ، فيقول له أبو طلحة « يا نبي الله بأني أنت وأمي ، لا تشرف على القوم بصبك سهم من سهامهم ، فحري دون نحرك » . وفي هذه الآونة رأى سهماً من سهام الأعداء ، فحاول أن يشبهه ، فخرجت يده ولم يعد يقدر على استعمال قوسه ، فأسفل سيفه ، غير أن الإعياء والكلل كانا قد نالا منه كل منال ، حتى كان سلاحه يكاد يفلت من يده لصرط إعيائه . وكانت أم عمارة ، وهي امرأة شجاعة من الأنصار ، تحمل على ظهرها ماء تسقى به المؤمنين ، لتجلبد فيهم النشاط ، فأمسكت بسيف ، وباشرت القتال برجولة وشهامة جنباً إلى جنب مع الرسول حتى وقعت جريحة

وشامت ظروف المعركة أن تفرق بين الرسول وبين علي وعمر وأبي بكر ، فلما سمع هؤلاء تنادى المشركين بموته وحنّت قواهم ، وضعوا ، فأضحوا كأجساد بلا أرواح ، وأصبحوا لا يفكرون ، حتى في الدفاع عن أنفسهم . فر بهم أنس بن النضر وهم على ذلك فوبخهم قائلاً : ماذا مجلسكم ؟ . قالوا : « قتل رسول الله » . قال : « فإذا تصنعون بالحياة بعده ؟ فموتوا على ما مات عليه رسول الله » ، وأعطاهم من نفسه قسوة فاستقبل القوم وقاتل فوق وقع وقد أنختته الجراح ، حتى ما عرفه إلا أخته ، عرفته بيتانه .

وبدأت الیقظة وثارت الحمية ، فنجبل على وأبو بكر وعمر من تحادهم ، واقتلوا بأنس ، فانقضوا ، ومن ورائهم زمرة من المؤمنين ، يريدون جمعاً غفيراً من الأعداء يتوالب على نقر قليل من المسلمين صمد أمامهم . وهجأة رأى كعب بن مالك النبی من بين هؤلاء الأبطال ، وكانت عيناه ترهران من تحت المعبر ، فنادى بأعلى صوته « يا معشر المسلمين ، أيسروا !! هذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم !! » . وأثار تلك الصيحة شجاعة القوم ، فأقبل المسلمون من كل صوب يريدون الجهة المشار إليها ، فلما أنقذوا الرسول ، انقضوا على الأعداء ، وقد توقفت فيهم حمية لا تقهر ، ففتحوا لأنفسهم طريقاً رصفوه بالجنث الدامية حتى مضيق عينين الذي ما كان لهم أن يركوه ، وعلى هذا المكان المسيع انكسر هجوم المشركين : فصاح أبي بن خلف حاصماً : « أي محمد ، لا نجوت إن نجوت ! » .

وأراد القوم أن يرموه بالسهم ، فنهزم الرسول ، وتناول حربة من يد الحارث ابن الصمة ، وطع به أبا بن خلف في عنقه طعنة تدأداً منها عن نفسه مراراً ، وحاول أن يتعلق بدوابته ، لكن عبثاً حاول ، فوقع على الأرض ، وأفلح المشركون عن ثأره ، إذ كان الإعياء قد نال منهم كل منال . . .
وانتهى على ذلك القتال . . .

وعثر على عليّ قليل من الماء في مجرة ، فلأمنه درقته ، وجاء به الرسول ليشرّب منه ، فوجد له رائحة كريهة فعذفه ولم يشرب منه ، فاستعمه عليّ في غسل جراح مصطفي الله . ولكن ذلك لم يجد شيئاً ، إذ لم يكف الدم عن السيل سيلاً مخيفاً ، وأجبراً أقست فاطمة من المدينة قلقة ، وعلى إثرها صوحت ها ، فأحرقت قطعة حصير حيز راني ، وجعلت رمدها على جراح أبيها ونقطع نزيه الدم .
وفرغ الرسول من نصميد جراحه ، فصلى الظهر قاعداً ، سب ما ناله من الإعياء الشديد وما عاناه من الجراح وصلى القوم من ورائه قعوداً للسب نفسه ، شاكرين المولى القدير على إنقاذهم رغم عصيانهم .

وكان عدد الموتى في هذا اليوم يساري عدد الأسرى المشركين يوم بدر . فرأى كثير من المؤمنين في تلك المصادفة لغريبة عقاباً لهم ، إذ دفعهم حبهم للديار بعد بدر ، إلى تسليم هؤلاء الأسرى إلى المشركين طمعاً في المال وكانت حثث أوثق انشغاد في حال يرثى ها . لقد طحنت لسه قریش إلى الثأر ، فتركن اللعوب ، ورتعن على القتل يمثل بهم ، وقد سفتن رئيسهن هند في مضمار الوحشية فاتحدت من آردن لرحان وأبوتهم فلائد وأقراط ، وأعطت أقراطها وفلائدها وحرما « وحشاً » ووقعت وكأنها الشهيد ، على جثة حمرة ، فبقرت بطن شهيد بأظافرهم السامية ، وجعلت الكند ولاكتها بين فكيفها ، بحق ووحشية ، فلم تستطع أن تسيبها ، فلفظتها ، ثم عتت صحرة مشرفة ، وولت وجهها شطر جند الإسلام ، وصرخت بأعلى صوته :

نحن جزياكم بيوم بدر	والحرب بعد الحرب ذات سحر
ما كان من عتبة لي من صبر	ولا أنخي وعه وبكرى
شفيت نفسي ونصبت نرى	شفيت وحشي عيل صبرى

فشكر وحشي على عمرى حتى ترمى أعظمى في قري
كان أبو سفيان يحوب ميدان القتال أملا في العثور على جثة محمد . فلحق
حطة حمرة على حين أقبل الحليس سيد الأحابيش ، فحمل أبو سفيان يضرب في
شدة حمرة بزج الرمح قائلا : « ذق عقي » .

وقد غضب الحليس ، برغم إشراكه لذلك الفعل الشيع ، فصاح في قومه :
« يا بني كنانة ، هذا سيد قريش يصنع بآبن عمه لحماً ، ماتروا ؟ » فخجل
أبو سفيان من سدوكة ، وأوقف الحليس ورجاه قائلا « ويحك اكتمها عني فلا
كانت زلة » . ثم اقترب أبو سفيان من المؤمنين حتى صار في استطاعته محادثتهم ،
وهم متحصنون بسموح أحد ، فصاح فيهم : « أحمده بينكم ؟ » . فلم يتلق جواباً ،
فاستتج أن محمداً قد مات ، فصاح بأعلى صوته قبل أن ينصرف : « أعمت فعال ،
إن الحرب سجال ، يوم بيوم بدر ، أعلى هبل » .

فلما سمع الرسول ذلك الإصفاة أمر عمر بالرد عليه ، فصاح عمر قائلا :
« الله أهلى وأجل ! » .

عرف أبو سفيان صوت عمر ، فسأله « أشدك الله يا عمر ، أقتلنا محمداً ؟ »
قال : « اللهم لا ، وإنه ليسمع كلامك الآن » ، فخاب ظن أبي سفيان فقال :
« أنت أصدق عندي من ابن قمشة وأبر » ، لقول ابن قمشة لهم : إني قد قتل
محمداً . ثم نادى أبو سفيان :

« إن موعدكم بدر للعام القابل » . فأجاب عمر : « نعم هو بسنا وبسنتك
موعد » .

ثم بعث الرسول علي في آثار المشركين وقال له : « اخرج في آثار القوم ،
فاظر ماذا يصنعون ، وما يريدون ، فإن كانوا قد جنّبوا الخيل وامتطوا الإبل ، فإنهم
يريدون مكة ، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل ، فإنهم يريدون المدينة ، والذي
نفسى بيده ، لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها » ، ثم لآناجرتهم » .

وخرج علي ، وما لبث أن رجع ، وقد رأى القرشيين يجنّبون الخيل ويمتطون
الإبل مولين شطر مكة .

فاطمأن المؤمنون ، وخرجوا لمؤارة شهدتهم ، وخرج النبي يلتبس عمه حمرة ،

فوجده بمنخفض الوادى ، قد بقر بطنه ، وجذع أنفه وأذناه ، فقال حينها رأى ما رأى : « لولا أن تحرر صفية ، وتكون سنة من بعدى لتركته حتى يكون فى بطون السباع ، وحواصل الطير ، ولئن أظهرنى الله على قريش فى موطن من المواطن لأمتلن بثلاثين من رجالها » . فمزل عليه الوحى :

« وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ »

فماتلى الرسول هذا التسيه ، أفلح عن عزمه ، وهوى المؤمنين على المثلة بالأعداء . ووصلت أخبار خسائر المسلمين إلى المدينة ، وجاءت النساء ، ومن بينهن صفية بنت عبد المطلب ، ليدارين البحرى ، ويبكين الموتى فلما علم الرسول بمجىء صفية ، أمر ابنها الزبير بن الدوام ببقائها وإرجاعها ، لئلا ترى أخاها وقد شوه وجهه تشويهاً شنيعاً فأجابت : « ولم ؟ وقد بلغنى أنه قد مثل بأخى ، وذلك فى الله ، فما أرضاه بما كان من ذلك ، لأحتسب ، ولأصبرن إن شاء الله » . وأتت أخاها : حمزة ، ونظرته نظرة طويلة ثم انصرفت بعد أن صلت صلاة حارة وهى ثابتة الجسان .

عندئذ بدئ فى دفن الموتى ، فشيح الرسول حنة عمه حمزة ، ثم جمع الجثث اثنتين أو ثلاثاً فى كل صريح يعبر عنهم كالعادة ، وذلك لئلا يرهق المؤمنين ، وهى :

« أنا شهيد على هؤلاء إنه ما من جريح يجرح فى الله إلا والله يبعثه يوم القيامة ، يمدى جرحه ، اللون بون دم ، والريح ريح مسك » . وعلم الرسول أن كثيراً من الناس قد نقلوا موتاهم إلى المدينة ليدفنوهم بها فهاهم قائلا : « ادفنوهم حيث صرخوا » .

ولم تكن لموقعة « أحد » نتائج ضارة بالإسلام — كما يتصور بعض الناس . فإن كان الإسلام قد عانى فيها خسائر أليمة ، فقد جنى منها الكثير من الفوائد المعنوية ، ولم تنتج الهزيمة إلا من عصيان اخمد لتسيهات الرسول الحكيمه ، ثم مخالفة أوامره الصارمة قبيس القتال ، فكان هذا إشارة للمؤمنين أن يلتزموا فى المستقبل الطاعة التامة لنبههم ، وأن ينفذوا أوامره بكل دقة ، حتى فى حالة ما إذا افتقد

الرسول أو مات وقد نصت على ذلك الآية التي تشير إلى فترة اليأس التي انقضت حليماً وأما بكر وعمر :

« وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ »

والواقع أن الهزيمة تزيد العزم قوة ، والحماسة اشتعالاً ، إذا كان الإيمان صادقاً متوقفاً :

« وَكَأَيُّنْ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبُّهُنَّ كَثِيرٌ ، فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ » .

ولم تعد الرحمة بالمشركين مشروعة ، فقد جعلها تشييعهم الوحشية بالشهداء السبعين ضرباً من المستحيل ، وكذلك فرق الله بين المؤمنين المخلصين والمنافقين من أمثال عبد الله بن أبي بن سلول وأشبهه . وكان الرسول عليماً بأحلاق المنافقين ، غير أن عامه المسلمين لم يكونوا يدرون مدى غدر هؤلاء ونفاقهم ، فظهر لهم ذلك جلياً ، بعد نكزاتهم الحثيث في ساعة الخطر ، وقد شهد محمد صلى الله عليه وسلم بفضل أحد رغم الهزيمة ، على المسلمين ، وجعل مه ساحة حراماً حرمة ساحة مكة .

زواج محمد بزَيْنَب (١) :

أعتق النبي صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة وتبناه ، ثم زوجه ابنة عمته : زَيْنَب بنت جحش . وأصبح زيد كفرد من أفراد أسرة الرسول : يعامل معاملة الابن الحقيقي جريئاً على عادة العرب بالنسبة للمتبني .

لم يكن الرسول يفكر في الزواج بزَيْنَب ، لا قبل زيد ولا بعده ، وإلا فأى شيء كان يحسه من التزوج بها بكراً غضة الإهاب ، وقد كان يملك من أمرها كل شيء ؟

(١) جازى المؤلف في كتابته عن زواج زيد بعض الروايات التي ذكرت في السيرة ، ولكننا رأينا أن النصوص الصحيحة والقرآن يحذفان رأيه ، فحرف هذا الموضوع بتصرفي وهذه المناسبة تذكر أن المؤلف كان يروي بعض الأحاديث عن الرسول وعن الصحابة وهذه الأحاديث أبعد أصلها العرب ، حينما كتب مدثر عاينه في كتب السيرة ، وكذا ترجمته بالمعنى ، ولم مدثر عن أصلها العرب ، أو إذا كان المؤلف نفسه قد تصرف فيها بحسبه .

على أن زواج زيد بزينب كان بوحى سماوى وأمر إلهى ، لأن زينب وأهلها
أدرا أن تتزوج بهذا العبد المحرر ، ذلك أن العرب تنعصب للأنسب ، وتفتخر
بالآباء والأجداد ، فامتنعوا ، ورأوا أن ذلك عار عليهم ، فنزلت الآية الكريمة :
« مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا - أَنْ يَكُونَ
لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ » .

وامتثلت زينب أمر الله ورسوله في هذا الزواج ، إلا أنها كانت تشعر بأنها
شريفة قريشية ، وبأن ريداً كان عبداً محذوفاً . لذلك كانت تتكبر عليه وتصرمه ،
فشكا ذلك إلى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وأراد غير مرة أن يطلقها ، ولكن
الرسول كان يقول له : « أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ » مع علمه صلى الله عليه
وسلم بأن الله سيزوجه بها تشريعاً جديداً ، وقضاء على عادة تأصلت في نفوس العرب :
هى معاملة المتبى معاملة الابن الحقيقى .

أراد الله تعالى القضاء على تلك العادة . فنزلت الآيات :

« . . مَا جَعَلَ أَذْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ، ذَلِكَمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ، وَاللَّهُ
يَقُولُ الْحَقَّ ، وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ . أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ ، هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ،
فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ ، فِإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ . . . » الآية
[سورة الأحزاب ، ٤ - ٥]

وكان من الممكن أن تستمر هذه العادة من الناحية العملية مع زوال الاعتقاد
فيها من الناحية النظرية ، وكان لا بد من عمل حاسم ، فنزل :

« مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ . . » الآية [الأحزاب ، ٤٠]
وكان زيد قد قضى من زينب وطراً ، ولم يعد له بها من حاجة ، ولم يعد
يحتمل العيش معها فطلقها ، فأمر الله الرسول أن يتزوج بها ، ولكن الرسول في
نفسه كان يخشى على صغاف الإيمان سوء الظن ومن الكفار الدعاية السيئة فنزلت
الآية الكريمة الجامعة :

« وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ . أَمْسِكْ عَلَيْكَ
زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ، وَكُفِّ عَنِّي نَفْسِيكَ فَمَا لِلَّهِ مُبْدِيهِ ، وَكَفَّ عَنِّي لُبَّاسَ

وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنْ تَحْشَاهُ ، فَمَا قَصَى رَنْدُ مِنْهَا وَطَرًا رَوْجًا كَهَا ، يَكُنْ
لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَصَرُوا مِنْهُمْ وَطَرًا ،
وَسَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَعُولًا »

[سورة الأحزاب ، ٣٧]

وتزوج الرسول تنفيذاً لحكم الله وقصائه المبروص :

« مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ، سُئِنَ اللَّهُ فِي اللَّيْلِ
خَلَّوْا مِنْ قَتْلٍ ، وَسَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا » [الأحزاب ، ٣٨]
ولما كان زواجها بالنبي صلى الله عليه وسلم من الله وحده ، ولا دخل لأمر
آخر فيه كانت تفتخر بذلك وتقول لداق الزوجات : « إن الله تعالى نولي
إنكاحي » .

وكان ذلك ابتلاء عظيمًا ، سواء نظرنا إليه بالنسبة لزيد وزينب أولاً ، أو بالنسبة
إلى النبي صلى الله عليه وسلم ثانياً .

غزوة ذات الرقاع (سنة ٤ هـ ، سنة ٦٢٦ م) :

علم الرسول أن بني محارب وبني ثعلبة يسجد ، قد أعدوا العدة ليحملوا عليه ،
فمرم على سبقهم والتقدم لمواجهةهم . ولم يستطع لعجلته في الرحيل ، أن يجمع
إلا انقلبين من الجمل ، فكان نصيب كل سنة من الجنود بغيراً ، يتناوبونه بينهم ،
كل سورة ، فلاحق بأرجلهم أدى من أثر الصخور الحدة التي أدمتها وجمعت
منها لأطافر ، فكان المؤمنون يلهو بها بوقع من انقماش ، ومن ذلك سميت الغزوة
بذات الرقاع .

وبعد أن عسكر حند محمد في بطن نحل ، وجدوا أنفسهم أمام الأعداء
مجمعين . فنت الجيشان متواجهين لا يحرز أحدهما على البدء بالقتال ، ولم يتقدم
المؤمنون ، إذ كانوا قلة بالنسبة إلى أعدائهم ، ولم يتقدم المشركون إذ حل بهم لرعب
من حند الإسلام بعد انتصاراتهم المتوالية .

وفي هذه الأثناء شرع الرسول صلاة الخوف ، فقسم المؤمنين فثنين تتناوبان
الصلاة وملاحظة العدو .

وقد أتى الخلاء ليباغتوا المسلمين ، فوجدوهم على أهبة القتال ، بل وجدوهم تقدموا يطلبونه ، فأخافهم ذلك ، وألقاهم ثبات المسلمين ، فأخذوا في التراجع ، الجماعة منهم تلوا الجماعة . وانقلب الحذر الشديد ، الذي اتبعه المسلمون في الساعات الأولى إلى مبالغة في الاطمئنان . من ذلك أن القائلة أدركتهم فتمرقوا يستظلون بأشجار الطلح ، التي كانت تكسو الوادي ، مهملين حراسة أنفسهم ، فلاحظ الأمر أعرابي من بني عمارب ، فتسلل راحضاً حتى وصل إلى مجلس النبي ، فاخترط سببه ذا المقبص الفضي ، وكان معلقاً بغصون الشجيرة التي بنام في ظلها ، وقال للرسول : « دعني أنظر إلى سيحك هذا » . وسر بيده حد السيف ليختبره ، ثم جعل يهزه فوق رأس النبي صائحاً : يا محمد أما نخافني ؟ قال : « لا ، وما أخاف منك ؟ » . قال : « أما تخافني وفي يدي السيف ؟ » . قال النبي بصوت هادئ رزى ، مصوراً نظراته إلى الأعرابي : « لا ! فإن الله يمنعني منك » .

ودعش البدوي لهذا الخلو في ذلك الموقف ، وأحس بقوة إلهية تقبض عليه ، وشكاد توقف دقات قلبه ، فتصيب على وجنتيه عرق بارد ، وتفككت أنامله القابضة على السيف ، وسرعان ما وقع هذا السيف من يده أمام محمد الذي التقطه بهدوء وقال : « والآن ، ما يمنعك مني ؟ » . فقال الشقي ، وقد ملأه الرعب : « كرمك » . فركه الرسول يبتعد ، دون أن يطلب منه شيئاً ، يريد بذلك أن يبين للمشركين كرم الإسلام حتى يقبلوا عليه راغبين ، فانصرف الأعرابي إلى قومه ، وكان قد وعدهم برأس محمد ، فقال حين أنامهم : « لقد رأيت أكرم الناس » . ثم رجع إلى الرسول ، فأسلم بين يديه .

غزوة بني المصطلق (سنة ٥ هـ ، ٦٢٧ م) :

تحرك بنو المصطلق بنوهم ، وآمروا على الإسلام ، فعقد محمد العزم على ودعهم . فقام إليهم في جيشه ، حتى لحقهم في أرضهم بقديد ، عند ماء يقال له « المريسيع » . فتقابل الجيشان ، واقتتلا ، فهزم الله بنى المصطلق ، وأوقع في يد جند الإسلام غنائم عظيمة ، من إبل ، وغنم ، وسبايا . وكان من بين السبايا ابنة سيد بنى المصطلق ، وكانت فتاة مليحة ، تدعى « جويرية » ، وقد وقعت في السهم

لثابت بن قيس فكاتبته على نفسها بمبلغ من المال كبير فطير عتقها ، ثم أتت الرسول ، فقالت له :

« يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار ، سيد قومه ، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك فجنتك أستعينك على كتابتي » .

فقال لها : « أفضى عنك كتابك وأتزوجك »

فقبلت وعزم النبي على الزواج منها رغم غيرة عائشة التي رأت من جويرية ملاحاة وجمالا .

وفي هذه الأثناء أتى الحارث بفدية بنته فأعاد محمد جويرية إليه ، لكن ليخطبها في الحال ويهرها أربعمائة درهم . وما إن ذاع خبر ذلك الزواج ، حتى قال المؤمنون . « أصهار رسول الله أصهارنا » . وأرسلوا إلى بني المصطلق بما في أيديهم من خاتم وسبايا ، فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها من جويرية .

وبينا الخند على ماء المريسيع يسقون دوابهم اللاهثة بعد القتال العنيف ، إذا بحادث يوشك أن يوقد الفتنة بين المهاجرين والأنصار :

كان جهجاه يقود فرس عمر بن الخطاب ، فراحم على الماء سنان بن وهر الحنفي حليف بني عوف بن خزرج ، فغضب سنان ، واقتتل الرجلان ، فوقعا على الأرض ، وصاح سنان : « يا معشر الأنصار ! » . وصرخ جهجاه : « يا معشر المهاجرين ! » . ففرق الناس بين الخصمين في الحال . فلم ينتج عن ذلك الحادث شيء مباشر . لكنه أثار غبط الناس من الجانبين . وزاد الطين بلة ، قول عبد الله ابن أبي بن سلول المنافق — وكان قد شاهد الحادث — : « لو قد فعدوها ؟ قد نأفرونا وكأثرونا في بلادنا ، والله ما أعُدُّنا وجلايب قريش هذه إلا كما قال الأول : سمن كلبك بأكلك . أما واقع لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » . وسمع ذلك زيد بن أرقم ، فحشى به إلى رسول الله ، وأخبره الخبر وعنده عمر بن الخطاب الذي انتفض غاضبا وصاح : « يا رسول الله ، مر به عباد بن بشر فليقتله » فأجاب الرسول : « كيف يا عمر ! إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » . ثم قال لعباد : « لا . ولكن أذن بالرحيل »

وكانت الشمس تسطع في كبد السماء ، والحر شديد منهك ، والساعة لا تناسب

الرجل . غير أن النبي صرب ناقته على لحم نطنها الداعم لحنها على السير .
فرحل بجلده وراءه .

وساروا يومهم هذا حتى أمسوا ، وليتهم تلك حتى أصبحوا ، ويومهم ذلك
حتى عدوا . وأنتد رأى النبي جلده انشد د وقد نال منهم التعب ، فرحوا بترحمون
من الإعياء ، فأمر بحد الرحال ، فلم يلبثوا أن وجدوا من الأرض ، حتى وقعوا
نياماً ، وقد أرهقهم مشقات الطريق ، هم يستطيعوا إلقاء العيظ الذي في
قلوبهم ، والذي كان من شأنه — لولا حكمة النبي — أن يثير بين المسلمين فتنة
دائمة .

وكان لعبد الله بن أبي المداق ابن مؤمن محص الإيمان يحسن أيضاً اسم
عبد الله ، فأتى الرسول وقد له . « يا رسول الله ، بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن
أبي بن سلول فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلا ، فمربي به ، فأنا أحمل إليك رأسه ،
فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبر بالده مني ، وإني لأخشى أن
تأمر به عبري نيفته ، فلا تدعني نفسي أضرب إلى قاتل أبي يمشي بين الناس
فأقتله ، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر ، فأدخل النار » .

فهذا الرسول من روع ذلك المؤمن القوي لإيمان وقال له : « بل ترفق به .
ونحسن صحته ما دام معنا » .

التيمم :

في هذه الرحلة نزل الوحي بالآيات :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ، وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى
الْعَرَائِقِ ، وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ ، وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ . وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً
فَاطَّهَرُوا ، وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى ، أَوْ عَلَى سَفَرٍ ، أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ ،
أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ ، فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً ، فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ، فَامْسَحُوا
بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ، مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ ، وَلَكِنْ يُرِيدُ
لِيُطَهِّرَكُمْ ، وَلِيُتِمَّ بِعَمَلِكُمْ ، لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » .

هكذا شرع التيمم الذي يمنع المؤمنين من تماشى فرص الوضوء لأنه أبعد عنهم حجة عدم نوافر الماء اللازم ، تلك الحاجة التي كثيراً ما كانوا يتعقون بها في الصحراء .

حرب الخندق (سنة ٥ هـ ، سنة ٦٢٧ م) :

خرج إلى مكة وفد من قبيلة بني النضير ، وبعض الغاصبيين من بني وائل ليعرضوا على القرشيين التحالف معهم ضد محمد . ولحق بهم الأحابيش وقبائل العظمايين من أهل شمالي الحجاز . فحدثت في مكة مؤامرة واسعة النطاق تهدد المدينة من كل جانب .

ولما أحيط النبي علماً بأهمية تلك الغزوة ، سهل عليه إقناع المؤمنين بأن طريقة النجاة الوحيدة هي في انتظار العدو وراء حصون المدينة .

وكانت المدينة محصنة من كل جانب بالسدود والقلاع والبساتين ، غير أن الجانب الشمالي كان صعباً يعرض للأعداء مفقداً يخشى منه هجوم عنيف . فأنشأ سلمان الفارسي ، وكان حديث عهد بالإسلام ، على الرسول باتخاذ تدبير مبدئ للدفاع ، وهو أن يحفر خندقاً يحيط بالموقع الضعيف . وكان سلمان قد رأى شيئاً من ذلك في بلاده . واقتنع محمد بحجج الفارسي ، مما جعله يأمر في الحال بحفر الخندق ، فنزل جميع المسلمين إلى ساحة العمل ، مؤمنين بصواب رأي نبيهم وبصدق بصيرته . على أن حالهم كان يرثى لها وكانوا يتحملون متاعب كثيرة ، فقد هبت عليهم رياح باردة ثجية ، كتلك التي يكثر هبوبها شتاء على تلك الرديان الصحراوية ، ذات الإشعاعات الشديدة ، فأوشكت أجسامهم أن تتجمد برداً ، وقطع الأعداء طرق المؤونة عنهم ، فأصبح المؤمنون والجوع يعرض فيهم ويوشك أن يشل قواهم ، لولا إيمانهم الذي كان يبعث فيهم الدفء والقوة ، وكان غداؤهم الوحيد حبات من الشعير المطبوخة في دهن الضأن الذي بدأ يتسد .

وعلى الرغم من ذلك فقد كان الذين يعملون في الخندق يرمون الرمل بمرح واستئثار ، فهبط مطيح الخندق بسرعة . وقد حاجأهم صخرة اشتدت على معاولهم ، فلم يستطيعوا اقتلاعها ، فأخذ محمد قليلاً من الماء في فيه ثم نضح به على الكدية داعياً الله القدير ، ثم عادوا إلى الحفر فلم تلاق أذرعهم من عائق .

إذ ضاعف الإيمان قواهم ، الإيمان الذي بعثه الرسول في قلوبهم بعمه هذا ، فتفتت الصخرة تحت ضربات المعاول ، وانهارت حتى عادت كالكتيب .

ولم يكد المؤمنون يستهون من حفر الخندق ، حتى اختفى السهل تحت مخيم جيش الأعداء المكون من عشرة آلاف رجل من قريش وكنانة وخطفان ، وعرب تهامة وعرب نجد ، وغيرهم ... وتخوف المشركون ، رغم تفوقهم في العدد ، من عاقبة قتال سيد المرسلين ، فجعلوا يبحثون عن حماء جدد ، وخرج علو الله - حيي بن أخطب - حتى أتى كعب بن أسد ، أمير قبيلة بني قريظة اليهودية ، وكان قد عاهد الرسول رغم عدوته الشديدة له - فضاق كعب بزيارة حيي وصبه قائلاً : « ويحك يا حيي ! إنك امرؤ مشنوم ، وإني قد عاهدت محمداً ، فليست بناقصر ما بيني وبينه ، ولم أر منه إلا وفاء وصدقاً » . فقال حيي : « افتح الباب فما أريد إلا أن أقاسمك في دثيثتك وأن آكل منها معك » ، ففتح له . فلم يكد حيي بلحل حتى فاتح مضيه بموضوع زيارته ، وأبان له عن قوة المتحالفين المعسكرين على جبل أحد ، ثم أكد له اعتقاده الراسخ في أنهم يستطيعون أن يجعلوا من محمد أنراً بعد عين . غير أن كعباً أجاب ، ولم يرل متردداً : « جئني والله بذل الدهر ، وبجهاهم قد أهرق مائه ، فهو يرعد ويرق ، وليس فيه شيء » . ويحك يا حيي ! فدعني وما أنا عليه .

فلم يزل حيي بكعب يمتله في الدروة والغارب ، حتى أغره بمسخ عقده مع محمد ، وعقد مهادنة مع المشركين . فلما انتهى خمر ذلك إلى الرسول ، بعث سعد ابن معاذ وسعد بن عباد وخوات بن جبير لينظروا : أحقاً كان ما بلغه ؟ فخرجوا حتى أتوا بني قريظة ، وذكرهم بميثاقهم ، فلم ينالوا منهم سوى هذا الجواب : « من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقبه » . وكان لهذا العثر خطره فبنو قريظة كانوا يعلمون تمام العلم أسرار المؤمنين ، ونقط الضعف في المدينة . فقال الرسول ليظمن أتباعه عند رجوع وفده بالخبر : « الله أكبر ! أبشروا يا معشر المسلمين » ، يريد بذلك أن بني قريظة سوف يعزول المؤمنين عما قريب بأسلابهم ، بعد أن غلروا بهم هذا العثر القسيح . بد أن منظر الآلاف العشرة من الرماح البراقة ، وقد كست السهل ، لم يكر ليظمن المؤمنين ، وقد وقفوا على شرف فلاعهم .

وأخذ المنافقون كعادتهم ، يثبتون في الناس الرعب بدلا من أن يحشواهم على الثبات ، فيقولون : « كان محمد بعدنا أن نملك كدور كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى العائط » . وأخرج الرسول جلده ، لبشغلهم عن أحاديث اليأس ، وصفهم وراء الخندق ، جاعلا طهورهم إلى جبل سلع ، فأتاه بعض الحسناء يستأذنه في الرجوع قائلين : « إن بيوتنا عورة » .

و . وَبَسَّأَذُنْ مَرِيْقُ مِنْهُمْ السَّيِّءُ ، يَقُولُونَ : إِنَّ بَيْوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ، إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا . . . وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ، ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا ، وَمَا تَلَسَّوْا بِهَا إِلَّا بِسِيرًا .

وكان القلق في الواقع عظيماً ، لكن إيمان المسلمين المخلصين وهدوء الرسول قضيا على هذا القلق ، فضلا عن أن الخلفاء كانوا لا يزالوا يحسون بالرعب الذي أحسوا به إزاء القوة الخفية التي لاقرها في كل معركة لهم مع جند الله ، وخافوا أن يخاطروا بالهجوم قبل التأكد من أن الدائرة لن تدور عليهم ، فقتعوا بالاقتراب من المدينة . .

وأقام الناس على هذه الحال بصعاً وعشرين ليلة لم يكن يسهم خلالها من حرب إلا الحصار والرى بالسيال رمياً لم يكن فيه ضرر ولا نفع . وأخيراً جعل فوارس من قورش وكثانة من قعودهم ، فتهبوا للقتال ، وخرجوا في كوكبة متقاربة الأفراد ، ومالوا على رقاب خيلهم ، فأقبلت تمنق بهم حتى اختفوا في هالة من الغبار المظلم . . . وفجأة توقف السيل الآدمي ، فزالت هالة الغبار التي سترت فوارس المشركين ، ورآهم الناس قد جعلوا رعباً أمام الخندق العميق ، الذي كاد ياتهمهم في جوفه ، بينما الخيل ، على حافة امادية ترتجف سيقانها المتوترة ، وأبرمها ترتعد ، وأهواها ملثوية مخضبة بالدماء التي أسالتها جذبة الحطام القوية لإيقامها .

وصاح المشركون « والله إن هذه الحكيمة ما كانت العرب تكيدها » . ثم توجهوا نحو مكان ضيق من الخندق ، وهزوا خيولهم هزاً شديداً فافتحمت في قفزة هائلة ، ونزلت بهم على الساحة الأخرى ؛ فخرج إليهم على نفر من المسلمين ، ووقف بينهم وبين الخندق ، فقطع عليهم طريق المروء .

فتقدم عمرو بن عبدود ، وهو فارس يمتاز بقامته الهائلة ، وراح يتلطف بأقبح الشتائم ، ويتنادى المؤمنين إلى المبارزة ، فاستأذن على بن أبي طالب الرسول في الخروج إليه . فآذن له ، وألبسه درعه وعمامته ، وشد سيفه ، فقام إلى عمرو بن عبدود ووقف أمامه . فاستصغره العارس الرهيب ورحم شبابه ، وقال : « والله ما أحب أن أقتلك لأن أباك كان يديمي » .

فأجابه على : « ولكني والله أحب أن أقتلك » .

فاغتاض عمرو لذلك ، فنهه على بن أبي طالب أنه وإن كان قد احتقر ضعف حصمه ، فإنه لم ير حرجاً في ركوب فرسه أمام خصم مروح ، فقفز عمرو عن فرسه فخره لئلا يستعين به في القتال ولا في الفرار ، ثم لطم وجهه بقبضته وقد جن جنونه أمام سخرية حصم صغير مثل هذا . ثم وثب على غريمه فضربه ضربة شديدة أصابته في جبينه إصابة خفيفة بعد أن خرقت ترسه ، غير أن علياً تراجم كالبرق وباعت عنقه بوثبة فجائية ففقد هذا الأجير توازنه ، إذ استدأر ليجابه ، ولم تفت علياً الفرصة ، فضرب عنقه ضربة بارعة ، جعلت السيف يذو من بأكفه في صدر عمرو بعد أن قطع أوداجه ، وسال الدم غزيراً من الجرح العميق فترنح للعقاق ساعة وهو يئن كالسكير ثم حر كالتسيان ، شاهقاً شهقة الموت ، بين يدي بطل الإسلام .

وكبر المسلمون لهذا النصر وهللوا ، بينما فر باقي المشركين مذعورين ، وحيلهم نعتق بهم غير أن رجلاً منهم يقال له عبد الله بن نوفل لم يحسن الفهم فوق الخندق ، فوقع فيه بفرسه وابهال عليه وابل من الحجارة ، فأنهى الزبير عدابه بصرية سيف شقت جسمه نصفين ، ولم يقف السيف إلا على الرجل .

وكانت صغية عمه الرسول في أعلى حصن حسان بن ثابت ، تلاحظ الأعداء ، وكان حسان بجانبها ، فمر بهما رجل من اليهود يطيف بالحصن ، فقالت لحسان : يا حسان ، إن هذا ليهودي كما ترى يطيف بالحصن ، وإني والله ما آمنه أن يدل على عورتنا من ورائنا من يهود ، وقد شغل عنا رسول الله وأصحابه ، فانزل إليه فاقتله . فقال : « يهر الله لك يا بنت عبد المطلب ! والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا ، إني شاعر ولست بصاحب حرب » .

فلما رأت صمية الشجاعة منه ذلك ، هزت كتفيها احتقاراً ، وأخذت عموداً ثم برلت من الحصن إلى اليهودى ، فضربت به العمود على رأسه حتى قتته ؛ فلما فرغت منه رجعت إلى الحصن فقالت لحسن : « انزل إليّ فسلبه ، فإنه لم يمنعني من سبه إلا أنه رجل » .

ظل الناس أياماً على تلك الحال ، واقتصرت القتال على منوشات لا أهمية لها . غير أنه إن كان الهجوم من جانب الأعداء لا يخشى ، بفضل الخندق الذى أفسد حطط المشركين ، فإن المجاعة كانت تهدد بالقضاء على المحاصرين أجمع ، فكان القلق عظيماً في صفوف المسلمين .

وفي هذه الأثناء أتى نعيم بن مسعود سيد عطفان رسول الله ، فقال له : « يا رسول الله ، إني قد أسلمت وإن قوى لم تعلموا بإسلامي ، فرى بما شئت » . فقال النبي : « إنما أنت فينا رجل واحد ، فاحذر عنا إن استطعت فإن الحرب حادة » .

لهم نعيم في الحال ما يجب عليه أن يقوم به ، فخرج حتى أتى بنى قريظة ، وكان لهم نديماً في الجاهلية فقال : « يا بنى قريظة ، قد عرفتم ودي إياكم ، وخاصة ما بيني وبينكم » .

قالوا : « صدقت لست عندنا بمهم » .

فقال : « إن قريشاً وعطفان ليسوا مثلكم ، فأنتم السد بلدكم ، فيه أموالكم وأساؤكم ونساؤكم ، ولا تغفلون على أن تحولوا منه إلى غيره ، وإن قريشاً وعطفان قد جاءوا حرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهروهم عليه ، وأمواهم وأبواهم ونساؤهم وغيره ، فليسوا مثلكم ، فإن رأوا نهضة أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا سلادهم ، وحدوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم ، فلا تقاتلوه مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرفهم ، يكفون ثقة لكم على أن تقاتلوا محمداً معهم حتى تنجزوه » .

فقالوا له جميعاً في صوت واحد : لقد أشرت بأمرى .

ثم خرج نعيم حتى أتى مشركى قريش ، فقال لهم : « قد عرفتم ودي لكم ومراقى صمداً » .

قالوا : « نعم » .

قال : « وإنه قد بلغني أمر ، قد رأيت حفاً عني أن أبلغكموه نصيحاً لكم ، فاعلمكموه حتى » .

قالوا : « نعم » .

قال : « تعلمون أن معشر اليهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد ، وقد أرسلوا إليه يقولون : إنا قد ندمنا على ما فعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وخطمان رجلاً من أشrafهم فنعطيكهم ، فتضرب أعناقهم ، ثم نكون معك على من بقي منهم فنقتلهم حتى نستأصلهم ؟ فأرسل إليهم أن نعم . فإن بعث إليكم بسو يهود يلتصقون رُهناً منكم من رجالكم ، فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً » .

ثم أتى عشيرته من عطفان ، وقال لهم مثل ما قال لقريش ، فأحرز عين النجاح ، وأقسم القرشيون والعطفانيون أن يلتزموا الحرص واحداً .

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس ، أرسل أبو سفيان بن حرب ورموس غطفان بعكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وخطمان إلى بني قريظة ليقولوا لهم . « يا لسنا بدار مقام ، قد هلك الخلف والحافر ، فاخلدوا للقتال حتى نناجز محمداً ، ونمرغ مما بيننا وبينه » .

فردوا عليهم يقولون . « إن اليوم يوم السبت ، وهو لا يعمل فيه شيئاً ، ولسنا مع ذلك بالدين يقاتلون معكم محمداً حتى تعصونا رُهناً من رجالكم ، يكونون بأيدينا ثقة لنا ، حتى نناجز محمداً ، فإننا نخشى إن خسرتم الحرب ، واشتد عليكم القتال ، أن تتشمروا إلى بلدكم ، والرجل في بلدنا ، لا طاقة لنا بذلك منه » .

فلما رجع عكرمة إلى قريش وخطمان بذلك الجواب ، قالتا : « والله إن الذي حدثكم به نعيم بن مسعود عن بني قريظة لحق ! » . وأرسلوا إلى بني قريظة برسول آخر ، ليبين لهم بوضوح أنهم لن يدفعوا إليهم رجلاً واحداً من رجالهم . وعندئذ تحقق بنو قريظة ، بدورهم ، من صحة قول نعيم ، فم بذلك فسخ ما عقد بينهم وبين الخلفاء .

فلما جاء نعيم بالخبر إلى النبي ، سر منه ، ولكنه أراد التحقق من أثره في صفوف غطفان وقريش ، فدعا بحذيفة ، وقال له : « يا حذيفة ، اذهب فادخل في القوم ، فانظر ماذا يصنعون ، ولا تحدثن شيئاً حتى تأتينا »

وفي الظلام الحالكة في تلك الليلة من ليالي الشتاء ، تسلك حذيفة وسط نجيام الأعداء والرياح الصرصر تغلب القصور ، وتطوق البيوت ، وتصفر في الآذان صميراً مؤلماً ، فيرتعد المشركون لها في ثنايا أثوابهم . وصاح أبو سفيان في الناس : « يا معشر قريش ، ليطر كل امرئ من جلسه » أي : احذروا العيون . وكان حذيفة حاضراً ، فأخذ بيد جلسه المشرك وقال له بصوت فيه رنة التهديد : « من أنت ! » ، قال : « فلان بن ملان » . فكره . ولم يفكر المشرك ، وقد أجبر على أن يتبرأ ، في أن يسأل بدوره من جلسه .

وأدى انخزال بني قريظة ، وتعذر وجود العلف للخيول والإبل ، وأخيراً ما كان في تلك الليلة المشؤمة من اضطراب ، إلى سريان اليأس في قلب أبي سفيان ، فدار بينه وبين رموس قريش ، أمام حذيفة المتخفي ، حدث قصير انتهى بأن قرروا الرجوع إلى الديار .

ولحاط حذيفة علماً بما أراد ، فرجع إلى قومه ، فوجد الرسول قائماً يصلي . فلما رآه الرسول أشار إليه بالاقتراب ، وطرح عليه طرفاً من الثوب الذي كان يصلي عليه ليقب البرد ، وأتم صلاته ، ثم أقصت إلى حديث الكشاف الجريء ، وهناك على ما أحرز من نجاح في مهمته .

وفي اليوم التالي ، كان السهل خالياً من الأعداء فخرج النبي عن الخندق وأرجع جيوشه إلى المدينة قائلاً : « الآن نغزوهم ولا يغزونا » .

معاهدة الحديبية (سنة ٦ ٥ سنة ٦٢٨ م) :

رأى الرسول فيما يرى النائم أنه دخل مكة بين أصحابه ، وأنه حاف بمنى فعزم على تحقيق ذلك الحلم الذي عبر عن أعز آمانيه وأمانى سائر المسلمين الذين لم يطوفوا بالحرم منذ الهجرة

وفي شهر ذي القعدة رحل الرسول في أربع عشرة مائة حاج ، يسوقون أمامهم الحدي : سبعين بدنة وخرج من المدينة قاصداً مكة ، ولكنه أراد أن يبين للناس

أنه لم يخرج للحرب ، فأمر بشر الزهور على نحرور الهدى ، ثم أحرم في ذى الحليفة ، فبس ثوب الخجاج المكون من الرداء والإزار ، الخاليتين من الخياطة ، وامتنع عن كل شيء محظور أثناء الإحرام : من اتصال بالنساء واستعمال للعطور . وأرسل شعر الرأس ولذقن ، وترك أظفاره ، وامتنع عن أى تشاجر أو قتال ، وصح ذبح أية ذبابة غير الهدى . وقد فعل أصحابه مثلما فعل . ثم جهر محمد بالتلبية :
 « لييك اللهم لييك » ، فرددوها جميعاً من بعده

فما كان بعُسف : جاء إليه بشر بن سفين الكعبي ، وكان قد أرسل إلى مكة عيماً ، فقال : « يا رسول الله ، هذه فريش قد سمعت بحروجت واستنصروا من أطاعهم من الأحبيش ، وأجلست ثقيفاً معهم ، ومعهم النساء والصبيان ليكون أدعى لعدم الفرار ، وأخذوا لعود المطافيل^(١) ليشربوا ويأكلوا ، وقد لبسوا جلود النمر ، حاربين على القتال حتى الموت . وقد نزلوا الآن بذى طوى يعاهدون الله لا تذلها عليهم أبداً . وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموها إلى كراع العميم » .

فنادى الرسول : « هل من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها ؟ » . فتقدم رجل من بني أسلم ، وسلك بهم طريقاً مجهولاً ، وكان هذا الطريق يبلو موحشاً لأعيانهم : كان يتلوى في شكة من الشجرات انصيفة بين ربوات صحرية مشقة ، وبين هبوط وصعود وعلى سفوح جبال تكسوها الحجارة الحادة التي تدمى أرجل الحبيج والدواب .

وبعد احتياز ما لا حصر له من العبابات ، أفضى المؤمنون إلى بطن هوء رملي واسع ، بدا لأرجلهم الدامية وكأنه لساطد الليل ، فحملوا أرحمن ، وصاحوا مع قائدهم اللهم : « نستعرك اللهم وتوب إليك » ، ثم سلكوا ثمة المزار ، وهبطوا حتى وصلوا إلى أسفل جبل الحديدية ، الذي يقع جزء منه في الأرض المحرمة ، وبالجزء الآخر في الأرض الحلال ، وبينه وبين مكة مسير يوم . وفي هذا المكان بركت القصواء (ناقة الرسول) فجأة ، وأمت القيام ، فقال الناس : « حلات (بركت)

(١) العود لمطافيل : الباق ذوات الأولاد ، يره أسم يخرجوا بدوات الآليات من الإبل يتزودوا ألباساً ، والمطافيل جمع مطفل : ذوات الطفل .

الناقة ؟ . فأجابهم . « م خلأت وما هو لها بخلق . ولكن حبسها حبس القيل
عن مكة . » ثم أمر الناس بضرب الخيل .

وتعجب الأعداء إذ لم يلقوا محمداً ، بعد أن ظنوا أنهم منه غير بعيدين ،
لكن سرعان ما علموا باتجاهه الجديد ، فرجعوا على أعقابهم مهزولين وبشوا
بفرسانهم يتقدمونهم لحماية طريق مدنتهم ، ثم أرسلوا إلى النبي بمذيل بن ورقاء
الخزاعي في رجال من خزاعة لستصلعوا قصده . فلما علم بمذيل من الرسول نفسه أنه
لا يريد حرباً مع قومه بل جاء حاجباً للبيت الحرام ، عاد إلى القرشيين بالخبر ،
ولكنهم تشككوا في صدق خزاعة ، إذ كانت تميل إلى محمد ، فأرسلوا إليه رسولا
آخر يقال له الحليس بن علقمة ، فقال الرسول عندما رأى الحليس آتياً : « إن
هذا من قوم يتأخرون ، فابعثوا الهدى في وجهه حتى يراه » . فلما رأى الحليس
الهدى الكثير ماراً أمامه في عرض الوادي في قلائده وقد حقت تحوير الدروب من
حيث تدح ، اكتفى بما رأى ورجع إلى قريش ليخبرهم بما شاهد فقالوا له :
« اجلس فلما أت أعرابي لا علم بك » فغضب الحليس وقال « يا معشر قريش ،
واقه ما على هذا حاساكم ولا على هذا عاقداكم ، أيعبد عن بيت الله من
جاء معطماً له ؟ والذي نفس الحليس بيده لتخفن بين محمد وبين ما جاء له ،
أو لأنقرن بالأحابيش نمرة رجل واحد » .

فهزوا أكتافهم احتقاراً ، وقالوا : « مه ، كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأهنا
ما نرعى به » .

ثم بعثوا إلى النبي بعروة بن مسعود ، أحد رؤوس ثقيف ، ليقوم بهيمة
التي رأوا أن السفيرين الأولين لم يحسبا القيام بها . فاعترض عروة على ذلك قائلاً :
« يا معشر قريش ، إني قد رأيت ما بيني منكم من بعثتموه إلى محمد إذا جاءكم ،
من التعنيف وسوء الكلام وقد عرفتم أنكم والد وأبي ولد ، وقد سمعت بالذي نابكم ،
فجمعت من أطاعني من قومي ، ثم حشمتكم حتى آسيتكم بنسي » .

قالوا : « صلبت ، ما أنت عندنا عنهم »

فخرج عروة حتى أتى النبي ، فجلس بين يديه وقال « يا محمد ، أجمعت
أوثاب الناس ، ثم جئت بهم إلى بيصتك لتفضها بهم ؟ إنها قريش ، قد خرجت

معها العوذ لمطاهيل ، وقد لبسوا جلود النمرور ، يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم عوة أبداً . وإيم الله لكأني ، هؤلاء قد انكشروا عثت عدأ .

وعندئذ بان العصب في عيوب الصحابة وقد وقفوا وراء الرسول وأسفل وجوههم معطى فانبرى أبو بكر من صفهم ، ووقف أمام المشرك صائحاً . « مصص طر اللات ! أنحن نكشف عنه ؟ » .

فقال عروة : « من هذا يا محمد ؟ » .

قال . « هذا ابن أبي قحافة » .

فقال عروة لأبي بكر : « أما والله لو لا يدك انت لك عدى أكافأنت بها ، ولكن هذه بها » .

ثم جعل يقترب من محمد ويسارل لحينه - كما حرت العادة في هذا العصر بين من يتسامرون - ، فصاح فيه رجل آخر من الصحابة : « اكفف يدك عن وجه رسول الله قبل أن تقطع دونك » .

فقال عروة : « من هذا اللفظ انليظ يا محمد ؟ » .

فتمسم الرسول وقال « هذا ابن أخيتك المغيرة بن شعبة » .

فقال عروة لابن أخيه . « أي عذر : وهل عسيت سؤأنتك إلا بالأمس » .

ثم عاد إلى حديثه مع محمد الذي أكرم وفادته ، وأكد له أنه ما جاء لمحرب .

ورأى عروة أثناء إقامته عند الرسول ، ما يحيطه به أصحابه من إحلال : لا يوصأ إلا ابتدروا وصووه ، ولا يسقط من شعره شيء إلا أحلوه ، فلما رجع قال لمن بعثه « يا معشر قريش ، إني قد جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه ، والنجاشي في ملكه . والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه . لا يعرفون منه مالا ولا جاهاً كالعهد بأصحاب الملاك ، ولقد رأيت قوماً لا يلمونه لشيء . فترؤا رأيكم » .

وأصر القرشيون على أن يبقوا في صلاحهم يعمهون ، رغم تأثرهم بذلك القول ، فبعثوا بأربعين أو خمسين رجلاً منهم ليطلبوا محمداً رسول الله ، ويصيبوا هم من أصحابه وكان المؤمنون على حذر ، فكانوا هم الذين أصابوا من المشركين ،

وأنوا بهم رسول الله ، ولكنه لم ير الخروج عن موقفه السلمى ، فعفا عنهم ونزل
سبلهم ، رغم أنهم استحقوا القتل حراً هجروهم العادر .

وأراد الرسول بعد ذلك أن يبعث عمر برسالة إلى أشراف مكة ، ولكن عمر
امتنع قائلاً : « يا رسول الله ، إني أخاف على نفسى قريشاً ، وليس مكة من بنى
عدى بن كعب أحد يمتنى ، وقد عرفت قريش عدايتى لإياها ، وغلظتى عليها .
ولكنى أدلك على رجل أعز بها منى هو عثمان بن عفان » .

فرأى محمد صواب ذلك القول ، فدعا بعثمان بن عفان وبعثه إلى أبى سفيان
ابن حرب وأشراف قريش ، ليخبرهم أنه ما جاء لحرب بل حاجتاً للبيت ومعضماً
لحرمة . فلما بلغ عثمان رسالته إليهم ، قالوا له : « إن شئت أن تصوف بالبيت
فقط » .

فقال : « ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله » .

فغضب أهل مكة من تلك الإجابة ، واحتبسوه رغم كونه سفيراً .

ولما تأخر عثمان على المؤمنين ، اشتجروا أنه قد قتل ، فقال منهم المصعب
منالاً عظيمًا ، حتى قطع الرسول في الأمر ، فنادى فيهم : « لا نبرح حتى نناجز
القوم » .

وأمر عمر أن يصيح بأعلى صوته في المؤمنين : « أيها الناس ، البيعة ! البيعة !

نزل روح القدس ، فاخرجوا على اسم الله » .

وكان الرسول جالساً في ظل دوحه وارفه الظلال ، يتلقى مبايعة المؤمنين المتحمسين ،
وقد عقدوا العزم على أن يطيعوه طاعة تامة ، وإن دعاهم إلى مهاجرة أهل البلد
الحرام ، وكان كل واحد منهم يشد على يده لبياعه على الموت . وفي هذه الأثناء
بلغ الرسول أن النبى ذكر له عن عثمان باطل فبايع لعثمان ، فصرخ بإحدى يديه
على الأخرى .

وألمح العيون أهل قريش ما كان من أمر جند المسلمين ، فقلقوا وبعثوا
بسهيل بن عمرو ليأوصيهم وقالوا له : « آيت محمدأ فصالحه ، ولا يكن في
صالحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا ، والله لا تحدث العرب عنا أنه دخل علينا
عنوة أبداً » .

فأتى سهيل بن عمرو الرسول وأبلغه شروط الصلح ، فقبلها رغم مراجعة عمر بن الخطاب الشديدة ، وقال : « أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعني ، يا عمر ، إني رضيت وتأيي »

فارتبك عمر لذلك - رغم قوة شخصيته - ارتباكاً شديداً ، حتى جعلت أعضاؤه ترتجف ، ونضج من جسمه عرق بارد ، ويروى أنه قال : « ما زلت أصوم ، وأتصدق ، وأصلي وأعتق ، مخافة كلامي الذي تكلمت به حتى رجوت أن يكون حيراً » .

وقال الرسول بعد ذلك لعل : « اكتب : باسم الله الرحمن الرحيم . . . » فقال سهيل . « لا أعرف هذا ، ولكن اكتب . باسمك اللهم » . فقال رسول الله . « اكتب . باسمك اللهم . هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو . . . »

فقال سهيل : « لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك » .

فقال النبي : « اكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو » اصطالحاً على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يأمن فيهن الناس ، ويكف بعضهم عن بعض ، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه ، رده عليهم ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه ، وعلى محمد وأصحابه أن يرجعوا عن مكة عامهم هذا فلا يدخلوها ، وأنه إذا كن عام قابل ، يدخلها بأصحابه . فبقيمون بها ثلاثة أيام ، ومعهم سلاح اراكب أي السيوف في القرب »

فلما سمع المؤمنون تلك الاتراعات ، بدا هم أنها ليست ن صالحهم ، فقالوا في قن بالغ : « يا رسول الله أتكتب هذا ؟ »

فأجاب الرسول باسمًا . « نعم ، إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم فردناه ، سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً » .

ولم يكذ العقد يرم ويشهد عليه رهوس المؤمنين ورموس اشركين ، حتى برز أبو جندل بن سهيل وكان قد أسلم فحبس برسه في الحديد ، فارتقى بين إخوانه في الإسلام فرحبوا به ووثب سهيل عند هذا المشهد فصرب وجهه ابه بغصن ذي أشواك حادة ، ثم أخذ بتلابيبه فجره أمام الرسول قائلاً : « يا محمد ،

قد لحت (١) انفضية بنى وبك قبل أن يأتيك هذا .

فقال محمد : « صلقت » .

فأخذ أبو جندل يصرخ : « يا معشر المسلمين ، أورد إلى المشركين يفتوتنى في ديني ؟ انظرو حالى » وكان جسم المؤمن الصبور يحمل حقاً آثار المضرب المبرح .

فقدس له الرسول « يا أبا جندل ، اصبر وحتسب ، فإن الله جاعل لك ولى معك من المستضعفين فرحاً وخروجاً . إنا قد عقدنا بيننا وبين قوم صلحاً ، وأعطيهم على ذلك وأعطون عهد الله ، وإن لا تعدو بهم » .
وقام الرسول مع ذلك يكلم سهيلاً في الأمر طالباً منه تسليم ألى جندل لفاء قديه كبيرة فرخص سهيل رقصاً قاطعاً .

وعندئذ اقرب عمر بنو من المسلم البش وقال له : « اصبر يا أبا جندل ، فإنهم هم المشركون ، وإنما دم أحدهم دم كلب » .
وجعل يريه السيف ليدفعه إلى قتل أبيه . ولكن أبا جندل لم يكس بالابن العاق رغم مالاتاه من أبيه ، فأجاب : « ما لك لا تقتله أنت ؟ »
قال عمر : « نهانا رسول الله عن قتله وقتل غيره » .
فقال : « ما أنت أحق بطاعة رسول الله منى » .

ولقد تأثر مكرز بن حفص ، وهو من صاحب سهيلاً من أهل مكة ، عندما شاهد ذلك المضر ، فعطف على ألى جندل ، وأنسم أن يجيره من أبيه ومعبديه . ولما رأى المؤمنون صاحبهم يجر حراً نحر مكة أحسوا لذلك بحزن شديد ، وانقبضت قلوبهم حتى كدرا بهكون أسى . . . وتبدلت حماستهم وآمالهم في تلك الرحمة ، فأنقلبوا بأساً مريراً . وعندما أقبل الرسول نحوهم ، يريد إفهامهم أب كل شىء قد انتهى ، ويأمرهم سحر بضحايا ، وحلق الرموس ، بدد عليهم وكانهم لم يهوا شيئاً مما يقول .

فدعا محمد باسم الله ، ثم نحر بيده أولى الضحايا ، وجلس فحلق له خراش بن أمية . وعدت فقط ذهب عن المؤمنين ذهولهم وقصوهم وندموا على ساطنهم في

تنفيذ أوامر ربهم ، فقاموا وفعلوا مثل ما فعل من بحر الأضاحي ، وحلقوا شعورهم .
وبعث الله سبحانه ريحاً شديدة حملت في ثناياها الشر المحلوق فجعلته في ساحة
الحرم فاستبشروا بقبول الله عنهم .

وكان قد مضى على نزول محمد بالحديبية تسعة عشر يوماً أو عشرين يوماً ،
فأمر جنده بالرحيل . وكانوا يأملون ، في مكنون سرهم حتى اللحظة الأخيرة ، أن
يأتيهم أمر بالهجوم . ولكنهم أطاعوا رسولهم في عبر تلكثر ، رغم شدة ما يحلوه في
نفوسهم فلما وصلوا إلى المدينة شهدوا فيها مناظر أخرى كالتى رأوها في الحديبية ،
فكادت أكبادهم تنفست وإن قلدهم أن تنشرح صدورهم بأن يحلوا الرسول يراض
تسليم المستضعفات من المسلمات اللاتي هربن من مكة إلى المشركين . (أم كلثوم
بنت عتبة ، وسبيعة بنت الحارث ، وغيرها) إذ جاءه الوحي بأن النساء لا تنطبق
عليهن نصوص العقد :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاثْنُوهُنَّ ،
اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ، فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ،
لَا مِنْ حِلٍّ لَهُمْ ، وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ، وَآتُوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا ، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ
أَنْ تَسْكِرُوهُنَّ ، إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ ، وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ،
وَأَسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ ، وَلَيْسَ أَلَا مَا أَنْفَقُوا . ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ،
وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » (١) .

غير أن العقد فيما يتصل بالرجال لم ينقص ولم يمس . وكان أبو صير قد هرب
من أيدي معديه - شأنه في ذلك شأن أبي حنديل - فسلمه الرسول إلى رجل من
بنى عامر يرافقه أحد الموالى ، أرسلتهما قريش في طلبه إلى المدينة ، فأحذاه على
مرآى من المسلمين الذين ودوا لو ابتاعتهم لأرض ولم يشاهدوا ، معدونة أيديهم ،
مثل ذلك المنظر الأليم . ربقى للرسول وحده ، وكان يرى ما لا يرون ، مثملاً هادئاً
يبشر المسلم اليائس بعون من الله وفرج قريب .

رجلس الرجال الثلاثة في ذى الحليفة ، يستريحون في ظل حائط ، فجعل

العامري يصحر بما أحرره في مهمته من نجاح ويظهر نفسه على أنه البطل الذي لا يقهر ، واستل سيفه وهره قائلاً : « لأضربن سيفي هذا في الأرض والخزرج يرمون إلى الليل » .

فسأله أبو بصير : « أوتصارم سيفك هذا يا أخا بني عامر ؟ أريه » .

وأعنى الفرور العامري فلم يحتط لنفسه ، وترك لأبي بصير سيفه يختبر حده ، فانتزعه هذا الأخير فجأة وهزه فوق رأس المشرك ، ثم أطاح به بضربة واحدة ، فوقع الرجل حذو هامة ، ولأ الرعب قلب المولى فقر هارباً إلى المدينة يستجير بمحمد .

وقد وصل أبو بصير بعده بقبيل ، فأناخ بعير العامري ، الذي استولى عليه ، أمام باب المسجد ، ودخل متوشحاً سيفه ، وقال لرسول الله : « يا رسول الله ، وقت ذمتك ، وأدى الله عنك ، أسلمتني بيد القوم ، وقد امتنعت بدينى أن أفترس فيه ، أو يعبتني . وهذا سب العامري : رجله وسيفه . فخمسه » .

فقال الرسول : « إذا خمسته رأيتي لم أف لحم بالذي عاهدتهم عليه ، ولكن شأنك بصاحبك فادهب حيث شئت » .

فلما ودعه أبو بصير ورحل ، قال الرسول : « ويل أمه ! مسعراً حرب ولو كان معه رجال » .

وخرج أبو بصير إلى « الميصر » على مقربة من البحر في طريق قوافل القرشيين السائرة إلى الشام . ولم يلبث أن لحق به أبو جندل وسبعون من المسلمين علموا أن الرسول لا يمكن أن يسأل عن يتحررون بغير معونته فصرخوا من أيدي المشركين .

وكان هؤلاء الرجال يضارعون أبا بصير في جرأته وشجاعته ، فأقاموا بهذا البد الذي تكسوه الشجيرات الكثيرة ، والذي يسهل فيه نصب المكائد الحربية ، وكانوا ينهون كل قافلة تجرؤ على المخاطرة فيه . وقد اجتذبوا إليهم ، بتجاحهم في هذا الأمر وبمخافتهم الكثيرة رجالاً من عرب غمار وأسلم وجهينة ، أسلموا وانتظموا معهم فكبوا حبشاً صعباً للمؤمنين في هذه المنطقة ، بلغ عدده ثلثائة منغير

وفهم المؤمنون عندئذ هدوء الرسول واستبشاره ساعة قبول ذلك البد من العقد الذي

ينص على رد اللاحثين ، والذي طنه الناس في أول الأمر صداراً بالمسلمين
وقصعت على أهل مكة كل مرارء المؤونة ، مهددتهم المجاعة ، وأعتهم الحمية ،
فكنسوا إلى الرسول رجونه في إلقاء الشرط الذي أعجبهم أول الأمر وائل استحسنهم
ويطلون منه أن يحفظ عنهم في المدينة كل من يورب إليه من مسلمي مكة ، وأن
يبعث إلى أبي بصير وأصحابه ليقموا حيث يقيم الرسول .
وأرصدهم الرسول في كل ذلك ، فكان له معتمداً أن أبان لقريش عن حسن نيته
وكرمه ، وأن قري حيشه برجال أشداء كثبرين .
وهكذا بدت رحلة الحديبية أول الأمر غير ذات نتائج كبيرة ، ثم إذا هي في
حقيقتها عطيمة لشأن ولقد حصها القرآن بمقام يوازي تقريباً مقام بدر .
وأعظم نذرع رحلة الحديبية هي أن المهاجرين والأنصار لم يترددوا في مباينة
الرسول عندما ظن أن الحرم سيهاجم .
وقد أصبح للشجرة التي تلقى الرسول في ظلها البيعة شهرة عطيمة بين المؤمنين
بعد موته ، فكثروا يحججون إليها ويصلون بحوارها ، فقصي همر بن الخطاب حشية أن
تكون فيما بعد موضع عنايه لا تحلو من الشرك .
ونزلت الآيات التالية متعمدة لموائد رحلة الحديبية :

«لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُوكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ، فَعَلِمَ
مَا فِي قُلُوبِهِمْ ، فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ، وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا * وَمَعَائِمَ كَثِيرَةً
يَأْخُذُونَهَا ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا * »

بِإِذْنِ اللَّهِ مَوْلَا كُفْرًا وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا

لم يصل محمد - قط - إلى اكتساب ثقة اليهود وصحبهم إلى صفوه ، رغم كل ما تقدم به إليهم في سبيل إرضائهم . فلم يكن هؤلاء ليعترفوا ، كما قلنا ، بأن النبي المرتقب سيأتيهم من غير أبناء جلدتهم ، ثم لم يكونوا ليعفروا لمحمد ما جاء به من إخاء ومساواة في الدين ، وإنهاء المازعات الداخلية ، التي كانت قائمة بين أهل المدينة ، تلك المنازعات التي طالما استعصوها فيما مضى ، فضلا عن أنهم لم يظفروا بعين الرضا إلى انتصارات العرب المسلمين بل تخافوا الوقوع تحت يدهم ، لذا كان كل انتصار جديد بلحد المسيحين يزيد في غيرتهم ، ويفهمهم إلى العسر ، حتى صدر عداؤهم للإسلام عذبا ، فافتضى ذلك من اتباع الدين الحديد سلسلة طويلة من العزوات ، بجمعها لزيادة إيفساحها في فصل واحد ، مع اختلاف أزمان وقوعها وتباعدها .

غزوة يهود بني قينقاع (سنة ٥٢ ، ٦٢٤ م) :

حلت امرأة عربية إلى صائغ من بني قينقاع ، فتمصت لأشع المخون : إذ عمد يهودى إلى ذيل ثوبها ، ففقدته إلى ظهرها ، دون إثارة انتباهها ، فلما اعتدلت واقفة انكشفت سواتها ، أمام يهود الحادوث ، الذين انهمضوا صاحكين على أقبح الصور ، وعصب أحد العرب الحاصرين ففرض المستهتر بعصاه صريرة آتفه صريعا وثارت حمة أهل اليهودى ، فانقصوا عبي العربى وأردوه قتيلا ، وهرع العرب إلى المكان يطلبون ثأر أحييهم ، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع وسالت الدماء من الجانبين .

وكان الرسول عيماً بأخلاق اليهود وبعاداتهم المستحكم للإسلام ، فاستغل ذلك الموقف الذي كانوا هم فيه المعتدين ليعرض عليهم اعتناق الدين الجديد . فأبوا في هزء وسخرية وغضب الرسول ، فقال : « يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النعمة . . . »

فهزوا أكتافهم مستهزئين وقالوا : « . . . لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصت منهم فرصة ، إنا والله لن حاربناك لتعلم أنا نحن الناس » . فجمع محمد المسلمين ، وسيرهم لغزو بني قينقاع الذين ما كادوا يرون جند الله حتى فروا هاربين ، مخيفين وراهم غرورهم وعطرساتهم ، واعتصموا بقلاعهم في ضواحي المدينة ، فتبعهم الرسول وحاصرهم ، حتى أرغمهم على الاستسلام المطلق بعد خمسة عشر يوماً من المقاومة . ثم أراد أن يعطي اليهود الآخرين مثلاً يذهب من رؤوسهم فكرة تقليد بني قينقاع ، فأمر بدسح أسراه ، فقام إليه عبد الله المنافق حليفهم يستعطفه لهم ، فأعرض عنه محمد وصاح فيه مرتين : « دعني » ، فوضع عبد الله يده على قلب رسول الله ، وضرع إليه قائلاً : « لا والله لا أتركك حتى تحسن في موالي » . . . إلى والله امرؤ أحنى الدوائر » ، وأخيراً قال للرسول : « هم لك » .

وهكذا نجا بنو قينقاع بفصل المنافق ، ولكنهم أرغموا على الهجرة إلى الشام ، وقسمت أمراهم بين المنتصرين

غزوة يهود بني النضير (٥٣ هـ ، ٦٢٥ م) :

طالب بنو النضير بدية رجلين من بني جلدتهم ، قتلها جند عمرو ، فخرج الرسول إليهم مستوضحاً القضية ، وبذل لهم ما أرضاهم ، غير أن جحاش بن كعب اليهودي ، أراد أن يكيد محمد ، فصعد مستتراً إلى دار تطل على النبي وجماعة من الصحابة ، وقد جلسوا في ظل حائط يتجاذبون أطراف الحديث ، وأعد ابن جحاش صخرة ضخمة قاصداً رمي الرسول بها وسحقه . وبينما الشق على شك تنفيذ خطته ، إذا بمحمد قد أتاه إلغام سماوي ، فرفع رأسه ناظراً إلى أعلى ، ورأى المكيعة فأسرع بالابتعاد عن الحائط جادياً أصحابه معه .

ولم يكد يرجع إلى المدينة حتى جمع جنوده ، وسار فيهم لمعاقبة أولئك الغادرين .

ولما رأى يونس نصير أنهم قد باعوا بالمثل لنحتوا إلى قلاعهم وانكسروا بعد ستة أيام من المقاومة، أرحموا على مثل ما فعل يونس قيقاع، فاستسلموا صاعرين ضارعين إلى المنتصر، يطلبون منه الرحمة، فعصا عنهم وأجلاهم، ولم يسمح لكل منهم إلا بحمل بعير من أموالهم الطائلة

غزوة يهود بني قريظة (٥٥ هـ ، ٢٦٧ م) :

نشبت شمل الحلفاء بعد فشلهم في غزوة الخندق فطوى المسلمون السلاح وباتوا يريحون باليوم أبدانهم المرهقة من أثر سهرات الطويلة، والمتاعب الكثيرة، التي عابوها أيام الحصار، وبينما هم على هذه الحال، إذ بصوت المؤذن يوقظهم ويدعوهم إلى صلاة العصر في بني قريظة، وكان ذلك بأمر من الرسول، إذ رأى أن غدر بني قريظة ليس بقصو ميثاقهم وتقدموا عليه متحالفين مع أعدائه، لا يستحق إلا صارم العقاب وعاجله. فعسكر في اليوم نفسه عند بئر أبي أمام قلاعهم، وأجرهم على الاستسلام بعد خمسة عشر يوماً من حصار.

وسعى الأوسيون، حلفاء بني قريظة القدامى، لدى محمد ليعفو عنهم كما عفا عن بني قينقاع من قبل، ورأى رسول الله أن غدر بني قريظة أعظم من غدر بني قينقاع فهم يكن مستريحاً إلى العفو عنهم، بيد أنه قال أخيراً للأوسيين : « ألا نرصدون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم » ؟ قالوا « بلى » قال : « فليكن سعد بن معاذ »

وكان سعد بن معاذ قد جرح جرحاً خطيراً إبان غزوة الخندق إذ أصابه سهم قطع شريان ساعده، فكان قصارى مسه أن يحيه الله حتى ياتي بني قريظة جراء عسره. وكان سعد حسيماً ولا يقوى على الحراك من شدة ضعفه. فجعل على حمار قد وصي له بوسادة من أدم. وأسنده اثنان من المؤمنين حتى أتيا به جماعة الأنصار والمهاجرين الذين قاموا له بإحلالا قائلين : « يا أبا حمرو إن رسول الله قد ولاك أمر مراكمتك لحكمك فيهم ». فقال « عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم » حكمت ؟ قالوا : « نعم » قد سعد : « إني أحكم فيهم : أن تقتل الرجال ، وتقسم الأموال ، وتسبي الذراري والنساء » .

عندئذ صرف محمد انقوم بقوله : « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة

أربعة . وفاصت أرواح سبعمئة يهودى جزاء غلهم المنكر ، وقد تحققت بذلك أمنية سعد التى كانت تربطه بالحياة ، فامتج حرجه من جديد ، وسأل منه كل ما تنق فى جسد المريض من دماء ، ومات .

غزوة يهود خيبر (سنة ٦ هـ ، ٦٢٨ م) :

لم تكن انتصارات المسلمين المتتالية ، رغم خطورتها : بصربة قاصمة لشوكة اليهود بالجزيرة ، فقد كانوا يسكنون بالمدينة ، وعلى بعد ستة وتسعين ميلاً منها يملكون ولاية خيبر ، التى تفوق فى العى والأهمية كل ما فقدوه . وقد زاد تعاضدهم إلى التآمر شدة ، واستمرت وقعة الحقد للإسلام فى قلوب أهل خيبر بوفود الجماعات تلو الجماعات من اليهود الحاربين إليهم من المدينة . واعتقد أهل خيبر أنهم بمأمن من ضربات المسلمين ، فلم يألوا جهداً فى سبيل الكيد لهم . ووجدوا فى الطريقة التى اتبعها محمد حبال أهل مكة ، خير معين للوصول إلى مأربهم . وكانت قبيلة بنى عطفان ، حليفهم ، تسود البلاد الواقعة بين خيبر والبحر ، فأمرؤا على قطع السبيل على كل القوافل الخارجة من المدينة فى طريق سوريا . وأثر ذلك على حالة المدينة الاقتصادية . ففكر الرسول مراراً فى غزو يهود خيبر ، غير أن انشغاله بأمر مكة منعه من تنفيذ فكرته . حتى رجع من الحديبية وقد عقد مع القرشيين هدنة السنين العشر ، فأزال ذلك عن كاهله كل هم من ناحيتهم ، ونزل عليه الوحي .

وَأَنذَرْتَهُمْ فِتْنَةً قَرِيبًا ، وَمَعَائِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا . . .

فاعتقد النبى أن ذلك الرجى لا سبيل إلا على خيبر ، فلم تردد ، وعقد العزم على فتح آخر معقل لليهود فى بلاد العرب .

وأمر عبد الله المنافق بالخبر إلى بنى عطفان ، فهرعوا إلى نجدة حلفائهم اليهود . بيد أنهم ما كادوا يصلون إلى وادى الرجيع حتى بصروا بجند الإسلام ، وقد سبقهم إلى المكان وقطعوا عليهم طريق خيبر . وبينما هم واقعون تنمرهم الدهشة الحارقة ، إذ سمعوا خنهم فى أسوأهم وأهينهم صوتاً ، فظنوا أن قوماً من المسلمين قد حالوا إليهم ، فانقلبوا مسرعين ، على أعقابهم راحعين .

واحدة تمتد بين تلال الحرة وصحورها السوداء ، فكأنها بحيرة من الزمرد ،
تعلوها جرر صحريه متوحة بقلاع حصينة . هكذا بدأت حير الرسول ، عندما
خرج من البحر الضيق ، وأشرف عليها ، فسأل الله العزيز القدير عوناً وقوة .
وأقبل الليل هديم الخيش ليسرّيج ، وانتظر محمد للهجوم إلى الصباح . ولما
أشعة الشمس اشترقة هكست أعالي النخيل بلون ذهبي جميل ، خرج عمال حير
من قلاعهم إلى سائيتهم يحملون محارهم وفؤوسهم . وقد علقوا السلال بأكتافهم ،
هصروا بجند المؤمنين الآتين من الحرة ، ومعهم الرماح والسيوف المنوّهجة في أشعة
الشمس ، فصاح القوم . « محمد وانتميس^(١) معه ! » وأدبروا هاربين مخلفين الخمار
والعقوس والسلال ، فقال الرسول . « لله أكبر ! حرب حير إنا إذا برلنا بساحة
قوم هباء صواح لمسيرين » .

وكان أول حصن وقع في أيدي المؤمنين ، حصن ناعم ، وعنده قتل محمود بن
مسلمة . فقد حارب حتى أعياه الحرب ، وثقل عليه السلاح ، واشتد الحر فأنحار
إلى ظل الحصن ، فألقى عليه من إحدى فتحاته حجر رحي فكسر مغفر الجندى
اشجاع ، وهشم عظام رأسه وبرز جند حيره على عينيه ، فأدركه المسلمون ، فأثروا
به السبي الذي رد الجند إلى مكانه ، وعصب الرأس بعمامة ، غير أن تلك الجهود
لم تفلح لخطورة الجرح ، فلم تلت روح محمود أن فاظمت

وأظهرت قلاع المطاة صموداً أمام صربات المسلمين ، فلجأ محمد ، برغم
انحاصرين على الاستسلام ، إلى قطع أربع مائة من نخيل واحتهم أمام أعينهم ،
ولكن لم يجد ذلك فتيلاً ، إذ أصر أهل المطاة على المقاومة ، فأوقف ذلك
التخريب الذي كانت نصد لا تسنيعه ، إذ كان الرسول يحب النخيل ويراهها
أشجاراً مباركة .

وطال الحصار ، ودبت الحاجة في الخيش ، هفرت همة الجند . وفي ذات ليلة
أمر عمر بن الخطاب من الأعداء فأدلى لأسير إلى الرسول بمعلومات نفيسة بعد أن أتمه
على حياته :

« كان حصن صعب . وهو من قلاع المطاة ، يحوى ، على ضعف حاميته ،

في سراديبه آلات حربية كثيرة ، من مساجق ودروع وبنانات إلى رماح
وخناجر وسيوف . ووعده اليهودى بإرشاد المسلمين إلى باب سرى لتلك القعدة ،
لا علم لأحد به سواه - فقتل محمد العرص واستوى على قلعة صعب دون عشاء ،
فوجد بها من الآلات ما أعانه على فتح الثغراب في الحصون لأخرى ، والاستيلاء
عليها ، ووجد في هذه الحصون من الراد والمؤونة الشيء الكثير

وبينما المسلمون يهجمون على إحدى تلك القلاع ، كر الشاعر عامر بن
الأكوع وراء عدو . ووجه إليه صرجه سيف عيفة محاولاً بتر ساقه ليوقعه ،
فطاش السيف ، وكان قصيراً ، فرجع إليه وكلمه في ركبته كلاماً شديداً . سال
مها الدم عريراً حتى فاصت روح الشاعر ، وقد قتل نفسه بيده مجاهداً في
سبيل الله .

وبقيت من قلاع جبر أهمها ، وهي قلعة القموص ، حيث احتفى كدانة
أمير بني النضير . وكان يدافع عنها مرحب البطل الشهير . وقلعة القموص كانت
قائمة على قمة تل صحري أملس رأسى الخواف ، محاطة بجدار صخم مرتفع ، وقد
اشتهرت بالقوة والمداعة ، بدأ أن المسلمين بعد عشرة أيام من العمل اشاق ، استطاعوا
أن يفتحوا ثغرة في الجدار ، فتقدم إليها الرسول . وبعده أصبحته . ولكنهم سرعان
ما ارتدوا بعد أن ناصبوا من المخاطر الكثير

وأصاب الرسول وجع شديد ألزمه الفراش يومين ، فبعث أب بكر برادته ،
فقاتل أشد القتال ، ولكنه أرغم على الرجوع . ولم يكن قد فتح الحصن وتولى
عمر الجند مكان أبي بكر ، فأقى بالعجب العجيب من الشجاعة والإقدام ، ولكنه
آب بالفشل كما آب من قبله أبو بكر . فقد محمد عندما أتاه نأ ذلك لفشل
المتوالى « لأعطين الراية عدداً رجلاً يحب الله ورسوله . يفتح الله على يديه ، ليس
بفرار » .

وفي انعكس اجتماع الصحابة حول الرسول ، وقد تلهفوا على معرفة الشخص الذي
سيحظى بذلك الشرف العظيم ، غير أن محمداً لم يلتفت إليهم . بل بعث في
طلب على ، وكان قد ابتعد عن القتال لمرض شديد ، فأقى به صديق له وقد
عصب عيبيه ، فقال له الرسول « خذ هذه الراية ، هاضم بها حتى يفتح الله

عليك « فأجاب علي « يا رسول الله ، إني أرمه كما ترى ، ولا أبصر موضع قدمي « فأخذ الرسول برأس علي في حجره ، وفتح عييه ونقل فيهما ثم فركهما ، فرأى الالتهاب في النو ، كما زال كل أثر للألم . ، ألس الرسول علياً درعه الحديدى وشد إليه سيمه ذا المقار . ونوجه علي إلى الحصص . فركر تحته الراية البيضاء التي رسمت عييه بالحروف السوداء البارزة شهادتا الإسلام ، ثم تأهب للصعود إلى الثعرة ، فواجهه الحارث في نهر من اليهود محاولاً سد طريق بطل الإسلام ، فثبت له علي وقائله فقتله ، فأدير حند اليهود قارين

عندئذ خرج مرحب البطل الشهير أخو الحارث ، يطلب الثأر وكان مرحب جده مهيب بقامته الهائلة . ودرعه المردوح ، وسيفه ودرجه ذى الأسمنة الثلاث وعمامة السيكة وخوذته التي يعلوها حجر كريم في حجم اليصنة ، وعييه اللتين ترفقان كالخوهر ، وكان المرور يملأ صر « مرحب » فوقف على الثمر يرتجر قائلاً

قد علمت حير أنى مرحب شاكى السلاح بطل مجرب
أطعن أحياناً وحيماً أضرب إذا الليوث أقبلت تحزب
إن حماي للحمي لا يقرب يحجم عن صولى المجرب
ويقول : من يبارز ؟

فسم يحف علي ولم يصطرب لهذا المرور ، بل تقلم متحدياً قائلاً .
أنا الذى سميتى أى حيلوه صرغام آجام وليث قسوره
عند ذلك احمرت وجه مرحب عصباً فاقصص على عريمه رافعاً السيف ، فترس علي ، وهوى السيف . فسمع له طنين هائل ، حتى طن الناس أن بطل الإسلام قد قصى نحه ، لكن السيف لاقى النرس ، فشقه وانغرس فيه . ولم يترك عي لعدوه فسحة من الوقت لانتشال سيفه . بل أمسك عن نرسه ، الذى أصبح ولا هائدة منه ، ثم حمل علي عريمه بضربة قوية كسرت مغفر مرحب ، ونفذت إلى عمامته فشقتها وإلى رأسه فهشمتها . وانتثر به على الأرض ولم يتوقف السيف إلا بعد ما بلغ الأخضراس ، فخر العملاق صريعاً كالسيان في هالة من غبار وطنين كالرعد .

لَشَهِيدٌ • وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ • أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا تُعْزِرَ مَا فِي الْقُسُورِ •
وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ • إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ • »

وعد بلغ من كلف « عبد الله بن أبي مسرح » أحد أبطال الفرساد في ذلك العهد ووالى مصر فيما بعد، بتلك السورة أن صارت لا تفارق شفتيه وهو واد على مصر ثم وهو يحارب الروم برأً وعزاً ، ومات وهو يردد ها ويرجع النصل في إيجاد ذلك النوع من الحساد العرونة الكريمة التي لا تعرف ها العالم مثلاً إلى تشجيع النبي لأصحابه حسن ، وحتة أربدها على العدة بها ونشرها في جميع أرجاء البلاد العرب .

الشاة المسمومة :

عاد الرسول إلى خيمته عقب صلاة المغرب ، فوجد سائها ربيب ابنة الخارث اليهودية روضة سلام من مشكم في انظاره ، وقد عمدت إلى شاة قد سحتها وصنتها على نار من أحشاب الرياحين وقلمعتها لرسول مشكرو ، فلما انصرفت دعا أصحابه إلى مشاصرته الشاة ذت اللحم لدهى الشيء هساول هو الذراع وانتوش منها وقلمه شر من ادراء فتناول قطعة لحم واسهش منها وبلعها ومد لحصور أبيديوم إلى الشاة ، صبر أن الرسول لفظ محاة ما كان يدركه بين أسانه ، ومع أصحابه عن الشاة قائلاً : « إن هذا المعصم ليحمرني أنه مسموم » فصاح شر ، « والذي أكرمك لقد وجدت ذلك من أكلتي التي أكلت ، حين التفتتها ها معي أن أنعطها إلا أني كرهت أن أغص إليك طعامك ، فلما أكلت ما في فيث لم أرغب بنعسي عن نعلك » .

ولم يكدر شر يطق تلك الكلمات ، حتى عاد لونه كالطيسان ، ولم يمهله وجهه فوقع على الأرض يتدوى في سكرات الموت وفي الحان دعا الرسول اليهودية وقت ها « ما حملك على ما صنعت ؟ » قالت : لك من قومي ما لك ، قتلت أني وعمي وروحي . فصب إن كان نبياً فستحيره الذراع وإن كان منكاً استرحا منه »

فهذا هذا الخواص من ثلثه لرسول ، فأوشك أن يعمو عن اليهودية ، ولكن

بشراً كان قد مات وأتى أهله يطلبون للثأر ، فدفعها إليهم فصحبوها وأحرق ما تبقى من الشاة المشثومة . وبالرغم من أن محمداً كان قد أعطى القمعة الحبيشة فقد سرى في حسده السم ووصل إلى أمعائه ، فلم يحصل أبداً من آثاره السيئة .
وقد قال في مرضه الأخير بعد ذلك بثلاث سنين مخاطباً أم بشر التي جاءت تستعصر عن صحته : « إن هذا الأوان وجد في انقطاع أميري^(١) من الأكلة التي أكلت مع أبلك بخير » .

عمرة القضاء (سنة ٥٧ هـ ، ٦٢٩ م) :

بينما الحمة في طريق العودة من حير بالعمائم الكثيرة كان مهاجرو الحبشة قد وصلوا كلهم إلى المدينة وعلى رأسهم جعفر بن أبي طالب أنور علي ، وقد أغمى ذلك قلب محمد بالسروور ، فقبل جعفرأبين حبيبه ، وقال والفرح يملأ جوانحه . « ما أفرى بأيهما أنا أشد سروراً ، أفتح حير أم بقنوم جعفر » . وكان أيضاً من بين القادمين أم حبيبة ابنة أبي سفيان ، ألد أعداء الرسول . وقد خرجت أم حبيبة مع زوجها عبيد الله بن جحش مهاجرة . فلما استقرا بأرض الحبشة نصبر الزوج ومات مهاجرة ، بينما بقيت الزوجة محاصرة لإسلامها فأراد الرسول أن يجريها أجر لإحلالها وأن يستعمل إليه عسواً للوداء ، فعث بعمر وهن أمية إلى النجاشي راجياً منه أن يزوجه لها ، ويرسلها مع بنيه المهاجرين ، وهكذا كان ، فلما وصلت أم حبيبة المدينة ، دخلت في ذمة زوجها العظيم .

أما المهاجرون ، فقد رأى محمد أن يعطيهم نصيبهم من معانم خيبر ، ووافق الجميع على ذلك ، فعوضوا بذلك عما فقدوه ، سبب هجرهم أوطانهم ، وتركهم أموالهم في سبيل دينهم .

وأتى اليوم الذي تسمح فيه معاملة الحديبية للمسلمين بدخول مكة ، لزيارة الأماكن المقدسة ، فتأهب الرسول لتحقيق أمر أمانيه ورؤية مسقط رأسه .

وقد أخذ محمد في عمرة القضاء من الأصاحي ، ومن الحجاج مثل ما أحد في رحلة الحديبية . ويمم شطر المدينة المقدسة ، فلما وصلت القافلة بطن يأجج ،

(١) الأهر - عرق إذا تقطع مات صاحبه ، وه الأهران يحرقان من القنب ثم يتشعب منها سائر الشرايين

تراء فيه سلاحاً كثيراً ، من الأسلحة التي كان قد أخذها احترازاً ، ووضع على ذلك السلاح أوس بن حويفي مائتين من الجنود ، وقال : « لا تدخل عليهم الحرم بالسلاح ولكن يكون قريباً منا ، فإدراكاً من مشركي العذر كان لسلاح قريباً منا »

وعندما وصل محمد حبل كداء ، نسمة حاشعاً ، ونزل بوادي عند مقبرة الحجون حيث ووريت حديقته الحميمة ، ورحمة الله عليها ، وأشرف على ديار مكة فاستبش في نفسه ذكريات وآمل ، وتمنكه حين لا يوصف ، واضطربت نفسه عندما فكر في أن مشركين قد يعدرون به . فيضطرون إلى معاديتهم ولوثت مسقط رأسه بدناء قومه

فلما الله أن يحفظ المسلمين من كل شر في البلد الحرام ، ولم يرل تردد دعاءه حتى خرج من مكة .

ولم يكن المسؤول بقرن من مكة حتى عادته أشرفها . وقد رن العصب منهم مبالاً ، لما رآوا من رجوع المهاجرين بالنصر المس . فراحوا يحضون سحقهم الذي لا حدود له في محباتهم بالأيدية المخاورة ، أما سواد أهل مكة . الذين كانوا ، ككل الجماعات الشعبية ، مدفوعين بعريضة الفصول فقد احتشدت فئة منهم لحمل قبضع وتجمعت فئة أخرى فوق سطح دار الندوة التي تشرف على الكعبة .

وكان يسود كل أحاديثهم الأمن في أن يكون النبي وأصحابه قد أوهنتهم حتى يثرب وأنهم كهم صيدها الحار . فيأبون مكة في حالة من الصعف شديدة ، ونكر الله أصعب بوله على أمرهم فقد لأصحابه « رحم الله أمراً زهم من نفسه قوة » .

وحلت مكة إلا من الجماعة الصغيرة التي احتشدت فوق سطح دار الندوة فكان سها على لرسول أن يصحبها . غير أن نفسه لكرينة التي لا ترصى باقتراح مثل ذلك العذر . كانت منصرة إلى الله وكنها خشوع ونفوى فتقدم معتبياً باقته القصواء مسلماً خطامها بعد الله بن راحة . ومن حوله موكب الصحابة ، فاحترق في حلال صواحي مكة تحت نصر الأعداء ، ولم يشرفهم ببطرة واحدة من نظرتة ، فلما بلغ لموكب الكعبة دل الرسول والتف بردته ،

ورفع أحد أطرافه كاشفاً كتفه وفذاعه اليمنى . ثم أقبل ، والمؤمنون يتبعونه ، على الحجر الأسود ، فقبله وقضى الطواف ، فهربون ثلاثاً يبرى المشركين أن له ولأصحابه قوة ، هرب هؤلاء رءوسهم وقالوا : « هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد أوهنتهم » واعتبروا في أنفسهم أن مثل هؤلاء الرجال الذين تفرق صحة أخلاقهم صحة أديانهم ، ليس هم إلا المورء الميئس . وقضى الرسول ما تبقى من لأشواط السعة نتؤدة وجلال رفقاً بالمؤمنين أن يسلمهم التعب ، وسد ذلك اليوم والحجيج يؤدون الطواف دائماً على مثل ذلك النمط .

وفرع الرسول من الطواف ، فأمر بلالا بالأذان ، فجعل صوت العبد المحرر في الوادي ، وارتد صدهاء إلى المشركين ، الذين بلغ منهم العيظ أن حصلوا على مصيرهما أيا جهل وأيا عب ، هدين العظيمين فيهم اللذين وارتبهما الأرض ، فلم تسمع آذانهم ذلك النداء الغيظ إلى قلوبهم . ولما قصيت الصلاة ، اعتنى النبي ناقته ، وسعى بين الصفا والمروة ، فقضى على كل ما كان يحالـح المسلمين من التردد في إتمام تلك الشعيرة بذلك المكان الذي نصبت فيه الأصنام ، ولكن الرسول كان يقصد بأداء تلك الشعائر التي وضعها إبراهيم وتوارثها العرب غاية وطنية سياسية أراد أن يقرها بغايته الديني ، فلم يكن تقبيله للحجر الأسود علامة للميل في العبادة نحو أخرافات — فذلك يتساق ومبادئ القرآن تناهياً صريحاً — بل إن تقبيله ذاك الحجر لم يكن إلا إكراماً وإجلالاً لتراث سلفه المحيد .

ويروى عن ابن أبي شيبه أن الرسول قال مخاطباً الحجر الأسود إنه يعلم أنه حجر أحصم لا نفع فيه ولا ضرر ، ثم إنه قبله . . . وشعه في ذلك أبو بكر فصر محلين أنهما لولا سنة الرسول لما فعلا هذا .

وهكذا كان الرسول يحيي ، في السعى والوصوه بشر ومزم ، الذكرى العاطفه التي خلقها جد العرب إسماعيل وأمه هاجر ، التي تركت طفلها اسكين على الأرض في ظل شجيرة ، إذ لم تمو على حملة في الصحراء الفعر ، وكان إسماعيل يكاد يموت من العطش ، وسعته إلى أمه تل من التلال تأمل أن تكشف عن بر أو عين ماء ، ولكنها لم تجده من ذلك شيئاً فعادت إلى طفلها لاهثة . ثم صعدت قمة أخرى لنفس العرض فلم تفلح ، فعادت ونفسها تصطب من الألم ، وعادت

سميها الشاق المرهق سبع مرات ، وطنت ، وعقلها يكاد يطير ، أنها لن
تجد إسماعيل إلا جثة هامدة . ولكنها رأت ابني الحبيب بعد ذلك يشرب من عين
أنبعها الرحمن تحت رحل الطفل المسكين . وسميت تلك العين بزمرم .

بذلك كان على الحجاج أن يقلدوا هاجر فيطوئوا سعاً بالطريق ذى الذكرى
الأليمه الذى سلكته بين هاتين الربوبين المعروفتين باسم الصفا والمروة ، وعليهم
أيضاً أن يتوضئوا ويشربوا من بئر زمزم .

ونحرت الأصاحي في اليوم التالى بوادى منى تحيداً لذكرى ما فعله إبراهيم ،
وقسمت بحومها بين الحجاج الذى كانوا قد رجعوا إلى التحلل بعد حلق شعورهم ،
وكانوا في إحرام مند مرحلة ذو الحليفة .

أما محمد فقد عقد على امرأة مكية تدعى ميمونة ، وهو لا يزال في حالة
الإحرام لامتياز خاص يرجع إلى كونه رسول الله . وكان عمر ميمونة يقرب
من الخمسين ، وكانت فقيرة معلمة ، إلا أن هذا الزواج كان من شأنه أن يجلب
للإسلام الكثير من الأشراف ، وعلى لأخص لعباس عم محمد وكان لعباس وكيلاً
لميمونة فأعلن زواجها بالرسول ، غير أن الزواج لم يتم إلا في طريق الرجوع
إلى المدينة .

ووصل الرسول إلى عايته المشوذة ، رعم عصص مشركى قريش الذين أموا
أن يشاهدوا عسومم وهو بقصى عمرته : لقد أعلن بذلك على سائر العرب في
شبه الجزيرة أنه ليس في نيته محو تقبلهم «سوارثة» بل هو يسعى جهداً في
سبيل دعم تلك التقاليد «يرجعها» إلى براعتها «الأولى» فكان لعمره القضاء صدى
عظيم ، إذ حرت ، هوراً ، كثيراً من دوى اليهود إلى الإسلام ، ومن أولئك
ثلاثة أبطال هم : عتاب بن طلحة ، وعمر بن العاص ، وحاند بن الوليد ،
ثم إنها هيأت لعرب الآخرين للإسلام ، وشجعته على تقيد هؤلاء الثلاثة
الكبار

رسل النبي إلى الملوك :

وقد وطد انتصار النبي على اليهود سيطرة المسلمين في أعين شبه الجزيرة وبقى
منها جزء ، فكان مصيره المحتوم الوقوع في يد المسلمين بدوره تدريجياً فأخذ محمد

يصلت إلى الممالك المجاورة إن الإسلام الذي أصبح يجمع أناساً من مختلف
الأحساس ، والذي يقول بأن الله يملأ لكونه ، لم يكن يقصر على بلاد العرب وحدها ،
بل كان عليه أن يشمل العالم أجمع . إذ قيل في كتاب الله
«وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا»

ولذلك بعث محمد بالرسول إلى أعظم ملوك المشرق والمغرب مراديين يكتب
تعرض عليهم اعتناق الإسلام دين الله الذي لا إله غيره ، وكانت تلك الكتب مجموعها
بمئات كتب عليه في ثلاثة سطور مضددة من أعلى إلى أسفل : «محمد رسول الله»
مبتدئة باسم الحلالة ومنتهية بمحمد

فتلقى المنبر ، ملك البحرين . الرسالة فأسلم . وكذلك فعل نائب ملك اليمن
وبعث المقوقس ملك مصر باهدايا الثمينة إلى محمد ، وكان من بين تلك الهدايا
جارية شابة بارعة الجمال يقال لها : مريم القبطية فتزوجها محمد وكان من
بينها أيضاً حمار يقال له يعقور وبغلة تدعى دلدل أما هرقل إمبراطور الرومان
والجاشي ملك الحبشة ، فقد رد كل منهما على الدعوة برسالة عارية في التذلل
والاحترام . غير أن كسرى ملك الفرس أقسم ليعاقب النبي على جرأه ، فبرل عليه
في الحبل عصب الله ، إذ اعتاله ابنه شيرويه . وتسوأ عرشه . ومرض الحارث
ابن أبي شمر رسالة النبي ، فرأى ملكه يتمزق ، جره له من الله على ما مزق رسالة
محمد ، وكان الحارث بن عمير لرسول الواحد الذي قوبل استقبالا مشيئاً ، ثم
اعتيل بغتة عند الكرك باللقاء بأمر من شرحبيل انعماني حاكم تلك البلاد التي
كانت تخضع للرومان .

غزوة مؤتة (سنة ٧ هـ ، ٦٢٩ م) :

بلغ النبي أمر سميره الحارث بن عمير ، فاشتد عليه ، وعزم أن يثار له ثأراً
عاجلاً وإن كان م يعصف عليه ما يعترض ذلك من العقبات .
ولم يكن على المؤمنين في هذه الحمة أن يعدلوا فقط عرب سورين الذين يهفون
عرب الحجاز عنداً بل كان عليهم أن يواجهوا أيضاً جند الروم التي تحتل بلاد
اللقاء .

جهر الرسول ثلاثة آلاف من اخنوخ وأمر عليهم زيد بن حارثة ، غير أنه أدرك أن قائد الحملة قد يقتل في ذلك الصراع الذي تتفاوت فيه قوى الحاييين ، فعين لهم جعفر بن أبي طالب أميراً إن أصيب زيد بن حارثة ، فإن أصيب جعفر فعليه عبد الله بن رواحة من بعده فإن أصيب عبد الله فليرتضو رجلا منهم على جعله عليهم .

وحصر هذا المجلس رجل من اليهود فقال : « يا أبا القاسم (وتلك كانت كنية محمد) إن كنت نبياً يصاب جميع من ذكرت ، لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من يبي إسرائيل كان الواحد منهم إذا استعمل رجلا على القوم ، وقال : إن أصيب فلان ، فإنه يصاب » . ثم صار يقول لزيد : « اعهد فلن ترجع إلى محمد أبداً إن كان نبياً » . فقال زيد بكل بساطة : « أشهد أنه نبي » ، عندئذ عقد الرسول لواءه الأبيض إلى فصل ومع ، ودفعه إلى زيد بن حارثة . ثم شيع جنته وصنعه مملوء بالخرن والتشاؤم ، فلما وصل ثنية الوداع ، وقف ليدرس إليهم بنو صيافته الأخيرة فقال : « أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيراً ، اغزوا باسم الله ، فقاتلوا عداو الله وعدوكم بالشام ، مستجدون فيها رجالا في الصوامع معتزلين فلا تعرضوا لهم ، ولا تقتلوا امرأة ولا صغيراً ولا بصيراً قانياً ، ولا تقطعوا شجرة ولا تهدموا بناء » . وأوصاهم أن يأتوا ثأر عمير . فإذا أتوه فليدعوا إلى الإسلام قبائل العرب يسوريا .

وحاف شرحبيل عراقب غنمه المكر فقلق ، وعمد إلى جيرانه من العرب فجمع حذاً من بني لحم وحدام وبلي وبهراء ، واستنجد بنيودور قائد هرقل ، فأجابه بجميع انقوات الرومانية التي كانت تحتل البلد .

وهكذا جمع شرحبيل ما يربو على مائة ألف من الرجال قبيل هرول حيروشي المسلمين معان . فلما رأى المؤمنين أنفسهم أمام مثل تلك القوة العظيمة ، ترددوا وأقاموا على معان لينتسبوا في أمرهم ، فقال بعضهم : « نكتب إلى رسول الله ، فإذا أن يمدنا بالرجال ، وإما أن يأمرنا بالرجوع أو القتال » . وقام عبد الله بن رواحة فبعث في الناس روح الإقدام بقوله : « يا قوم إن الذي تكرهون للذي أخرجكم له ، أخرجكم تطهبون الشهادة ، إما لا تقاتل بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا

الدين الذي شكرنا الله به ، فانطلقوا ، وإنما هي إحدى الحسين إما ظهور ،
وإما شهادة فقال الناس « صدق والله ابن راحة » ، ومضوا غير هادين
للافة العدو ، فالتقى جيشان بمؤتة ، وهي قرية صغيرة تقع شمال قلعة كرك

وانفص المسلمون كاليوث الكاسرة على جيوش الأعداء ، فقتلوا رعيهم ملك
ابن رهيل بطعنة رمح غير أن المشركين ثابوا إلى رشدهم بعد دهمهم الأول ،
فلم يثبوا ، ففصل كثرة عددهم ، أن كروا على المسلمين وأحاطوا بهم من كل
جانب وتكاثر أساس على ريد بن حارثة فأت شهيداً ، فأسرع جعفر إلى رمح
اللاء من يدي ريد اللتين ما رالتا تقصص عليه وهو ميت ، وسر على رأس المسلمين
كما أمره النبي .

وكان جعفر يمتطي صهوة جواد كريم أشمر ، ولكنه حينما رأى خطورة المكان
نزل من على مطيته وعفها حشيه أن تقع عوته في أيدي المشركين فيتمتعوا بها ويقتلوا
عليها المسلمين .

ورفع جعفر الراية الإسلامية ، فشر أحميتها الكريمة فوق رؤوس المؤمنين
الذين كروا متحمسين في آثاره . لكن سرعان ما هوى اللواء كما يهوى لصقر الجريح
من الخو ، إذ قطعت اليد التي كانت تحمله بضربة سيف .

ولم يبال جعفر بآلامه ، بل رفع اللواء ثانية بيده اليسرى ، فالتفت إليها قبلا
حتى قدت بصربة أخرى . عمدت مال جعفر إلى الأرض ، وفصل على الراية بذراعيه
الدائمتين ، واحتصنها حتى لا تقع . ثم أقبل على العدو غير هباب حتى قتل ،
وقد احترقت جسمه تسعون طعنة .

وحمله عبد الله بن راحة الذي لم يمكث طويلاً حتى قتل . فما رأى المسلمون
لأعداء عند دهمهم من كل صوب ، ورأوا موت رعيهم الثلاثة ، تراجعوا وجعلوا
يسهبون فأوقعهم أرقم بن عامر صائحاً « يقتل الإنسان مملاً خير من أن
يقتل مدبراً » ثم رفع اللواء ودفعه إلى حالد الذي امتنع أول الأمر قتلاً
« أنت أحق به مني إذ كنت مدبراً » . لكنه قبل الراية لما رأى من الخلق الأرقم .
تأعاد بسالته وقدمه الإيمان إلى قلوب المسلمين الذين جعلوا من صميمهم لطارئ
واستطاع خالد ، وهو إحدى الناصر والقائد الماهر ، أن يخلص نوب الله جيشه

من العدو ، وأن يعيد التوازن في المعركة بحيث لم يستطع المشركون أن يحرروا انصر على المسلمين .

ولم تكد شمس اليوم الثاني ترس أشعتها حتى هاجم نخالة المشركين ليد جنهم ، ولا يمكنهم من استكمال عدتهم بعد فشلهم الأول ، ثم لحا إلى الخيلة يلحلق في روعهم أن عدد رجاله كبير . فجعل مقدمة أبيخيش ساقه وساقه مقدمة ، وميمته مبسرة وميسرته ميمنة . فظن المشركون أن المساحين قد أتاهم المدد أثناء الليل ، فحافوا واستولى عليهم الرعب ، إذ كان كل اعتمادهم على عددهم . فصرخوا هاريين مشتتين ، واذؤمون من ورائهم يعملون فيهم السيوف ، فقتلوهم قتلة لم يقتلها قوم ، وقد انلقت بيد نخالك تسعة صفوف في ذلك اليوم المشهود .

وأطلع الله رسوله على ما لاقاه جيشه ، فنادى في الناس بأصالة الجامعة . ثم صعد المنبر وعينه معروفتان وصاح . « أيها الناس ، باب خير ، باب خير ، أحركم عن حبشكم هذا العارى ، إنهم يطعنوا فافقوا انعدوا ، فقتل ديد شهيداً ، فاستجروا له ، ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة ، وأثبت قدميه حتى قتل شهيداً ، فاستغفروا له ، ثم أخذ اللواء حاتم بن الوليد ، ولم يكر من لأمره وهر أمر به ، ولكنه سيف من سيوف الله فأب نصره » .

وذهب محمد بعد ذلك إلى أسماء بنت عميس روح حمير ، قال إلى أطفالها وشجعهم ، وفرفت عيناه حتى قطرت لحيته بدمع كالجوهر المتألق . فقالت أسماء : يا رسول الله ، بأبي أنت وأمي ، ما يبكيك ؟ أبعت عن حمير وأصحابه شيء ؟ قال . « نعم . أصيبوا هذا اليوم » . فوقعت النائرة ، وانهارت على خديها تقطعها بأظفارها ، وصاحبت متأله بانسة ، واجتمع عليها النسوة لما سمعه من صباحها ، وصرحن معها . فطر لبيت بصيحات الحزن واليأس . فأمر الرسول أصحابه بإسكات النساء وثلا ما معاه . إنه يحب عسهن إلا يبكين هكذا عني حمير الذي أثناه الله أحسن ثواب ثم قال . « فاحفظ الله في حريته بأحسن ما خلقت أحداً من عبادك في دريته » . وهجأة رفع الرسول رأسه إلى السماء هامساً . « وعبيكم السلام ورحمة الله » . هناك الدس . « عني من تسلم يا رسول الله » . قال . « رأيت جعفر بن أبي طالب يطير مع الملائكة في السماء مرفوعاً إلى الجنة بجناحين من يا قوت ، عوصه الله تعالى بهما عن يديه » .

غير أن السهيلي الذي يروي الحديث يصيف : « إن الجناحين عبارة عن صفة ملكية وقوة روحانية ، أعطيهما جعفر ليقترن بهما على الطيران ، لا أنهما جناحان كجناح الطائر كما يسق إلى الوهم ، ولا يضير في ذلك وصفهما بأنهما من ياقوت لكونهما مصمحين بالدم » .

وبين حداد المدينة العام - وحررها الشاس ، أمر الرسول تجهيز طعام الخاتم لأهل الشهداء لأن من تشعت نفوسهم بالحزن يشق عليهم التفكير في طهي طعام المطون .

وعندما اقرب الجيش من المدينة - خرج إلى لقائه كل كبير وصغير من أهلها - فأمر النبي الفرسان أن يأخذوا الأطفال بجائهم على الدواب وحمل هو ابن جعفر - فأقعدته أمامه على رحله وأكد الحمد خبر موت قوادهم ، فرأى الناس أن هؤلاء القواد لم يبالوا تأثرهم اللاتق ، فصاروا يحثون التراب في وجوه الجند ، ويسويهم قائلين يا فرارون ، فررتم من سبيل الله فأسكت النبي الملاء بقوله « بل هم الكرارون »

فتح مكة (سنة ٥٧ هـ ، ٦٣٠ م) :

لم يلبث أهل مكة أن تقصوا معاهدة الحديسة ، إذ باغثوا ليلاً جماعة من مسلمي بني حراة في محيهم ، عند ثر الوثير ، فقتلوا منهم عشرين رجلاً وإزاء هذا الاعتداء الأثيم لم يتردد النبي في انعزم على مهاجمتهم ، وأعد العدة لتسير الحمة ولم يشك أهل مكة في أنهم سوف يبالون حراء غدرهم ، فعثوا بأبي سفيان إلى المدينة ليصالح المسلمين ، ونصب بقاء المعاهدة . فلما قدم أبو سفيان إلى المدينة برل عند ابنته أم حسنة ، وهي روح محمد ، وأراد الخلوس على ساطع مصروش ، فسفته أم حسنة إليه فطوته ، فقال أبو سفيان عاصماً : « يا بنية ما أدرى أرعبت في عني هذا الفرش . أم رعبت به عني ؟ » فأجابت : « هو هراش رسول الله - وأنت مشرك نجس » ، قال « والله لقد أصابك من بعدى شر »

وفهم أبو سفيان من هذه الاستعداد ، أن حبل الرجاء من قبيل ابنه قد

انقطع ، فقام إلى انبي ، ولكنه لم يحصل منه على جواب ، فتحول يائساً إلى
أبي بكر ، ثم إلى عمر فمى ، يرجو انواحد منهم بعد الآخر أن يماونه فى تحقيق
رغبة أهل مكة معاد بالنشل ، وينس كل البأس ، فاحتلى بعبه وقفل راجعاً إلى
مكة .

وكان قدوم أبى سفيان إلى المدينة عاملاً من العوامس التى حنت الرسول على
المبادرة بعزو مكة ، إذ كشف عن دواياه ، فلم يشغله بعد ذلك من شاغل سوى
تجهيز حملة لمباغنة مكة قبل أن يحصنها أهلها

وفى اليوم العاشر من شهر رمضان ، استحلف الرسول على المدينة
كلثوم العمارى ، وسار إلى مكة فى جيش عظيم ، انضم إليه فى الطريق الكثير
من القبائل ، فبلغ عدد الرجال عشرة آلاف رجل وياشر المؤمنون الصيام
حتى وصلوا بئر الكديد فى وضح النهار ، فرأى الرسول أن قد كفى ما كان
من امتحان لإخلاصهم ، وخشى أن يشق العطش والتعب الشديد على جملة
فيضعهم ، فدعا بإناء ، وأشرف على الناس من فوق نافذة العالية ، وشرب
جرعة على مشهد من الجسد ، ليريههم أنه يمكنهم كما يمكنه قطع الصيام
أثناء السفر ، إذا ما أنسوا فى قواعم خوراً ، وقد قيل فى القرآن . « فمن كان
منكم مريضاً أو عن سفر عدة من أيام أخر . » ومنذ ثلاث المرحطة ، أخذ
الرسول يحث حمله على الإسراع فى السير ، فوصل إلى « مر الظهران » على أبواب
مكة ، قبل أن يعرف القرشيون شيئاً عن قوة جند المسلمين ، ومن اتجاه
سيرهم .

كان العباس عم محمد ، قد بقى فى مكة ، إذ شعلته بها شؤنه الخاصة ووظيفة
السقاية . ولكنه عندما علم بقدوم المسلمين خرج فى أمرته ، فلاحق بهم
عبد الحمزة وكان العباس صادق الإيمان ، لكن ذلك لم ينسعه من التفكير فى
مصير قومه بمكة ، فقلق عليهم وخشى أن يصيبهم شر إن دمع عنادهم محمداً
على اقتحام مدينتهم بالقوة .

قال العباس - جلست على بضة رسول الله البيضاء ، فخرجت عليها حتى
جئت الأرا ، فقلت : لعل أجد بعض الخطابة أو صاحب لبن ، أو ذا حاجة

بأنى مكة ، فيحبرهم بمكان رسول الله ليحرجو إليه ، فيستأمروه قبل أن يدخلوها
عسوة . فوالله إنى لأسير إذ سمعت كلام أبى سميان ، وبديل بن ورقاء وهما
يتراحمان وأبو سميان يقول ما رأيت كالكيلة يراى وعسكرأ ، وبديل يقول هذه
والله خراعة ، حمشتها الحرب ، وأبو سفيان يقول خراعة أدل وأقل من أن تكون
هذه يرايها وعسكرها .

فعرف صوت أبى سميان فقلت « يا أما حظلة » فعرف صوتى فقال
« مالك — هناك أنى وأنى — يا أما الفصل » ، فقلت « والله هذا رسول الله فى الناس
قد جاءكم بما لا قبل لكم به » فقال « واصبح قريش ! والله ، ما الحيلة ؟
فذلك أنى وأنى ! » فقلت « والله لئن صبرت ليصربن عمتك ، فاركب فى
عجر هذه البعلة ، حتى آنى بك رسول الله فاستأمنه لك فركب نحلى ، ومشى
بديل من ورائه ، فحشيت به ، كلما مررت بار من يراى المسلمين قدوا . » ومن
هذا « فإذا رأوا بعلة رسول الله وأما عليها قايوا . » عم رسول الله على بعلة « حتى
مررت بار عمر من الخطاب فقال : « من هذا ؟ » وقام إلى هذا رأى أب سميان على
عجر البعلة قال : « أو سميان عدو الله ، الحمد لله الذى قد أمكنك من غير عقد
ولا عهد » . ثم حرج يشد نحو رسول الله . فركضت البعلة فسقته . فافتحمت
عن البعلة . فدخلت على رسول الله ودخل عيه عمر فى إثرى فقال « يا رسول الله
هذا أدو سميان عدو الله ، قد أمكن منه من غير عقد ولا عهد ، فدعى لأصرب
عنته » . فقلت « يا رسول الله ، إنى قد أحرته ، ووالله لا ينأحيه الليلة رجل دونى »
فدأ أكثر عمر فى شأنه فنت « مهلا يا عمر ، فوالله لو كنت من رجال بى عدى
ابن كعب ما كنت مثل هذا . ولكمك قد عرفت أنه من رجال بى عدى ماف »
قال « مهلا يا عباس ! فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلى من إسلام
الخطاب لو أسلم ، وما بى إلا أنى عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله من
إسلام الخطاب لو أسلم » . فقال رسول الله « اذهب به يا عباس إلى رحلتك
فإذا أصبحت فأتنى به » .

وذهبت به ، فلما أصبح عدوت به على رسول الله بعد أن دوى بالصلاة
وثاب الناس ، فصرع أدو سميان وقول : « أأمر وأنى شىء » . فنت « لا ولكمهم
قاموا إلى الصلاة » .

ورأى المسلمين يتفنون وصوته رسول الله . ثم رأهم يركعون إذا ركع . ويسجدون إذا سجد . فقال « ما رأيتم منكم مثل هذا . لا ملك كسرى ! ولا ملك قيصر ! »
 فلما قصيت الصلاة . قلت « أدخل عليه . أكله . وتكلمه في فومه »
 عنده من عمرو بنهم « فلما دخل أبو سفيان على رسول الله قال رسول الله
 « ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله » قال « بأني أنت وأبي
 ما أحسنت وأكرمت . وأوصلت . والله لقد طلست أن لو كان مع الله إله غيره لقد
 أعنى عني شيء بعد » قال « ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول
 الله » قال « بأني أنت وأبي ما أحسنت وأكرمت وأوصلت . أما هذه والله فإن
 لاندس حتى الآن منها شيئاً . وأرحته » فغلب غاصباً لأبي سفيان « ويحك
 أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن يضر عصفك »

فقال أبو سفيان « كيف أصبح يا بني ؟ » فسمعه عمر من وراء القبة فقال له
 « تسليح عبيها ! » قال « ويحك يا عمر إنك رجل فاحش . دعني مع ابن عمي وإياه
 لكم » ثم شهد بشهادة الحق . كذلك فعل صاحبه بديل لدى كان قد لحق به .
 فقت للبي « يا رسول الله إن أبا سفيان يحب الفجر . فأجعل له شيئاً »

فقال « نعم . من دخل دار أبي سفيان فهو آمن . ومن دخل المسجد فهو
 آمن . ومن أغشى به فهو آمن » ثم قال « أحسنه بمصيب الوادي حتى يرى
 حدود الله تمر » . ففعل . فهرب الفاتل كلها من سليم ومر به ثم غمار ثم كعب
 فجهينه . فلما مرت أضحج قال أبو سفيان « هؤلاء كذا . أشد العرب على محمد »
 فقت « أدخل الله لإسلام قومهم فهذا فصل الله » حتى مر به رسول الله في
 كتبه حصراء . وفيها المهاجرون والأنصار قال « سبحان الله ! يا عباس
 من هؤلاء » فقلت « هذا رسول الله في الأنصار » قال « ما لأحد بهؤلاء
 قدر ولا طاقة والله ! أن الفصل . لقد أصبح ملك ابن أبي سفيان عظيم » .
 فقلت « يا أبا سفيان إنها سورة » ثم قلت له « الحاجة إلى قومك » حتى
 إذا أنهم صرح بأعلى صوته « يا معشر قريش : هذا محمد قد جاءكم من لا قب
 لكم به . من دخل دار أبي سفيان فهو آمن » فصمت إليه روحته هند وقد عصت
 ما رأت من وجوم لقوم عند سماع ذلك الحديث . فأخذت بشارته لتسكنه وصاحت :

« فقتلوا خمسين^(١) الدسم الأحمر من طليعة قوم »

غير أن أباسميان تحصن من محارب روجته وقال : « ويحكم لا تعربكم هذه من أنفسكم ، فإنه قد جاءكم من لا قبل لكم به » ثم قال فحوراً : « فمن دخل دار أبي سميان فهو آمن » ، فصاح به الملائ من حوذه . « قبحك الله ، وما تعنى دارك عنا ! » . عندئذ أخبرهم عما كان أخصاه عليهم أول الأمر من خبر فقال : « ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن »

دخول الرسول مكة :

وصل الرسول إلى ذي طوى ، فوقف دابته وأشرف على مكة التي كان قصارى ماها أن يدخلها دون إراقة دماء عشرينه ، فحمد الله لتقدير الكريم ، وطأطأ رأسه حتى مسّت لحيته مقدم رحله .

ثم عاد إلى جندته فظمهم وحطهم الحطة لدخول مكة ، فأمسك إلى الزبير مهمة الدخول من طريق كداء ، وهو بأعنى مكة ، وإلى خالد بن الوليد الدخول من أسفل مكة . وإلى أبي عبيدة الدخول من طريق الصواحي الشرقية ، أما سعد ابن عبادة فقد قرأ رأى على أن يدخل من مصيقي كدنى ، ولكنه عندما علم بذلك صاح متحسناً « اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل فوه الحرمه » . فأمر محمد علياً بأن يحلعه ويأخذ الراية منه .

ولم يبق الربير ولا على ولا أبو عبيدة أدنى مقاومة ، واحتلوا ما كان عليهم احتلاله من مكة دون عداء ، أما خالد فلم يكده يدخل في صواحي مكة حتى استقبله وائل من السهام وقع على جندته فأصاب منهم الكثير وكانت تلك المكيدة من عمر صعوان بن أمية وعكرمة اللذين ذبرا الكمين وراء صحور جبل حسمه . فلم يتردد خالد بل هجم برجائه يريد المكان الذي تحصن فيه الأعداء ، فبعث فيهم الرعب ، وشتت شملهم ، وقتل منهم عدداً كبيراً ، وتنع من نجا من الهارين إلى الحرم ، أو إلى البحر فأعمل فيهم السيف .

ووصل النبي إلى جبل الخجون ، فرأى منه لمعان الرماح والسيوف ، فبهش وعصب وبعث برجل من الأنصار يستقدم خالداً فلما جاء خالد عنده الرسول

(.) الخميت الزرق ، سبه إلى الصبح والسم والأحمر أيضاً الذي لا خير عنه

على أن قاتل وقد نهى عن ذلك بهيباً شديداً .

فأحابه خالده : «هم يا رسول الله يدعوننا بالقتال ، ورمونا بالساب ، ووصعوا علينا السلاح وقد كسفت ما استطعت . ودعوتهم إلى الإسلام فأبوا ، حتى لم أجد بداً من أن أقاتلهم فأطعننا الله عليهم ، فهربوا من كل وجه » فقال الرسول خاتماً للحديث ومتأهباً للدخول مكة : « فضى الله أمراً » .

وكان الرسول معتلياً ناقته المفضلة المصواء ، وقد أركب على عجزها أسامة بن زيد بن حارثة ، فركع على رحنه وتلا سورة الفتح :

« إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ، وَيُمْ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ، وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا » وبصرك الله نصراً عزيزاً . . .

واعتمر الرسول عمامة سوداء فوق وشاح مخطط بالأحمر على رأسه وترك طرفها يرفل بين كتفيه ، ثم يمم راساً شطر الكعبة ليقتضي الطواف ، فحيا الحجر الأسود بأن استلمه بظرف معجن ، ثم نزل عن راحته ليغشى البيت ، ولكنه تراجع بعمره النهور ، إذ أبصر ، لأصنام التي كانت به ، وصاح أمام لوحة تصور إبراهيم ممسكاً بالأرلام « قاتنهم الله حيث جعلوه شيخاً يستقسم بالأرلام » وأمر بتمزيق تلك الصورة الآثمة ، كما أنه هشم سديه صورة لحمامة مسحونة على الخشب ، ثم دخل البيت قائلاً : « الله أكبر » .

واتجه إلى لأصنام المحيطة بالحرم ، وكان عددها ثلثمائة وستين ، وبدأ بالصنم الأكبر صنم هبل ، وجعل يصرب في عييه بمحججه قائلاً . « جاء الحق وذهق الدطل إن الماطل كان رهوقاً » فحمر الصنم لوحه مهشماً ، وجعل الرسول يطوف بالأصنام فيهشمها واحداً واحداً كما هشم هبل ، حتى لم يبق قائماً إلا صنم بى حرعه المصنوع من نحاس وصدف ، وكان منصوباً على سطح الحرم ، فقال للرسول لعل : « جسس » فجسس على ، فصعد رسول الله على مكبيه ، ثم قال له : « ابهض » فأحس على حمل فوق طاقة الشر حمل السوء - بمنعه . رعم حشده لذلك كل قوته ، من لقيام ، فلما رأى النبي ما كان من ضعف على تحته

مرل عنه ، ثم جلس بدوره قائلاً له « اصعد على مكى واهدم الصم » . فارتد
على ووجل . فرفض ولكنه لم يسعه إلا الامتناع إزاء إصرار محمد

قال على « فما نهض بي صعدت فوق ظهر الكعبة وتنحى رسول الله .
وحيل إلى حين نهض بي أنى دو شئت كنت أفق السماء وكان الصم مؤيداً بأوتاد
من حديد وحمل الرسول يقوب ” إيه إيه . جاء الحق ودهى الدطل إن الدطل
كان زهوقاً “ . فتمكنت من الصم فقدوته فتكسر »

وعاد الاطمئنان إلى صدور أهل مكة فخرجوا من دورهم لشاهدوا وقد
صاروا لا سطقون من الدهشة هدم آهنتهم لعاجرة عن المقاومة فما ال كل
أثر من آثار الإشراف على الرسول وجهه شطر الكعبة قائلاً « لا إله إلا الله وحده .
لا شريك له ، صدق وعده . ونصر عبده . وهزم الأحزاب وحده »

ثم انفتحت بي أهل مكة وقال « يا معشر قريش ، « تروا أنى فاعل كم ؟ »
قالوا في قنق « حيراً . أح كريم ، واس أح كريم » فقال هم ادهروا فأنتم
الطلقاء » (وقد كانوا أسرى وعبيداً بمقتضى سنن الحرب)

لم يستثن رسوب من ذلك العدو انشامل الكريم إلا أحد عشر رجلاً ، وست
ساء . رأى من سلوكهم ما لا يعنر . فأمر بإعدامهم حيثما وجدوا . وبعد ذلك
الحكم فوراً في أكثرهم . ومن بينهم « الخويرث » الذى أساء معاملة فاطمة بنت
الرسول وروج على عبد معادرتها مكة

ثم أراد محمد أن يعرر سبطه الجديدة ، فحرم أن يعين في الحال صاحبه
انوطيقتين العظيمتين بمكة : وهما وطيعتا ، الحجابة والسقاية . فعث إلى عثمان
بن طلحة بطلب مفاتيح مسجد ، فعصب عثمان ، وأعلق لأبواب ثم أحد
المفاتيح وحملها إلى داره ، فما كان من الرسول إلا أن أحدها منه قسراً ، وفكر في
أن يعصيه عمه عباس ، وكان قد أنشئ في منصب السقاية ، أى أمانة ثر مرم .
وأوحى الله إلى رسوله ألا يفعل . بل يرجع منصب الحجابة إلى صاحبها ، فأرسل
عليه بالمفاتيح إلى عثمان ليعصيه إياه ويقول له « يابن صدقة حد مفاتيحك
والحجابة » .

هأثر عثمان لما رأى من ذلك الكرم الذى لم يكن أهلاً له ، فقام من ساعته إلى
الذى يؤكد له امتنانه وإخلاصه .

وفي هذه الأثناء ، جاء إلى الرسول رجلان يبحث منظرهما في القلب العطف والشفقة كانوا أما قحافة وابنه أنا بكر ، وقد ناء الأب العجور المكشوف تحت حمل سبيه التسعين ، فأتكأ على كتف ابنه ، فقال الرسول لأبي بكر « هلا تركت الشيخ في بيته ، حتى تكون أنا آتية فيه ١٢ » فرد أبو بكر : « هو أحق أن يمشي ، بيت من أن تمشي إليه أم » فأكرم محمد الشيخ لأعني وأحسه بين يديه ، ومسح على صدره ، وثقل مسروراً بآ إسلامه .

الرسول بالصفاء :

توجه أهل مكة في ليوم الثاني إلى الصفاء ، حيث دعاهم الرسول ليأخذ عندهم العهد والميثاق ، ولم يكن تلو عندهم أمارات أخرى التي تلو عادة ، على المهرمين ؛ فقد اطمأنوا إلى المنتصر حينما سمعوا حديثه وشاهدوا أفعاله . لم يكن قاهرهم من بي حديثهم ، ألم يكن محمداً محمداً لهم وانتصاره انتصاراً لهم وسلطانه سيصبح سلطاناً لهم ؟ وكان أكثرهم في الحقيقة ، رغم عداوتهم محمد ، يتألم لفراق ذلك المواطن العبقري الذي لقب في مشايه بالأمير . وكان الناس يحسبون تذكر شخصيته ذات السحر الغريب وجاذبيته التي لا تقاوم .

وكان أهل مكة ، في مكنون مرهم ، يتحرقون شوقاً إلى اعتناق الإسلام والدخول في عمار تلك الحركة الدينية الحماسية التي أثارها محمد في سائر أنحاء بلاد العرب !! كم تسو لهم الأصنام الآن حقيرة بعد أن تهشمت وصارت هاهنا تروء من صخامة أسكوا لقمامات الملعاة خارج مكة .

ووصل لصفاء ، أو ما وصل . هؤلاء عندهم الدين استعلوا فيما مضى خرافات ، مشركين وعاداتهم الأصنام ، حجرية كانت أم حشوية فقد أرادوا بإسراعهم ذلك إسداد ستار السيان على حياتهم السالفة ، حيث كانوا دعاة ذلك الدين الحاملي التمه وبالرغم مما مرصه محمد على المساجين من تسو في الخشوع ، فقد كانوا يفخرون ، سرّاً ، بالانتساب إلى أسر من كانوا في الماضي محل سحريتهم

أما الذي فمسا نستطيع تصوير الطرب السامي لدى استرو على نفسه العالية ، حينما رأى أهله قادمين إليه من كل صوب وقد تفتحت أعينهم للدور ، هلاً قلوبهم

الندم ، بعد ان كانوا للإسلام واللى أعداء ، وكان محمد يحبهم ويعطف عليهم رغم كل شيء . وجلس عمر أمعل مجلس اللى وتلى استسلام أهل مكة الدين أقصوا عيه ، الواحد تلو الواحد ، فشدوا جميعاً على يده ، فعاهدهم باسم الرسول أن يحميهم من كل اعتداء . فلما انتهى ذلك المشهد الرائع ، دار على سفع الحبل مشهد آخر أشد روعة وحمالاً ، وأكثر هيبة وجلالاً : فقد نهلم إلى الأبد سور الأصبام الذى فرق ، طوال عشرين سنة ، بين القرشيين المهاجرين والقرشيين الذين بقوا بمكة ، فتعاقب هؤلاء وأولئك الإحرة الذين كانوا بالأمس أعداء - متحدين متحدون في سبيل الله . وانضم إلى المرقص فريق ثالث ، هو فرق الأنصار من أهل المدينة . تلك المدينة التى كانت فيما مضى منافسة لمكة ، فتاحت المدينتان ، واتحدتا تحت اسم « الحرميين » المجيد .

ولم يشوه جمال تلك المظاهرة المشهورة ، التى تحقق بها ما كان يسعى إليه الرسول من أحلام وآمال سعيدة حثيثاً ، للهم إلا أن بنى خروعة لقوا أحد قتلى إخوانهم قد نحوه ، فاستقدمهم الرسول ولأمهم لوماً شديداً ، ثم أضاف : « يأبها الناس إن الله حرم مكة يوم حو السموات والأرض ، وهى حرام من حرام إلى يوم النجم ، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دمماً ، ولا يعصد فيها شجراً لم تحل لأحد كان قبل ، ولا تحل لأحد يكون بعدى يا معشر حُرّاعة ، ارفعوا أيديكم عن القتل ، فلقد كثر القتل » ثم ودى رسول الله ذلك الرجل الذى قنته حُرّاعة ، وعف الرسول عمن لم يقتلوه ممن حكم عليهم بالإعدام .

واستعفى نظر محمد ، من بين نساء مكة . اللاتى أنين لتكيد إحصاهن ، امرأة تستر وراء صوحنها . فعرف فيها رغم تكبرها هبة الشرسة روج أنى سفيان ، فصاحت رامية بمناعها « نعم إني هبة ، فاعف عني عما الله عث ! » . فعفا الرسول عنها ، رغم ما كان منها يوم أحد من تشويه حذو عمه حمزة ، فلما رجعت هبة إلى بيتها بعد أن أسلمت ، عمدت إلى الصم الخاص بعائلتها ، وجمعت تسبه قائلة : « كنا قبل في عرود ، ثم ابهلت عليه صرماً فهدمته »

وكان عكرمة بن أبى جهل مدير مكينة الخدمة لحالد بن الوليد ، قد مر إلى

الحجر ، فأتى روجه أم حكيم الرسول بسأمن له فأمه فاحقت به وقد أوشك على الإبحار فأرجعته إلى مكة ، وحشى الرسول أن يثأر لسمون من عكرمة عندما يتذكرون ما كان فيهم من عسف وعت بسب أى جهل فقد : « يأتىكم عكرمة مؤمناً لا تسبوه ولا تسبوا أبه ، فإن سب الميت يؤدي الحى ولا يحق الميت » فتأثر عكرمة من رحمة صدر لرسول وحلمه ، فصار من جند الله المخلصين المتحسين

وقد عفا الرسول كذلك عن وحشى قابل حمرة بعد أن اعتنق الإسلام وكان همار قد نسب فى قتل ربيب بنت الرسول بصرة من كعب رجمه ، وفر حشيه بعقاب المستحق ، لكنه أسلم وأحصى لدينه ، فإن الرسول مستمسكاً بمعتمداً على واسع حلمه ، فقال له رسول الله : « يا همار عفو عنك وأحسن الله إليك حيث هدك إلى الإسلام ، ولكن اذهب ولا تترى وجهك » وأفاد كذلك من حلم الرسول صهوان ، ثنى مدبر مكيدة خلعته ، إذ سأله شهرين للحيار فقال له الرسول : « أنت بالحيار أربعة أشهر » .

وكان بن أبى سرح لوحد الذى عن المشقة فى سبل الحصول على عفو الرسول الذى عصف عليه عصبياً شديداً لارتداده عن الإسلام . وكان ابن أبى سرح عليمًا بعروسية الخط وكان يكتب لرسول الله بوحي فيعت به المرأة أن غير من ألفاظ القرآن وشبه معانى السور ، يبحر من كلام الله ، لكن أمره انتصح فهرب إلى مكة ، ورجع إلى عبادة الأصنام ، عند فتحت مكة استجار بن أبى سرح بأخيه من الرصاع عثمان بن عفان ، فأخاره وحاء رسماً . ثم أتى به لى ليستأمنه ، لكن سعيه ذهب هداه ، إذ كان الرسول يعرض عنه كلما توسل إليه ، وأجيراً لم يجد لرسول سبيلاً إلى انحصار من إخراج عثمان إلا بالعفو ، فلما خرج اندب قال لأصحابه : « أعرضت عنه مراراً ليقوم إليه بعضكم فيصرب عقه » ، قالوا : « فلا أومأت إليها فقتله » فأجابهم : « لا بدء حيانة ، ليس لى أن يوفى » .

من هذه الأمثال نستطيع أن نعرف مدى ميل الرسول إلى جلب قومه إليه باللبس والإقناع ، دون الخروج عن الحرم والشدة بأسسة إلى ما يتصل بالإشراك

والمشركين ، فحصل باخلم على ما لم يكن ليحصل عليه بالطغيان وبسفك الدماء
لقد جذب محمد إليه كل القلوب ، فأصرحت نحوه مستسمة جميع لقبائل
المحاورة ما عدا قبيلتي ثقيف وهوازن . وبعد ذلك اليوم لا يحق لإسان ضار مكة
إلى المدينة أن يدعى لقب « مهاجر » إذ أصبح الإسلام وقد دعت قراعه في مكة
والمدينة على حد سواء .

غزوة حنين (٦ شوال سنة ٥٨ ، ٢٨ يناير سنة ٦٣٠ م) :

اعتمد الثقيفون وأهوازير على مداعبه مدينتهم : الطائف ، وكانوا على ثقة من
أنها كهيئة حمايتهم في حانة أهرية ، فرفضوا الخصوع للرسول ، بل أعدوا العدة
لقتاله ، فاجتمعوا بوادي أوطاس برئاسة البصين الشهيرين مانث بن عوف ،
ودريد بن الصمة .

وعلم محمد بما يمتون له من شر ، فبعث ناس إلى أخذ مستطعاً ، فها
واجه بالمعدومات الدقيقة ، عزم على لقيام إليهم . وانضم إلى جيش النبي . وكان
عدد رجاله عشرة آلاف . ما يربو على الألفين من أهل مكة الذين أسلموا بعد
الفتح ، فدفعهم حميتهم إلى إظهار شجاعتهم وإحلاصهم ، فمراد ذلك في عظمة
جيش المؤمنين ، حتى كان من روعته وقوته حينما مر بالصحرَاء أن ترتفع صوت من رجل
يقال إنه من بني بكر هاتفاً : « لن نغيب اليوم من قلة » .

وقد غصب الرسول إذ سمع ذلك لقول العربي ، ولام قائله أشد اللوم ، لأن
العرور . وهي العزيمة ويسى الإنسان أن لنصر إنما يأتي من لدن الله .

ومر الحند بواد ، فمضوا سيرة خضراء شجوه معرله يحيطها لشركون بعباده
حرفية ، فيسحرون في ظنها الصحايا ، ويعلمون بها أساحتهم ، اعتقاداً منهم أن
لمس الشجرة يمنحهم قوة لا تقاوم . وكانت عقول بعض المسلمين لم تطور بعد
من آثار خرافاتهم القديمة ، فزعوا في أن تكون هم أيضاً شجرة ذات أدواء ،
ورفعوا إلى الرسول طلبهم ، فغضب أشد الغضب ، وقال هم . « الله أكبر ، نلتم
والذي نفس محمد بيده . كما قال قوم موسى : " احمل لنا حطباً كما هم
آلهة " . إنكم قوم تجهلون ، إنها السس ، لتتركس من كان قبلكم »

قال حابر بن عبد الله « لما سققت وادي حنين ، انحدرا في وادي من
أودية تهامة أجوف ذي خطوط ، كأنما سحدر منه انحداراً ، وكان في عناية

النصح ، فخرج علينا القوم ، وكادوا كدوا بنا في شعاب الرادى ومصايقه ، وذلك بإشارة حريد بن الصمة ، فحمدوا علينا حمدة رجل واحد ، وكادوا رماة ، فاستقبلونا بالنبل كأنه جراد مسطر ، لا يكاد يسقط لهم منهم ، فمر الناس راجعين لا يدري أحد على أحد ، فوجدنا نائب المصبي ، وقد سده رجل من هوارى على حمل له أحمر ، بيده راية سوداء ، في رأس رمح له طويل ، أمام هوارى وهوارى خلفه ، إذا أدرك طعن برمح ، وإذا فاته الناس ، رفع رمح من وراءه فاتبعوه .

وعندئذ بست اهرية أقرب من جبل الوريد ، وسارع بعض مرافقى الرسول من أعدائه القدامى الذين ما زالوا يحقدون عليه إلى المرح والابتهاج بحالة المساجين المحصورة ، وصاح أبو سفيان مستغماً بالأزلام التي حملها حصية في جعبته : « لانتهى هريمتهم دون البحر » وقال كلدة بن الحنبل أيضاً . « ألا بطل السحر اليوم ! » ، ولكن صفوان أجاه ، ولم يكن أسلم بعد ، أسكته بقوله . « اسكت ، قص الله فاك ، فوالله لئن يربى رجل من قریش أحب إلى من أن يربى رجل من أعراب هوازن » .

وبقى الرسول وحده محافظاً على اتزان وسط القوصى الشامة ، فانحار في نحو قليل من أصحابه ذات اليمين ، وأقام على ربوة صغيرة قائلاً . « أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله ، أنا عبد الله ورسوله » ، واستنحت بعبته رامياً بنفسه في حومة القتار ، فمعه أبو بكر وأمسك بحطام البعدة فوقه ، وعندئذ حاول الرسول رد المهاجرين ولأبصار إلى القتال ، فأمر العباس أن يصبح فيهم . « يا معشر المهاجرين والأنصار . يا معشر أصحاب البيعة تحت الشجرة » . وأطاع العباس ، فلما دوى صوته القوى من قمة الربوة حاملاً إلى الهار بين بداء الرسول انتابهم حرى عظيم ، فثابوا إلى رشدهم وأجابوا . « لبيك ، لبيك » . لكن كيف السبيل إلى وقف مثل ذلك السيل ابخارف من الدواب الهار بين المتراحمين بين جانبي المصبي الراسيين ؟ .

لم يأل المؤمنون جهداً في سبيل وقف إبائهم ، ولكن عشياً إذ لم تثن الإبل ، بل سارت تحب في نفس الانجاء ، وعندئذ أخذ جند الله نروسهم ، وعلقوها في أعناقهم ، ونزلوا عن إبائهم اللأثى تابعت سيرها ، واستلوا سيوفهم ، وعادوا إلى القتل من جديد .

وانتصب الرسول على ركانه فرأى ما قرت له عينه رأى تعير المرقصه ،
ورأى الحد العرمم يتواثون إلى حومة اوعى فصاح : « لآن حتى الوطيس » .
وعرم عى ، وبصحته رجل من الأنصار ، عى أن ينفى عى ذلك الأخرى
امورنى ، الذى كان يرفع ، هتالا ، رجه المربنة براءة سوداء ، فأناه وصرب حرقوبى
جمله بسيفه فقطعهما ، ووثب الانتصارى عى «مشرک» فصره ضربة أنت على قدمه
بنصف ساقه ، فاختلف عن رحله ووقع على الأرض فقصى عليه .

ورأى اشركون محوم المسلمين المهاجى ، بعد أن طردوا أنهم قد سحقتهم
فما ان لرعب منهم مبالا عظيما ، وهربوا بسورهم مشتتين ، وأمر محمد بغلته باللدود
فلبدت حتى مس بطنها الأرض وفص فصه من التراب ، ورى بها كما رى يوم
بدر فى وجه اشركين ، فاقبل فرارهم إلى هريته منكرا ، وكان ذلك التراب قد
أعماهم ، فتمرق الحد كما تفرقت تلك الاسراب ، متناحية لصعر

« لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ، وَیَوْمَ حُنَیْنٍ ، إِذْ أَغْجَبْتَكُمْ
كَثَرْتُمْكُمْ ، فَلَمَّ تَغَرَّ عَنْكُمْ شَيْئًا ، وَضَاقَتْ عَنْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ،
ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُنْذِرِينَ . ثُمَّ أَسْرَبَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ ، وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ،
وَأَنزَلَ جُودًا لَمْ تَرَوْهَا ، وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ »

وسار المؤمنون فى آثار مالك وقدور حيشه معملين فيهم السوف ، فاعتصموا
بمدينتهم المحصنة ، الطائف . ولم يكن حظ دريد القائد الثانى للمشركين من حفظ
زمه مالك ، فلم يبح مثله وكذب دريد كهيما عجورا . يربو عمره عى التسعين ،
لا يقدر على توجهه عبره ، وقد فر من حواليه قومه المسعودون ، فوقع الرجل بين
بلى علام يدعى ربيعة بن ربيع ، فظن هذا الأخير - عندما رأى الهودج الذى
يحمل البطل المقعد الشهير - أنه قد حضر بحرية ، فأناخ الدابة وأرجح استار الهودج ،
فإذا أمام عينيه الخاططين من الدهشة شيخ كبير ، فعصب فصره بسيفه فلم
يغر شيئا ، فقال دريد ساخرا « بش ما سلحتك أمك ، حد سيقى هذا من
مؤخرة الرجل ثم اصرب به وارفع عن العظام واخضع عن ندماع ، فإن كذالك
كنت أصرب الرجال » فحرى ربيعة من فشه الأول ، فصر البطل وألقاه على
الأرض مقطوع الرأس

وفي حمية البصر تابع الرسول الهاريين حتى حطوا الطائف ، وحاول الاستيلاء عليها ، ولكنه بعد حصار غير مجد دام عشرين يوماً ، رأى أن يدع فكرة الهجوم ليستعمل أساليب أخرى قد تكون أبطأ ، ولكنها أكيدة الأثر ، لذا فإنه بدلاً من أن يدعو على أهل الطائف بالعصب الإلهي دعا لهم ربه قائلاً : « اللهم اهد ثقيماً وثقت بها » . وقفل راجعاً إلى مكة رغم ما أظهره الحند من استياء ، فأقام بالبحرانة حيث جمعت السبايا والمعانم للتقسيم . وعند ما وصل محمد البحرانة لاحظ من بين السبايا واحدة ، وهي شيعاء من قبيلة بني سعد (بطل من بطون هوازن) تدفع عن نفسها الجند الذين يسيئون معاملتها فصاحت به إذ مر بها « يا رسول الله إني أختك من الرضاة » . فقال : « وما علامة ذلك ؟ » . قالت : « عصاة عصصتها وأنا متوركتك » . فعرف الرسول العلامة فتأثر وبكى وبسط لها رداءه ، فأحسها عليه وخيرها قائلاً : « إن أحببت فسلمي محبة مكرمة ، وإن أحببت أن أمتعت وترجعي إلى قومك » . فقالت : « بل تمتعي وتردني إلى قومي » فتبعها رسول الله وردها إلى قومها .

وفي البحرانة أقبل وفد من هوازن ، فقال عنهم شيوخهم أبو صرد من بني سعد « يا رسول الله إنما في الخطائر عمالك وحالاتك وحواضلك إلا في كني يكملتك ، ولو أنا مكحسا (أرضعنا) للطارث بن أبي شمر أو للعمام بن المنذر ثم نزل ما بمثل الذي نزلت به ، رجونا عطفه وعائنته علينا ، وأنت خير المكحولين » . فسأهم الرسول وهو يحكي تأثره وحبيه : « أبناؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟ » . قالوا : « يا رسول الله ما كنا نعمل بالأحساب شيئاً ، اردد علينا نساءنا وأبنائنا فهي أحب إلينا » . فقال الرسول بصوت مرتفع : « أما ما كان لي ولبنائي عبد المطلب فهو لكم » ، ولم يكذب يقول ذلك حتى صاح المهاجرون والأنصار : « وما كان لنا فهو لرسول الله » . وهكذا رد جميع الأسرى وكان عددهم يربو على ستة آلاف ، إلى وفد هوازن .

ولم يستثن من ذلك إلا أسرة مالك بن عوف ، غير أن محمداً أوصى من حرهم بأن يلعوا ما لكأ قوله : « إله إن أتاني مسلماً رددت إليه أهله وماله ، وأعطيته مائة من الإبل » .

وقبل مالك ذلك ، فحرج مستحقين من الطائف ، ثم أسلم فحسن إسلامه حتى استعمله الرسول عبي من أسلم من هوازن ، وكان ذلك أصدق الطرق للقضاء على معاومة أهل الطائف . إذ أن مالكاً ذلك القائد المحير المعتر بمنصه الحديد شها شعوء على الثقفيين بمصر جيش متحمس للدين ، فكان لا يقدر على صرح إلا اعتمه ، ولا قامة إلا أحدها ، فأحاحهم بين حدران مدينتهم ، وأحرمهم على القيام بدورهم إلى الرسول مستعظمين مسلمين .

وكانت المعانم كثيرة أربعة وعشرين ألفاً من الإبل ، وأربعين ألفاً من رؤوس الغنم . فحرم محمد على لإرجاء التقسيم إلى يوم آخر ، بعد أن عانى ما عانى من التعب من حراء مشاكل الأسرى ، فاعتنى باقته متأهباً للرحيل ، إلا أن حننه كانوا لا يستطيعون صبراً ، فتبعوه بالإحاح والمصايفة ، حتى أحشوه إلى شجرة ، فاحتظفوا عنه رداءه فقال « ردوا على ردتى أيها الناس ، فوالله لو كان لكم بعدد شجر نهامة نعماً لقسمته عليكم ، ثم ما ألبستوني بحيل ولا جدلاً ولا كذاباً » . ثم قام إلى جب يعير فأحد وبرة من سامه فجعلها بين إصبعيه ثم رمها ثم قال : « أيها الناس ، والله ما ي من فينكم ولا هذه البرة إلا خمس ، والخمس مردود عليكم فأدوا انخباط والخبط ، من أخذ شيئاً في غير عدل ولو كان لره كان على أمه حاراً وناراً وشاراً يوم القيامة » . ثم بدأ في تقسيم الغنائم .

وقد عي الرسول بأن يستعمل أربعين مكة بهائناً إليه بدين العطي . فسموا بالذولة قبوبهم ، فحصل كل من أى سفيان واسه معاوية ، وحكيم بن حرم ، وصبر بن حارث ، وسهيل وعكرمة ، وعيينه والأقرع وصهوان عبي هدية هي خمسون من الإبل . وبكى ذلك آثر عيط بعض الناس ، فأظهر اس مرداس عدم رضاه في قصيدته التي منها :

فأصبح نهى ونهب العبي د بن عيينه والأقرع
وما كان حصن ولا حامس يهوقن شحى في جمع

فاستقسمه الرسول وقال له : « أنت العائل :

فأصبح نهى ونهب العبي د بين الأقرع وعيينه
مبدلاً للفظين الأخيرين ، غير دار أن ذلك مكسر وزن البيت وقد قال

الله تعالى في كتابه : «وما علمناه الشعر» فرد أبو بكر مصححاً : « بين عبيمة والأقرع » ، فقال الرسول : « هما واحد » ، ثم أمره أن يرضي الشاعر . ويقطع لسانه بالمح وذهبة

وأتى رسول الله أعرابي من نهم ، يدعى ذا الخويصرة ، فبلغت به الحرأة أن قال له : « لم أرك عدلت » فعصب رسول الله ثم قال : « ويحيت » ، إذا لم يكن العدل عندي فعد من يكون ؟ » .

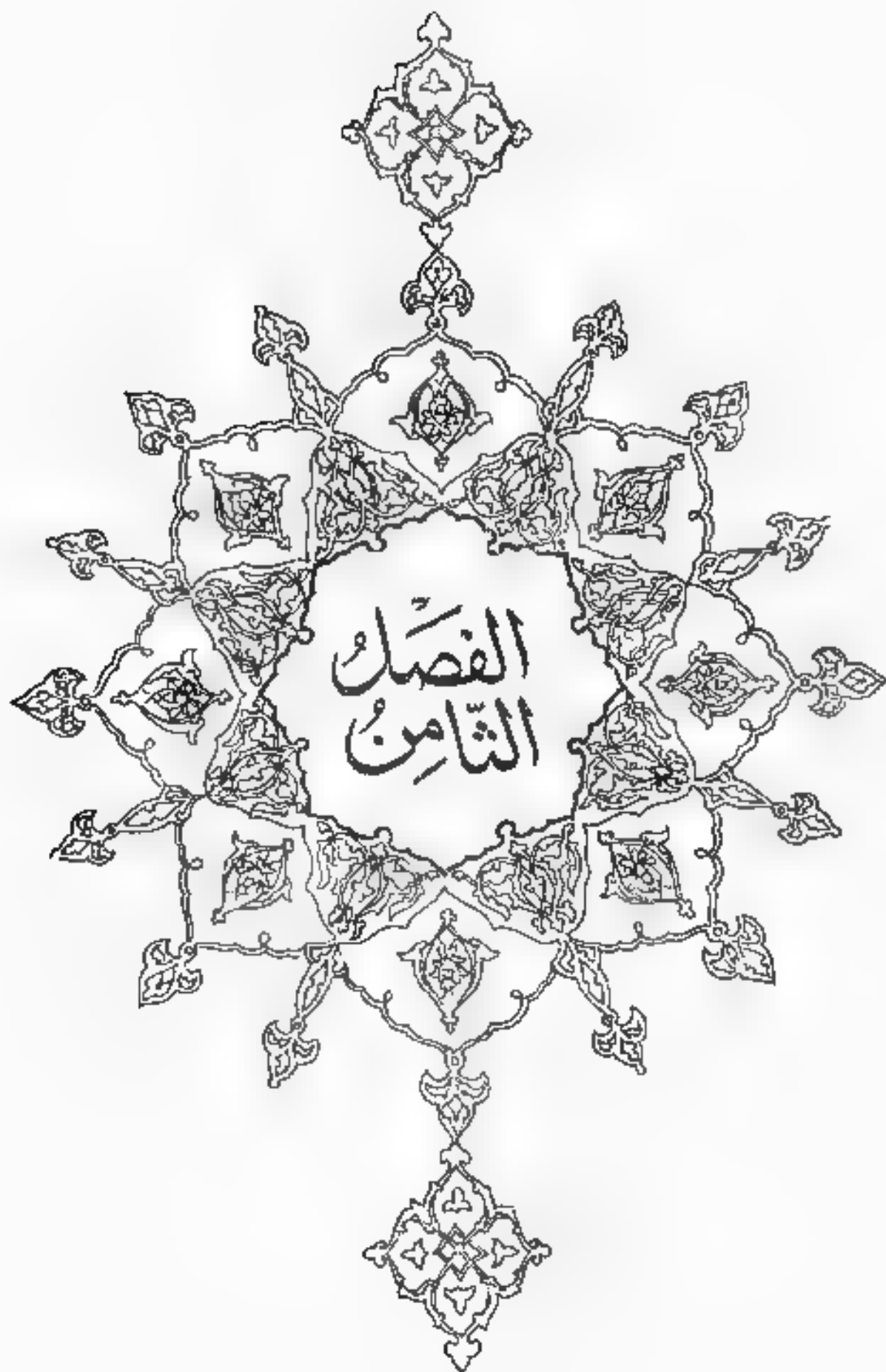
فهب عمر صائحاً : « يا رسول الله ألا أقتله ؟ » فقال محمد بكل ساطة : « لا دعه » وقد بدأ الرسول إلى حيل عديدة في سبيل تهدئة الخواطر ، وتعجب التحاسد بين أتباعه . وبالرغم من ذلك فقد هدأت الغائم أو كادت ، ولم يدل من الرسول ما يدل على تذكره الأنصار المحلصين . وكان هؤلاء بضبيعة لئلا لا يشكون في أنهم سيكونون أول الظاهرين ، لذا يعرفوا بأعين يزداد فيها العجب إلى ما يماله القرشيون والأعراب من المماح ذوب أن يكون لأنفسهم فيها شيء .

وأخيراً لم يبق شيء ، فتأدلوا لمطرت مزيرة ، وهادوا : « بى والله رسول الله قومه » . فسمع ذلك سعد بن عباد ، فمعه إلى الرسول فقال له : « فاجمع في قومك في هذه الخطيرة » .

فلما اجتمعوا قام لإسهم الرسول ، وحاصهم قائلًا : « يا معشر الأنصار ، مقالة بلغني عنكم وحدة وحادثة ، عني في أنفسكم ، ألم آتكم صلأاً لا هذاكم الله ، وعالة فأعياكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ » . قالوا بصوت واحد : « بى ، والله ورسوله آمن وأعص » . قد : « أما والله لو شتمت أنفسكم وأصدقتكم : أتينا مكذباً فصدقناك . ومحدولاً فصرناك . وطريدأ فأويناك ، وعائلاً فأسبناك » فصاحت الجماعة محتجة : « الله ورسوله المي والفصل علينا » . فقال : « أوحدهم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم في إسلامكم . ألا ترصون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بأشاة وأنعب وترجعوا برسول الله في دحالككم ؟ فولى ممي يدد . بولا دحجرة اكنت مرأ من الأنصار . بيو سلك الناس شعباً وسكنت الأنصار شعباً . لسكنت شعب لأنصار . اللهم ارحم الأنصار وأبنا لأنصار وأبنا الأنصار » .

ولم يستطع الرسول أن يكتم انفعاله الشديد وهو يلقي تلك الكلمات التي أثارت
عواطف القوم ، فسمعنا غيرهم دموع الرضا والامتنان حتى اخصلت حياهم ،
وقالوا بصوت يقطعه الشهيق : « رضينا برسول الله قسماً وحطاً » .

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ
إِذْ أَعْيَبْنَاكُمْ فَأَنزَلْنَا فَتْرَكُمْ فَاعْلَمُوا تَغْنِبَ عَنْكُمْ شَيْئًا



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَأَتُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ

خبر الإفاك :

قالت عائشة : « ولما فرغ رسول الله من غزوة بني المصطلق ، توجه قفلا حتى إذا كان قريبا من مدينة بزل مرلا فمات فيه بعض الناس ، ثم أذن في الناس بالرحيل ، فارتحل الناس وخرجت بعض حاجتي ، وجاء لقوم حلاقي : الذين كانوا يرحلون إلى البعير ، وقد فرغوا من رحلتهم ، فأخذوا الخردج وهم يقولون أني فيه كما كنت أصنع ، واحتسبوه فشدوه على البعير ، ولم يشكروا أني فيه ، ثم أخذوا برأس البعير فاطلقوا به ، فرجعت إلى المعسكر وفي فيه من دمع ولا مجيب ، فبدأ انطلق الناس ، فاستعصت في حدي ، ثم اصططجت في مكاني ، وعرفت أن لو استعصت لرجع القوم إلى . فوالله أني لمضطجعة ، إذ مر بي صهوان من المعطل السلمي ، وقد كان تحلف عن المعسكر ببعض حاجاته ، فقام بيت مع الناس ، فرأى سوادني ، فأقبل حتى وقف علي ، وقد كان يراني قبل أن يضربه علينا الحجاب فلما رأيته قال « إنا لله وإنا إليه راجعون » ، فقامت ثم قرب البعير ، واستأجرني فركبت ، وأخذ برأس البعير ، فاطلاقا مريعا يطلب الناس حتى حقتا برسول الله . »

وأخذ أهل النفاق من ذلك الحادث مطية لإفكهم وقالوا في عائشة ما قالوا ، وأحسن محمد بالشئ يعزو قلبه ، فابتعد عن عائشة رغم احتجاجها وتأكيدها براءتها ورغم تألم صهره أبي بكر لذلك .

ثم أخيرا بزل الوحي على النبي ، فجاء بسمًا شافيا لشكوكه . ودراء باحتمال قاطعًا للظنون ، إذ استنكر به الله تعالى الإفاك وكذب أهله

ولادة إبراهيم وموته :

في السنة الثامنة للهجرة ، وضعت مريم السريّة القسطنطينية ولداً ، مفرح الرسول مرحاً عظيماً ، لأنه رأى فيه عوضاً عما فقدته بموت أسائه المذكور من نصيحة ، فوهب جارية لأبي رافع الذي بشره بالمولود ، ثم أعلن أن مولد الطفل من شأنه تحرير الأم .

وحلق شعر المولود في اليوم السابع ، وحتى ، ثم بحر الرسول حمليين ، ونصلى على الفقراء ، وجاءت المربعات يتنافس ، كل تبغى شرف إرضاع ابن رسول الله ، الذي سمي بإبراهيم فأعطاه الرسول امرأة البواء بن أوس ، ووهبها لذلك حديقة نحيل .

مهرت المربعة بابوليد إلى بني مازن . وكان الرسول كثيراً ما ينطلق إليها ، ويدخل البيت ، فيأخذ ابنه بين ذراعيه ، فلا يشع من تقبله وشحه . وازداد حبه لمريم القبطية ، فاغتاضت صراتها .

وبات محمد مع مريم ليلة كانت لحمصة بنت عمر فغصبت حمصة ، وراجعت أشد المراجعة ، حتى وحدها ألا يقرب مريم بعد ذلك أبداً على أن تكتم حمصة به السر . فأبت غطرسة حمصة إلا أن تفضي الأمر وأن تفضي بالقصة إلى عائشة التي غصت بدورها غصناً شديداً وأثار غيظ الروجات الأخرى وحقدن على مريم .

وأصبح البيت يصبح بالصباح والمشاجرات والمراجعة ، حتى ضاق الرسول بهذا فكف عن مجاملة سانه ، وأى أن يكون من عليه الأمر ، فطلق حمصة بعد أن لامها على فعلها أشد اللوم ، ثم أخذ على نفسه ألا يقرب روجانه شهراً .

وتنادت النساء بعض الشيء في المراجعة فيما بينهن كل واحدة تتهم الأخريات بأنهن كن السب في هجر الرسول لبيته ، ثم تعاهدن جميعاً على أن لا يعدن بعد ذلك إلى مضايقة النبي .

ولكن محمداً أصر على عهده الذي اتخذه ، فاعرض في مشربة له يرقى إليها بسلم من حدوع السحيل ، بنام معها على حصار نطع آثارها في حمده ، وعلى رأس السلم علام له أسود يأتيه بالطعام ويعرس المشربة التي أوصد بابها دون أعز الصحابة وأحبراً . وفي اليوم التاسع والعشرين ، فكر الرسول في حزن عمر وأبي بكر

لدة ابنتيهما حمصة وعائشة ، فاستردهما ، كما استرد جميع زوجاته بعد أن تلا عليهن الآبة

« وَإِنْ تَطَامَرَا عَلَيْهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَخِزِيلُ . وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ * عَنَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ ، أَنْ يُبَدِّلَهُ أَرْوَاحًا خَيْرًا مِنْكُمْ . مُسَيِّمَاتٍ ، مُؤْمِنَاتٍ ، قَانِتَاتٍ ، تَائِبَاتٍ ، عَابِدَاتٍ ، سَائِيحَاتٍ ، ثِيَّاتٍ ، وَأُنْكَارَاتٍ * »

غير أن الأفراح والآمال لى جاءت بحجى إبراهيم لم تدم طويلا . فقد هرق الطفل الحياه ، فى رجب سنة ٩ هـ . وسنه لا ربو على سبعة عشر شهراً أمام عسى أبيه بنين فصتا بالدموع الغزيره

ورأى عبد الرحمن بن عوف تلك الدموع وتذكر مع رسول الصباح وشق الحبوب ونظم الحدود فى حاة اخداد فقال « أَوَلَمْ تَكُنْ مَهِيَّتْ عَنِ الْمَكَاءِ ؟ » قال - « البكاء من الرحمة والصراح من الشيطان » وهطت دموعه بحريرة فقال : « تسمع العين ويحزن القلب ، ولا تقول ما يسخط الرب . وأولا أنه وعد صادق ، وموعده جامع ، ومن الآخر ما يتبع الأول . لوحدنا عليك يا إبراهيم وجداً شديداً ما وحدناه . إنا لله وإنا إليه راجعون » .

وصلت رهيرة أم الموضع ، الجسم الصغير ، وحمله الفضل بن العباس ، وأسامة بن زيد حتى مقبرة البقيع ، وأمرلاه فى القبر . فلما وارت الأرض ابنه الذى عقد عليه كل تلك الآمال . وقف الرسول على القبر الصغير وحلى عليه ، وقال « يَا بَنَى قُلِّ اللَّهُمَّ رِنِّى ، وَلِإِسْلَامِ دِينِى ، وَرَسُولِ اللَّهِ أُنِّى » .

وتفص لباس لذلك المنظر باكين متئين وهجأة علت الوجوه صبعة بهته . كما كست ، فى آن واحد ، أديم الأرض ورمال الصحراء ، ووجوه الصحور ، واحتجبت السماء اللازوردية بحجاب رصاصى وبهتت الشمس ، ونصاعد ضوؤها قليلا قليلا ، على أنه لم نحجبها أدنى عمامة . واعتبرت الطبيعة كلها رعدة جمية ثلجية ، كرعدة الحمى . فسرع الطير إلى أوكاره الليله يحنى بها صائحاً حرعاً ، ثم انطمأت الأشعة الأخيرة التى لا تزل تضىء المكان سور ناهت مخيف ، فأسدلت

الطلعة ثوبها على الأرض في وضوح النهار بينما ثلاثت نجوم مرتجفة في كبد السماء .

ورثاع انقوم واضطربوا ، وتشتت شمل الناس ، هم يلدو أحد أى مذهب يسلك ، في انتظار وقرع الدمار الأعظم . بيد أن بعضهم . وقد راعه وقوع ذلك الانقلاب الطبيعي وموت إبراهيم . صباح . « يا رسول الله ! إن عين الشمس قد عشيتهما السموع فاحتججت تشاركك حركتك » . فاعتدل الرسول قائماً متغلباً على آلامه ليس بصوت ثابت لا يتحمل « إن الشمس وانقمر آيتان من آيات الله ، يخوف الله بهما عباده ، فلا يكسفاً لموت أحد من عباده ، ولا لحياة » .

غزوة تبوك (سنة ٨ هـ ، ٦٣٠ م) :

جرت روم الباصرة وعرب الشام سادة حشد الله في موقعة مؤنة فحاربوا وحسروا ، وحشدوا على الإسلام الأحاد في التوسع ، واشتغلوا بجمع جيش هائل ، ليوقعوا بجند الله الصرمة الساحقة .

وعزم الرسول بالخير ، فحرم على سقهم ليكون له الهجوم . ولم يكن ليوحى إليه بتلك المخاطرة إلا بإيمانه الراسخ في الحمية الإلهية ، فكم كان عليه أن يجمع من آلاف الحسد . كى لا يحرق إلى هزيمة لا تعوض ؟ لم يكن الوقت مناسباً لقيام الحملة ، إذ عم الجفاف وطالت مدته ، فدلل انبات ، وقيل الحب ، ونقص فتاح الأنعم نقصاً كبيراً ، وعمت الجبابة ، فمت ذلك في عضد الدس وهمتهم . وراد الطين بلة نصى الشمس في النصف الثاني من السنة . ولم يكن هناك بعد ذلك ما يشر بمحصول وافر إلا ما يجنى من لذيذ ثمار الواحة التي ترويهها آبار لا تنعد مياهها . وفي تلك الآونة ، التي تطلع فيها المؤمنون إلى استجلاء المتعة الرحيدة التي وهبتها لهم تلك السنة المملوءة بالأحزان ، أمر الرسول بإعداد العدة للرحيل . فمرى في قلوب الناس استياء صامت استعله استأفون المعبون بإداعة الأقاويل القادرة . « أنحسرون حلال نبي الأصفر (أحفاد إسحق ، الأصفر ^(١)) كقتال العرب بعضهم

(١) قال السهيلي يقال إن الروم قيل لهم يو الأصفر لأن عيصو بن إسحاق كان به صفرة ، وهو جامع

معصاً ، والله بكم أنكم عدد وصوبكم أمام العدو المدرع ، قد أنهكتكم جهد الحبل والحلح والحد السعيد .

ونأثر المترددون بذلك الحصح التي لم يكن أحد ليناقش في سلامة منطهم أو أنها كانت تتعلق بحرب عبر تلك التي يعدها المسموب في سبيل الله . أما ذوو الإيمان الراسخ ، فقد ظهرت هم حبيراً الصعاب الهائلة التي يلاقونها بسبب نقص الزاد ، وفيه عدد الإبل ، فقد نهي الكثير منها جوعاً ، وهرن انبقي . وكانت الظروف كلها غير موافقة لرحيل ، بيد أن انصطقي لم يكن بأنه بالهوثق ، بل لم يكن في سبيل الله يعترف بها واجتمع جمع من اساقفي في بيت سويلم اليهودي ليتأمروا ، فبعث الرسول إليهم بطلحة بن عبيد الله ليحرق دارهم :

« وَقَالُوا لَا تَنْصِرُوا فِي الْحَرِّ ، قُلْ سَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ .
فَبُخِّسَ لَهُمْ قَلِيلًا ، وَتُبِكَوْ كَثِيرًا ، خَزَاةً بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ . »
[سورة التوبة : ٨١ - ٨٢] .

وعمل الرسول جهد طاقته على إفهام سمع العاية المشودة آخذاً كل شخص بميوله وآماله الذاتية ، ليشر الاهتمام الدم ، فتوى عبد أناس الأمل الخاص في سعادة الآخرة ، التي تنتق وروحهم المشعة بالمثل العسا ، ولم يقطع عبد الآخرين الأمل في المكافآت المادية والعتائم واللذات الدنيوية .

وكان أحمد بن قيس من ذوي الإعجاب الشديد بالنساء ، فقال للنبي : « أوتأذن لي ولا تعتنى ؟ فوالله لقد عرف قري أنه ما من رجل أشد إعجاباً بالنساء مني ، وإن أحشنى إن رأيت نساء بني الأصغر أن لا أصغر . فأعرض عنه الرسول ، ولم يحبه . فقد أخذ ذلك الإعراض وعداً من الرسول بمص العين ، فلم يستطع كتمان حربه ، رغم وجود ابنه الذي لأمه على ذلك ، فمراه أحمد بنده في وجهه

هب المؤمنين من رقتهم ، وذهب فيهم حماسة ، وتوقدت حميتهم ، بفضل نشاط رعيمهم المتواصل ، وعدب الصعاب والتصحيات تريد من حماستهم وتوى من روحهم المعنوية ، بدلا أن تنبسط من عزمهم ، وتقل من همهم ، أما للمراه والمفعدون ، انيس لم يستطيعوا الالتحاق بالمتقلبين ، فقد حزنوا حزناً شديداً ، حتى سموا بالسكائين رغم عدو الله عنهم ، إذ أدرك على رسوله قوله :

« لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ ، وَلَا عَلَى الْمَرْضَى ، وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ
مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ ، إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ،
وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ »

ولا على الدين إذا ما أتتكم لئتمهم . قات لا أحد ما أخولكم عليه
تولوا وأغنيهم تفيض من الدمع ، خراً ، ألا يجدوا ما ينفقون .
[سورة لقمة ٩١ - ٩٢]

وتأثر الرسول لحزن هؤلاء وبأسهم ، فنادى في المسلمين ، يستحث كرمهم
ويثير أريمتهم ، فتدفعوا تنافساً عظيمًا في الاستجابة إليه في الحال ما وهر من
المال ، ووضع أبو بكر جميع ثروته رهن تصرف الرسول ، وزود عثمان بن عفان
عشرة آلاف حندي بالسلاح وانراد وتبارى الدس في الكرم ، حتى تجردت
انساء من حليها ترفعاً بها لحند الله .

وأخيراً كون جيش حمه ، قد عدد رحاه يتراوح بين الثلاثين والأربعين
ألفاً ، ولم تكن جزيرة العرب قد شاهدت مثله من قبل وتجمع الحند عند مدخل
تربة الوداع . فرأى المنافقون ، إزاء حماسة المؤمنين أن خير ما يفعلون هو أن يخلصوا
حاهم ، وإن كانوا أعدوا العدة للجمع في مزخرة الجيش ، فلما تحرك تسلاوا منه
متسولين ، الجماعة تلو الجماعة ، ليرجعوا إلى المدينة .

ولم يكن الناس ليحبوا سلوكهم هذا غير أن مصائبهم اختلة ردت ،
للأسف ، أربعة من مخلصي المسلمين عن واحبيهم ، وهؤلاء الأربعة هم : الشاعر
كعب بن مالك ، ومرار بن ربيع ، وهلال بن أمية ، وأوخيشة أما هذا الأخير
فقد اشتد عليه الحر . وربما ، أيضاً ، الشعور بالعار ، فدخل حديقته التي
تكتنفها اخدران المبة ، فرأى فيها تحت سقف النجيل المتشابكة ، والعصود
التي تحمل . من نحة إلى نحلة ، أغصانها المعانة بعناقيدها المتدوية ، رأى عروشتين
من ورق النجيل وحذوعها ، قد امتعت عنهما أشعة الشمس ، والظلمة فيها كالليل
المسدل ، وقد أصاء في كل مهما وجه حسناء مشرق كالبدن في تمامه

وقد تسارى ذكاء هاتين الزوجتين المحبتين وجمالهما وقد رشتا ، بعناية ،

أرض العرش ؛ فهبت منها ريح عطرية ، وعلقت ، سحابة فائقة ، في مداخل الهواء قريباً برشح منها الماء والبرد فيصير كاخليد ، ثم هيأنا طعاماً شرح طب ربحه الصدر ، ويثير من الشهية المستعصية .

رأى أبو خيشمة كل ذلك ، وكان جسده يقطر عرقاً ، ولباسه يكسوه الغراب ، فأحس شعور عظيم من الراحة والسعادة يسرى في كيانه ، وكاد يلقي نفسه في أحضان تلك المتعة ويعترش . متكسلاً ، سجاداً رحيباً ، لكنه لم يعمل إذ رأى فجأة نحال ما كان يكسو عييه مترفعاً من العجل دى الانمكاسات الزمردية صورة خاطعة فاسية : رأى في وسط صحراء حزينة موحشة ، لا نهاية لها ، ونجت ورقة سماء لا يحجبها غمام ، ولظى شمس لا رقة فيها ، قائمة تسير متشاقة متعبة ، قافلة طويلة من لآدميين ، تخفى نارة وتظهر نارة أخرى بين أمراج الرمال أو الصحور الصمراء . . هؤلاء الآدميون ، إنه يعرفهم ، إنهم إخوانه في الإسلام ، وهي رأسهم . . المصطفى .

وصاح أبو خيشمة : « رسول الله في الحر ، وأبو خيشمة في ظل بارد ، وطعام مهياً ، ووساء حسن ، ما هذا بالصف ! » ثم قال لزوجتي « لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألقى رسول الله ، فهنا لي راداً » فمعتا ، ثم قدم ناضحه فارتحلته . وأخذ سبعة ورجعه وترسه ، وخرج عبر مادم على ما حلقه وراعه من ماء سلسبيل دقراق ، وظل ظليل ، وجمال ليس فوقه جمال ، لينقى بنفسه في صحراء كالبحيم ، متبعاً آثار الجند ، فلهحق بهم عند نبولك .

بلاد ثمود :

وكانت القافلة قد وصلت إلى تحوم الصحراء المحرقة المحيطة بمدائن صالح : بلاد ثمود ، بعد أن احتارت وادي القرى . وهو واد متسع ، يتقابل فيه لون الواحات الخضراء المحيطة بالكثير من القرى أو القلاع . بلون المنظر الصحراوي المقمر ؛ فيأتي عليه شعاعاً من جمال وانقصت قلوب المؤمنين برؤية تلك البلاد الموحشة فقد كانت تحيرتها المثقمة ، التي حرج هيب إلهي ، فصعها نصفه الرماد والصحم لرهية . تعرض بعين صورة أخادة من صور عصب الله القدير .

فقد أشرك أهل ثمود في عابر الزمن ، وفسقوا واعتزوا بمناعة ديارهم لمحوثة

من لصخور ، وبغنى مدبهم السبع ، فقالوا بديهم صالحاً بالسحرية وقد أرسله الله إليهم ليهديهم الطريق المستقيم وليشت هم التي صحة دونه لحاً ، في دعاء العلى القدير ، ليجده معجزة ، فلم يكذب يقط يادعاء حتى اشقت صحرة في طين كطين أمواج البحر هائج ، وخرجت من الشق دقة عجيبة هائلة كثيرة الشعر ، وحاصل من عشرة شهور ، فوصفت فصيلاً عظيماً يشبه تمام الشبه .

والمعجزات كثيراً ما تعجز عن إقناع الملحد العبيد ، ولم تكن تلك المعجزة إلا لتريد من طغيان أهل ثمود ، ولكي يبين هؤلاء الربدقة الأشرار عدم اكترائهم بها ، عزموا على قتل الساقة ، فثروا الأشوال والنصائح بحده على الحاديين الرئيس للسر المصيق انسى اعتادت أن تسلكه كل صباح لترعى في الحلاء ، فلما كان المساء ، رجعت اساقة وألفت نفسها في ذلك المر ، ففرقت الصفائح جسيها تمريقاً شديداً . فأرسلت الساقة اللاحقة أباها يقول : إن صدامها ما زال يتردد في الوادي ثم وقعت محتضرة على فوهة المر ، التي عرفت منذ ذلك اليوم بمرك الدقة .

أما المصبل فقد جرح أيضا ، وسال الدم من جيبه ، فابتعد عن أمه قليلا ، ليمرت مكان يعرف الآن بدخيرية^(١) ويمتاز بصخرة اتحدت شكل ذلك المصبل وتشبه تمام الشبه .

ورأى صالح ، بعد ذلك الإثم العظيم ، أن جهوده كانت عبثاً ، فدعا بغضب الله على أهل ثمود ، فلم يطل انتظار العقاب :

« وَكَانُوا يَنْجِتُونَ مِنَ الْجِبِّ بُيُوتًا آمِينَ » [١٥ : ٨٣] . « وَهَمَّوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَوَحَدْنَاهُمْ الصَّاعِقَةَ وَهُمْ يَنْظُرُونَ » « فَمَا اسْتَسْأَعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ » [٤٤ ، ٤٥ ، ٥١] . « إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمٍ الْمُخْتَطِرِ » [٥٤ : ٣١] .

وظلت بلاد ثمود مقمرة منذ أن نزل بها العقاب الإلهي فأباد أهلها ، وبقيت آثار بيوت لطاعة إلى يومنا هذا بأبوابها الصاعرة التي تشبه حديق عيون عظيمة

(١) الحارثيين النافه التي يصل بها .

قد انتسعت رعباً من هول المنظر الذى شهدته أم الشقوق التى تصدع السيان
فربها تبدو أقواها مصطربة من دمع ، تصبح من يجرؤ على مخاطره بنفسه في
هذا المكان الموحش « تأمدوا في غرور الإنسان وعجبه ثم عجزه ، أى جهد
يكبده أصحابا ليعتدون ، في قلب لصحر ، ثم ليريدون لأعمدة لرشيعة ، والرسومات
البديعة « ألم يكن يحق لهم بعد هذا أن يطمئئوا كل الاطمئنان بين أحصاسها ، وهى
أشد معة من اللروع ؟

« ما أعظم ما كان من صلاحهم ! مر عليهم غضب الله ، فاقنع أيديهم
اللقابصة قبضة أياكس على حيطاتها . . . فاحتموا إلى الأبد . حتى نحن كنا نرتجف
ارتجافاً حديبياً على قواعد كأعصاء المحموم الذى تصطت أسنانه اصطككاً
دا صحيح . وإن كنا قد نجونا ، فلكون عدة من يحول في أرضنا الحزينة من
المسافرين لتأتهن ! »

مر جند المؤمنين وسط تلك الكتل الصحرية ، ذات الأشكال العريية ،
اننى تملو المحيط الرملى كأنها بحزر الصغيرة ، وتعرض بين جوانب المساء أرواب
أجل ثمود المطلمة ، فسجى لرسول نوبه على رأسه ، كى لا يرى آثار لصبيان ،
وخطى أبعه وفاه كى لا يشم الريح نجس المتصاعد من الأطلال ، ثم استحث
راحته ليستعد من المكان مسرعاً ، وحشى الرسول أن يدفع الفصول الشديدة جند
الإسلام إلى الساحق في السير ، فأوصاهم أن لا يدخلوا بيوت الذين ظلموا إلا وهم
باكون ، خوفاً أن يصيبهم ما أصاب من قبلهم ، فإنه كان يعلم أن تلك العبرات
التي تسيل في مثل تلك المذكرات ، تجعل حشية الله محل محل الفصول غير أن
المسلمين لم يعكروا ، وقد تأثروا بعزاه تلك لذيوار التي مدت كأب ديار أحياء
يعرفون البشر قوة وقدره ، وبذلك السكون الشامل لهيب السائد على تلك الأرجاء ،
حيث عاشت أمة في عمار الزمان عيشة الفسق والعزور ، لم يعكروا أمام هذا كله
في الاستطلاع ، ولم يدفعهم الفصول إلى التسطو ، بل كان حس همهم تنع اسى
الملمهم ولابتعاد عن تلك الأطلال الى حل بها غضب الله .

وكان العطش يستحثهم من جانب آخر على السير فلما ظهر لهم ، وسط
السهل الرملى ، بئر ثمود الشهير حيث كانت تستقى المذقة العريية ، تشتتوا متناهبين

كل يريد الشر ليكون أول من ازدوى ، ولم يفكر الرسول على إيقافهم أول الأمر ،
 فاستحث ناقته حتى لحق بهم ، وقال لهم بصوت صارم : « لا تشربوا من مائها
 شيئاً ، ولا تترصنوا منه للصلاة ، وما كان من عجبين عجموه فاعلموه الإبل ،
 ولا تأكلوا منه شيئاً ، ولا يحرجن أحد منكم الليلة إلا ومعه صاحبه » .
 ثم أمر بالرحيل عبر عالى بإعياء جنده ولا يعطشهم ، كي يزيل كل وسواس
 من نفوسهم .

وما زال الرسول مسجياً نوبه على وجهه حتى وصل «وعدة يمر» مترك الناقة ،
 الصبق الخفيف ، وجنده يتبعونه دون تردد أو شكوى رغم ما ألم بهم من أوجاع
 وخيبة أمل .

وكان هذا الممر يلقى في النفس إحساساً بطول شديداً ، ويبحث التشاؤم
 مما يعرضه من مرتفعات صحرية محيطة بحبيبه ، يردو ارتفاعها على مائة وخمسين
 ذراعاً . فحسرت المهنون بصلورهم تضيق ، كأن قد سحفتها ابواب الشاهقة
 الارباع ، المهيمنة عليهم ، وكانوا يخشون صدى أنات اساقفة العربية .
 وما من قوة بشرية تستطيع قمع الرعب الخدوي الذي يستوى على الدواب ، فتتخلص
 من الراكدين ومتاعهم وسلاحهم بقفورات شديدة ، ثم نوب هاربة بعد أن ترى
 بمن يحاولون وقفها وتسحقهم تحت كلاكها . وتترك الماقين وسط بداء حدياء
 مترامية الأطراف . وكان أقل صوت يردده صدى للصخور مكرراً ، بحث يبحث
 رعدة حميه ، فابعدوا صكوباً شاملاً ، لا شاعل لهم إلا استحثاث دوابهم . وأخيراً
 نخرجوا من الممر الخفيف ، فتشمس الناس الصعداء . واطمأنت قلوبهم ، وظهر
 لعيونهم مكان خال صابح خط الرحال .

فلما انتهى المؤمنون من تهيئة نحيبهم ، أحرر الرسول أن ربحاً شديدة سوف
 نهب عليهم الليلة ، وأوصاهم قائلاً : « من كان له بعير فيشد عقاله . ولا يحرجن
 أحد منكم الليلة إلا ومعه صاحبه » .

وما كادوا يمشون على دوابهم يستوثقون من عقابها ، حتى تحققت دعوة الرسول ،
 واحتجب الشمس العاربة بحجاب ناهت ، بناقض الخمرة لهية الى تكسوها عادة ،
 فكان بهوتها وانعدام أشعتها مؤذناً بهبوب عاصفة هوجاء

وبجأة وثب من الأفق ستار قائم ، لب الشمس في ثاياه المتماوجة واصططح الأفق بدوب القار ، وتكاثفت الظلمات ، حتى حزن لكل حي أن يحس عيبه قد عشيها النعوى . وسمعت من أعماق الصحراء جلجلة عريية تقترب بسرعة فائقة ، وتسبح طيباً بصم الآذان ، فكانه صغير حبات هائلة ، يصحبه صياح المردة الشريرة ، وارغى في لآونة نفسها على انهم لعصار عيب ، اقتنع في مسيره كل ما لم يكن محكم لشد ، وحلت محل الظلمات السوداء عدمات أخرى صفراء أقم وأمع للنظر .

واحتفى المؤمرون بحماهم التي جعلت ظهورها للعاصفة وترتله تن حوماً ، وسجى كل منهم أطراف ثوبه على وجهه ودراعيه وساقيه ، ليتنى الرمال الثائرة التي تعرس قاسية في جسده . وكأنها الآلاف من لدغات الحبل ، فكان الحدى ينتصق بالأرض وينشب أظفاره فيها ، أو يتعمق بحجم بغيره خشية أن تحمله الرياح كما تحمل منسوف الصوف .

وبالرغم من هول تلك الساعة ، تسمى جديان أوامر النى المشددة . فخرج أحدهما من انهم ولم يكذب خطوتين حتى وقع ، أما الثانى فقد خرج في طلب يعير له ذعر فقطع عقاله وهرب ، فاحتضت الرياح صاحبه في ثاياهها وكأنه الحجر قد قذف من التل ، حتى طرخته على قمة جبل طي . فلما أخبر بذلك الرسول صاح - « ألم أنهكم أن يخرج أحد منكم إلا ومعته صاحبه ؟ »

ثم دعا لرحمى لدى أصيب فشنى - وأما الآخر الذى وقع على جبل طي فإن طيشاً أهدته لرسول الله حين قدم المدينة .

واخيراً هدأت العاصفة ، بعد أن صبت ، عثت ، جام غصبتها على جند الله ، فهجرتهم إلى أرحاء أخرى من الأرض ، ولم يعودوا يشكون منها ، بيد أن المراحل السابقة كانت قد أنهكتهم ، وحاء لهم الليل بمريد من التعب بدلاً من الراحة الشافية وقد امتصت ريع السموم كل ما تبلى في أجسامهم من وطب ، فتكثف الدم في أجسادهم ، ونعس سردينه في شرايبهم ، وأحدثت ضربات قلوبهم دقاً لا يطاق في آذانهم . لماذا كان عساهم أن يصيروا فيما تبقى عليهم قطعه من طريق طويل قبل الوصول إلى أول بئر ؟ .

لم يكن منظر المكاد يشجعهم أو يثب من عزيمتهم ، فهم يحسبون بأرجحهم وكأنها تظاً أطلال عالم غريب حرته حريق هائل . وهناك على بعد عظيم كان يحد الأفق خط أسود هو «صحراء المترامية الأطراف» التي تدرك كأنها مكسوة تارة بحل من الفحم والسناج^(١) وأورمد ، أو نلام من حديد تعجمير في انصهاره ، فكأن فقايق عظيمة تكسرت فكشفت عن شقوق عميقة ذات حواف معدنية حادة كسطايا الزجاج . هناك على الأقل كان يبدو أن الحريق قد أطفىء ، أما على طريقهم فقد حسرو أنه ما زال مشتعلاً . إذ كانت الكتل الصخرية برقع من كل جانب كأنها ، بأشكالها وألوانها ، غابة ذات جدوع صخرية ، تنحجم جزء منها ، وما زال الجزء الباقي مشتعلاً ، وقد اعوج بعض تلك الأشجار ، متحدداً أشكالاً غاية في العراة حتى حسبها المؤمنون شيطان عاسه ، هربت من الحميم ، ووقعت على طريق جند الله تلهو بعذابهم .

كانت الأنواع الحجرية المساء ، والصخور الخادة البركانية السوداء ، تكسو الأرض ، إذ انكشف عنها ستار الرمال النصفة البيضاء التي تعكس الأشعة عكساً قوياً فتشعل تحت كل صحرة ، وفي خوف كل فجوة من فجوات اتلال الصخرية آلاف البيران الحامية ، وحتى في أرجاء لسهاء بلاروردية ، تلون الصفر المخلق ، والغمام النادر النار ، بلون برتقالي زاه ، كأنه انعكاس وهيح لحب عظيم . وكانت أعمدة الرمال الشامخة تجرد وسط كل تلك لأطلال كأنها أعمدة الدخان المتصاعدة من حريق لم يتم إطفاءه .

وأصبحت عيون المؤمنين وكأنها مشح متقد بين حمول بعد أن حرقها ريح السموم ، وحمرتها انكسارات الأشعة اساقطة على التلال ، أما أرجلهم التي حرقها حصي «صحراء» فلم تكن تستقر على الأرض المنهبة إلا في ألم مريح ، وأصحي الرصبات وقد احتلط يدرات الغبار الدقيقة كأنه لعجين لكثيف تأبى الصخرة السلاء ، وتوتر الجلد توتر اضل يحدث ألماً كلما مسه شيء ويتشقق شقوقاً بيغة أما الشفاء المتورمة فلم تعد تقوى على الكلام . وقد انتاب بعض الجند الحديان بسبب لعطش ، وكان ذلك مؤدناً بالموت ، وبكى يرجعهم إلى الحياة ، لم ير أصحابهم

(١) أثر دخان الزجاج في الحائط مثلاً

يداً من أن يبحروا إليهم ، ويعصروا أكراسها ، ثم يصيروا السائل الناتج في أفواههم ، ويجعدوا أورثها الرطبة على صدورهم الخفاة ، وكان الرسول يتألم لآلام أتباعه ، لكنه لم يتزعزع أبداً في إيمانه ، إذ اعتقد اعتقاداً راسخاً في أن الله لا يتحلى عن عباده أبداً ، وإن أحب الإكثار من امتحانهم ، فم يكف لحظة عن الدعاء .

... كم كان النهار طويلاً . . . وأخيراً بدأت الشمس في الهبوط ، وقد كانت ، من قبل ، كأنها مشدودة إلى السماء مغيوط خفية . . . واحتجبت في ذلك اليوم كما احتجبت بالأمس ، فابتلعت قرصها الأحمر تلك لسحابة السوداء التي كانت تنتطره وراء الأفق والتي ارتفعت على ورقة لسماء ، فسقطت على المعسكر قمة سوداء مهدبة بالماء المتجمد دى البريق المحاسي . . . ولم يطل الانتظار حتى انقضت سلسلة البرق متوالية على جوانب تلك القمة ، فدثرتها قطعاً انساب من بينها قطرات الماء الكبيرة التي أحدثت تترديد وتراحيم حتى تحوالت غيماً هطالاً . . .

.. كم كان للذيد ذلك الشعور العظيم بالسعادة الذي أحس به المؤمنون حينما نزل ذلك المطر المبارك عليهم فاحرق ثيابهم ، وكان على أحسامهم برداً وسلاماً فأسرعوا إلى العذراء الكثيرة التي كونتها مياه السماء في كل فجوة من فجوات الأرض ، حينما وقعت على تلك السفوح الجرداء ، يرتوون .

واستراح المؤمنون وترددوا ببناء مشطوا للسفر ، واحتشمو مغتطين أتعانه ، فخرجوا في النهاية سالمين من تلك أنبلاد التي حل بها غضب الله . . .

وصول الرسول إلى تبوك وإقامته بها :

ظهر لأعين الرسول وجهه سهل واسع مسط ، من الرمال انرافة ، يقطعه حط ربيع أررق اللون ، ولم يطل الانتظار حتى اتضح ذلك الخط الذي أصبح العاية المشدودة للفاصل ، قامت منه ، منتصبه ديمة ، فروع حيل تبوك . فقد كانت تلك واحة تبوك . كيف نصف فرحة الواصل إلى واحة الخيل ، بعد أن عانى آلام العطش ؟ ! كيف تصور مروره عندما يتأمل في الماء البراق الماوج في الغدير ، بعد أن يتوصاً منه ويرنوى ؟ ! ثم كيف تصور انشراح صدره وهو يصطليح في ظل الخيل ؟ ذلك شيء فوق قدرة القلم !

. كان حشد الرسول قد تعدوا على أشق مرحلة من مراحل مهمتهم إذ انحصروا على العوائق الطبيعية . فظفروا بحين الاستحقاق إلى أسلحة المشركين وإلى ما يمكن أن تقيمه في سبلهم من عقبات على أنه يحصل الوسائل العجيبة التي تنتشر بها الأخبار في الصحراء ، علم روم لناصرية ، وعرب الشام ، الذين اتحلوا لمحاربة المسلمين سريعاً . بهجوم الرسول . وبروله سيوك . وكانت دهشتهم لذلك شديدة

لقد اعتقلوا اعتقاداً راسخاً في أن الرسول إن أقدم على تلك المحاربة سوف تكون قهار الحجار مأوى لعظام حننه . ومن أجل ذلك فإنهم رغم تفوقهم في العدد ، رأوا أن كل ثاب أمام هؤلاء الأربعة ألقا من المؤمنين الذين وجدوا في معانرتهم الهائلة ، يكون جنوناً وينتهي بالهزيمة المنكرة . وحل الخلاف في صفوف جيشهم العظيم ، فمت فيها . وروى كل فريق هارياً إلى بلاده . دون أن يجسر على ملاقاته ارسول . فدعم تشتت الخلفاء المخزي سلطه الإسلام أكثر مما كان يدعيه أعظم الانتصارات . ولولا أن شغل محمد بوجوب إتمام رسالته في الحجار قبل كل شيء . لفتح الشام بغير عناء . وأوصل مجنده إلى قلب فلسطين دون مشقة شاقة .

وأقام الرسول بتوك . فجاءه أمراء العرب حاصعين أوواجاً ، لا من البلاد المحاربة محسب . بل من أنأى الممالك أنصاً ، مثل سبأ وسور . ولم يشذ عن هذا إلا أمير دومة الخذل . وهي بلد كبير على حدود يهود (صحراء حمراء الرمال) إذ اعتر هذا الأمير نفسه . فأبى الاستسلام ، فبعث إليه الرسول بحالد الحار ، فأخضعه في أيام معدودة .

وفي الأسابيع القلائل . انتهى أراح هيبة محمد جيشه . واصل اهتمامه بتنظيم شؤون البلاد المفتوحة . وتعليم المسلمين الخلد دينهم الكريم .

ولم يكدر صفوه انتصاره ذلك إلا حادث واحد وهو . موت أحد صحابته الأوفياء وكان يلقب بذي الجاديين . وأراد الرسول أن يبين للناس مقدار إحلاله لذلك المؤمن المختص . فساعد بيده حامل الخثة ، وأدركه معه في القبر ، حتى إن ابن مسعود . وكان حاضراً . حسد المس على ذلك الشرف العظيم . فصاح . يا ليتني كنت صاحب الخمرة .

الرجوع إلى المدينة :

وعاد الرسول بحنده إلى المدينة دون أن يحدث ما يستحق الذكر . فلم يشك الجند من العطش . إذ كان فصل الحر قد مضى ، فوصلوا إلى المدينة في أوائل شهر رمضان .

... أيها المنافقون الأشرار . أين تخفون خريكم في مثل هذا اليوم بين اهتافات التي يستقبل الجند الأشداء ؟ . . . عشنا حاولتم أن تأتوا بالحجج ، لتقللوا من شأن ما تمكم ! إن الرسول لا ينزل فيشرفكم بحصبه ، فما أنتم له بأهل ، وإنما يستحفه أولئك المؤمنون الثلاثة الذين تحملوا من غير شك ولا نفاق . وبالرغم من تدليلهم وتلميحهم . قصى عليهم بأقصى حكم ، إذ أمر المؤمنين بمقاطعتهم ، فوجد المديون أنفسهم طوال خمسين يوماً معزولين تمام العزل عن المؤمنين ، الذين هجروهم كهجرهم للمصاب بالطاعون ، حتى عفا الله عنهم بعد ما رأى من إحلاسهم في طلب المفرة :

وعلى الثلاثة الذين خُلِفُوا حتى ، ذر صاقت عليهم الأرض بما رحبت وصاقت عليهم أنفسهم ، وطنوا أن لا تلجأ من الله إلا إليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا ، إن الله هو التواب الرحيم .

كانت عروة تبوك آخر المرات التي قادها الرسول بنفسه . فقد اكفى في سبيل إخضاع ما تبقى من بلاد العرب - سعت قواده في عدد من السرايا ، كللت جميعها بالسجاح ، وإن المقام ليصيق عن سردها :

أما الرسول ، فقد أقدم بالمدينة حيث شغل بتلقى الاستسلامات الكثيرة التي أثارها انتصارات الإسلام ، وأهم هذه الاستسلامات استسلام أمراء دومة الجندل واليمن وعمان . وكذا أمراء الحيرة واليمامة والطائف ونجران إلخ . . . وكان فوق ذلك يصرف جهوده في تلك الحكومة الشاقة ، حكومة العرب الذين اتحدوا لأول مرة في تاريخهم ، فكونوا دولة متآحية لأفراد فأبان الرسول في عمله هنا ، كمشرع ومصحح ، عن براعة توازى على أدنى تقدير براعته كفائد على رأس جنده .

وفي هذه الصّرة ، مات عبد الله بن أبي سريون رئيس المناقبين الشهير وكان قد تأسب وندم في آخر أيامه ، فصرع إلى محمد يطلب المغفرة ، فعف محمد عفواً كريماً . وبالرغم من اعتراضات عمر العبد ، تمسك الرسول بالصلاة على عدوه العادر وبلغه يديه الشريفين ولم يبق في المدينة صاقي واحد بعد ذلك الدليل الساطع على تسامح الرسول وتساميه للحينة .

أما كعب بن زهير ذلك الشاعر الذي صرف حياته في نظم قصائد لاذعة ، يهجر به الرسول ، فقد أتاه وأسلم بين يديه ، وتلا عليه قصيدته يملحه فيها ، فلما وصل إلى البيت اخذاه والخمسين وهو :

إن الرسول لتور يستصاء به مهتد من سيوف الله مسلول
عما عنه محمد ، ورمى برذته على كتفيه ، همة منه له .

وبعد رجوع قواده المنتصرين من سريرتهم ، بحث أسى بالمشرين إلى القبائل التي كانت حديثة عهد بالإسلام ، ليمنع أهلها من أن يصلوا الذين لصحيح بتسرب حرافاتهم القديمة إليه

ومن أهم هؤلاء المشرين ، معاذ بن جبل ، الذي بحث إلى اليمن . وقد أراد الرسول أن يبين للناس اهتمامه ببعثة معاذ ، فألسه عممة ، وساعده على ركوب بعيره ، وشيعه ماشياً ليدلّ إليه بتوصيته الأخيرة ، فارتك معاذ وأراد التزول عن دابته ، لكن محمداً معه ، ثم أوصاه وحثه على السير ، وودعه وهو يتألم لمراقه .

وفي شهر ذي القعدة بحث الرسول - وكان لا يزال على اهتمامه بالفتح من شأن ديني وسياسي - بأبي بكر إلى مكة لتأدية الحج على رأس ثلثائة مسلم فلم يكذب أبو بكر يصل إلى ذي الحليفة حتى نزلت على الرسول سورة براءة :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجسٌ ، فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ، وإن حفتُم عيلةً فسوف يُعَذِّبكم الله من فضله ، إن شاء »
« إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ »

وكان لتلك السورة - وهي الوحيدة في القرآن التي لا تبدأ باسم الله الرحمن الرحيم - شأن خطير في الحج ، إذ أعلنت باب الحرم دود من كان غير مسلم ، وما زال

ذلك الحظر لشديد إلى الآن يحمي حجاج الإسلام من تجسس الأعداء والأدعياء ،
ومن فصول الأجداب

وكانت تلك السورة بعضاً الضربة القاصية على الإشرار عند العرب ، إذ لم يعد
أحد منهم يستطيع دخول مكة إلا وقد تراءى من أعضائه ، لذلك كله بعث الرسول
بعضي في آثار قافلة الحجاج ليذكرها بأقصى سرعة ، ويتنوع على المؤمنين السورة الحارمة
بعد بحر الهدى في وادي منى

حجة الوداع (ذو الحجة سنة ١٠ هـ ، مارس ٦٣٢ م) :

عزم الرسول في السنة الثانية على قيادة الحج إلى مكة بنفسه ، فمهد هجرته
إلى المدينة ، لم يكن قصد مكة إلا للعمرة ، إذ كانت مكة لا تزال مشركة ، غير
أن الحج لأكبر ، وهو من فروع الإسلام الخمس ، يحتم زيارة بيت الله كما يحتم
زيارة جبل عرفات (وقد سمي هكذا لأن جديب آدم وحواء ، تعارفا عليه بعد طردهما
من الجنة)

وكانت راحة محمد محة في أن يكحل عيبه للمرة الأخيرة برؤية مسقط رأسه ،
إذ أحس ببقايا السم التي استوطنت شرايينه ، تنخر نخية في جسمه ، فأيقن بدنو
أجله ، وأعلن على الناس مشروعه ، فأثارت فكرة رؤية رسول الله ، وفضاء الحج
معه ، حماس العرب في جميع أرجاء جريزتهم ، وبلغ عدد الحجاج الذين خرجوا
معه من المدينة ، أو التقوا به في الطريق ، حوالى مائة ألف حجاج .

ووصل المؤمنون إلى دى الخليفة ، فأحرم النبي ، كما سبق شرحه في فصل المدينة ،
وتبعه في ذلك المؤمنون ، فأربدوا نوب الإحرام المكون من قطعتي قماس غير مصبوغ ،
لا حياطة فيهما ، تنف إحدهما على الصدر ، وتسرى الأخرى العورة ، أما الرأس
والرجال والدراعان فتبقى عاريه ، ونادى الرسول مديحاً هرد : المؤمنون بصوت واحد من
بعده التلية : بيبك اللهم بيبك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة
لك والملك ، لا شريك لك .

وقد حدث في هذه الرحلة حادثان بسيطان ، لا نذكرهما إلا لأنهما يبينان
ما يجب على الحاج من إخضاع ثورات انقباض والفسجر في نفسه : كان بعير
صفية زوجة الرسول ثقيل الحمل ، نطىء السير ، يتأخر عن الركب رغم جهود

سائقه ، بينما يعبر عائشة حبيب الحمل مع حقه مشبه . فلما رأى الرسول ذلك ، أتى عائشة يحاول إقناعها بإبدل الحمير . وأمر أن يحمل حمل صبية على حمل عائشة ، وحمل عائشة على حمل صبية ، فلم ترص بذلك عائشة ، وصاحت غاضبة : « إنك ترعم أهلك رسول ، فما لك لا تعدن ؟ » ولم تكذب تلك الكلمات حتى لطمها أبو بكر ، فلامه محمد فقال : « أما سمعت ما قالت ؟ » . قال : « دعها فإن المرأة أغبراء لا تعرف أعلى الوادي من أسفله ! »

ووصل الرك إلى محل يقال له . العرح . هفقد البعير الذى يحمل زاد الرسول وزاد أبى بكر ، فأنب هذا الأخير مائق البعير قائلاً « بعير واحد نضله ! » واعتزته حدة شديدة ، فأخذ يصره بالسوط

هناك الرسول ساحراً : « انظروا إلى المحرم ما يصنع ! هود عليك يا أبى بكر ، فإن الأمر ليس إلبث ولا إلبثنا . وقد كان العلام حريصاً على ألا يصل بعيره » .

وسلك الرسول فى حجه هدا ، عبر الطريق الذى سلكه فى عمرته . فدخل مكة فى وصح النهار . وأداح ناقتة أمام باب الحرم ، المعروف باباب السلام ، وأبصر بالبيت . فقال « اللهم رد هذا البيت تشريعاً وتكريماً وتعظيماً ، ومهابة وبراً » ورد من شرفه وكرمه من حجه أو اعتمره تشريعاً وتكريماً وتعظيماً وبراً . وبعد أن توصاً ثلاثاً بدأ بالحجر الأسود فقله . بينما فاصت حينئذ بالبكاء ، ثم قضى الطواف والسمى مثلما قصاهما فى عمرته .

فى اليوم الثامن من دى الحجة ، قام إلى وادى مى ، حيث نصبت له خيمة من صوف ، فصلى هناك صلاة العصر ، وصلاة المغرب . ثم صلاة العشاء . وفى اليوم التالى ، اعتلى ناقتة القصواء وسر إلى جبل عرفات بعد صلاة الفجر .

احتشد الناس على سموح الخيل الصحرية ، كما احتشدوا فى انسهل والشعاب المطورة ، فحطت فيهم الرسول من فرق ناقتة التى قادها بنفسه إلى قمة الخيل ، ووقف عليها . ووقف أسفل الرسول ربيعة بن أمية الذى كان يردد كلماته بصوته الجمهورى أثناء فترات السكوت المتعمدة هذا العرض .

بدأ الرسول بحمد الله والثناء عليه والتعظيم له ثم قال :

« أيها الناس ، اسمعوا قول ربّي لا أدري لعلّ لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً .

أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا ، وكحرمة شهركم هذا .

وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم . وقد بيعت .

فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها .

وإن كل رب موصوع ^(١) ، ولكم لكم دماءكم وأموالكم ، لا تظلمون ولا يظلمون .

وقضى الله أنه لا ربا ، وأن ربا العباس بن عبد المطلب موصوع كله .

وأن كل دم كان في الجاهلية موصوع ، وأن أول دماءكم أضاع دم ابن عسي ربيعة ابن الحارث بن عبد المطلب . . .

أما بعد أيها الناس ، فإن الشيطان قد يش من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً ، ولكنه إن يطلع فيها سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم ، فاحفروه على دينكم .

أيها الناس ، إن السيئة ربة في الكفر يفضل به الدين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ، ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله .

وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ، ثلثه متوالية ، ورجب مفرد الذي بين جمادى وشعبان .

أما بعد ، أيها الناس ، فإن لكم على سائركم حقاً . ولن عليكم حقاً . لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، وعليهن ألا يأتين بما حشيت مسينة . وإن فعن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع ، وتضربوهن ضرباً غير مبرح . فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيراً ، فلهن عندكم عوان ^(٢) لا يملكن لأنفسهن شيئاً . وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة

(١) موصوع : مهاد .

(٢) أسرى أو كالأسرى ، والواحدة عانية .

الله ، واستحللتم فروجهن بكلمات الله

فأعقلوا أيها الناس قولي ، فبني قد بعثت وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به
على تصدوا أبداً ، أمراً بيّناً : كتاب الله وسنة رسوله .

أيها الناس ، اسمعوا قرني واعتقلوه تعالّمس . أن كل مسلم أح للمسلم ،
وأن المسلمين إخوة . فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ،
فلا تطمس أنفسكم .

اللهم هل بعثت ! !

فأجاب المائة ألف حاج بصوت واحد يفيض إخلاصاً وإيماناً صادقاً :

اللهم نعم !

فقال الرسول : اللهم شاهدا !

وفي موضع آخر من عرفات يقال له الصحرات ، ويتميز بألواح صخرية كبيرة
درل على الرسول الوحي على حين عرة فكاد عصده ناqqته يندق من ثقل الوحي الذي
بعد إلى نسب صاحبها ، ووقعت على ركنيها
وها هي دي كلمات العبي تقدير التي نزلت في ذلك اليوم .

« ليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم
الإسلام ديناً » .

حاء ذلك الوحي حناماً لخطبه الرسول لتي أثارته عوطف المؤمنين
فأبسط في الناس التحمس والخلص والإخلاص الخار .

بيد أن أبا بكر لم يشارك الناس في فرحهم ، بل تملكه حزن شديد ، ولم يفتر
على كبت عرائته ، إذ رأى أنه ما دامت نعمة الله قد تمت ، فإنها على محرمي
السنن الإلهية - ستأخذ في لنقصان ، وعرف أن رساله محمد قد انتهت ، فحث أنه
عن قريب ، يتسأى عن هذه الدنيا فيتركها ويختار الرفيق الأعلى .

... انتشرت أحمحة المساء الزرراء عن الوادي ، وعلى سفوح جبل عرفات ،
وبقي الرسول مشرفاً على جموع الحجاج من فوق ناqqته العااية ، فكانت أشعة
الشمس العارئة الذهبية تصبئه وحده - وكانت عياده انتان أهميتها حرارة الإيمان
يخرج منها بريق إلهي ، ولكن وجهه الذي هرله المرض ، كان يبعث في الناس

شعوراً بأنه رؤيا دأثمة ليست من عالمنا نوثقك أن نرسل ووصل إليه ، بسلام
الصاعد عطراه في ثيابه

عند انتاب أصحاب الرسول ، بعد أن كانوا يهللون لإعلان إكمال الله ديمهم ،
نفس شعور الطرن الذي ادب أنا بكر . وصرى القلق قبيلًا قبيلًا من قلوبهم
إلى قلوب المؤمنين ، فصر صدر المائة ألف حاج جرع شديد .

وأذن الرسول بالرحيل ، عبر أنه خاف أن يقضى تراحم تلك الحمرع اختشدة
إلى احتلال لظام ، فشد على رمام دقته السريعة العدو ، ولوى عتقها حتى جعل
منخرها بمس حسها ، بينما كان هو نفسه يتدحرج على النار .
ولم يفتأ يردد : « اطمشوا في سيركم أيها الناس » .

فلما وصل المرك إلى المردلة ، صلى بها الرسول العشاء ثم المحر في اليوم
الثاني ، ثم ركب ناقته وبلال يقودها ، وأسامة على عجزها دقعًا ذوبًا يظله به من
الحر . واتجه الرسول شطر وادي موى ، ليرى تحصيات سبع كلا من الأعمدة الثلاثة
القائمة هناك والمعروفة بالحمرات ، تدكرة للحصيات التي رمى بها إبراهيم الشيطان
الذى حاول ثلاثًا أن يقعه في هذا المكان

ثم أحرق محمدًا ثلاثة وستين عددًا ، ونحر بيده ثلاثة وستين بعيرًا ، وأمر عليًا
أن يفرق خرومي وجارده على الحجاج صدقة وشكرًا لله الذي من عليه بثلاث وستين
سنة عمرًا ، وبعد ذلك حقق رسول الله رأسه الشريف ، حنقه معمر بن عبد ،
بادئًا بالشق الأيمن مستهينًا بالشق الأيسر . وأخيرًا ، وبعد أن قام مره أخرى بالطواف
حول الكعبة ، وشرب للمرة الأخيرة من ماء زمزم الذي ناوله إياه السقاء عمه العباس
في إذنه ، فقل ورجعًا إلى المدينة .

وهكذا أدبت الحجة التي عرفت بحجة الوداع ، والتي تركت في نفوس المؤمنين
أعمق الأثر ، إذ علموا أن رسالة محمد قد انتهت . وأصبح ذلك الحج قلوة
للحججات التالية ، التي تجلب للمحرم كل سنة منذ ثلاثة عشر قرنًا ما بين مائة
ونخمين ألفًا ، ومائتي ألف من الحجاج ، الواقدين من كل فج من فجاج
الأرض .

إن كل حج ، أيًا كان الدين الذي يتحنى إليه ، عما فيه من الإيمان الذي

سبح كل انجوه ، شعر في نفس أشد لئلا ينشأ شعوراً بالروعة لا يوصف ولا يتخلص منه إلا بالجهد جهيد . غير أنه في أكثر هائلات السموات قد دخلت عادات مبكرة . عمت الشعور بالروعة هذه . وحوته إلى شعور بالكراهية والاشمئزاز لا شك في أن احتجاج في مكة شأنه شأن الحجاج في سائر المراحل الأخرى ، عرضة لاستغلال حشع غير أن لأهل مكة في ذلك العصر : إديميثون وسعد أشد الصحرورة حديث . وليس لهم وسيلة للارتزاق إلا هذه .

ومليده خاصه لى يمتار بها حج المسلمين هى عدم وجود تلك المعابد الكثيرة دواب القرب يصيده الى بحس الأروح ، ويغنيها في ونسها إلى الخاق ، فتغنيها على الأرض وهو رحمه القيس .

ويتمر أيضاً بعدم حيثى بقديس العرمم . لدى تشعل عديته عن عادة « لإيه الخاند » الذى يسمى عادة في مثل تلك الأوقات . وأخيراً ، فالدى يتمر به الإسلام . لعدم انفس . ورجال لدين على خلاف درجاتهم . بلين يتحاسنون ويتنافسون في احتداب الحجاج . ولاستلاء على مكة الحج لإرضاء وتمجيد طوائفهم ، أو درجات كهوتهم

وفي مكة تقام الصلاة بالمصعد الرديعى المسيح بحيد الكمة وحل عيه قبة السماء الأثرية محل قبة المعابد الحجرية . فتظهر . مصهرة من كل صيورها ، مفصحة عن وجهها الأرق المهيي ، بالأرواح المندعة المشوقة إلى المنى العليا . في مكة لا يعبد إلا الله الواحد الصمد . فإن كان الحجاج يحاورون مع دكربات إبراهيم ومحمد ، فإنما يكون ذلك لبهو واشعله إيمانهم ، مسعين سه سيهم . ولا يصلى المؤمنون أبداً لأولئك الأنبياء كما يصلى المسيحيون لعديسيهم ، بل لإلههم ليسعون لهم برحمة الله .

وتفتح أبواب الكمة ليل نهار ، فيسرع الحجاج إليها بعشى مكة . فإذا ظهرت له الكمة المكسوة بستار أسود ، ولقى كان لا يمتأ يدكرها عند احتياز أهول الطريق بين الرمال الثائرة ، أو الأمواج المتلاطمة أيقظها العاصفة . . عندئذ يشتد انفعاله ، وتثور عواطفه . حتى يود لو خرجت روحه من إهابها في تلك الدقائق من الوجد الروحاني . . ولا يقترب الحجاج من الحجر الأسود ليقبله إلا وعيناه

تسرعان الدموع ، وصلوه بخلج ندماً ، ووجهه يضطرب حياء ، ونفسه تضرع
إلى الله : اللهم اغفر لي ذنوبي ، واشرح لي صدري ، وظهر لي قلبي يا أرحم
الراحمين ! »

.. وعندما ينادى المؤذنون بالصلاة ، يسرع المؤمنون إلى العشاء الرباعي
الفسيح ، فيمنزونه وكأنهم البحر تتصارب أمواجه ، فلا تترك فيها بينها متسعاً إلا
ما يكفي للسجود ، ويكرر الإمام ، يردد المؤمنون تكبيره في زفره تخرج من كاه
الصدر في آن واحد ، وتغرى الجموع المحتشدة حركة تموجية ، فيحنون رؤوسهم
مثل المياه المسابة على الشاطئ

ثم يكرر الإمام تكبيرة ثانية ، فيخر المؤمنون ساجدين ، وكأن الأرض
قد مادت تحت أرجلهم ، حباهم بالأرض ، حيث تصبح الأحاسيس ، وكأنها
سحقت تحت ثقل الحشوع والشكر والعبادة . كالأشعة تتجه نحو مركز واحد ،
هو الحرم الذي يبدو كأنه ارتفع بمقدار انخماص سجدة الحجاج ، والكساء
الحريرى الأسود يحرق بأنفاس ربيع خفية . يعتقد بعض الناس أنها رفرة أجدحة
الملائكة .

وليس احتشاد الناس على عرفات بأقل روعة من ذلك .

فجمل عرفات اضروطى الشكل ، ذو الجوانب الخالية من كل بيت ، وإلى
ثمر فيها الصحور الهائلة ، يرتفع وسط واد مقعر ، ليس على سموحه ولا في جواره
أى أثر للحياة . بل في كل مكان صورة الخراب ، وسكون الموت . غير أنه في
كل سنة في التاسع من شهر ذى الحجة . يبدو هذا المكان الكثيب في منظر رائع ،
يبعث في النفس صورة يوم البعث .

فالأرض والرمال والصحور ، نحتي كلها تحت ثوب من الآدميين المرتدين
باس الإحرام الأبيض . حتى يحسبهم الطير أمواتاً بعثوا ، فبدأوا في جمع أكفانهم
بعد أن دفعوا الصحور التي كانت عطاء أصرحتهم .

موقف من مواقف احشر حقاً ، إن جميع أجاس الإلس على تباينها
تحتشد في ذلك المكان الذي اعتاد الإقمار ، فهناك العرب ذوو العيون النفاذة
البصر ، والشرة النحاسية الحمراء ، والعثمانيون ذوو الوجوه الصارمة الخازمة ، والهنود
كالتماثيل المنحوتة ذات البشرة الزيتونية ، والبربر ذوو البشرة الوردية والشعر الأشقر ،

ثم هناك لصوماليون ، والسودانيون دوو البشرة السوداء التي يلمع في ضوء الشمس ،
فمنعكس أشعة قمرية وهناك القمر المزهود ، ولشركسة دوو الحرارة وإلعدام ،
والصينيون دوو العيون المشدودة ، وأهل حارة دوو لوجنات السارة ، إلى آخر
ما هناك ، فمن ترى في العلم جمعاً مجتمع ، فعرص في آن واحد كل تلك الوجوه
الآدمية مختلفة الشبه ، وكل تلك اللهجات واللغات المتنوعة .

وبعد صلاة العصر . يقوم الخطيب عن ذقته المزينة بأحسن ربة ويعتلى
حل عرفات فيبقى على أساس حطه كثيراً ما تقطعها انسيات « لييك
للهم لبيك » .

وعندما يهتفون بالتلبية يحرك الحجاج أطراف ثيابهم البيضاء فوق رؤوسهم ،
فيبدو الخيل وكأنه يصطرب باضطراب الآلاف المؤلفة من الأجنحة الموشكة على
الظبران ، بينما تسمو إلى السماء وتردد صداها في الصحراء صيحة قوية ترفع
من حنايات الوادي ، صيحة يرددوها مائتا ألف حاج قد وضعوا جانبا لعائهم الخاصة ،
لتحذوا في لغة واحدة ، لغة العرب ، لغة الله التي اتحدوا لينزل بها على بنيه
الكتاب :

« لييك لله لبيك » .

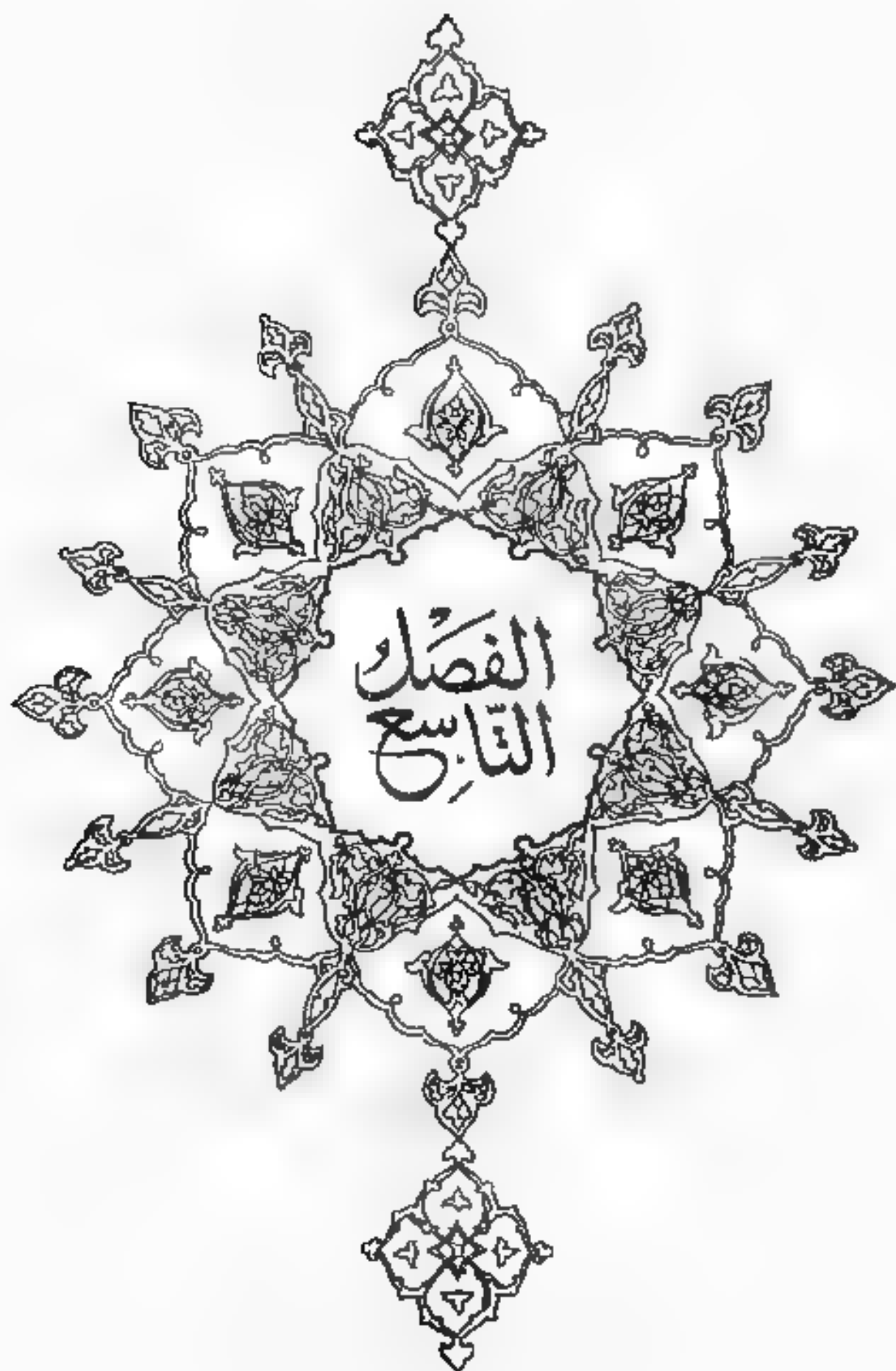
لقد تأخى هؤلاء جميعاً في تلك الساعة العظيمة ، تأخروا لغة وقبباً ، وسوا
فروق الأجناس ، واللجات والطبقات ، سوا أحقادهم : مذهبية كانت أم
سياسية . . في عرفات يرجع الإسلام إلى اتحاده شامل ، وحماسه القوية كما
كان في أيامه الأولى .

ألا ما أجمله من دواء لجروح أساء الإسلام قال الرسول : « مثل
المؤمنين في نواذهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الحسد إذا اشتكى منه عضو ندعى
له سائر الحسد بالسهر والحمى » .

وفي عرفات لا يحشى الإسلام شيئاً من فضول أعدائه ، فيستطيع لم شعثه
وإصلاح حاله وتديير مستقبله وبارعم بما عاناه الإسلام ، فهو اليوم أقوى

وأشد حيوية مما كان هذا هر الشعور الذى يرجع به الخناح إلى بلاده ، يعد
أن يرى ذلك اليوم العظيم ، فضلا عن لقب « حاج » الذى يعطيه عليه الكثيرون .

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا نَكْفِيكَ مَوْتَهُ وَإِنَّهُمْ مَفْيَتُونَ

مرض النبي وموته (ربيع الأول سنة ١١ هـ ، يونية سنة ٦٣٢ م) :

قال أبو مويهة مولى رسول الله : « بعث إلى رسول الله من جوف ليلة من آخر ليلى صبر ، فقال ” يا أبا مويهة ، إني قد أمرت أن أستعفر لأهل هذا البقيع ، فانطلق معي “ . فانطلقت معه فلما وقف بين أظهرهم قال . ” السلام عليكم يا أهل المقابر ، ليهن لكم ما أصبحتم فيه بما أصبح الناس فيه ، لو تعلمون ما نجاكم الله منه “ ١٥ . أقبلت الفتي كقطع الليل المظلم . ببيع آخرها أوها ، الأخيرة شر من الأولى “ .

ولم يكذب انتهى حتى أخذته رعدة لمحدوم ، وانتدأته أوجاع الصداع ، هرجع متثاقلا إلى أهله .

وقالت عائشة : « لما رجع رسول الله من البقيع ، وجلنى وأل أحد صداعاً فى رأسى ، وأنا أقول : ” ورأساه “ ، فقال : ” بل أنا ورأساه “ ، ثم قال : ” وما يضرك لو مت فقمت عليك وكفنتك وصبيت عليك ودفنتك ؟ “ . فقلت ” والله لكأنى بك لو قد فعلت ذلك لقد رجعت إلى بيتى فأعرست فيه ببعض نسائك ! “ فتبسم رسول الله ونسى للحظة ما به من ألم .

ولم يلبث المرحص أن ازداد . فلم يترك له راحة ، خير أن الرسول تغلب على آلامه ولم يكف عن تدبير شؤون الإسلام ، ومستقبله ، إذ أحس أن الإسلام سيفقد قائده فى القريب العاجل ورأى محمد أن من شأن الشام أن يكون بمثابة أحد الأبواب الذى ينطلق منه جند الله لنضج العالم . فلم يصرف نظره عنه أبداً . وعزم على تجهيز حملة ثالثة لضم الروم المصرية . الذين يسيطرون على الشام . وكان

الإسلام إذ ذاك غيباً بالأبصار والقواد الخريبين ، فظهر بينهم في الحال التنافس حياً في سبيل دين قيادة تلك الحملة ، وانتظر أشهرهم ، سواء كانوا من الأنصار أو المهاجرين ، في قف ، اليوم الذي يختار فيه الرسول من بينهم فاختار الرسول عن دهشة من الجميع ، شاباً صغيراً لا تتجاوز سنه العشرين ، يدعى أسامة لكن ذاك الشاب الصغير ، كان ابن رند بن حارثة شهيد مؤتة ، وكان الرسول لا يعتمد على مراعاته وتجاربه ، بل على ما كان أسامة يسيه من حماسة وحمية ، في سبيل الأخذ بالكأثر من أعداء أبيه في نفس المكان الذي مات فيه ميتته العظيمة .

وأحلف هذا لاختيار طس القوم لذين كانوا يضمعون في قيادة الحملة ، ودار بينهم الفيل والجمال ، وزددوا في مابعه أسامة تلك المابعه لمطعمه التي هي مفتاح النور ، إذ رأوا فيه صغر سن وقه تحارب وبلغ الرسول الأمر ، فهم إليهم ونقطع دابر ثوددهم بقوله :

« أيها الناس ، أنشدوا بعث أسامة فلعمرى لنس قلم في إمارته لقد قسم في إمارة أبيه من قبله ، وإله الخبيق للإمارة ، وإن كان أموه لحليماً بها » .

جاءت تلك للكلمات الصريحة الواضحة التي نقاها الرسول بصوت الإيمان الملهم بمثابة دواء للتردد والتحاسد . فإ كان من أعظم القود وأشدهم - مثلهم في ذلك مثل أحقر الخسود وأصعهم - إلا أن انتظموا تحت لواء القائد الفقي . وتوارى الحد في ثبة الوداع ، فجاشت نفس الرسول بالعواطف نقد رأى في ساعة الرحيل ، من إيمان جنده العظيم ، ما حمه على الاعتقاد أن سوف لا يعرفهم في طريق النصر عائق ، وأن سبيل الإسلام لخارف سوف يقبض على العالم فيضان النهر المبارك ، فيبقى هه الدور المثمرة لحصارته الفتنة الناشئة . غير أن أسامة لم يلبث أن توقف سيره ورجع على أعقابيه إلى المدينة إذ أثنه لأحيدر المؤلفة عن صحة الرسول

وفي تلك الأيام ، تلقى الرسول رسالة من مسيلمة أمير اليمامة ، يدعى فيها الرسالة والسوة ، ويعرض على محمد أن يشاركه في الأمر مناصفة .

وكان صاحب هذه الرسالة حديث عهد بالإسلام ، علما رأى ما يتجمع به

ألا إني لاحق بربي ، وكم لاحقون به .

دخل الرسول بيت عائشة بعد ذلك الجهد البصلي ، فأعشى عليه ، فلما نادى المؤذن للصلاة ، اعتدل وضب ماء يتوضأ ، وليقوم إلى الصلاة . فيؤم القوم . ولكن إعماء عاوده ثلاث مرات فلم يستطع قياماً . وأحضر أن المؤمنين ينتظرونه في المسجد . فبعث سلال إلى أبي بكر ليؤم القوم مكانه . فلما علم الناس بأخبر بكوا بكاء شديداً

كانت الحمى كثيراً ما تعرى الرسول ، فما كان يوم الخميس والصحابة حول مرقده . قال لهم : « اثبتوا بدواء وصحيفة ، أكتب لكم كتاباً لا تصدوا بعده أبداً » . فقال عمر : « إن الرسول قد غلبه الرجوع وحسدكم القرآن ، حسداً كتاب الله . . . »

وكان من بين الحضور فريق لم يتعودوا مراجعة الرسول . فأرادوا تلبية طلبة إدا عيموا أنه أمي . فاعتقدوا أن منحصل معجزة في تلك الساعة الأخيرة غير أن أشياخ عمر عارضوهم ، فاحتلموا واحتصموا ، ولعظوا ، فثاب الرسول إلى رشده . وقال لهم معاتباً « قوموا عني . لا تحتصم الناس في حصرة النبي » وقد اشتد به الأمر . وكان عنده قدح فيه ماء . فصار يدخل يده في القدح . ثم يمسح وجهه الشريف بالماء ويقول « اللهم أغني عنى سكرات الموت »

فالت عائشه . ثم دعا فاطمة ابنته . فسارها بشيء . فسكت ، ثم دعاها فسارها فصحككت ، فسألته عن ذلك فقالت « أخبرني رسول الله أنه سيقبض في وجهه هذا ، فبكيت ، ثم أخبرني أني أول أهله حاقاً به فصحككت »

فما كان يوم الاثنين في اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول ، بينما أبو بكر يصلي بالناس ، انفتح باب عائشة بطل على المسجد ، وخرج منه الرسول بين علي والقنصل ، معصوب الرأس تحط قدمه الأرض ، فسر من الناس عند رؤيته هزة أمل ، وهم أبو بكر أن تلك الحركة أثناء الصلاة لا تحصل إلا لحيى الرسول ، فراجع ليخفى مكان الإمام ، فأمسك الرسول بثوبه . ودفعه إلى مكانه الأول قائلاً . « صل بالناس » ، ثم جلس إلى يمين أبي بكر أسفل المنبر . وأصاء وجهه فرحاً

وحدوداً . إذ رأى تقوى الناس وخشوعهم . فلما انتهى المؤمنون من الصلاة ، قام فيهم الرسول لآخر مرة خطيباً فقال -

« أيها الناس ؛ صرث النار وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم ، وإني ، والله ما تمسكوك على شيء ، إني والله لم أحل إلا ما أحل القرآن ، ولم أحرم إلا ما حرم القرآن » .

قال ذلك في صوت لم يوهنه المرض ، بل كان من قوته أن يجمع الناس بخارج المسجد ، ثم اعتمد الرسول على جذع من جذوع المسجد ، وصار يحدث أصحابه حديثاً مألوفاً ، ورجع بعد ذلك إلى حجرته ، حيث عاوده ألم عقب ذلك الجهد الأخير ، فكان عليه أشد من ذي قبل ، فجنى على وجهه ثوباً أسود ، ولكنه لم يقلر خلاله على النفس فرجى به .

قالت عائشة : « دخل على عبد الرحمن بن أبي بكر ومعه قضيب من الإراك الأنخضر يستن به ، فنظر إليه الرسول ، فعرفت أنه يريد ، ففتاولته فقصته ، ثم مضفته ، فاستن به كأشد ما رأيت يستن بسواك ، ثم وضعه ، ووجدت رسول الله يتقل في حجرى ، فذهبت أنظر في وجهه فإذا بصره قد شخص وهو يقول : « بل الرفيق الأعلى من الجنة » ، فقلت : « حيرت فاحترت والذي بعثك بالحق ! » ثم وضعت رأسه على وسادة وقمت ألتئم^(١) مع النساء وأصرب وجهى » .

فلما سمع المؤمنون الصراح ، هرعوا إلى المسجد وقد نال منهم القلق كل نال ، كالقطيع التائه في ليلة مظلمة من ليالى الشتاء . ولم يصدقوا موت الرسول ، إذ أن موت الرسول ، دليهم ومرشدهم الأعظم في كل أمر وخطب ، بلما لهم ضرباً من المستحيل : كيف يموت من كانوا يعتمدون عليه ليكون شهيداً لهم يوم الحساب ؟ لأنه في طهرهم لم يموت ، بل صعد إلى السماء كما صعد عيسى من قبله . وصاحوا خلال الباب لمن في البيت محذرين من دفعه وشجعهم عمر بقوله : إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله قد مات . وإن رسول الله ، والله ، ما مات ، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ، ثم رجع إليهم بعد أن قيل - قد مات . والله ليرحم رسول الله كما رجع موسى ، فلبقطن أيتى رجال وأرحبهم زعموا أن رسول الله قد مات ! » .

(١) أضم أصرب وهو تدى

وفي هذه الأثناء أقبل أبو بكر على جواده مسرعاً ، وكان في السطح هبث
إليه بمن يناديه ، فدخل على باب المسجد ، فلم يلتفت إلى شيء ، بل شق الجموع
المختلطة ، ودخل المسجد ، فحجرة ابنته عائشة بيري رسول الله ، وكان مسجى
في ناحية من البيت ، عليه برد حسيرة ، فأقبل حتى كشف عن وجهه ، ثم أقبل
عليه فقبله وقد ناء تحت حمل آلام عظيمه . ثم بكى قائلاً : « بأى أنت وأبى ،
أما المودة التي كتب الله عليك ، فقد ذقتها ، ولن تصيبك بعدها مودة أبداً . . . »
ثم رد البرد على وجهه وابتعد عن ذلك المظر الأليم ، وخرج وعمر يكلم الناس
فقال له : « على رسلك يا عمر ، أنصت ! فأبى عمر إلا أن يتكلم ، فلما رأى
الناس أبا بكر أقبلوا عليه ، وتركوا عمر ، فحطب فيهم أبو بكر فقال : « أيها
الناس من كان يمد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله ، فإن الله حي
لا يموت » ، ثم تلى عليهم :

« وما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أُولَئِكَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ
انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ۚ ۱۹ » وتلا عليهم أيضاً : « لَئِنْكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مُيْتُونَ » .
قال عمر : « والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها ، فبهت حتى وقعت
على الأرض ما تحصني قدماي ، وعرفت أن رسول الله قد مات ! » .

مبايعة أبو بكر :

كان على المؤمنين قبل التكبير في دفن الرسول أن يعكروا في صد الخطار المهدق
بالإسلام الذي فقد زعيمه الملمهم ، فعمرتهم الحيرة : لقد مات ذلك الذي ضم تحت
لواء التآخي في الدين أسراً وقبائل فرقت بينها قرون من العداء ، فما عسى أن يكون
مصير هذا التآخي ؟ لم يكن هناك لمقاومة تشتت الشمل إلا حل واحد ألا وهو
تعيين خليفة ، أي قائد من قواد النبي يحلفه ، فيراصل مهمته

لكن ذلك كان من شأنه أن يثير الغيرة بين القبائل ، والتنافس بين المهاجرين
والأنصار ، وقد أعلن كل من الفريقين حقه في تولي الخلافة . وكان القتال
الدعوى أقرب من حيل الوريد ، فلم يتحنبه المسلمون إلا بفض حزم عمر
ومشاطه ، إذ أسكت الناس وأبان لهم أن محمداً في أواخر أيامه كان يعين أبا بكر ،

رفيقه في الهجرة ، ليصلي بالناس ندله ، ولو كان عين أحداً للخلافة لما عين إلا أبابكر ، فغلب ذلك الرأي آراءهم .

وفي اليوم التالى سعى المؤمنون ضغائهم ، وأتوا أبابكر مبايعين

تشجيع الرسول إلى مقرة الأخير :

فلما حبت تلك المشكلة الخطيرة ، تفرغ المؤمنون إلى رسولهم وآلامهم المبرحة لموته . وكانت السنن تحتم عليهم أن يجردوا النبي من ثيابه لغسله ، ولكن احترامهم الشديد لشخصية النبي كان يوعز إليهم بأد كشف عورته أمر يتناقض والإسلام ، فكثرت الكلام والمراجعة بينهم ، حتى أنقر حفونهم نوم لا يقهر ، ولم يبق رجل إلا وذقنه في صدره . وهجأة أيقظهم صوت من ناحية حجرة المتوفى ، لا يدرون ما هو ، ففعل المشكلة التي كانوا بها منشغلين إذ قال : « اغسلوا النبي وعليه ثيابه » . وكان ذلك هو الحل الذي عنه يبحثون ففعلوه في الحال . ونصب العباس في الغرفة خيمة من النسيج اليمى ، كى يمنع الناس من رؤية جثة الرسول الكريم ، ثم دخن عليه على وأسامة وعماس وإبناء وشقران مولى الرسول ، وغسلوه بسبعة قرب ، من ماء بئر بقباء ، وكان محمد يفضل ماءها على كل ماء ، فكان العباس وإبناء الفضل وقم يقبلان جسم الرسول الكريم وكان أسامة بن زيد وشقران هما اللذان يصبان الماء ، بينما على قد أسنده إلى صدره يملكه من فراق قميصه . وغسل الرسول ثلاث غسلات ، واحدة بالماء الفراح ، واحدة بالماء والسدر ، وأحدة بالماء والكافور ، ثم طيبه على والعباس في مواضع سجوده ، أى الجبهة والأنف واليدين والركبتين والقدمين وعلى يقول : « بأبى وأمى ، ما أطيبك حباً وميتاً » ، والكل فى عجب من حلم وجود أية علامة من علامات التحلل الكريه الذى يتبع الموت على جثة الرسول ، سوى زرقه خفيفة أظافره .

وبدلاً من أن يكفن النبي لف في ثيابه التي كان يرتديها ساعة الموت ، أى في قميصه الذى عصر بعد الغسل وفى ثوب له مزودج من نسيج نجران . وعندئذ سمع على والعباس للنمل بالدخول بعد أن وضعا محمداً على فراشه . وامتلأت الغرفة بالمؤمنين الذين حيوا الرسول بقولهم : « السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته » .

ثم اصطفوا للصلاة صفوفاً لا يؤمهم أحد ، إذ أن الإمام كان أمامهم ، رغم دهاب
روحه إلى جوار ربه العلي العظيم .

وكان أبو بكر وعمر في الصف الأول من المصلين ، فختما الصلاة
بقرئتهما :

« اللهم إنا نشهد أنه قد بلغ ما أنزل إليه ، وبصبح لأمته ، وجاهد في سبيل الله
حتى أحز الله دينه ، وتمت كلمته ، فاجعلنا إلهاً ممن اتبع القول الذي أنزل معه ،
واجمع بيننا وبينه . . . آمين » وردد الناس ، من وراءهما في خشوع وتأثر :
آمين آمين .

وما إن انتهى تجهيز الرسول حتى ظهرت مشكلة جديدة خاصة بدفنه ،
إذ اختلف الناس على المكان الذي يدفن به ، فقال بعضهم بدفنه في المسجد ،
وقال آخرون بدفنه في البقيع بين قبور أهله ، وقال البعض الآخر بدفنه في مكة
مسقط رأسه ، فأبى أبو بكر هذا الاختلاف بقوله : « إني سمعت رسول الله يقول :
« الأنبياء يدفنون حيث يقضون » . فرفع الفراش لحفر القبر في نفس المكان الذي كان
به الرسول . وتولى الحفر طمحة حفار المدينة ، فعمد إلى جوانب الحفرة ، وقواها
بتسعة قوالب من اللبن ، ثم فرش قاعها بثوب أحمر ، كان الرسول ينطلى به ناقته
في أسفاره ، فلم يكن لأحد أن يستعمله من بعده . وأخيراً ، رفع على وشقران
والفضل وقم ، الحنفة ، وأبرئوها في مقرها الأخير . . .

ويدعى المغيرة بن شعبه أنه أحدث الناس عهداً برسول الله إذ يقول . « أخذت
حاتمي فألقيته في القبر ، وقلت إن حاتمي سقط مني ، وإنما طرحته لأمس رسول الله
فأكون أحدث الناس عهداً به » .

وانتهى المؤمنون من دفن نبيهم في منتصف الليلة الفاصلة بين يومى الثلاثاء
والأربعاء . فلما نادى بلال في فجر اليوم التالي بالمؤمنين إلى الصلاة ، وأراد أن
يقول . « لا إله إلا الله محمد رسول الله ! » ، اختنق صوته بالعبرات ، فلم يقدر
على لفظ اسم محمد ، وجاوبته المدينة بأسرها كأنها الصلوى ، بأنة أسى طويلة ،
ارتفعت إلى السماء من نوافذ الديار . . .

وإن منذ اليوم الثاني عشر من ربيع الأول ، للعام الحادي عشر الهجري ،
 ٨ . ولدو سنة ٦٣٢ م ، برقه في هذا المكان الذي فاضت به روحه الشريفة ،
 جثمان ذلك الإنسان السامي ، الذي كان على الأقل ، لا يترب قلبه عن قنر
 أعظم الأنبياء والملوك ، والفرداء والمتكلمين والفقهاء والخطباء والفلاسفة ، والذي
 أصبح ديه الآخذ في الانتشار باطراد ، يضم اليوم ثلثمائة مليون من الأتباع
 وعوصاً عن قبره المتواضع ، يقوم له الآن مسجد رائع فحم يصم حجراته التي
 توفي بها

إن زيارة قبر الرسول ليست من فروض الإسلام ، ومع ذلك فقبل من
 الحجاج الذين وصلوا إلى مكة متحملي المشقة والأخطار الخطيرة في سفرهم ،
 من يترددون في تحمل المشقات طيبة اثني عشر يوماً ، كلها تعب وعناء ،
 تفصل مكة عن المدينة ، حتى يصلوا إلى صاحب القبر العظيم ، يحصلون إليه
 نحياتهم بحارة النقية .

والعلماء الغربيون أنفسهم قد بدءوا يسحررون من ضلالتهم العميقة وراحوا
 يصممون مؤسس الإسلام ، ومن ذلك ما يقوله جوستاف لوبون : « إذا كانت قيمة
 الرجال تقلر بعظمة أعمالهم فإنه يكون من المستطاع أن نقول : إن محمداً كان من
 أعظم الشخصيات التي عرفها التاريخ . . »

”وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ،
 أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ؟“

مَوْلَايَ صَلِّ وَسَلِّمْ دَائِمًا أَبَدًا عَلَى حَبِيبِكَ خَيْرِ الْخَلْقِ حُكْمِهِمْ

صورة وصفية للمرسول

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسطاً بين الطول والقصر ، ليس بالطويل البائن ولا بالقصير المتطامن ، قوى الجسم ، صحم الرأس ، أبيض مشرباً بحمرة ، سهل الخلد ، ود وفرة إلى شحمة أذنيه ، ، ليس بالحمد القطط ولا السبط ، إذا غضب رثى في جبهته عرق يتفتح ، أزج الحاجبين ، عظام العينين ، أدمج ، أهدب ، كبير القم كما ينبغي للخطيب المقوم ، أسنانه كالبرد ، ومن يديه الكبيرتين ذاتي الأصابع الطويلة كلمس الحرير الرقيق ، بين كتفيه حاتم النبوة (الذي اكتشفه الراهب بحيرا) ، يتضاوى الشكل ، أحمر اللون ، تحيط به شعرات ، يمشى في تودة وقورة جليلة ، حاصر البديهة دائماً ، إذا التفت انتفت جميعاً ، لا كالحق الذي ينورون برقابهم ويبرزون رهوسهم فوق أكتافهم ، إذا أشار إلى شيء أشار إليه بجميع يده لا بإصبع أو إصبعين ، إذا عجب لشيء حمد الله وأدار كف يده إلى السماء ، وهز رأسه وعص على شفتيه ، إذا أراد تأكيد شيء فانه صرب بإبهام يده اليمنى على يده اليسرى المسوطة ، فإذا غضب احمر وجهه ومر يده على لحيته ووجهه وتنفس الصعداء طويلاً ، ثم يقول : « توكلت على الله خير وكيل » . وكانت المحدثي تندفق غزيرة من المأخذه المحكمة الموجزة ، التي تعبر عن مراده خير تعبير . أما سحر بياضه فكان شيئاً لطيفاً ، يفرزو القلب ويأسر اللب ولا يقوى أحد على مقاومته . وكان الرسول لا يعرف أبداً في الضحك ، فإذا ما اشتد به المرح حجب وجهه بيده .

وكان هادئ الخلق حلیم الطبع ، لا تكبر فيه ولا حسونة ، لا يدعو أحد إلا أجاه في الحل . يحب الأطفال ويلاعهم ويضمهم إلى صدره الكريم . وقد رثى

مراراً يصمت أولاد عمه العباس ليتسابقوا ويعد الفائز منهم بجائزة ، فيتناغسون في اللحاق بأحفادهم وبالخالوس في حجره .

وكان يرعى شئون الجميع ، سواء في ذلك الأشراف والعبيد ، يعطيه ، وقد روى : أن الدس أغفلوا ، مرة ، إخباره بموت خادم فقيرة تعمل في المسجد ، فغضب لذلك غضباً شديداً ، وسأل عن المكان الذي دفنت فيه حتى وجده ، فجلس يصلي على أيتها .

وكان إذا رجع سائل شفته إلى أذنه ليكلمه سرّاً ، بميل رأسه إليه حتى ينتهي من حديثه ، وإذا صافح راثراً لا يسحب يده من يده حتى يردها الرجل إليه ، ومن كلامه صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

ولم يرمع يده أبداً على امرأة أو على عبد . روى أنس ، الذي خدم الرسول عشر سنين ، أن سيده لم يلمه أبداً على شيء ولم يرحعه في أمر . وروى أبو هريرة : أنه سمع الرسول يوصي بالخدم والعبيد ويدعو إلى معاملتهم كالخوة في الدين وعدم الإجحاف بهم في المأكل والملبس .

وروى أعرابي ممن كانوا يحين أنه كان يلبس ثياب غليظة ، فداخ عفوياً في هرج المعركة ، على قدم الرسول فضربه سوطه من لألم . فأت الأعرابي ليلته مهموماً لما بدر منه من إيذاء الرسول . وما كان الصباح أرسل محمد في استدعائه فأتاه حائفاً خائراً ولكن النبي طمأنه ووهب له ثمانين نعمة مدية لعضيه وصره إنساناً ، ومنذ ذلك اليوم ، وحلم الرسول سبق دائماً ثورته .

وكانت طبيعته حمة وحداً ، إذ تألم صغيراً من افتقاره إلى عطف الأم ، وشغل كبيراً مسائل التربية ، وعلاقة الأبناء بالأمهات ، وكان يؤكد دائماً أن الحنة تحت أقدام الأمهات ، وكان إذا سمع بكاء طفل ، وهو في صلاة الجماعة ، أسرع في صلاته من أجل أن يسمح للأم بركاب طفلها . فقد كان يعدم مقدار تألم للأمهات لبكاء أطفالهن .

ولم تكن فطنته لعجينة ، ومعرفته بحسن النفوس وجودها الأشياء ، لتسمعاه

من مشاورة أصحابه في كل الشئون ، ويذكر عن عائشة في هذا الشأن أنها لم تر إنساناً قط يحب المشاورة كما يحبها محمد .

وكانت أخلاق الكرم تحول بين الرسول والسخرية المتدلة أو القاسية ولكنه كان مرحاً يحب المداعبات التي لا يجرمها الله والتي فيها شيء كبير من الحق إن لم تكن الحق بعينه . قال يوماً لعنه صفية على سبيل المراح : لا يدخل الجنة عجوز . فبكت السيدة الكريمة ، وكانت قد بلغت من العمر سنّاً كبيرة . عدل أضاف الرسول إلى حديثه : إنهن إنما يدخلنها أبكاراً أثراً (١) في الثالثة والثلاثين .

وكان ، صلوات الله عليه وسلامه ، يقول : حب إلى ثلاث : النساء ، والطيب وجعلت قرّة عيني في الصلاة .

وقد بلغ من حبه للصلاة أن تورمت قدماء من طول الوقوف لها . لكنه كان يعتبر الإكثار من الصلاة من خصوصياته كرسول لا يسمح لأحد بأن يتبعه في ذلك . وكان يلوم عبد الله بن عامر ، إذ بلغه أنه يقوم الليل مصيباً ويقضى النهار صائمًا ، وينصحه بعدم الإكثار من ذلك لكي لا يضعف بصره وتذهب قوته ، فضلاص أن لأهله عليه حقاً ، وأمره أن يصوم ويفطر ، وأن يقوم من الليل مصلياً ، وأن ينام .

وكان محمد يحب النساء . وقد حاب عيه الكثير من الأعداء ذلك . وحققاً كان محمد رجلاً بكل ما في الكلمة من معان خالقية ومادية ، ورجولة امتازت بالعفة التي لا تتعارض مع أسباب اللذة البريئة المجردة من الدنس ، وعلى سواه سلك العرب الذين يمتارون حتى أيماناً هذه بالحبه والعفة الخاليتين من كل تكلف ورياء ، لا كحياة المعالين في الدين وعمتهم المصطنعة المدعاة .

وإذا كان محمد قد عقد على ثلاث وعشرين روجة فإنه لم يتصل إلا بأثني عشرة منهن . أما الأخريات فتزوجهن لأسباب سياسية محضة ، إذ كانت كل القبائل ترغب في شرف مصاهرته . وقد كثرت عليه الطلبات في شأن ذلك ، ويرى أن عرة أخت حبة الكلبي ماتت من شدة الفرحه عند ما نشئت أن الرسول قبل الزواج بها

وكان من حبه للنساء، فصلا عن حبه للإنسانية والعدالة ، أن عطف عليهن جميعاً وحاول في كل مناسبة إنصافهن . فحرم أول ما حرم وأد البسات ، تلك العدة القبيحة القاسية التي تحدثنا عنها فيما سبق ثم وضع حداً لتعدد الزوجات ، فجعل العدد الأقصى منهن أربعاً ، وورد على ذلك أن نصبح المؤمنين بالتصكير في الآية .

«... فابكِحُوا ما طابَ لكم مِنَ النِّسَاءِ ، مَتَنًى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ ...»

ومن أحاديثه : « أبغض الخلال إلى الله الطلاق » . . . وأنيع ذلك بأن منح المرأة حق المصالبة بالطلاق إن لم يوف الرجل بواجبات الزوجية .

وبفضل تشريعاته الحكيمة أصبحت البنت الدافع تستشار قبل رواجها ، وأصبح المهر لا يعطى للأب بل للعروس نفسها ، وقد وصف أعداء الإسلام تلك السنة الحكيمة بأنها : « شراء للمرأة » . وهم لم يسمعوا ، فيما أظن ، ذلك الجواب المفعم الذي يمكن أن يرد به المسلمون عديهم حينما يقولون لهم : إن المهر في بعض الأقطار الغربية يدفعه والد البنت إلى رجلها ! . . . وهو حق ذلك ، فالمسلم مكنت بسائر حاجات البنت دون أن يكون له أى حق في التصرف في مال امرأته .

ومح الرسول أيضاً المرأة حقاً في الميراث . وحققها فيه : نصف حق الذكر ، وذلك لأن المرأة لا تدفع مهرأ كالرجل وليست مكلمة بحاجات البيت .

وكان الرسول يحب الطيب ، لأن الطيب يكمل طهارة المؤمن ، ولأن رجلاً طيب الريح أول بالاحترام والتكريم من رجل تفوح منه رائحة منكرة ، وكان محمد يتطيب بالمسك ، ويحرق في بيته الصندل والكافور والمسك : ويدمر شعره بالدهون ثم يرسله على أذنيه في أربع غصص ، اثنتين من كل ناحية ، ويقص لحية وشاربه بمقص ، ويمشطها بمشط من الناح أو من قشر السمكة ، ويتكحل ، لأن الكحل يقوى البصر وينمي شعر العين ، ويستاك كثيراً سواك من شجرة الأراك بمصغ طرفه فيصبح كفرشة الأسنان .

أما كساؤه فكان صادة يتألف من قميص من لقطن قصير الكمين غير

سابع الطول ، ومن بردة من نسج عمان طولها أربع أذرع وعرضها اثنتان ، وكان له كذلك بردة بمانبة طولها ست أذرع وعرضها ثلاث ، كان يرتديها أيام الجمع والأعياد ، وكانت له بردة ثالثة خضراء توارثها الخلفاء من بعده ، وعمامة سميت بالسحاب آلت إلى صهره علي بن أبي طالب .

وكان النبي يعي بنفسه عناية تامة ، إلى حد أن عرف له نمط من التأني على غاية من البساطة ، ولكن على جانب كبير من الدوق والجمال ، وكان ينظر نفسه في المرأة ، فإن لم تتيسر نظر في إناعمه بالماء الرائق ليتمشط أو ليسوى طيات عمامته التي كان يترك طرفاً منها يتدلى بين كنفيه وهو في كل ذلك يريد من حسن منظرة البشرى أن يروق الخائف مسحاه وبعالي .

وبع هذا كان يحرم بشدة التعالي في الملبس ، وعلى الخصوص لبس الحرير ، حتى لا يتيح للأغنياء فرصة لتعالي على الفقراء ، اللهم إلا إذا دعا لذلك داعي الضرورة .

وكان عدله ورحمته من الشمول بحيث تناولوا الحيوان الأعجم ، حتى لقد قال يوماً : « بينما رجل يمشي في يوم شديد الحر ، إذا هو بكلب يهث الثرى من العطش ، فتزع حبه ، ثم دل إلى البئر ، فلهاء ماء ، ثم رقى نسي الكلب فشكر الله له فغفر له ! » .

إن هذه الرحمة ، وهذا نور المعجيب الذي كان ينبص من شخصية محمد ، كانا يجذبان إليه الحيوان ، بل حتى الحساد فصلاً عن الإنسان ، ومن ذلك أنه عندما رقى المنبر الذي أقيم له في مسجد المدينة ليخطب ، كان هناك الجذع الذي كان يخطب فوقه من قبل ، فسمع له حنين إليه ، ولم يسكت إلا بعد أن مسه أصابعه الماركة .

كان النبي صلى الله عليه وسلم ، يقوم بأعماله الخاصة بنفسه : فكان يحلب شاته ، ويخصف نعله ، ويرقع ثوبه ، ويطعم إنله ، وينصب خيمته ، ويمارس هذه وسواها من الأعمال دون الاستعانة بأحد . وكان يحمل نفسه ما يشتره من السوق ، وأراد يوماً بعض المؤمنين أن يحمل عنه متاعاً فقال له « صاحب الشيء أحق بحمله » ، وبهذه القدوة أراد أن يقضي على تلك العادة التي كان يسير عليها

أولئك الأغنياء الذين يشترون مع السلع ما يوقرون به ظهور خدمهم دون أن يبذلوا طعاماً عليهم .

وكان يتباعد ، إلى أقصى حدود التباعد ، عن عرض الدنيا وزينتها ، وهذا بعض ما قاله في هذا الشأن ، رواية عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إني عرض على أن تجعل لي بطحاء مكة ذهباً ، فقمت : لا يا رب ، أجوع يوماً وأشبع يوماً ، فأما اليوم الذي أجوع فيه فأضرع إليك وأدعوك ، وأما اليوم الذي أشبع فيه فأحمدك وأثنى عليك » ، وقال : « ما والدنيا ، إنما أنا في الدنيا كرجل سار في يوم صائف فاستظل تحت شجرة حتى مال التيء فركها ولم يرجع إليها » ، وقال : « اللهم أحيى مسكيناً وأميتى مسكيناً واحشرفني في زمرة المساكين »

أم قباعته ، صلى الله عليه وسلم ، فكانت مضرب الأمثال ، روى : أنه لم يجمع بين صنفين من الطعام في أكلة واحدة إلا نادراً ، فإذا أكل من اللحم لم يأكل من التمر ، وإذا أكل من التمر لم يأكل معه لحمًا ، وكان يحب اللبن لجمعه بين الرى والإشباع ، وكثيراً ما كان الشهر يتلو الشهر دون أن توقد نار في بيوت النبي لحبز أر طبخ ، لا طعام له ولأهله ولا شراب خلاهما إلا التمر والماء .

وكان صلباً بنال الجوع منه ، يشد على بطنه حجراً لتخفيف ألم الجوع ، ولقد فارق الدنيا دون أن يشبع من طعام قط حتى من خبز الشعير .

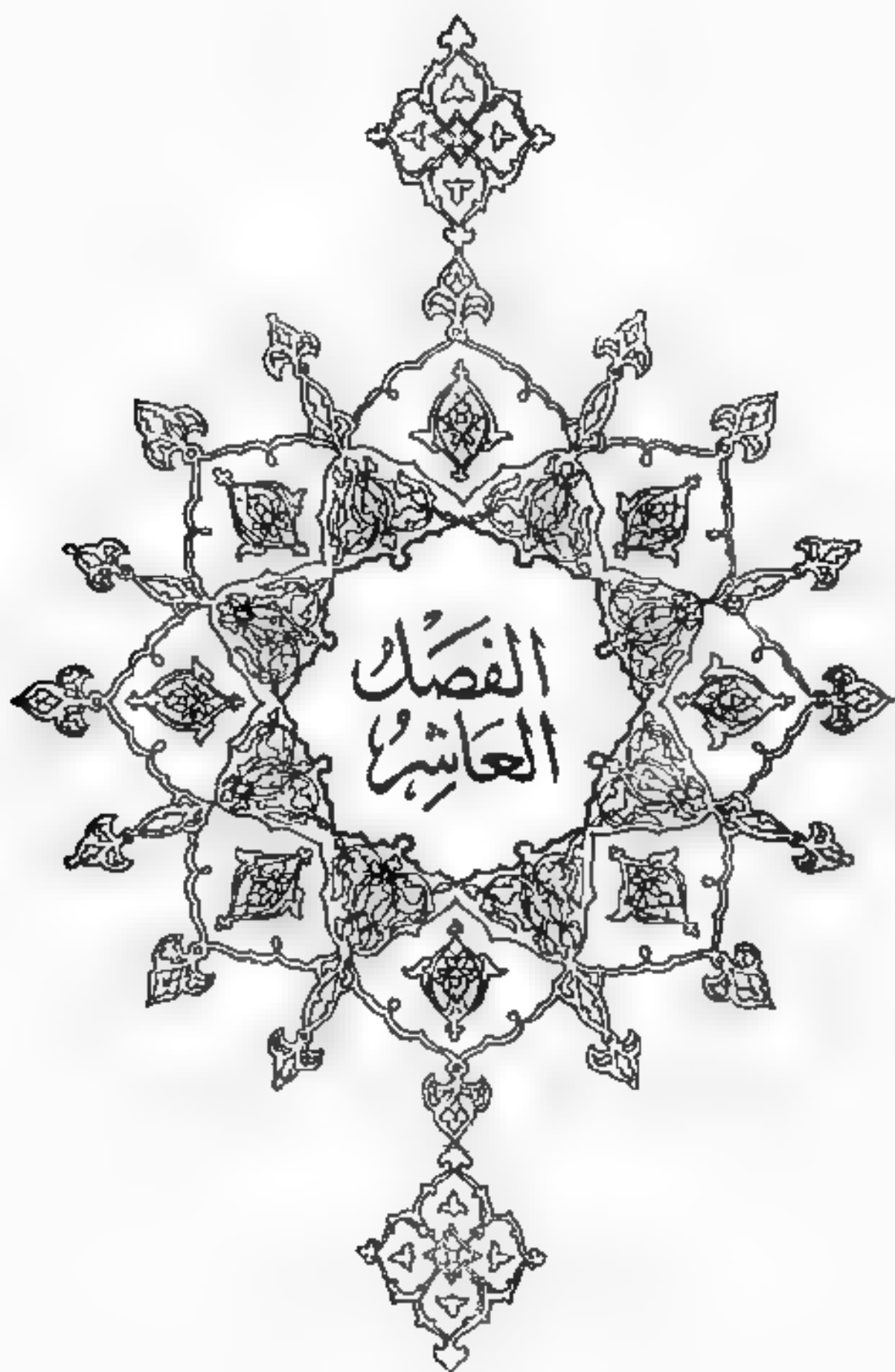
وكان يتأذى بجسمه ، الذي كان أبداً موضع عنايته بالطهارة الدائمة ، عن الرقة والثرث ، فكان ينام غالباً على حصير حشنه ، كثيراً ما ترى آثارها الفائرة على جسده ، كما كانت وسادته حشية من ليف النحل ، وكان سريره عباءة تطوى طيتين ، ويروى : أن عائشة طوتها ذات ليلة أربع طيات ، فعضب النبي إذ أحس بوئارتها ، وأمر بإعادتها سيرتها الأولى .

وقبل مماته أعتق كل عبده ، ونصدق بما كاد له من المال القليل ، حيث رأى أنه لا يبقى به أن يلتقى ربه وفي حوزته شيء من الذهب . ولا لحن بربه لم يوجد في بيته سوى ثلاثين وزناً من الشعير ، كان قد رهن فيها درعه لأحد التجار .

هذه هي أظهر فواحي صورة النبي التي حفظتها الآثار والسنن .
 وإن المسلمين ليعتقدون أنها حق لا ريب فيه ، بل هم يرونها أشبه ما تكون
 بما عناه الشاعر :

إنما مثلوا صفاتك لنا من كما مثل النجوم الماءُ
 وقد دنا هذا اللألاء السماوي المتماوج حتى أصبح في متناول اليد ، ولكنه بنى
 عزير المنزل على من يريد أن يقبض عليه ، وكم يبدو هذا اللألاء باهتًا إذا
 ما قورن بالكوكب الأصيل الذي يرسل وهو يلمع في قمم السماء بوميضه استأنق .

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ

وثبة الإسلام :

عندما رفع الله إليه مؤسس الإسلام العبقري ، كان هذا الدين القويم قد تم تنظيمه نهائياً ، وكل دقة ، حتى في أقل تفاصيله شأناً .

وكانت جنود الله قد أحضعت بلاد العرب كلها ، وبدأت في مهاجمة إمبراطورية القيصرية الفسحة بالشام . وقد أثار الفتن الطيعي المؤقت ، عقب موت القائد الملهم ، بعض الفتن العارضة ، إلا أن الإسلام كان قد بلغ من تماسك بنيائه ، ومن حرارة إيمان أهله ، ما جعله يبهز العالم بوثبته المائلة التي لا تطن أن لها في سجلات التاريخ مثيلاً .

ففي أقل من مائة عام ، ورغم قلة عددهم ، استطاع العرب الأجداد ، وقد انلغفوا ، لأول مرة في تاريخهم ، حارج حدود جزيقتهم المحرومة من مواهب النعم ، أن يستولوا على أغلب بقاع العالم المتحضر القديم : من الهند إلى الأندلس .

وقد شغلت ، في قوة ، هذه القصة الخبيدة تفكير أعظم عباقرة عصرنا هذا ، أعني نابليون ، الذي كان ينظر دائماً إلى الإسلام باهتمام ومودة ، فيقول عن نفسه في إحدى خطبه المشهورة بمصر : إنه « مسلم موحد »^(١) ، ويذكر الإسلام في أواخر أيامه « يرى أنه ، إذا طرحنا جانباً الظروف العرصة التي تأتي بالعجائب ، فلا بد أن يكون في نشأة الإسلام سر لا نعلمه ، وأن هناك علة أولى مجهولة جعلت الإسلام ينتشر بشكل عجيب عن المسيحية ، وربما كانت هذه العلة الأولى المجهولة : أن هؤلاء النجوم ، الذين وثبوا فجأة من أعماق الصحاري ،

(١) ص : ٢٠ : شرفس (بونابارت والإسلام) .

قد صهرتهم ، قبل ذلك . حروب داخلية عميقة طويلة ، تكوت خلالها أخلاق قويه ومراهب عمرية وحماس لا يقهر ، أو ربما كانت هذه العلة شيئاً آخر من هذا القبيل ^(١) .

ولذلك كان ذيلون يعلم أن وراء حمل العالم الإسلامي ، في فترة الانحطاط ، خرائن لا مثيل لها من القوة الفعالة الكامنة . فحاول ، في مناسبت متعددة ، أن يستميل المسلمين إلى جانبه بعض المعاهدات . وكان يزمن بأنه إذا وفق في ذلك يستطيع أن يوقف الإسلام من سبانه ، وأن يعير سمعته وجه الأرض قاطبة . ولم يكن فابدين محطاً في طنه ، فقد كانت الحروب الداخلية ، حقاً ، سبباً في إظهار سجايا البطولة عند العرب . ولكسها ، إلى جانب ذلك ، كانت حجر عثرة في سبيل كل تقدم وكل نظام ، ولولا ذوة عهد لظل هؤلاء الحدود النبواصل إلى آخر الزمن في صحاريهم لا يشغلهم شاعل سوى الفتن المتوارثة .

وجاء الإسلام فوضع حداً للتفاخر بالألقاب والنسب أو الجلس ، وجعل من المؤمنين إخوة حقاً ، ونفخ فيهم روحاً جديدة كنها مساواة ^(٢) وتقوى وشاعرية . فما أروع أعمال البطولة التي استطاع هؤلاء القوم ، ذور النصوص الحماسية والقلوب المتبعة ، أن يقوموا بها بعد ذلك ! . . . ولم تكن هذه الكنوز من القوة والحوية المنخنة ، خلال عصور تقضت في الحروب الأهلية الطويلة ، هي الدخيرة الوحيدة التي بفضلها دوخ العرب كل هذه الشعوب التي تختلف عنهم كل الاختلاف وتفوقهم . . . في هذه الفترة — حضارة . فقد تراكمت في مخيلاتهم ، طوال قرون التأمل بين أحضان الصحاري الشاسعة الفاحلة ، كنوز أخرى من الأحلام والآمال : أحلام أمة شابة فتية — وإن كانت خير متدينة — وآمالها . وسوف نرى هذه الأحلام والآمال تفرض فرضاً على سائر تلك الشعوب التي كانت ثقافتها شائخة منهوكة .

وإنا لمصيح لمن قد يستريون في عبقرية العرب نتصيح بمجموعة من الرسوم

(١) عن لاس كاناس (مذكرات سانت هيلين ، ج ٣ ص ١٨٣)

(٢) في الأندلس الإسلامية : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » « لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » . « كلتم لآدم وآدم من قراب » « رب أشمت أغبر » « لو أمم الله لأمرأ » « يا فاطمة بنت محمد لا أعبر عنك من أهلياً » . إلخ

التي تمثل المباني التي حلفوها متتورة في جميع أنحاء البلاد الخاضعة لهم ، لا شيء يستلهم النظر مثلما تستلهمه وحدة الأسلوب المعماري التي تميز هذه الآثار عن غيرها من آثار العالم . ومع ذلك فهذه المباني المتشابهة تجددها قائمة في الهند والتركستان وبارس وتركيا ومصر وشمال إفريقيا وإسبانيا ، إلخ . . . أي في بلاد يختلف بعضها عن بعض تمام الاختلاف ، ولما حضاراتها ذات الطابع الخاص المتميز الذي لم تستطع حضارة أثينا أو روما ، أن تؤثر فيه بشكل جدي .

ولقد أخذ العرب كثيراً عن كل تلك الدول المنهزمة وبحثوا في أحوال متعددة إلى استخدام فنيها ، بل عملوا ، لإنشاء قصورهم ومساجدهم ، ولكنهم كانوا دائماً لا يحققون عما أخذوا عندها إلا أسلاماً وأفكاراً عربية صحيحة . . .

والأسلوب المعماري العربي نجد طابعه العقري المبتكر ، في أنه دائماً يسترشد بمن جديد نشأ مع الإسلام ، فن لم يكن له مثل في الفنون السابقة وكان تحقيقاً مادياً لمثل العرب العليا ، إذا صح هذا التعبير . ذلك هو فن الزخرفة الخطبة الذي استخدم لتمجيد كلام الله ، أي آيات القرآن .

وإن هذا الفن الخطي العربي ، حتى في حالة اقتضائه على وسائله الخاصة وحدها ، لم يزل من أروع الفنون الزخرفية التي تمحضت عنها حيلة الإنسان ، ولعله الفن الوحيد الذي نستطيع أن نقول عنه دون معذرة : إن له روحاً . فهو كصوت الإنسان يعبر عما في النفس من أفكار . وهو لا يستوحى العالم الخارجي — مهما بلغ ذلك العالم من التنظيم والتنسيق — في شيء ، وهو بذلك يتسبب إلى الموسيقى ، ويبدو وكأنه رمز معان نجيش في أعماق القلوب .

انظر إلى هذه الحروف التي تثب من اليمن والشمال ، في خطوط أفقية سريعة ، ثم تلور حول نفسها في تموجات هادئة أو عييفة ، وكأنها في ذلك تسير وفق هوى روح داخلية خفية ، ثم ترتفع ثم تنوقف فجأة وتثبت ، مخورة ، في أشكال مستقيمة متقاطعة . . . ثم إذا بها تعود إلى الاندفاع في جموح ، وتحل ما اعتقد من أشكائها ، ويدأب بعضها البعض في مرج لديد ، فيندفع معها الخيال في أحلام لا نهاية لها .

وليس من الضروري أن يكون الإنسان مستشرقاً مختاراً أو خطاطاً بارعاً

ليترك عمق الدوافع التي أدت بالقلم إلى رسم هذه الخطوط ، وليتمتع بالنظر إلى أشكالها المجردة أو بالتأمل في العاطفة القوية التي تظهر في انحناءاتها ؛ فكل روح فنانة لا بد أن تتصل الأسباب - دون جهد - بينها وبين أسرار هذا الفن .

ولقد سمي فن الزخرفة الخطية العربية - بعد أن أصبح تعبيراً صادقاً لمثل لأمة العربية - إلى أن يخضع لاتجاهاته ، التي يغيب عليها الطابع الديني ، كل ما من شأنه أن يعين على استكماله ووضعه في الإطار المناسب ، مرغماً في العمارة والطم والزخرفة الأخرى على ترسم أساليبه وأشكاله . ولقد خضعت لسيطرته وسلطانه قبة بيرنطة الكروية الثقيلة ، فاتخذت هيئة أشبه ما تكون بهيئة الخوذة العربية ، وتحولت انحناءات رواقها الذي لم يكن فيه شيء من المقرية ، إلى أشكال عربية بالغة الروعة ؛ بينما اتخذت الطوابق الوضيعة صور المآذن الأنيقة التي ترتفع إلى قسم التجلي .

وأخيراً ، فإن النظام الزخرفي الوحيد الذي يشابه الزخرفة الخطية العربية في كونه لا يستوحى الطبيعة ، وهو الزخرفة الهندسية - ذلك الفن الذي لم يستطع الإغريق واللاتينيون استخدامه إلا في أشكال ضئيلة لا روح فيها - قد دبت فيه بين أيدي العرب حياة جديدة حقاً . وقد أطلق على هذا الفن الزخرفي منذ ذلك الحين اسم له دلالة ، أرابسك (Arabesque)

وراح يتأذى من الزخرفة الخطية العربية ، في البحث عن أعجب ما يبهو الفكر من أشكال صخرية يحار العقل في تشابكها الذي لا نهاية له ، وفي تحولاتها المفاجئة .

بالألف من آيات غاليات صنعها لنا الفن الإسلامي ! إن الحياة العربية ينتزعون اليوم آثار هذا الفن غير صالحين بما ينفقونه في سبيلها ، وهم يأملون من وراء ذلك أن تدخل معها في بيوتهم المظلمة بعض انعكاسات الأحلام التي استوحاها الصائمون العرب . وإنه لجهد الإسلام ، يتعنى به في هذه الديار ما نشهده فيها من تحف تبلغ الغاية من الدقة والجمال والإشراق . وإن لمرى البوق الغربي يتجه الآن إلى اقتناء آيات فن الخط العربي الذي - سقاه لكلام الله - ينفخ روحاً قوية في رخارف المصاحف أو صدف الآية والعريون في ذلك يرسمون حطى الأمراء

العرب أيام عصر الإسلام الذهبي حيث كانوا ، في سبيل الحصول على صحيفة مخطوطة بقلم أحد الخطاطين المشهورين ، يبذلون مجهودات جونية نستطيع مقارنتها بتلك التي تبذل في أيامنا هذه ، لاقتناء تحف من التصوير .

ولكن ، أيتها الآيات المقدسة ، التي نهزين أصحابك الحلد وتثيرين إعجابهم العميق بأشكالك المتأنقة للريقة ، ألا تكشفين لهم يوماً القناع عن سمو جمال روحك الإسلامية ؟

أثر الحضارة الإسلامية في أوروبا ، خلال القرون الوسطى وعصر النهضة :

لقد أدهشت كل تلك العجائب عقول أهل أوروبا ، حتى في أعنف أيام عدائهم للإسلام . وقد نقنوا كثيراً من العرب في ميدان الزخرفة والمعمار . ولا شك أن دراسة أكثر عمقاً لهذا الموضوع ، من شأنها أن تبرهن على أن أوروبا قد تأثرت بالفنون العربية أكثر مما تأثرت بالفنون الإغريقية واللاتينية . ولكن مثل هذه الدراسة قد تسعدنا عن الغرض الأساسي من هذا الكتاب . ونكتفي هنا — على سبيل التلميح — بالإشارة إلى المؤرخ « دولور Dulaure » الذي يقول إن مهندسى العرب قد عملوا في بناء كنيسة فوتردام ببلمريس .

أما في ميدان العلوم ، فإن أثر المسلمين لم يكن بأقل خصيصاً ، ولا فرى من وسيلة لتوضيح هذا أفصل من نقل رأى الدكتور « جوستاف لوبون Gustave Lebon » في ذلك ، ونجده في كتابه القيم : « حضارة العرب » :

« ويعزى إلى بيكون ، على العموم ، أنه أول من أقام التجربة والملاحظة ، اللتين هما أساس المناهج العلمية الحديثة ، مقام الأستاذ . ولكنه يجب أن نعترف ، قبل كل شيء ، بأن ذلك كله من عمل العرب وحدهم .

« ويقول العلامة الشهير همبرلد ، بعد أن يذكر أن ما قام على التجربة والملاحظة هو أرفع درجة في العلوم : إن العرب ارتقوا في علومهم إلى هذه الدرجة^(١) التي كان يجهلها القدماء تقريباً . . .

(١) يقول الدكتور ميكل في كتابه عن سيد محمد :

« نست مع ذلك أسب أي أوليت من الثانية من البحث في حياة محمد . بل لملى أكون أدق إلى الحق إذا ذكرت أن بدأت هذا البحث بالعربية حل لطريق الحديثة وقد نأخذ القارئ الدهشة إذا ذكرت ما بين دعوة محمد والطريقة الحديثة العلمية من شبه قوى . فهذه الطريقة العلمية تقتضيت إذا أردت مجاً ، أن =

« وكانت دراسة العلوم الرياضية من الدراسات الذائعة لديهم ، وقد تقدم علم الجبر بفضلهم حتى إنه قيل إنهم اخترعوه . ولقد كان لهم أيضاً نصيب السبق في تطبيق الجبر على الهندسة ، وهم الذين أدخلوا التماس في حساب المثلثات .

« وكان علم الفلك يدرس في حماس في مدارس بغداد ودمشق وسمرقند والقاهرة وناس وطليطلة وقرطبة وغيرها . . . تلك المدارس التي وصلت إلى اكتشافات عديدة يمكن إيجازها في القائمة التالية : إدخال خطط التماس في الحسابات الفلكية ، ووضع جداول لحركة الكواكب ، وتحديد سمت الشمس تحديداً دقيقاً وتلويحه

نحو من تمسك كل رأى وكل عقيدة سابقة في هذا البحث ، وأن تبدأ بالملاحظة والتجربة ثم بالموازنة والترتيب ثم بالاستنباط القائم على هذه المقدمات العلمية . فبدأ وصلت إلى نتيجة من ذلك كله كانت نتيجة علمية خالصة بطبيعة الحال للبحث والتحصيل ، ولكنها تظل علمية ما لم يثبت البحث العلمي تسرب الخطأ إلى ناحية من نواحيها ، وهذه الطريقة العلمية هي أسمى ما وصلت إليه الإنسانية في سبيل تحرير الفكر ، وما هي في ح ذلك طريقة محمد وأساس دعوته .

ومعقب لفظة الأستاذ الأكبر المرحوم الشيخ المراغي على هذا الرأي فيقول :

أما أن هذه الطريقة طريقة القرآن فذلك حق لا ريب فيه ، فقد جعل العقل حكماً والبرهان أساس العلم ، وجعل التقليد وهم المتقليدين ، وأب من يتبع الظن وقال : « إن الظن لا يثبت من الحق شيئاً » وعاب تفديس ما عليه الآباء ، ورفض الدعوة بالحكمة عن يقظتها . ولم تكن معجزة محمد صلى الله عليه وسلم القاهرة إلا في القرآن . وهي معجزة حقيقية . وما أبدع قول البوصيري

لم يمتحننا بما قعوا القلوب به سعوا علينا فلم نرتب ولم هم

وأما أن هذه الطريقة حديثة فهذا ما يمتلئ عنه . وقد ساءر الدكتور غيره من العلماء في هذا : ذلك لأنها طريقة القرآن كما اشتهر هو ، ولأنها طريقة علماء خلف المسلمين . انظر إلى كتب الكلام تروم يقررون أن أول واجب حل المكلف معرفة الله . فيقول آخرون : لا ! إن أول واجب هو الشك ثم به لا طريقة السمرة إلا البرهان . وهو وإن كان نوعاً من أنواع القياس إلا أنه يجب أن تكون مقدماته قطعية حجية ، أو منتهية إلى الحس ؛ أو مسكرة بالبداهة أو مستمدة من التجربة الكاملة أو الاستقراء التام ، حل ما هو معروف في المنطق . وكل خطأ يتسرب إلى إحدى المقدمات أو إلى شكل التأليف منه لبرهان وقد جرى الإجماع الفريد على الطريقة نفسها ، وقد قرر في أحد كتبه أنه جرد نفسه من جميع الآراء ، ثم فكر وتقدم ، ورتب وراو ، وقرب وبعده ، وعرض الأدلة وذهب وعللها ، ثم انتهى بعد ذلك كله إلى أن الإسلام حق وإلى ما انتهى إليه من الآراء . وقد فعل هذا ليجعل التقليد ، ويكون إيمانه إيماناً مستيقظاً المعتمد على الدليل والبرهان ؛ فلك الإيمان الذي لا يمتلئ أسلوبي في حصة وقبالة صاحب .

وأنت وأجد في كتب الكلام في مواضع كثيرة حكاية تجريد النفس عما ألغى من المقائده ، ثم البحث والنظر ، وطريق التجريد طريق قديم ، وطريق التجربة والاستقراء طريق قديم ، والتجربة والاستقراء التام وليداً للملاحظة فليس هناك جديد حنون . ولكن هذه الطريقة القديمة بعد أن نسبت في التطبيق العلمي والسبل في الشرق ، وبعد أن تقشى التفتيد وأهدر العقل ، وبعد أن أبهرها الثرييون في ذوب ماضع وأفادوا منها في العلم والصقل ، رجعتنا تأخذ بهم وبراها طريقة في العلم جديدة

هذا القنوي العلمي في البحث معروف قديماً وحديثاً . والمعرفة سهلة ولكن العلم حير . ولا يتداول الناس كثيراً في معرفة القانون ، ولكنهم يتفاوتون جد التماوت في تطبيق القانون . من مقدمة لفظة الأستاذ المرحوم الشيخ محمد مصطفى المراغي لكتاب « حياة محمد » (دكتور هوكل)

وتقدير تقدم الاعتدالين تقديرًا صحيحًا ، وأول تحديد صحيح لمدة السنة . ثم إننا مديون لهم أيضًا بإثبات ما في أكبر خطأ عرض للقمر من ضروب عدم الانتظام ، واستكشاف علم التساوي القمري الثالث المعبر عنه اليوم بالتغير .

« وكان النصيب الذي أسهم به هؤلاء الرواد الذين يمتازون بالجرأة والإقدام نصيبًا ضخماً . فن الناحية العلمية كانت لهم هذه التحديدات النكية الصادقة التي هي أول أساس للخرائط ، كما عملوا على تصحيح الأخطاء الفاحشة التي وقع فيها الإغريق .

« أما من ناحية كشف بقاع العالم المجهولة فقد نشرنا رسائل في الرحلات تعرف الناس بأقطار العالم المختلفة التي كانت شبه مجهولة من قبل ، والتي لم يسبق للأوروبيين ارتيادها .

« وإسا نجد في خريطة من خرائط الإدريسي ترجع إلى عام ١١٦٠ ، منابع النيل بين البحيرات الاستوائية الكبرى مرسومة رسمًا دقيقًا ، وهي تلك المنابع التي لم يكشفها الأوروبيون إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

« وسجل مكتشفاتهم في ميدان العلوم الطبيعية أعظم من ذلك . والبيان التالي يوضح أهمية هذه المكتشفات .

« معلومات عالية في نظريات علم الطبيعة ، وخاصة فيما يتعلق بالمسائل الضرورية - اختراع أجهزة آلية من أبدع ما يكون - اكتشاف أعلق الأجسام بأصل علم الكيمياء ، مثل الكحول والحامض الكبريتي ، وأهم العمليات الأساسية في هذا العلم ، كالتقطير - تطبيق الكيمياء في ميدان الصيدلة والصناعات ، وخاصة فيما يتعلق باستخراج المعادن وصناعة الفولاذ ، والصباغة وغير ذلك . . . - صناعة الورق من الخرق ، والاستعاضة به عن رق الغزال وورق البردي والحرير الصيني - ومن المحتمل أنهم أول من استخدم البوصلة في الملاحة ، ومن الحق أنهم أدخلوا هذا الاختراع الأساسي في أوروبا - وأخيرًا ، فهم قد اكتشفوا الأسلحة النارية : ففي عام ١٢٠٥ استخدم الأمير يعقوب المدفعية في حصار مدينة المهديّة ، وفي عام ١٢٧٣ استخدمها السلطان أبو سيف في حصار مدينة سجلماسة . وقد حضر

كثرت حربي وكثرت سالفهري الإنجليز بان في حصار مدينة الخزيرة التي دافع عنها العرب بالمداخ ، فشاهدوا نتائج استخدام البارود ، فنقلوا ذلك الاحتراع إلى بلادهم فاستخدمه الإنجليز في معركة كريس بعد ذلك بأربع سنوات .

« أما فيما يتعلق بالطب ، فقد اسسحى العرب ، أولاً ، كتب الإغريق ، ثم ساروا بهذا الفن خطوات هامة إلى الأمام .

« وتكاد تكون حائر المعارف الطبية في أوروبا ، خلال عصر النهضة ، مأخوذة من العرب . وأهم ما حققه العرب في ميدان الطب يتعلق بالجراحة ووصف الأمراض ، وبالأدوية والصيدلة . وقد ابتكروا وسائل علاجية متعددة ، ظهر بعضها في العالم الطبي حديثاً بعد أن قضت عليها قرون من النسيان ، مثال ذلك استخدام الماء البارد للطب للحمي التيفودية .

« والطب مدين لحم بكثير من المواد الطبية مثل خيار الشبر والسني المكي والراوند والتمر هندي والكافور والكحول والقل ، وغير ذلك . . . وإننا مدينون لحم بكثير من المستحضرات المستعملة اليوم ، مثل الأشربة وصنوف اللعوق والرق والمراهم والأدهان والماء المقطر ، وغير ذلك . . .

« كذلك الجراحة ، كان للعرب الفضل في تقدمها الأول : فكات مؤلفاتهم هي المراجع الأساسية التي تلزم بالمعاهد الطبية إلى عهد قريب جداً . لقد كانوا — في القرن الحادي عشر الميلادي — يعرفون علاج الماء الذي ينصب في العين (الكاتاركتا) بالتحريك أو استخراج البلورية ، ويعرفون كيفية تغيب الحصاة وعلاج التريف بصب الماء البارد ، كما كانت لهم خبرة باستخدام الكاويات والأحزمة والكلى بالنار لتطهير الجراح . وإن التخدير الذي يظن الناس أنه اكتشاف حديث يبلو أن العرب لم يجهوه ، فقد كانوا يوصون باستعمال نبات الزوان — قبل العمليات المؤلمة — لتخفيف المريض حتى يفقد الوعي والحساسية .

« وكانت لهم أيضاً ثقة عظيمة في الوسائل الصحية لعلاج الأمراض ، وكانوا يعتمدون كثيراً على القوى الطبيعية . والطب النظري ، الذي يبلو اليوم وكأنه الكلمة الأخيرة للعلم الحديث ، يوافق هذه الفكرة في استدلالاته . . .

أثر المسلمين في ميدان الفكر :

ولعل أثر المسلمين في ميدان الفكر كان أخطر شأنًا ، فقد دعا عيسى إلى المساواة والأخوة ، أما محمد فوفق إلى « تحقيق » المساواة والأخوة بين المؤمنين أثناء حياته .

وإنه يكون من الحق أن نزع أن الإسلام أثر ، مباشرة ، في خطط الثورة الفرنسية التي كان رجالها يجهلون معظم ما قام به محمد في سبيل المساواة بين الناس . ولكننا نستطيع أن يبرهن على أن المحاولات الأولى في السعي إلى تحرير الفكر كانت أثرًا منطقيًا للمبادئ التي جاء بها محمد . فإلى الفيلسوف المسلم ابن رشد - الذي عاش في إسبانيا من سنة ١١٢٠ إلى سنة ١١٩٨ - يرجع الفضل في إدخال حرية الرأي (التي يجب أن لا تخطئ بينها وبين الإلحاد) في أوروبا .

وقد عارض ابن رشد وحدة الوجود القديمة والتجسيم المسيحي بعقيدة الإيمان باقته وحده في الإسلام ، ونحتمس أحرار الفكر في العصر الوسيط الأوربي لشروحه لأرسطو ، وإن كانت هذه الشروح مصنوعة بصيغة إسلامية قوية . ويمكن أن نعتبر ، بحق ، أن التيار الفكري الذي نشأ عن هذا التحمس لابن رشد كان أصل التفكير المنطقي الحديث ، فضلا عن كونه من أصول الإصلاح الديني .

أثر الأخلاق الإسلامية :

ولم يكن أثر الأخلاق الإسلامية بأقل من ذلك شأنًا في أوروبا ، فقد كان العرب يمتارون ، إلى جانب روح التسامح الديني (التي سوف نتحدث عنها فيما بعد) بأخلاق « الفروسية » القوية ، وفي ذلك يقول الكاتب الإنساني الكبير « بلاسكو إيسانيز » في قصته « في ظل الكنيسة » :

« لقد نشأت روح (الفروسية) بين عرب إسبانيا وأخذها عنهم فيما بعد ، أهل الشمال راعين أنها طبيعة من طبائع الأمم المسيحية » .

ولنذكر في هذا الصدد مرة أخرى ملاحظات الدكتور جوستاف لوبون ، إذ يقول :

« لقد كانت للفروسية العربية أصولها ، كما للفروسية المسيحية التي جاءت

بعدها ، فلم يكن المرء فارساً إلا إذا تحلى بالخصال العشر التالية : الصلاح ، والكرامة ، ورقة الشئائل ، والقريحة الشعرية ، والفصاحة ، والقوة ، والمهارة في ركوب الخيل ، والقدرة على استعمال السيف والرمح والنشاب . .

« وقد حاصر والي قرطبة ، في سنة ١١٣٩ م مدينة صليطلة التي كانت بيد النصارى . فأرسل إليه الملكة بيرانجير التي كانت فيها ، رسولا يلغنه أنه ليس من مروءة فارس كريم رقيق الشئائل أن يحارب امرأة ، فأرشد القائد العربي من قوره ، ولم يطلب مقابل ذلك سوى أن يشرف بتحية الملكة (١) . .

« وسجلات تاريخ العرب بإسبانيا حافلة بمثل هذه النوادر التي تبين كيف كانت أخلاق الفروسية هذه ذائعة بينهم . ويعترف عالم قوى الإيمان هو « بارتليمي سانت هيبير » ، في صديق وصراحة ، بما تدلن به الأخلاق الأوربية للعرب ، إذ يقول في كتابه عن القرآن : « عندما اتصل الأوربيون بالعرب واقتدوا بهم ، لانت العوائد الخشنة لدى أشرف القرون الوسطى القساة ، وتصلح أهل الفروسية - دون أن يفقدوا لذلك طبائع الشجاعة والنخوة - إلى عواطف أرق من عواطفهم وأشرف وألتي بالإنسانية . ومن المشكوك فيه أن تكون المسيحية ، مهما بعث تعاليمها من السمو ، هي وحدها التي أوجت إليهم بكل هذا » .

السبب في إنكار علماء الغرب آثار الإسلام في الحضارة الغربية .

ولعل القارئ يتساءل ، والظروف لنا ذكرنا ، عن السبب في إنكار كل أثر الإسلام لدى علماء يبدو أن روحهم العلمية تمحرج بهم عن كل تعصب ديني .

(١) يقول المؤلف في رسالته « أشبه خاصة بنور الإسلام » ما يلي :

« وقد حفظ ل التاريخ في سجلاته عن فروسية العرب وروح العالية جميع أدلة العظمة الموشاة بالرفقة والتهذيب ، وقد ذكر من الكبر وأصف باشا بطرس خان في كتابه « فروسية العرب المشرقة » وهو إن كان قبطياً مسيحياً فإن لأقواله قيمة عظيمة وهي الرد الصحيح على ما جاء به (بيرون Peron) من الادعاءات والتعصب .

يقول وأصف باشا : « كان محمد يحب النساء ويفهمهن ، وقد عمل جهده طائفة لتحريرهن . وربما كان ذلك بالقوة الحسنة التي استنها فوقه هو بالقواعد والتعاليم التي وضعها . وهو بعد بحق من أكبر أنصار المرأة المسلمين إذ لم يكن عظيم الاحترام والتكريم لمن ؟ لم يكن ذلك خاصاً به وبروجاته ، بل كان ذلك شأنه مع جميع النساء على السواء » .

فهل نستطيع أن نقول شيئاً من هذا عن الكثيرين من رجال الكنيسة ؟ وقد كان أحسن من بوليفور St Bona venture يقول إن تلاميذه « إذ رأيت امرأة فلا تمسحوا أنكم ترون كائناً بشرياً ، ولا كائناً وحشياً ، وإنما الذي ترون هو الشيطان بدائه والذي تسمعون هو صهيير للثمان » .

وتفسير ذلك . أن الواقع يشهد بأن حرية الرأي مسألة ظاهرية أكثر منها حقيقية ، وأن الإنسان ليس حر التفكير على الإطلاق كما يشاء في مسائل معينة ، ثم إن التعصب الموروث لدى المسيحيين ضد الإسلام وأتباعه ، قد حاش فيهم دهوراً طويلة ، حتى أصبح جزءاً من كياناتهم .

فلذا أضفنا إلى هذا التعصب الديني تعصباً آخر هو أيضاً موروث تزيد الأجيال المتتالية تحكماً من النفوس بفضل مناهج الدراسات القديمة التي تسير عليها مدارس ، وهو أن كل العلوم والآداب الماضية يرجع الفضل فيها إلى الإغريق واللاتينيين وحدهم ، أدركنا ، في يسر ، كيف يكر الناس ، عامة ، ذلك الأثر العظيم الذي كان للعرب في تاريخ الحضارة الأوروبية .

سوف يبلو دائماً لبعض العقول أنه من المهانة أن تدّين أوروبا المسيحية للمسلمين بإخراجها من ظلمات البربرية وتوحش . . .

سبب تدهور المسلمين :

ولعلنا بعد هذا تساءل . لماذا ، إذن ، وقع المسلمون في مثل هذا التدهور السريع بعد أن ظل الإسلام طوال قرون ثمانية يحمل من إسبانيا الخاضعة له أرفع الأمم الغربية حضارة ، وبرسل نوره الذي لا يخفت ، في أرجاء العالم ، من حلى وبخارى إلى القسطنطينية وحاس ؟

السبب الأول نجده في الخروج عن مبادئ المساواة التامة الشاملة التي بذل الرسول كل جهده خلال سنى حياته في فرضها ، والتي كانت سبب انتصاراته وانتصارات الخلفاء الأول . ولنصرب لذلك مثلاً يوضح كيف كانت هذه المبادئ تطبق في شدة بالغه في العصر الأول للإسلام :

لطم جبلة ، أحد الأمراء الأقوياء المعتدّين بأنفسهم ، عقب إسلامه ، رجلاً من البلو ، زاحمه في الكعبة ، لطمة عيفة ، فأمر الخليفة عمر أن يضرب البنوى المقير ، الأمير جبلة مثلما ضربه . ولم يأبه عمر في حكمه بإمكانة المذنب ولا بخطورة إغضاب رجل له من الشأن ما بجبلة ، بل رأى أن كرامة الإسلام ومستقبله يقتضيان تطبيق مبادئ المساواة أمام القانون قبل أى اعتبار آخر .

وبفضل هذه المبادئ القوية التي لا تلين لم يكن لأحد أن يفخر إلا بما

عمل ، وأدى التنافس بين المسلمين في سبيل إعلاء كلمة الإسلام إلى ضروب من المعجزات . ولم يرق إلى مناصب القيادة سوى الجديريين بها ، وكان الناس يطيعون قادتهم في كل صغيرة وكبيرة ، لأنهم كانوا يحترمونهم ويحلمونهم محللين

ولكن ، للأسف ، لم يحافظ المسلمون محافظة كاملة على هذه المبادئ الأساسية لدين محمد إلا لفترة قصيرة . ولقد رأينا التناحر بالانساب والقبائل يظهر من جديد بآثاره المدمرة في عهد عثمان ثالث الخلفاء . وأضاع الناس حكمة محمد التي تجلت في وصيته لابنته الحبيبة فاطمة الزهراء : « يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار فإني لا أغني عنك من الله شيئاً » . فقد ذهب أناس ، هم دون ذلك شأنًا ، إلى الفخر بأبائهم ، وإلى احتقار إخوانهم في الإسلام الذين ينتسبون إلى الطبقات المغمورة ، وظنوا أنهم معفون ، لعراقة أصلهم ، من الجهاد في سبيل الإسلام وفي سبيل الرق ، ذلك الجهاد الذي بدون لا يمكن تحقيق أي تقدم . وبالإضافة إلى ذلك ثارت اسافسات بين الذين يعتمدون في حياتهم على مكانة أجدادهم أكثر مما يعتمدون على أعمالهم الشخصية ، وكانت نتيجة ذلك قيام الفتن الأهلية التي تكاد تكون ، في عنفها وانصافها ، مشابهة لما كان منها في الجاهلية وترتب على ذلك أن تفكك النظام ، وظهرت من جديد تلك المصاعب العامة الشاملة ، التي كانت تشل أيدي العرب عن كل عمل مجد في عصور ما قبل الإسلام . وقد المسلمون حب الاستطلاع ، ومرت بينهم وأنهكت قواهم الحروب الداخلية ، فلم يستطيعوا ، إلا قليلًا ، أن يقاوموا المسيحيين الذين انتهزوا فرصة هذه الفوضى بين المسلمين ، ليظموا أنفسهم وليحلموا بالأخذ بثأرهم .

ولم يكن الإسلام ، سواء في ماضيه أو في حاضره ، ليصاب بتلك الكبات لو أن المسلمين عملوا دائمًا بتلك الوصية الأخيرة التي أوصاهم بها الرسول في خطبته . « أيها الناس إنما المؤمنون إخوة » .

أما السبب الثاني في تدهور العالم الإسلامي فهو ناتج عن التخلي عن إحدى المميزات الأساسية للإسلام ، وهي التوافق التام بين العقيدة — التي تكون خالية من كل ما هو غير طبيعي — وبين ضرورات المطلق . وكان لتلك الميزة في العهد الأول أثر بعيد في تقدم العلوم التي لم تعقها أية معتقدات خرافية ، وهذا

يكفى لتفسير التطور السريع الذى تطوره الحضرة الإسلامية . لكن الروح الإسلامية العلمية حمد حماسها شيئاً فشيئاً مكنتها بالنتائج الباهرة التى حصل عليها المسلمون فى حمية الشاط الذى كان فى القرون الأولى للهجرة . ومنذ ذلك العهد والإسلام وقع تحت رحمة الذرعات الخرابية والإشراكية فى الأقطار الحديثة العهد به ، فقد حلت عبادة القديسين والشهداء من « الأولياء » و « الوسطاء » ، و « المراطيين » ، تلك العبادة المأخوذة عن المسيحية ، والتى حرّمها القرآن تحريماً قطعياً ، محل عبادة العلم ، وشلت بخرافاتها الكثيرة التى لا منطق فيها ، كل تقدم . وقد حاول الفلاسفة من أمثال ابن رشد أن يقاوموا هذا التيار ، ولكن الفرصة كانت قد فاتتهم . ثم انغمس هذا الداء واستفحل فى الناس بقوة ، حتى رموا كل مصلح بالخروج عن الدين وطالبوا بتكثيره

وهذان السببان لتدهور العالم الإسلامى يعتبران من الأسباب القديمة ، وتظهر فهما جلياً المخالفة الصريحة لتعاليم الدين الصحيح . لكن هنالك على عكس ذلك ، سبب يرجع إلى القرن التاسع عشر فقط ، وقد يبدو أنه ليس فيه خروج عن نص الكتاب المقدس . إن لم يكن من روجه - ذلك هو الأثر الناتج عن تحريم أخذ الفائدة عن أى مال يقرض لأى سبب كان ذلك^(١) :

«الدينَ يأْكُلُون الرِّبَا ، لا يقومونَ إلّا كما يقومُ الذى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا : إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ، وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ... »

وإننا لا نناقش هنا صحة المبدأ ، فذلك شيء لا يفبل المناقشة ، وإنه ، حتى أوائل القرن المنصرم ، لم تكن الآثار الضئيلة ، بالنسبة إلى المسلمين ، المرفوعة على استعمال اليهود والمسيحيين للفائدة فى البلاد الإسلامية ، لتتأثر بفوائد هذا

(١) يحاول كثير من الكتاب فى العصر الحاضر - محصلين - أن يوصلوا إلى التفسير الإسلامى ثلثة به علون سب إلى تحليل التعامل مع البنوك زاعمين أن هذا ليس هو الربا الذى حرّمه الإسلام ، ذلك أن الربا الذى حرّمه الإسلام فى نظرم هو الذى حذره القرآن نفسه بأنه « أضعافاً مضاعفة » أما التعامل مع البنوك فإنه نظام اقتصادى سليم .

ولكن الآئمة السابقين جميعاً قد حرّموا الفائدة مهما شذلت قيمتها ، مفرقين بين النظام الإسلامى : نظام الأخوة والتعاون والعطف ، وبين النظام المادى الذى لا يعرف أخوة ولا تعاوناً ولا حقاً .

المبدأ القرآني الجملة . ولكن القرض أصبح اليوم من المقومات الأساسية في كل المشاريع الصمخمة ، وأصبحت « أبسوك » صاحبة السلطة الحقيقية في العالم ، ولذا وجد المسلمون أنفسهم ، مؤقتاً ، يسرون إلى الإفلاس الاقتصادي والسياسي ، بسبب تفسيرهم المبالغ فيه لهذه الآيات .

مستقبل الإسلام :

هذه هي ، في رأينا ، الأسباب الثلاثة الأولى للتدهور الإسلامي ، فمن هذا التدهور لا علاج له ؟ وهل حكم على الثلثة مليون من المسلمين المنتشرين على سطح الكرة الأرضية بأن يظلوا إلى الأبد على هذه الحالة لخرقة التي قسمت لهم بعيدين عن الحضارة الحديثة ؟
إننا لا نرى ذلك .

فبالنسبة إلى السببين الأولين نجد العلاج غير معقد : إنه في الرجوع إلى المبادئ الصحيحة التي جاء بها الرسول .

أما فيما يتعلق بالمسألة الثالثة فعلها في تفسير نص الآيات المقدمة تفسيراً قد يكون أقل تمسكاً بالحرفية ، ولكنه لا شك يتمشى مع روح الكتاب في أمانة . وقد فهم ذلك المسلمون المستنيرون جيداً ، فحرصوا على عدم الخط بين الإجراءات المالية في « البنوك » ، وبين أعمال الربا الحظيرة التي حرمها النبي .

وأخيراً ، فإن الجراح التي أصابت الإسلام ، خلال نصف القرن الأخير ، قد أيقظته من سباته ، وأقنعت هزيمته الأخيرة نفسها بضرورة تبني الوسائل العلمية التي يستغلها أنصاره . وتذكر المسلمون أحاديث الرسول :

- « اطلبوا العلم ولو بالعصين » .
- « التعلم خير من العبادة » .
- « يؤذن يوم القيامة مداد العلماء ودم الشهداء » ، فيرجع مداد العلماء على دم الشهداء .

ولقد قام مصلحون عابرة من أمثال الشيخ محمد عبده برسم السبيل الذي يجب على المسلمين أن يسيروا فيه ، مبرهين على أنه يمكن التوفيق بين محمد وبين مقتضيات الحضارة الحديثة . ولم ينس طويلاً وقت حتى ذهب الكثير من الشباب

في سائر البلاد الإسلامية إلى التعلم على الطريقة الأوروبية في سهولة تكيف
عجيبة ، دون أن يقللوا شيئاً من عناصر قوميتهم الأصيلة . وسوف نرى عما قريب
لعدد العديد من المسلمين يحتلون مكانهم الثابت في العالم الحديث ، ولا يهابون
أن يناقشوا رجال العرب في ميدان الحضارة العصرية ^(١) .

لقد اعترض على إمكانية هذه النهضة الإسلامية بأنه يقف في سبيلها عقبات
قوية هي :

عقيدة القضاء والقدر .

والتمصب .

وتعدد الزوجات .

عقيدة القضاء والقدر :

فلنعرض سريعاً لهذه المسائل : هل عقيدة القضاء والقدر الإسلامية يمكن أن
تتفق مع الجهاد الصحيح في سبيل التقدم ؟

إذا كنا نجد بعض الوجاهة في شيء من النقد الموجه إلى المسلمين في هذا
المجال ، فلأن بعض المسلمين من أمثال أتباع « المرابطين » ، يسيئون فهم التوكل ،
وعلى أي حال فلم يكن لهذا التوكل الأثر المبالغ فيه الذي يراد إلصاقه به . والإسلام
ليس فيه من التوكل أكثر مما في مذهب إنكار فعل العزيمة الشخصية والقول بالأسباب
الخارجية (determinisme) . بل القضاء والقدر فيه يكون أقل خطورة منه في
المسيحية لو اتبع المسيحيون حرفية تعاليم الإنجيل الذي يقول :

« ولذا أقول لكم . لا يقنقكم أن تبحثوا عن الجهة التي تجلسون فيها ما تأكلون
وما تشربون لاستبقاء حياتكم ، ولا الجهة التي تجلسون فيها للثياب لكساء أجسادكم »
(إنجيل متى : ٥ : ١٨ و ٦ : ٢٥) .

كيف نقول . إن عقيدة القضاء والقدر تشل كل عمل عند المسلمين ، والرسول
كان أنشط الناس وأكثرهم مثابرة وجهاداً ، والإسلام هو الدين الوحيد الذي جاء ،
عقب نشأته مباشرة ، بالمتوح الواسعة العجيبة والحصار السامية العظيمة ؟ . . إن

(١) خلفنا من هنا بضعة سلور تاريخية لم تعد لها قيمة تذكر بعد مرور كل هذه السنين على
تأليف الكتاب .

كلمة «إسلام» تعني الرضاء بأوامر الله ، أى بما لا يمكن لأى قوة إنسانية أن تحول دونهُ ، ولكن ليس من معانيها الخضوع للأمر الذى يبدو أنها يمكن أن يغير مجراها العمل والإقدام «قل بما قوم اعتدلوا على مكانتكم» . . . فهذه العقيدة إذن بعيدة كل البعد عن أن تكون مصدر ضعف . إنها على العكس من ذلك مصدر قوة نفسية لا تضارع بالنسبة إلى المسلم تعبه على احتمال المحن والشدائد^(١) .

التعصب :

ونعرض بعد ذلك لموضوع التعصب ، فنسأل . ألا يعرق تقدم المسلمين وعلاقتهم بالمتحضرين من أبناء الأديان الأخرى ، تعصب هؤلاء المتحضرين العنيف الذى لا هوادة فيه ، والذى هم يرمون به المسلمين ؟
والسألة هنا ، هى قبل كل شئ : أن نعرف ما إذا لم يكن هذا التعصب عند المسلمين أسطورة من تلك الأساطير التى لا تحصى ، ولقى أدائها بين الناس أعداء الإسلام في القرون الوسطى .

وفما يلى بعض الوقائع ، اخترناها من بين عدد كبير من أمثالها ، نسردها هنا ليتمكن القارئ من الحكم فى هذا حكماً صحيحاً .

يروى ابن جبري نقلاً عن ابن عباس : أن رجلاً من بني سالم بن حوف يقال له الحصين ، وله ولدان مسيحيان ، وهو مسلم ، سأل الرسول فيما إذا كان يجب عليه إكراه ولديه على اعتناق الإسلام ، وهما يرفضان كل دين غير المسيحية ، فأنزل الله تعالى الآية الكريمة : « لا إكراه فى الدين » .

وعندما جاء رسل نجران المسيحيون المدينة ليفاوضوا النبي منحهم نصف مسجده ليؤدوا صلاتهم فيه .

وقام محمد يوماً لجنائزة ، فقيل له . . . إنها جنازة يهودى ، فقال : « أليست هى نسة ؟ » .

وهو القائل : « من آذى ظلمياً يهودياً أو نصرانياً كنت تحبسه يوم القيامة » .

(١) فإذا قضيت الصلاة . . . الآية « يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال . . . » « يا أيها النبي ساعد الكفار والمنافقين . الآية » « فإما تنفقهم فى الحرب » « وفى الحديث » اليد العليا خير من اليد السفلى ، « لأن يأخذ أحدكم حيله »

قد يدوم الملك على الكفر ولكنه لا يدوم على الظلم .

والمسلمون على عكس ما يعتقده الكثيرون ، لم يستخدموا القوة أبداً ، خارج حدود الحجاز - أى الأرض الحرام والمنطقة المحيطة بها - لإكراه غيرهم على الإسلام . وإن وجود المسيحيين في إسبانيا لدليل واضح على ذلك ، فقد ظلوا آمنين على دينهم طوال القرون الثمانية التي ملك فيها المسلمون بلادهم ، وكان لبعضهم مناصب رفيعة في بلاط حكام قرطبة .

ثم إذا بهؤلاء المسيحيين أنفسهم يصبحون أصحاب السلطان في هذه البلاد ، فكان أول هم لهم أن يقضوا قضاء تاماً على المسلمين ، وقد ألحقوا بهم أيضاً اليهود الذين عاشوا فترة آمنة هادئة تحت حكم المسلمين .

وفي كتابه . . . « رحلة دينية في الشرق » يشيد الأب « ميشون » بالحقيقة في صيحته الصادقة : « إنه لمن المحزن بالنسبة إلى الدول المسيحية أن يكون المسلمون هم الذين حلموها مبادئ التسامح الديني الذي هو الثاموس الأكبر للرحمة والإحسان بين الأمم ! » (١) .

وقد يعارض قوم فيذكرون مذابح الأرمن ، ويتساءلون : ما القول فيها ؟ والرد على ذلك أن المسلمين الحقيقيين يشكرون كل شيء من هذا القبيل ما لم تدع إليه الفتن والمؤامرات ، تماماً كما يستنكر المسيحيون الحقيقيون اليوم مذبحه جميع المسلمين في إسبانيا .

والواقع أن مذابح الأرمن لم تكن قط لأسباب دينية ، ذلك لأن أتباع دين محمد لم يسل بخلد لهم قط أن يقتلوا بأنصار « توركو عمادا » ، فيخيرون الأرمن بين ترك المسيحية إلى الإسلام ، وبين أن يحرقوا أحياء . وعلى أى حال ، فالمسلمون لا يأثرون في أنفسهم أى ميل لرد الناس عن دينهم . وليس لهم مشرون حقيقيون . وإذا كان الإسلام هو الدين الذي يجذب إليه أكثر الناس في إفريقيا وفي آسيا في عصرنا هذا ، فذلك - كما لاحظته ملاحظة صحبحة المسبو أ . بورديو - « يرجع إلى نوع من الامتناع المعنوي » (٢) .

(١) نقل عن « الكويت دى كاستى » في كتابه عن الإسلام .

(٢) من « أ . بورديو (الغرب في إفريقيا الحديثة) » .

وإن القدوة الحسنة التي لا تقترن بمحاولة التبشير المتعصبة ، لم أفرأ أثرًا في النفوس النقية من مضايقات القس المبشرين . ولقد اضطر العالم « دوزي » - رغم تعصبه ضد الإسلام - إلى الاعتراف بأن الكثير من المسيحيين الذين كانوا في إسبانيا « اعتنقوا الإسلام عن حقيقة » .

والقاعدة التي يجرى عليها المسلم ، في علاقاته بأصحاب الديانات الأخرى ، هي تلك التي حددها القرآن في الآية التالية : « لكم دينكم ولي دين » . وكيف لا يكون المسلم متسامحًا ، وهو يحل الأنبياء الذين يحبهم اليهود والنصارى ! فوسى بالنسبة إليه « كلم الله » وعيسى « روح الله » يجب تبجيلهما كما يبجل محمد « حبيب الله » : « لا تفرق بين أحد من رسله » .

ولن يجرؤ مسلم قط على التهمه بأقل بادرة في حق عيسى . وكذلك لن يقبل أن يدع أحداً يثمه بمثل هذا في حضرته ، حتى وإن كان من يحدثه من هؤلاء المسيحيين الأصبين الذين يريدون أن يجعلوا من عيسى المشول عن الأخطاء الكهنوتية ، وسب المسيح لا شك يعتبر سباً للإسلام الذي يأمر باحترامه . ولقد أتيج لنا أن نشهد حادثاً عجيباً هو أن قاصياً مسيحياً حكّم على رجل مسلم لضربه يهودياً بدمرت منه أمامه أقوال بالغة الأسفاف في شأن ولادة عيسى .

ولنتقارن الآن بين موقف الإجلال هذا الذي يقفه المسلمون من عيسى وبين ما صنعه الأوروبيون من سيرة محمد :

ففي العصور الوسطى كان الرهبان يصورونه تارة في صورة صنم بشع ، وتارة في صورة سكير عديم . . . إلخ .

ولو أننا أردنا أن نثبت هنا كل ما تمخضت عنه فديماً مخيلات أعداء محمد الخصب لما انتهينا إلى حد .

لم يكن المستشرقون الأول بأقل عصماً في مهاجمته من هؤلاء :

والعالم جانبيه ، في القرن الثامن عشر ، يعيب على القس المراكشي والدكتور بريلو ، إسفافهما المتحيز ضد محمد ، ولكنه فيما بعد يصف أكثر من إسفافهما ، ويصف محمد أبعد الأوصاف عن سيرته . ومع هذا فالعالم جانبيه يزعم أنه معتدل كل الاعتدال في حكمه .

ومن زمن بعيد وأعداء الإسلام باحثون الأذى بأصحاب محمد أيضاً . وقد ألف بعضهم تلك الأسطورة الدائمة التي تقول بأن الخليفة عمر أحرق الإسكندرية ، ولم يكر غرضهم من ذلك إلا أن يجعلوا الناس تسي العمل الوحشي الذي قام به الكاردينال كسيمبيس من إحراق دور الكتب البديعة التي كانت للمسلمين بإسبانيا وهم في زعمهم هنا يبدون استخفافاً لا حد له بوقائع لتاريخ . ذلك أن مكاتب الإسكندرية قد خربت قبل مجيء الإسلام بقرون متعددة ، وأول هذه المكاتب هي مكتبة البروخيوم التي كانت تحتوي على أربعمائة ألف مجلد ، وقد أحرقت أثناء الحرب التي نشبت بين قبصر والإسكندرانيين ، وثاني المكاتب هي مكتبة السرايوم التي ضمت في يوم من الأيام مائتي ألف مجلد أوصى بها لها بطونبوس . وقد نهبت هذه المكتبة وخربت تماماً في عهد ثيودوزيوس

وقد أنشأت هذه الحرافات السخيفة تتلاشى في أيامنا هذه ، على أننا نفعل ما فيها من تعصب صريح على تلك الدسائس الخبيثة التي يريد بعض الكتاب الذين لم يتخلصوا بعد من طوائف القرون الوسطى المسيحية ، أن يديعوها - تحت ستار من العلم الاستشراق الظهري في حق رجل من الرجال الذين يشرف بهم أكثر من غيرهم تاريخ الإنسانية نفسه .

وقد يسأل سائل . ألا ينتهي الأمر بالمسلمين ، بعد أن تبنا حصاره المسيحيين إلى أن يتدينوا كذلك بالمسيحية ؟ ويكفيها الإجابة عن هذا السؤال أن نورد رأي كاتب صريح في اعترافه بالواقع رغم تمسكه الشديد بدينه ، ذلك الكاتب هو « الكونت دي كاستر » ، الذي يقول في مؤلف له ممتاز عن الإسلام :

« الإسلام هو الدين الوحيد الذي لا تجد فيه مرتدين . . . ومن العسير ، بل من الخيال أن نتصور صورة دقيقة للحال النفسية التي يكون عليها المسلم إذا ما حاول أحد المسيحيين أن يقنعه باعتناق المسيحية . لعلنا نجد صورة مقاربة شيئاً ما لهذا ، إذا ما تخليت إحساسات وشعور رجل مسيحي مستنير يحاول أحد الوثنيين أن يحمله إلى اعتناق خرافاته المزدولة^(١) . . . »

(١) من الكونت دي كاستر (الإسلام) .

قلمة في بعض المسيحيين للإسلام :

فما عسى أن تكون عنة ذلك البغض الذي يلاحق به المسيحيون الإسلام ، حتى في عصرنا هذا ، عصر التسامح - ولا نريد أن نقول : عصر علم المبالاة بالدين - في حين أن الإسلام يقدم لهم كثيراً من الأدلة التي تؤكد احترام عيسى وتبجيله ؟ !

هل يكون ذلك لأن الإسلام كانت شأنه في آسيا ؟

ولكن ، ألم تكن المسيحية ، في جوهرها ، ديانة آسيوية قبل أن يحصلها بولس القديس من اليهودية ؟ وقد قال عيسى نفسه : « لم أرسل إلا إلى خراف إسرائيل الضالة » (إنجيل متى ١٥ - ٢٤) .

وهل العلة في العقيدة Dogme نفسها ؟ ولكن عقيدة الإسلام تكاد تكون مماثلة لعقائد بعض الفرق البروتستانتية التي تأثرت بالإسلام فاحتذت حذوه . . .

أو هل سبب ذلك يرجع إلى الآثار التي خلفتها الحروب الصليبية في النصوص ؟

ذلك أمر لا شك فيه ، فرغم معنى زمن طويل على هذه الحروب ، نجدها لا تزال تفعل فعلها المشوم في نفوس الكثير من أهلها .

ولكن هذا الأمر وحده ، ليس بكاف لتفسير ما حكم به على الإسلام في أوروبا من نقي وتحريم .

فعلينا إذن أن نبحث عن تعيل آخر . وسوف نتبين جلية الأمر ، إذا ما تأملنا المثل الذي تقدمه لنا ديانة أخرى . تقابل حقاً في أوروبا مثل ما يقابل به الإسلام ، من النفور والاضطهاد

تلك هي ديانة فرقة « المورمون » ، وهي من الفرق البروتستانتية . وقد أظهر أصحابها العجيب العجائب من قوة العزيمة والذكاء والمثابرة ، فأحالت الصحراء ، ذات الأرض الملحة الكثيفة التي فطنت بها ، إلى بلد خصب راھر ، وكان على أهل أوروبا وأمريكا جميعاً أن يشيدوا بهذا العمل الدمع خصارة الإنسانية وبدأ استحسنهم له . ولكن سائر شيع المسيحية ، على العكس من هذا ، تنامت

أحقادها وحلافاتها الخاصة لتتألب على المورمون ، يجمع في هذا شعور متماثل من الكره لهم

فماذا كان الحرم الذي اقترفه هؤلاء المورمون ؟

لم يكن هم من حرم إلا أنهم - كالمسيحيين - يستحلون تعدد الزوجات .

ومفناح هذا السر إذن هو : تعدد الزوجات !

وإن في ذلك لإنداراً بالأهم الإسلاميه بأنني لن تحصل قط ، على حق الدخول

في ديرة الأهم المتحصرة ، ما لم تشكر لهذا تعدد الزوجات ! . . .

تعدد الزوجات :

ولن نخطر هنا محاولين الدفاع^(١) عن عادة يحمل عيها الناس بمثل هذه

(١) لقد دافع المؤلف دفاعاً مجيداً عن مبدأ تعدد الزوجات في رسالته القيمة « أشعة خاصة بمرور الإسلام » ونسب بعض دواع الرئع فيما يلي :

صايرة طبيعية

لا يشترط لإسلام على الطبيعة التي لا تمسح ، وإنما هو يسائر قوانينها ويرامل أروامها ، بخلاف ما تفعل الكاثوليكية من معارضة الطبيعة ومصادمتها في كثير من شئون حياتها . مثل ذلك العرص الذي تفرضه على أنثائها الذين يتجنون الرهينة ، فهم لا يتزوجون ، وإنما يعيشون أمراً

وعلى أن الإسلام لا يكتفي أن يسائر الطبيعة ، وأن لا يصد عنها ، وإنما هو يدخل على قوانينها ويجمعها أكثر قبولاً وأسهل تطبيقاً ، في إصلاح ونظام ورضا يسود مشكور ، حتى لقد سمى القرآن ذلك : « يا أيها الذين آمنوا لا تؤمنوا مع الكافرين » ولأنه الذي على أحسن مقاصد الخير

والأمانة العديدة لا تمور بها ، ولكننا للقصر فأحد يأشهره ، وهو أنساه في سبيل تعدد الزوجات : وهو المصروع الذي حذفت النعم الواسع ، والذي جلب للإسلام في نظر أهل الغرب مثالب جمة ، ومطامير كثيرة

وما لا شك فيه أن التوحيد في الزوجة هو المثل الأعلى ، ولكن ما العمل ؟ وهذا الأمر يعارض الطبيعة ، ويصادم الحقائق ، بين هو الحال الذي يسحق بغية . ثم يكن الإسلام أمام الأمر الواقع ، وهو دين اليسر ، إلا أنه يسبب أرباباً ذوق العلاء ، فلا يحكم فيه حكماً قاصداً ولا يأمر به أمراً قاصداً . وإنما فعله الإسلام أول كل شيء أنه أنقص عدد الزوجات الشرعية ، وقد كان عند العرب الكاثوليكين مباحاً دون قيد ، ثم أشار بعد ذلك للتوحيد في الزوجة في قوله تعالى

« وَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً » .

وأي رجل في التوحيد يستطيع أن يعدل بين زوجاته المتعددة ! وما كان التعدد بهذا الشرط مستحيل

التعدي ، ولكن نظر كيف وضعه لإسلام وضعاً هو غاية في الزهة والدقة والطف مع الحكمة

ثم انظر على حقيق أن الديانة المسيحية بتقريبها الجبري للفردية الزوجة والتوحيد فيها وتشددها في تطبيق ذلك ، قد سبب تعدد الزوجات ؟ وهل يستطيع شخص أن يقول ذلك دين أن يأخذ من الفضحك مأخذاً ؟

وإلا هؤلاء مدوك عرب

- دمع عتك لأفرد الذين كانت هم الزوجات لمتعددات والنساء الكثيرات ، وفي الوقت نفسه ، لم يسر الكاثوليكية كل تعظيم وإكرام .

الثلة ، لكننا نقتصر على عرض بعض الملاحظات :

فالواقع يشهد بأن تعدد الزوجات شيء ذائع في سائر أرجاء العالم ، وسوف يظل موجوداً ما وجد العالم ، مهما تشددت القوانين في تحريمه ولكن المسألة الوحيدة هي معرفة ما إذا كان من الأفضل أن يشرع هذا المبدأ ويحدد ، أم أن يظل نوعاً من النفاق المنستر ، لا شيء يقف أمامه ويحد من جماحه .

وقد لاحظ جميع الرحالة الغربيين - ونخص منهم بالذكر «جيرارد دي بيرفال» و «الليدي مورجان» - أن تعدد الزوجات عند المسلمين ، وهم يعترفون بهذا

أن تعدد الزوجات قانون طبيعي ، وسبق ما بين العالم ، وذلك فإدسا فملك المسيحية لم يأت بالفرض الذي أرادته فاستكت الآية معها ، وصرفا لشهد الإغراء بجميع أدواعه ، وكان مثلها في ذلك مثل الشجرة الملعونة التي حرمت ثمارها فكان التحريم إغراء .

حل أن نظرية التوحيد في الزوجة ، وهي النظرية الأخيلة بها المسيحية ظاهراً تكفي تبعاً ميراث متمدة ظهرت حل الأصح في ثلاث نتائج واقعية شديدة الخطر جسيمة البلاء - تلك هي : (الدعارة ، والعواص من النساء ، والأبياء غير الشرعيين) .

وإن هذه الأمور الخس الاجتماعية ذات السيئات الأخلاقية لم تكن تعرف في البلاد التي طبقت فيها الشريعة الإسلامية تمام التطبيق . وإما دخلت وانتشرت فيها بعد الاحتكاك بالمدنية الغربية . ومن الأمثلة للقائمة على ذلك : ما كان من أمر رادي (ميراب) حيث تسكن القليلة التي بهذا الاسم في بلاد الجزائر ، إذ لم تدخلها الدعارة إلا بعد قسمها إلى فرنسا عام ١٨٨٣ . وقد وصل بها الحال اليوم أن أربع بلدان من مجموع كله سبع بلدان قد ابتليت بهذا الداء الويل .

وما يرويه من هذا القبيل : ما جاء في كتاب «الإسلام» تأليف «شمر دوبولان» أنه عند ما غادر الدكتور «مافروكوردانو» الأمتة ١٨٠٧ إلى برلين لدراسة الطب ، يكن في العاصمة النمائية كلها بيت واحد للدعارة ، كما لم يهرب فيها داء الزهرى (وهو لسفليس المروء في الشرق بالمرض الإفرنكي) ، غلب عام الدكتور بعد أربع سنين أي سنة ١٨٣١ تبدل الحال غير الحال ، رى ذلك يقول الصدر الأعظم الكبير رشيد باشا في حصة موجزة : «إننا فرسل أبناءنا إلى أوروبا ليتعلموا المدنية الإفرنكية . فيمدون إليها مرضى بالداء الإفرنكي» .

حل أنه من جهة أخرى نرى أن الطلاق قد يخفف بعض الشيء من أضرار هذا التبعث في القصر على زوجة واحدة ولكن من جهة ثانية نرى أن الطلاق سيئة من السيئات ، إذن ، ماذا ؟ إذن أي الأدرية قد خلا تماماً من بعض السيئات ؟

حل أن الكنيسة قد أسامت كذلك في مسألة الطلاق بمثل ما أسامت في أمر التوحيد في الزوجة وذلك بمخالفتها أيضاً لموازين الطبيعة .

انظر حل أشد من الحكم على زوجين شابين لم يستطيعا لبعضهما صبراً ، وقد ساب ظهما في الزواج ، ولم يدركا السعادة التي طلباها من وراء ذلك ، حل أشد من الحكم عليهما بأن يجلدا يقضيان بقية أيامهما في عذاب ونكد وشقاء ! ! كذلك إذا كان أحدهما حاقراً ، أو كان غير كفء لزوجته ، حل يحرم الآخر من أن يبس نفسه بآخر ، وأن يقيم له عائلة من جديد ! !

وإب نعم في صدد الطلاق لا تفوتنا حكمة التشريع الإسلامي ، وهو يرى السوء في فوضى الطلاق ، فيسبح الرب الكريم بقوله : «أبغض الحلال إلى الله الطلاق» .

المبدأ ، أقل انتشاراً منه عند المسيحيين الذين يزعمون أنهم يحرمون الزواج بأكثر من واحدة . وليس ذلك بالأمر الغريب على الفطرة البشرية : فالمسيحيون يجدون لذة النمرة المحرمة عند حرجهم على مبدئهم في هذا .

ولكن هل تعدد الزوجات ، حقيقة ، أمر يصح أن نعلق عليه كبير اهتمام في عصرنا هذا ؟ إن مقتضيات الحياة الحديثة - ولندع جانباً كل الظروف الأخرى - تجعل من المسير جداً وجود تعدد الزوجات في المدن الكبيرة : وسوف يزول هذا الأمر بين المسلمين الذين يأخذون بأسباب الحضارة الحديثة خلال فترة قصيرة ؛ وإذا كان مبدأ التعدد سوف يبقى ، هل نجده مطبقاً إلا في قلب السادية حيث تضطر الناس إليه ظروف الحياة التي لا مفر منها .

ومع ذلك فإننا نتساءل : هل في زواج تعدد الزوجات فائدة أخلاقية ؟ إن هذا أمر مشكوك فيه : فالدمارة التي تنذر في أكثر الأقطار الإسلامية سوف تتعشى فيها وتنتشر آثارها المخربة . وكذلك سوف يظهر في بلاد الإسلام داء لم تعرفه من قبل ، ذلك هو عزوبة النساء التي تنتشر بآثارها المفسدة في البلاد المقصور فيها الزواج على واحدة ، وقد ظهر ذلك فيها بنسبة مفرغة ، وخاصة عقب فترات الحروب .

كتب شارل دوماس عن المسلمين ، في إحدى دراساته حول مستقبل المستعمرات الفرنسية : « إن جنساً لا يمكن أن يتحرر قط إذا قضى على نصفه (يعني النساء) بالرق الأبدي » .

الحجاب :

فهل المسلمات حقيقة قد قدر لهن حال من الذلة يرقى لها إلى هذه الدرجة ؟ لا شك أن الحجاب وشبه الحبس في البيت المعروضين على المرأة المسلمة ، يبدو لعين المرأة الأوروبية المغالبة في التحرر ، أنه من مظاهر الرق البالغ القسوة ، فتظهر عطفها على المسلمات وترقى ليلهن ، ولكنها لو علمت بما تسره هاتيك المسلمات من مشاعر وأفكار . لعجبت أن رأته نفسها هي الأخرى محل عطف من جانبهن وثناء ، لا موضوع حسد كما كانت تظن . ومن ناحية أخرى فإن التحجب ولزوم البيت ليسا على أي حال من الفروض الدينية بالنسبة إلى المسلمات : فنصوص

القرآن (سورة الأحزاب ٥٣ - ٥٥) التي تتخذ حجة في ذلك تطبق فقط على نساء النبي ولا تتعلق بسائر نساء المسلمين ، كما قد ترحى بذلك ترجمة كازيميرسكى الخاطئة للآية ٥٥ من سورة الأحزاب .

لذلك فإن مثل هذه التقاليد التي دخلت على الإسلام بعد موت محمد بسنين عديدة ، كانت محل نقد شديد من جانب المدافعين عن حقوق المرأة وإنذكر من بين هؤلاء :

قاسم (بك) أمين بكتابه « تحرير المرأة » .

والرهاوي شاعر بغداد برسالة المشهورة عن الحجاب ، التي يشيد فيها بمفضل المرأة ويعتمد على الآية « . . . وهن مثل الذي عليهن بالمعروف . . . » في مطالبة بالتحرير الكامل للنساء .

وأخيراً السيدة ملك حمى ناصف التي نشرت ، بعد استئذان أبيها - أحد علماء الأزهر القدامى - قصيدة تحنج فيها بأن رفع الحجاب ، إذ كانت المرأة فاضلة ، ليس بشيء ذي صرر ، أما إذا كانت نيتها سيئة فس يجلد معها أي حجاب .

ومن المحتمل أن تشهد عاجلاً أو آجلاً روال عادة التثقيب في الشرق في الوقت نفسه الذي تحاول فيه بعض الأوربيات المتأنفات إدخال « مودة » النقاب التركي في المجتمع الغربي . وبهنا نخضع زهرة الجمال الإسلامي ذلك الثوب اللطيف الذي كان يحفظها من الأعين . ولكن ألن تأسف النساء الشرقيات على السحر الخفي الذي كان يسيغه عليهن النقاب ؟ وهل يحدن فيما يحبته من الازدهار تحت أضواء المدينة القاسية ما يوضهن عن ذلك ؟ إننا نخشى أن تخرج الشرقية إلى الحياة العصرية ، وعيها مبهورتان بأحلام الحريم فيتابها الرعب لما تشهده لدى أخواتها الغربيات ، اللاتي يسعين للعيش وينامسن في ذلك الرجل ، من أمثلة الشقاء واليؤس الكثيرة . ولكننا لا نريد أن نصير حكماً في مثل هذه المسألة الشائكة^(١) وعلى أي حال فإن أهمية مثل هذه الإصلاحات وإمكانها يختلفان

(١) لم يصدر المؤلف حقاً حكماً في هذه المسألة وكل ما أراده إنما كان إظهار مرونة الإسلام ومسايرته لمتلف الأندلس ، وقد قال مرة أحد كبار المفكرين : إن من الحجاب في الإسلام هو أن تحتجب المرأة عن مواطن الرعب .

اختلافاً كاملاً ، حسب البلاد التي نهجتا ، ولذلك فإنه من المحال أن تؤدي بنا مناقشة المسألة إلى وضع قاعدة شاملة .

ولكننا ، مع ترددنا في إصدار حكم في الإصلاحات التي عرضناها ، نعترف صراحة ودون قيد ، بأن تعليم المرأة ضرورة بالغة الأهمية بالنسبة إلى مستقبل الإسلام .

ولنعيم ليس له علاقة بالتقاليد والعادات التي تعرضنا لها آنفاً ، وهو يساير كل المسيرة جميع تعاليم الدين ، وقد كان في عصر ازدهار الإسلام يفاض فيها عن المسلمات ، وكانت ثقافتهن حينذاك أرفع من ثقافة الأوربيات دون جدل .

والواقع أن التعميم في الشرق لم يندثر كلية مطلقاً اندثر في بعض أقطار المغرب . ومنذ بضع سنين ، ولكثير من المسلمات يشغل أوقات فراغهن في شغلوهن بالتعلم وقد بدأ مستواهن الثقافي يرتفع عامة .

وعلى التعميم وحده يجب أن يعتمد التطور الاجتماعي ، في الميادين التي يكون فيها ضرورياً ، على أن يقدر ويرجع بحيث لا تكون له آثار غير محمودة في نظام الأسرة (١) .

خاتمة

الإسلام والمصر الحديث :

فلماذا ما فصل في مسألتى تعدد الزوجات وتحرير المرأة ، (وهما المسألتان الوحيدتان اللتان نجد لبقدر الساقدين فيهما ظاهراً من الحق) ، بلما الإسلام على حقيقته . ديباً يتمنى في روجه تحملاً مع أحدث الاحتياجات والأفكار المصرية ، حتى إن رجلاً من الإنجليز هو « أوروالد ويرث » كتب يقول : « إنني تبينت أنني أدين بدين الإسلام دون شعور مني بذلك ، كما تبين المسيو چوردان ، أنه يتحدث "النثر" دون علم منه بذلك ، أما جرت ، فإنه بعد أن درس أصول الإسلام أعلن : إذا كان الإسلام هو هذا ، أفلا نكون جميعاً مسلمين ؟ ! »

(١) وكثيراً ما يحفظ الكتاب بين الحديث عن تعليم المرأة والحديث عن مسألة الحجاب ، وقد بين المؤلف أن لا صلة بين أحدهما والآخر .

وبعد مدة يسيرة من الزمن سيكون من حق الإسلام المطالبة بحقه في الحضارة الحديثة ، لأن الأساطير الصليبية المفقرة عليه من عهد الحروب الصليبية إلى الآن لم يبق أحد يجرؤ على التسليم بها .

المسلمون ومساعدة فرنسا :

وبينما نحن نصل في كتابتنا إلى هذا الحد . إذا بأوروبية تفاجأ بأعظم حرب عرفها التاريخ منفجرة في قلبها ، وتشاهد ألوفاً من جنود المسلمين من سلالة غزاة مدينة بواتييه ، قد أغاروا من جديد على فرنسا كلها .

ولكنهم لم يأتوا هذه المرة هاتحين كما جاء آباؤهم الغزاة . بل جاءوا أصدقاء وإخوان سلام ، دعاهم حلفائهم إلى مشاركتهم في الجهاد الذي يتوقف عليه مصير الحضارة فأخلصوا في الدفاع عن الحضارة إخلاصاً أثار إعجاب حلفائهم وكل من وصلته أخبارهم ، وبهذا غرسوا الإسلام إلى الأبد في قلب أوروبا بأعجوبة طريقته وأشرفها ، أضحى بذلك قلوبهم : الكثيرة التي تغطي أرض فرنسا .

وأوروبا اليوم أرضها تحوي عدداً من أتباع النبي محمد ، وهم بعد أن أدوا مثل هذه الخدمات للحضارة يشق عليهم أن يحرموا من شيء استشهد الكثير منهم في سبيل الدفاع عنه .

وليس من المعقول أن تكون خدماتهم الجليلة للحضارة والمحافظة عليها ، وأسوتهم الحسنة التي انتهت بتعميم الناس لحقيقة الإسلام وبساطته البديعة وبإزالة الكثير من الاتهامات التي كانت للناس فيها مضي - لا تحدث في بعض نفوس الأوروبيين أفكاراً جديدة عن الإسلام ليس فيها اقترائهم السابق .

نطلع أوروبا إلى الروحانية :

وكثير من ذوي العقول المستتيرة بعد أن أفاقوا من صلتهم ، وبعد أن عرفوا إخفاق المذهب القائل بأن العقل يستغل بالمعرفة ، يسعى جاهداً لتعرف الهداية . وإن مذهب الخدس الذي يتهافون عليه ، خلف حامل لوائه المسيو برجسون الشهير ، وهو عبارة عن رد فعل واضح لمذهب استقلال العقل بالمعرفة ، أو بتعبير أدق : هو رد فعل لعجز مذهب استقلال العقل بالمعرفة .

وقد جدد هذا المفكر ، في قلوب الناس النهمين في الإيمان ، آمالاً كان يبلو أنها انتهت إلى غير ما رجعة ، فهو يؤملهم في خلود الروح . وبذلك تكون الحياة الدنيا ليست مثبتكاً عظيماً لقوى عبياء ، وأن العقل وسيلة فقط من وسائل المعرفة . ومع تأكيدهم بكل هذا لم يزد على أن يبعث أفكاراً طال عليها المهد وأبررها بصريقة يسهل فهمها ، واحترار الوقت المناسب الذي يساعدها على أن تهبط عناصر دين جديد ، يشعر كثير من الناس بشدة حاجتهم إليه . (انظر كتاب حقائق الحياة لجوستاف لوبون) . إن حركة هذا الفيلسوف لا تقاوم ، وبخصوصاً بعد دماء كثيرة سفكت بعد فتن عظيمة ، وسنشهد إذن مجهود الديانات القديمة والحديث وهي تعمل جاهدة لاحتكار هذه الحركة لفائدتها ، ولكن المذهب القائل باستقلال العقل بالمعرفة ، حتى في حال انهزامه ، لن تكون ثمرته أقل : وسوف يقيم عقبة كأداء بين العقل والعقائد التي تتصادم معه تصادمًا عبيماً .

ومن جهة أخرى ، ألا ينبغي لنا أن نحسب حساب النزعات الصوفية العاطفية الشاعرية ؟ أليست تلك النزعات عللاً جوهرية في وجود كل دين ؟ وإذا أردنا تلخيص الأمر في جملة واحدة ، أملاً نستطيع أن نقول : إن ألزم لزمومات الدين المعصرى هي تلك التي يتمير بها الإصلاح الديني المتطرف من توحيد يكسوه ثوب رائع من الشاعرية ؟

وحينئذ يكون الإسلام قد تراغرت فيه شروط الدين الحنيف الذي يتوقون إليه ، إذ تجرد من الزبد الذي طغى خلال جريانه وقد نشأت جماعات صغيرة من الأوروبيين الداعين في الإسلام في إنجلترا وأمريكا ، إحداها ، وهي التي يديرها المستر كويلم ، تقيم في بيفربول ، منذ عدة سنوات ، واشتهرت بأن معظم من دخلوا الإسلام فيها من النساء . ولقد كان لإسلام عضو بارز في إنجلترا ، وهو اللورد هيلي الذي تبعه في الإسلام بعض وجهاء لوندرة وأعيانها وقع في النعوس ، ونشر جماعة الإسلامية مجلة شهرية تدعى « المحبة الإسلامية » التي أسسها هذا الرجل العالى القدر ، نفتس منها ردها على السؤال الذي كثيراً ما يرد وهو لماذا أسلم بعض الإنكليز وغيرهم من الأوروبيين ؟

« ذلك لأنهم كانوا يلتصقون عقيدة سهلة معقولة عملية في جوهرها ، لأننا نشجع

صالحاً بالضرورة لكل جنس كان صالحاً بالضرورة لكل عقل ، إذ هو دين
المطرة ، والفطرة لا تختلف في إنسان عن آخر . وهو لكل هذا صالح لكل درجة
من درجات الحضارة ، وهو على ما فيه من تسامح وبساطة ، سواء بالنظر لمذهب
المعتزلة ، أو بالنظر لمذهب الصوفية ، يؤدي للعالم هداية وتوفيقاً ، سواء في
ذلك الأوربي . ينتحصر والرنجي الأسود ، من غير أن يعوق حرية الفكر عن أحدهما ،
ثم يريد عن ذلك بأنسية للرنجى ابتشاله من عبادة الأوثان .

ثم هو لا يعوق الرجل العملي الذي يرى حياته في العمل ويعتبر الوقت من ذهب ،
كالرجل الإنجليزى ، وكذلك لا يعوق الرجل الصوفى والشرق المتأمل في بدائع
الصنع ، ويأخذ بيد العربى المأخوذ بسحر الفن والحيل . وليس هذا حسب ، بل
هو يستوى على لب الطيب العصرى أيضاً ، بما فيه من الطهارة المتكررة في اليوم
والليلة ، وتناسق حركات المصلى في الركوع والسجود ، وما فيها من نماء للجسم
وإفادة للصحة الجسمية والنفسية .

وعلى هذا فليس من أخراة إذن ، أن نطن أنه إذا هدأت الزوينة المروعة
القائمة ضد الإسلام ، وضمن هو الاحترام لكل الشعوب والديانات ، أنه سيرى
مستقبلاً حافلاً بأعظم الآمال وأعلاها شأنًا .

لذا ، ما دخل في الحضارة الأوربية بفضل اشتراكه العظيم في الحوادث
فسيصنع سناء الحقيقى ، وستعرف الأمم المختلفة حقيقته التى حجبت
عنهم رميًا ، وسبيل الكل يده خالته ، منافسين في ذلك ، لأن قيمته
قد خبروها ، وعرفوا ما يستكن فيه من وسائل القوة التى لا حد لها ولا تعداد . . .
ولو نهض أثناع محمد عليه اسلام وأقاموا من مبادئهم العميق لرجعهم عزهم السالف
وتاريخهم المجيد وصاروا أمة لا تعرف الجور في معاملتها لكل رعاياها ، لا فرق بين
مسم ومسيحى ويهودى ، وتبوءوا مكانهم الذى يليق بمجدهم إن شاء الله .

عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ

مِنْهُمْ مَوَدَّةً ، وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

تم تأليف هذا الكتاب في بلدة بوسعادة ، في اليوم السابع والعشرين من شهر رمضان عام ١٣٣٤ للهجرة (٢٨ يوليو سنة ١٩١٦ مسيحية) .

اللهم كن رءوفاً بمؤلميه . ولا تؤاخذهما على تلك الجرأة الطائشة التي دفعتهما - في سعيهما إلى الخير - إلى محاولة تناول موضوع واسع كهذا ، مع ضآلة معلوماتهما .

ويا عليم اخضر لهما ما عسى أن يكونا قد وقعنا فيه - بسبب جهلهما - من أخطاء في سيرة جليلة كمسيرة رسولك سيدنا محمد خاتم النبيين .
صلوات الله عليه وبركاته . . .

وعلى آله وصحبه . . .

آمين .

إتيين دينيه ، سليمان بن إبراهيم

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة
مقدمة عن حياة ناصر الدين وآرائه	٧
مقدمة المؤلف	٦١
الفصل الأول	
الأذان أداء الصلاة أوقات الصلاة وصف مكة	
الكعبة والحجر الأسود عير ررم رواج عبد الله أبى النبهى	٦٩
الفصل الثانى	
مولد النبى طهرته فى بادية بنى سعد . محمد والملكان .	
موت آمنة أول سمرة إلى سوريا . محمد والراهب . الرحلة	
الثانية إلى سوريا . حديث نتيان الكعبة ووضع الحجر الأسود .	٨١
الفصل الثالث	
عزلة محمد . محمد لم يؤلف القرآن . الرؤيا الصادقة . الوحي .	
المسلمون لأول . ابهر بالدعوة . القيامة المناوشات الأولى	
الأعمى . إسلام حمزة . عروض المشركين على الرسول . معجزة	
القرآن . الصد عن مماع القرآن	١٠٣
الفصل الرابع	
هجرة المسلمين لإسلام عمر بن الخطاب . نبى بى هاشم إلى	
الشعب أكل الأرضة الصحيحة وفاة أبى طالب وخديجة .	
خروج الرسول إلى الطائف . الإسراء والمعراج . إسلام ستة من	
أهل يثرب . بيعتا العقبة . الخزامة ضد الرسول .	١٤٣

الفصل الخامس

هجرة الرسول إلى المدينة . قصة سراقه . وصول الرسول إلى
 قباء . التاريخ الهجرى . الرسول يصل إلى يثرب . بناء مسجد
 المدينة . القبلة . الأذان . صوم رمضان . الزكاة وتحريم الخمر .
 زواج الرسول بعائشة . عودة اليهود والمشركين . الجهاد . غزوة بدر
 الإقامة ببدر ثم العودة إلى المدينة

١٧٣

الفصل السادس

زواج على . زواج الرسول بمحفصة وبأم المساكين . معركة
 أحد . زواج محمد بزينب . غزوة ذات الرقاع . غزوة بني
 المصطلق . التيمم . حرب الخندق . معاهدة الحديبية

٢١٥

الفصل السابع

غزوة يهود بنى قينقاع . غزوة يهود بنى النضير . غزوة
 يهود بنى قريظة . غزوة يهود خيبر . اهتمام الرسول بالتحليل .
 الشاة المسمومة . عمرة القضاء . رسل النبي إلى الملوك . غزوة
 مؤتة . فتح مكة . دخول الرسول مكة . الرسول بالنصفا .
 غزوة حنين

٢٥٣

الفصل الثامن

خبر الإفك . غزوة تبوك . بلاد ثمود . وصول الرسول إلى
 تبوك وإقامته بها . الرجوع إلى المدينة . حجة الوداع

٢٨٩

الفصل التاسع

مرض النبي وموته . مبايعة أبي بكر . تشييع الرسول إلى مقبره
 الأعمير . صورة وصفية للرسول

٣١٧

الفصل العاشر

وثبة الإسلام . أثر الحضارة الإسلامية في أوروبا . أثر
 المسلمين في ميدان الفكر . أثر الأخلاق الإسلامية . السبب
 في إنكار علماء الغرب آثار الإسلام في الحضارة الغربية .
 سبب تدهور المسلمين . مستقبل الإسلام . عقيدة القضاء
 والقدر . التعصب . العلة في بغض المسيحيين للإسلام . تعدد
 الزوجات . الحجاب

٣٣٥

نخامة : الإسلام والمصر الحديث . المسلمون ومساعدة فرنسا .
 تطلع أوروبا إلى الروحانية . من مميزات الإسلام

٣٥٩

١٩٨٦ / ٥٣٨٤	رقم الإيداع
ISBN ٩٧٧-٠٢-١٨٠٠-٦	الترقيم الدولي

١ / ٨٦ / ١٨٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.٠)

هذا الكتاب

تحليل دقيق ، وعرض صادق للسيرة العطرة ، يجلو جوانب جديدة
من حياة رسول الإسلام ، وجهاده في سبيل نشر الدعوة وتثبيت مفاهيم
العقيدة الإسلامية .

والمؤلف قنان ذو شعور ديني ، ومتدين غمره شعور فني ، فكان
مثالاً للمسلم الملهم الذي جند مواهبه وطاقاته للدفاع عن الإسلام ورسوله ،
وتبيان سماحة الشريعة ، وعالميتها وصلاحتها للبشرية ، كما أوضح المناخ
العقدي الإسلامي ، والمنهج السلوكي الذي اختطه الإسلام لمعتقيه ،
وفعالية الحضارة الإسلامية في أوروبا ، وموقف بعض علماء الغرب
والمستشرقين من سيرة محمد ، ورسالته صلى الله عليه وسلم .